

البياس طنبوس المحدث
الليثاني

تاريخ

بانيه وبنو بني
بانيه وبنو بني

المجلد الثالث

دار ومكتبة الهادي
بجدة



0093207

Bibliotheca Alexandrina

تاریخ
نابولیون الأول

تاريخ نابوليون الأول

لـ مؤلفه
الياسين طنوس الحويك
البناني

الجزء الثالث

منشورات
دار ومكتبة الهلال
ص ٥٠٣ - ١٥

جَمِيعُ الْحَقَقِ مَحْفُوظَةٌ
١٩٨١



يحتل ذكرا المرء في الابرار
ويعيش فيه قيم فضله وصفاته
ومن تنقضي ايامه وهو خال
فبيان فيهم موده حياه
وان يستفيد منه الوزى في حياه
اقسام له طرح الحيل وغماته

الباس طسوس الموبك

كلمة المؤلف

اصدرنا الجزئين الاول والثاني من تاريخ نابوليون الاول والآن نشرع في
اصدار الجزء الثالث والاخير منه وهو يتضمن خاتمة حياة الامبراطور السياسية
والحربية وما لقيه من الممأكسات في اواخر حياته . واضفنا الى هذا الجزء
فصولا شتى في مختلف المواضيع مما له علاقة بتاريخ ذلك الرجل العظيم وافردنا
فصلا خاصا للاحتفال بانقضاء مئة سنة على وفاته وكان اكبر احتفال واهم في
مدينة أجاكسيو مسقط رأسه وقد أتيج لنا أن نشهد هذا الاحتفال الذي
دام ثلاثة أيام متوالية . فكتبنا خلاصة ما شاهدناه وسمعناه وفي التاريخ
فصل خاص أيضا اودعناه ترجمة ما كان يفوه به نابوليون الكبير من كلام
الحكمة وخلاصة اعتقاده في الدين والآداب والحكم وعلاقات البشر بعضهم
ببعض من دون أن نعلق شيئا على ذلك .
وغاية ما نأمله هو أن يروق كتابنا هذا القراء الكرام وأن يروا فيه عبرة
وذكري فاعظمة والسكالم لله وحده



الفصل الأول

سقوط نابوليون وتنازله عن الملك - استقدام البوربون

وداع فنتنبلو — الشخصوس الى جزيرة البيا

يارومية ويافينسا ويابرلين ويامدريد ويانابولي وياالشبونة وياموسكو
 ياعواصم أوروبا القديمة لقد انتقم لكن جميعا فباريس سقطت في نوبتها في
 قبضة الأجنبي ودخل الروسي والجرماني قصري الوفير والتويلري وخيم
 الزاق في ساحة الثورة واوشك البوربون ان يعودوا الى عاصمة فرنسا .
 وقد ظن البربر انهم أصابوا نصرا مبیننا وخيل لاعداء الثورة انهم ادركوا
 ضالتهم المنشودة ولكن ساء ما توهموا وضل عنهم فكرهم عن المرمى .
 فالهجومية وعدوة الثورة لم تقهرا ولن تقهرا المدنية والديمقراطية ولا يكون
 احتلالها لتلك المدينة دايلا ساطعا على انتصارها . وهب أصبحت المحالفة
 صاحبة السلطة في باريس فسيظل الفرنسيون الى ما شاء الله أصحاب المجد
 الباذخ وسيستأنفون مع غزو اعدائهم لملاذم التريسة الحرة التي باثروها في
 فتوحهم وسيملمونهم الفنون والعلوم والصناعة والآداب والشرائع وافكار البلاد
 المنصوب فيها عرش الروح الديمقراطي ومبادئ الحضارة . وسينفض الشعب
 الفرنسي العظيم باعباء مهمته في نشر هذه المبادئ وهذ لواء حمايته على غيره من
 الشعوب فيعود أوائك الاقوام الى مواطنهم وقد زاد تباهيهم بما اقتبسوه عن
 الفرنسيين على تباهيهم بما أصابوه من الانتصار في الحرب وهم لم يصيبوه الا
 بوفرة عددهم والصدفة والخيانة

وليرجع البوربون وانصارهم على ظلمهم فانهم وان وفقوا الى استعادة
 الصولجان فالامة الفرنسية تنظر اليهم بمقلة النفور وزداد اعتصاما بالمبادئ
 الجديدة وتشدد رغبة في السعي وراء المصالح الناشئة عن الثورة وتعلق أهمية
 عظمى على ما نالته الديمقراطية من الفتوح في المجتمع الانساني .
 وعليه أفضى ما بذله الملوك من العناء الى مناوأتهم : فمن الجهة الواحدة

نرى ان ذلك الرجل العظيم المنحدر عن العرش لا ينحدر عن المنزلة الرفيعة التي يحتلها في التاريخ وان هو فقد تاجه فلا يفقد مجده ودهاءه وعظمته الادبية ومن الجهة الاخرى نجد ان ذلك الشعب العظيم سيقظ في اثناء تسلط الاجنبي وخصوصا الثورة عليه شديد الاستمسك بغرز مبادئه الثورية وشديد المحافظة على ماله من القوة على تمدن الشعوب ويظل سائدا العالم الراقي . هذه أعمال العناية . وقد قال المسيو بالانش في هذا الصدد « ان تحرير البشرية تحريرا تدريجيا وارتفاع الشعبية ارتفاعا مستطردا ومنح حرية العمل وتقديس حقوق الأهلية تقديسا منافيا لسواء وانشاء ارسطوقراطية الفضائل والمواهب والخدم أي انشاء الديمقراطية الحقيقية النهائي هي الغايات التي رمت اليها أفكارها الثابتة من نشأة العالم وصارت تلاحق تحقيقها المتتابع في العصور المتعاقبة وان يدها غير المظورة تعمل بطرق تدري وحتها منعطفاتها ومنافذها لتعزيز ذلك المبدأ وتوجه الى تلك الغاية القوى المتمردة التي تصارع مصارعة عنيفة ما يأتي به المستقبل ولا يكون من مرد له وتعمل النفس الآن بانها امننت عودة الماضي . واحتلت جيوش الاجانب عاصمة الامبراطورية الفرنسية ولم يرض الحلفاء ببقاء نابوليون أو أحد أفراد أسرته على العرش ولكن عاهل النمسا وحده اقتكر بملك رومية ووكالة الامبراطورية . اما الاسكندر فانخذ لهجة الاعتدال وكرم الاخلاق وجاهر بانه يحترم ارادة الشعب الفرنسي ودعاه الى اختيار ما يلائمه من اشكال الحكومة وهي دعوة وهمية حملت بعض نفر من الحزب الملكي يدعون انهم يعبرون عن اماني الامة وكان أولئك الاشخاص يذهبون مذهب تاليران . فتألف وفد كان الكونت فران المشهور في جملة اعضائه ومثل في حضرة عاهل روسيا : وقد زعم هذا الوفد انه لسان حال فرنسا وانه لبي دعوة القيصر وكان الكونت دي نسلرود يعلم افكار مولاه خافيتها وبأديها فقال للوفد ان رغبته موافقة لفكر سيده ، على ان مجاهرة الاسكندر بمنح فرنسا نوع الحكومة الملائمة لها وابداء تاليران ما قد يعترض عودة البوربون الى العرش لم يكونا سوى ستارستر به حقيقة مقاصده كما صرح بذلك فيما بعد المسيو دي بوريان احد ممثلي الرواية التي ابتغى عاهل الروس تمثيلها : فلم يحتج الاسكندر الى تصريحات البرنس دي بنيفان ليعلم ان لويس الثامن عشر

كان المبدأ وان المخالفة لم تقا تل الا في سبيل هذا المبدأ . الا أنه جعل لوضعا موضع الاعتبار غاية وقف عندها من زمان طويل كأنها نتيجة لتظاهرات الرأي العام وشاء ان يخجىء مطالبه الخاصة ومطالب حلفائه وراء سلطة مجلس من مجالس الدولة يعتبر لسان حال الامة الرسمي . وقد سهل له تاليران الوصول الى أمنيته بعد ما جعله يسمع مناداة بعض أنصار البوربون بطلب ارجاع هذه الاسرة الى عرش المملكة بتأكيده له أنه يجعل المجلس يقرر كل ما يبتغي : كسقوط نابوليون واستقدام لويس الثامن عشر مثلاً فان المجلس لم يكن في غابر الحين ينبذ شيئاً من مطالب نابوليون وهذا ما حمل الامة على ان تنظر اليها بعين الاحتقار . وقد حققت الحوادث ما أمله تاليران فقرر مجلس الشيوخ في ٢ ابريل سقوط نابوليون بونابرت وأسرته عن عرش فرنسا ثم انه وضع قراراً آخر دما به زعيم البوربون الى لبس تاج آبائه . ولكن لما كان أعضاء الاقلية في المجلس وهم الذين كانوا يعارضون نابوليون في بعض الاحيان وكاز هو يتهم عليهم ويسمهم فكريين قد عضدوا الحزب الملكي رجاء الحصول على دستور أشد ملائمة للحرية العامة فقد كان يوم كانت لهم فيه السكامة المسموعة في المجلس بعد ما كانوا حتى ذلك الحين بمثابة صفر الى يسار الرقم . وسهل لهم تاليران وضع قرار دستوري احتفظ به رجاء ان يتخذ في المستقبل سلاحاً يقا تل به لويس الثامن عشر

ولما كان تاليران بصفة كونه رئيساً للحكومة وقتية يتولى بمؤازرة بورنغيل وجوكور ودلبرغ والاب منتسكيو السلطة في العاصمة بالنيابة عن الاجانب والبوربون كان نابوليون في فنتنبلو وقد احاط به الحرس الامناء المتهلبون رغبة في الانتقام من العار الناشئ عن استسلام باريس وحف به ايضاً اركان حربه ولم يكونوا يشعرون بالحماسة والجزع اللذين كان يشعربهما أولئك الحرس الابل اسل وجاء الدوق دي فينس بين ٢ ابريل ٣ منه وقال له ان الملك اللذين ابقي عايمهم مرات كثيرة مع مقدرته على ذلك عروشهم بعد استرلنز وايانا ووغرام يابون مفاوضته بشأن الصاح ويطلبون تنازله عن العرش فهاج هائج في ريق الامر لما صممع ذلك الكلام وخطر له ان يلجأ مرة أخرى الى القتال لبمت المسألة بتأجازماً ولكنه رأى ان كل شيء حوله يسوده الصمت والسكابة فان

رفاقه القدماء في الجندية أصبحوا اصحاب مناصب عالية في امبراطورية متداعية ولم يبد أحد منهم ارتياحا حقيقية الى معونته على ابقائها قائمة أو لم يقل منتسكيو : « جد بالنعمة على انسان قاول امر يخطر لهو التذرع بجميع الدرائع التي تمكنه من المحافظة عليها » وقد اختبر نابوليون هذا الامر بذاته اختبار مؤلما بعثه على ان يخطط السطور الآتية :

« حيث أن الدول المتحالقات اعلن أن العاهل نابوليون هو المانع الوحيد لتوطيد اركان السلم في اوربا فالعاهل نابوليون البار بقسمه يعلن أنه مستعد للانحدار عن العرش ومغادرة فرنسا حتى والحياة نفسها في سبيل الوطن غير المنفصل عن حقوق ابنه وحقوق وكيالة الامبراطورية والمحافظة على شرائع الامبراطورية كتب في قصرنا فنتنبلو في ٤ ابريل سنة ١٨١٤ نابوليون »

وفوض الى كولانكور حمل ذلك الصك الى باريس وصحبه ناي ومكدونال وأراد نابوليون أن يضم اليهم مرمون وان يكن استسلام باريس معزوا اليه ، فهل كانت غاية العاهل أن يحول بهذا الفعل دون توغل ذلك الرجل في مجاهل الخيانة ومنعه إياه عن ارتكاب خطأ آخر فوق الخطأ الاول يكون أثقل جرما وأخف عذرا

وتوجه المارشالان مع الدوق دي فيسنس الى العاصمة ولما علم الامبراطور ما كان من خيانة مرمون وانحيازه الى الحلفاء وزع على الجيش نشرة يذكر فيها تلك الخيانة ويسود فيها صحيفة مجاس الشيوخ .

ولم ينجح مندوبو نابوليون في مهمتهم فان الوثيقة التي عقدها مرمون مع البرنس دي شوارزنبرغ وانحياز جيشه الى الاعداء تحت جنح الدجى جرأ الحلفاء على الاكثار من مطالبهم بتصف والمجاهرة مع تاليران بان لويس الثامن عشر مبدأ يسعى الملوك المتحالقون لتأييده ولا يميلونه عندئذ اليهم النصر وعليه لم يرجع الدوق دي فيسنس الى فنتنبلو إلا بطلب جديد من الحلفاء ما له تنازل نابوليون عن العرش وحرمان ولي عهده وجميع أسرته حقوق الخلافة . فنبد نابوليون بحق شديد ذلك الطلب العنيف المحقر وفكر بطريقة جديدة في استئناف القتال وعدد مآلديه من الوسائل في الشمال والجنوب والالب وإيطاليا إلا أن حسبانه وآماله ومقاصده لبثت شخصية : فاذا أجابه أحد

على سؤال وجهه اليه لم يكن جوابه موافقا لاقتراحاته أو مشجعا اياه على بمقاصده . فتوالت الاعتراضات عليه بكثرة ولم يجسوا السنتهم عن النفوذ بامكان نشوب حرب أهلية فتردد العاهل ونجاذبت عوامل الشك فؤاده ولكن ذكرى الحرب الاهلية أثرت فيه فإا ابطأ أن صباح قائلا : « أما وقد قضي علي بالأأفكر في الدفاع عن فرنسا أفلا اتي في ايطاليا معتزلا يليق بي فهل يبتغون لحاقى اليها ... هلموا بنا الى الالب . »

وعند سماع الحضور ذلك الكلام اكفهرت وجوههم وخفقت افئدتهم فعلم نابوليون أنه لم يكن لديه أركان حرب لودي واركول ليندفعوا الى المسير وراءه ايان ذهب ولم يخف عليه ان الامراء الذين منحهم القاب الشرف المتوارثة في امبراطوريته تبرموا من طول تمسهم بالحروب ولا سيما بعد مذاقوا لذة الأبهة والعظمة في البلاط . وقال البارون فان في هذا الصدد : « لو كان نابوليون المستاء من قواده قد برح ذلك البهو ودخل الغرفة المقيم فيها الضباط للقي شبيبة مستعدة لتلبية طلبه ولو اوغل قليلا في التقدم لحياه جنوده عند أسفل الدرج وطبقوا القضاء باصوات التهليل والتكبير ولأقال حماسهم عثار نفسه الخائرة ولكن نابوليون خضع لعادات ملكه وظن أنه يسقط ولا محالة ان هو انطلق الى الروع ولم يصحبه القواد الذين خاضوا معه غمرات الهيجاء »

وقد جنى الامبراطور ثمار الانحاج الملски الذي سقط فيه : فكان يعوزه الآن القادة الصناديد الذين حلفوا له بحماسة في طولون على أن يصحبوه إلى مصر ولكنه لم يجدهم في تلك الساعة على مقربة منه مع كونهم القادة انفسهم الذين كانوا معه في طولون . والسبب في ذلك هو أن الجمهورية لما رفعتة الى المنزلة السامية أعطته في الحين عينه حاشية من الابطال المدربين وصيرت الامبراطورية أولئك الابطال سادة عظماء تعوزهم الارادة والقوة للحيولة دون سقوطه . وكان هو أصل هذه الاعمال المتناقضة فان نابوليون كما قيل عنه « أصلح سرير البوربون » فلم يبق عليه والحالة هذه إلا أن يتراجع امامهم وهم يدنون ويدعون لتقلبات الاقدار والحدثان وهذا ما صحت عزيمته على فعله فتناول القلم وبعد بضع دقائق ناول كولانكور الصك الذي طلب منه الحلفاء توقيعه وهذا نصه :

« حيث ان الدول المتحالقات أعلن أن العاهل نابوليون هو المانع الوحيد لتوطيد اركان السلم في اوربا فالعاهل نابوليون البار بقسمه يعلن أنه هو واولاده يتنازلون عن عرشي فرنسا وايطاليا ولا يدخر أدنى تضحية حتي والحياة نفسها في سبيل مصلحة فرنسا .
نابوليون »

فماذا يكون الآن مصير ذلك الذي ساد اوربا بعد ما نزع سلاحه من يده وخلع عن عرشه وماذا يكون حظ رجل نازل في مقام عال تستطيع ذراعه في كل حين أن تحرك العالم وفي أي مكان يحصر

وتردد الملوك المتحالقون في اختيار مكان يحصرونه فيه : أني كورفو أم في كورسيكا أم في جزيرة البا واجمعت كلمتهم أخيرا على اختيار جزيرة البا وكتبوا وثيقة قرروا فيها ما يجب عمله بالاسرة الامبراطورية جمعاء ولكن نابوليون اغتاظ من ذلك الامر وانكر تلك المعاملة فقال : « ما الفائدة من ابرام هذه الوثيقة فهم لا يشاؤون أن يقرروا معي ما يتعلق بمصالح فرنسا . » ثم انه انفذ رسولا الى كولانكور يوعز اليه بأن يسر جمع صك تنازله ولكن كان الامر قد قضي .

ووقعت الدول المتحالقات في ١١ ابريل الوثيقة التي انكرها نابوليون وفي الغد دخل الكونت درطوي مدينة باريس . وافتتح حكاه باذاعة نشرة وعدها بالغاء القرعة العسكرية والحقوق المتحدة ولم يخف على البوربون ان نابوليون فقد ميل الشعب اليه بوضع ضرائب شتى باهظة وبتعميد أجل الحرب ولم يذهب عنهم أن ما أبداه القوم من تظاهرات الفرح والابتهاج في جنوب فرنسا ناشئ عن رجوع السلم والسكينة وعن آمالهم بتخفيف اعباء الضرائب أكثر مما كان ناشئا عن سرورهم بعودة الاسرة المسالكة القديمة . لخدمتهم سياستهم على الاستفادة من هفوات العاهل ولم يحجم أكبر كاتب في ذلك العصر عن تسديد سهام الطعن الى نابوليون مسهما في الشكاوي التي سودت صحيفة العاهل في انظار الامة فقال : لا نريد قرعة عسكرية ولا حقوقا متحدة . واضافوا الى ذلك وعودهم بتعزيز المنشئات الحرة ومعااهدتهم الشعب على احترام مصالح فرنسا الجديدة المادية والادبية . ولم يسبق للثورة أن ظهرت بمثل ذلك المظهر من الشدة . وحين هوى الدهاء لاعراضه عن الاستناد اليها استنادا مطلقا بعد

ماصيرها مدة طويلة مجيدة وقوية كان اعداؤها وقد اخطأ من زعم أنهم قهروها مضطرين ان يسكنوا روعها وبعلاوها بالأمال ويقدموا لها الضمان ويعدوها بنيل الاماني .

وفي الليلة التي تلت دخول السكنت درطوى مدينة باريس حدث في فنتنبلو حادث لم يكشف الزمان قناع الحقيقة عن محيا سره فقد رؤي في القصر اضطراب فائق العادة فكان خدام نابوليون يهرولون الى غرفته وقد دخل عليهم الذعر ودعي الاطباء وأوقف برتران وكولانكور وماره اصدقاء العاهل الصدوقون . وكان نابوليون المصير على نبذ توقيع وثيقة ١١ ابريل والمستفاد من أحاديثه انه يضرر مقاصد مجهولة مشؤومة ولا سيما منذ الحين الذي علم فيه أنهم يمنعون زوجته وابنه عن موافاته يشعر باوجاع معوية شديدة بحيث أنهم توهموا أنه تجرع سما . الا أن مبادرة أطبائه الى معالجته بالادوية اللازمة أدت الى تسكين اضطرابه تسكيناً كان من ورائه شفاؤه التام . على أن الكتبة الميالين الى الظن بأنه عاجل الانتحار يزعمون أنه قال وقت ماشفي : « ان الله لا يشاء هذا » ولكن المقيدين بخدمته وفي جملتهم الذين صحبوه الى المنفى يقولون أن الآلام الحادة التي شعر بها نابوليون في تلك الليلة السرية لم تكن سوى نتيجة طبيعية للصدمة الادبية التي اصابته في العشرة الايام الاخيرة وقد انكروا كل الانكار ما ذاع عن محاولته الانتحار . ويقال أن الدوق دي باصانو أدى مثل هذه الشهادة . وكيفما كان الامر لم يدعهم الامبراطور يشعرون بشيء مما قاساه في الليل فانه نهض من رقاده في الاجل المعين وكان أشد اذعانا بما كان عليه في اليوم السابق وطلب الوثيقة التي أبي توقيعها فوقعها .

اما ماري لويز التي زارها في رمبويه عاهلا النمسا وروسيا والتي حظر عليها الذهاب الى فنتنبلو فانها انتظرت ارتحال زوجها لتشخص الى فيينا مع ابنها الامير الحداث الذي كان جده العاهل فرنسوى من اكبر العاملين على هدم صرح مستقبله . وفقد نابوليون كل شيء : التمتع بالعظمة السياسية والسلوان العذب الذي يلقاه في العيشة البيئية . ولم تكن جزيرة الباسوى سجن ضيق يحصره فيه الا أنه لم يلق له بدا من الاذعان للاقدار التي قيضت له المقام فيها . وجاء الكولونل منطولون وأكده له على غير جدوى ان الجنود والاهالي في شرق

فرنسا شديداً لا خلاص له . وقد قصد بذلك الكلام تشجيعه على مقارعة الخطوب بمجد البتار فاجابه نابوليون : « لقد قضي الامر ولا يكون ما تقدم عليه سوى حرب اهلية وعليه لاشيء يستطيع أن يجعلني اصرف همامة النفس الى هذا الامر » . واطلق المارشال سولت آخر قنبلة في ١٠ ابريل في معركة طولوز وهو لا يدري شيئاً مما هو جار في باريس وفنتنبلو وكان عمله هذا خاتمة للمجد المسطر في تاريخ الحرب الفرنسية .

وفوضت الدول المتحالقات الى بعض المندوبين امر المضي بنابوليون الى جزيرة البا وضرب اليوم العشرون من شهر ابريل موعداً للرحيل . وفي الليل السابق يوم الرحيل اخذا كنستان خادماً نابوليون الخاص والمملوك رستان حذو كبار رجال الامبراطورية وهجرا سيدهما .

وانحدر العاهل الى ميدان « الحصان الابيض » في ٢٠ منه عند الظهر وقد اصطف فيه الحرس الامبراطوري ولم يبق عنده سوى بعض المخلصين وفي جملتهم الدوق دي باسانو والجنرال بليار . وخفقت قلوب الجنود عند دنوه واغرورقت عيونهم بالدموع فرفع العاهل يده مشيراً انه يريد أن يتكلم فصمتوا جميعهم ووقفوا كأن على رؤوسهم الطير وكل منهم يود أن يحفظ الكلمات الاخيرة التي يبتغي ذلك الرجل العظيم توجيهها الى محبة رجاله الشجعان فقال لهم ما يأتي :

« يا قواد ويا ضباط ويا جنود حربي القدمات اودعكم : فانا سررت منكم مدة عشرين سنة ووجدتكم دائماً على طريق الفخار .

« ان الدول المتحالقات جندوا علي اوروبا جمعاء وقد خان قسم من الجيش واجباته وفرنسا نفسها شاءت تخير حفظ آخر .

« يمكنني أن ابشر بكم وبالشجعان الباقين على ولائي حرباً أهلية تدوم ثلاث سنوات ولكنه أمر وخيم التبعة على فرنسا وهذا مخالف للغاية التي توخيت المسير اليها . أخلصوا الخدمة للملك الجديد الذي اختارته فرنسا لها ولا تولوا صنفحكم وطننا العزيز السيء الطالع واحبوا هذا الوطن العزيز حباً شديداً مستمرا .

« لا تروا الحالي فانا اكون سعيداً حين اعلم انكم سعداء .

« لقد كان الموت مستطاعا لي ولا شيء اسهل علي من ذلك ولكنني لا اتك
عن المسير على جادة الشرف . وقد بقي علي ان اكتب تاريخ ما فعلناه .

« لا تنسني لي معانقة جميعكم ولكنني اعانق قائدكم ... تعال يا جنرال ...
(يعانق الجنرال بي) جيئوني بالراية ... (يقبل الراية) اينها الراية العزيزة
فليكن لهذه القبة دوي في افئدة جميع الشجعان ... الوداع يا أولادي ...
فلتصحبكم امانى دائما فاحفظوا ذكراي ! »

ولما سمع الجنود هذا الكلام عات اصواتهم بالنحيب وذرف الدموع جميع
المحيطين بالماهل ولم يقل تأثره عن تأثرهم فأمرع في الصعود الى المركبة وكان
الجنرال برتران قد سبقه اليها وأعطيت علامة الرحيل في الحال وفصل نابوليون
عن فنتنبلو يصحبه المارشال الاكبر والجنرالان دروو وكبرن وبعض اشخاص
شاطروا أولئك الابطال المخلصين اخلاصهم . وكان في اثناء مروره على الطريق
حتى آخر حدود البروفانس يسمع الشعب يهتف قائلا : فليحي الامبراطور !
فأثر فيه ثبات الشعب هذا وعزاه . وعلم أنه مع ما أتاه من الاعمال الجارة الى
سقوطه لا يستطيع البوربون أن يحجوا من فرنسا عبادة اسمه .

ولقي الماهل بين ليون وفالنس اوجيرو فلامه هذا على قراره من الموت كجندي
على ان نابوليون الذي جهل حتى ذلك الحين ما في كلام اوجيرو من معنى
الاهانة القبيحة انحدر من المركبة ليعانقه ولما وصل اليه نزع قبعته عن رأسه
وابقى المارشال قبعته على رأسه في اثناء محادثته لنابوليون وجين وداعه اياه .
وبعد ساعة من الزمان وجد الماهل بعض فصائل من فيلق اوجيرو على الطريق
خيوه بمثل التحية التي كانوا يحيونه بها وهو على العرش وصاح الجنود قائلين :
يا صاحب الجلالة ان المارشال اوجيرو باع جيشك

واضطر الماهل الى تجنب المرور بافينيون لئلا يصيبه اذى من المتآمرين
الذين بطشوا في السنة التالية بالمارشال برون .

ولما وصل الى مقربة من لوق في ٢٦ منه عند المساء بات عند عضو من أعضاء
المجلس الاشتراعي فلقى عنده الاميرة بولين ووصل الى فرمجوس في الغد . وبعد
ما مكث في هذه المدينة اربعا وعشرين ساعة ركب البحر في الساعة الثامنة مساء
شاخصا الى جزيرة البا .

الفصل الثاني

الوصول الى برتوفراجو - الاقامة في جزيرة البا - العودة الى فرنسا -
النزول في كان - الزحف الى باريس بانتصار - ٢٠ مارس سنة ١٨١٥

ما اعظم المقاربة بين ادوار حياة ذلك الجبار الفائقة سواها في التأثير في ما يصحبها من التناقض ! ان فريچوس شاهده يلقى عصاه فيها عند عودته من مصر مخفوا بمرمون ومورات وبرتيه وغـبرم وهو آت لينزع السلطة العليا من ايدي ممثلي فرنسا ويبني اساس امبراطورية واسعة قوية : وبعد خمس عشرة سنة جاء الى فريچوس وقد عراه من تلك السلطة الاجنبي المعجب به والخائف منه والمجالس الصامتة السلسة المقادة القائمة على انقاض المجالس الهائجة في عهد الجمهورية . ونزل هذه المرة ايضا في فريچوس وهو لا يبتغي القبض بيديه على ازمة الاحكام في دولة عظيمة وترميم اكبر عرش في العالم ولكنه أسقطه عن ذلك العرش ودفعه عن سكان بلاده مجلس الشيوخ عينه ولطالما قبض بيده على مباحر التملق والتزلف والمجلس الاشتراعي الذي جرعه في ثلاثة أشهر كؤوس المهانة وحله ولكن رفاقه الاقدمين والاسباه الاذنين خانوه وخذلوه كرمون ومورات وبرتيه وغيرهم ... فآله قد شاء هذا الامر والله لا يصنع شيئا عبثا فلتكن قدرته ومشيتته !

ووصل نابوليون الى ميناء برتوفراجو في ٣ مايو سنة ١٨١٤ وهو اليوم الذي وصل فيه لويس الثامن عشر الى باريس . فبادر رجال الحكومة في جزيرة البا الى استقبال عاهلهم على متن السفينة الحربية البريطانية التي قلته . وفي الغد صعد العاهل الى البر فأطلق اجلالا ونحية له مئة مدفع ومدفع وخف جميع السكان الى لقائه وفي مقدمتهم المجلس البلدي ورجال الدين .

وقال شاهد عيان : « وتأثر العاهل وحاشيته من ذلك المشهد الغريب عند رؤيتهم علامات الفرح البسيط بادبة على وجوه الالبين الثقيان ودلالات الحماسة ظاهرة على جباه أولئك المركبين البسطاء الذين كانوا من عهد بعيد يسرون بأن يرووا

للجنود الفرنسيين مآثر خطيرة شتى وانتصارات مشهورة مقرونة بأهم نابوليون . وفعلت شهرته بالنفوس فعل نسكباته بها . وكانت الاسئلة التي يلقبها العاهل بسكينة وابتسام ثغر على الاهلين حتى على أحقر واحد منهم تزيد في حماسهم . « وعني العاهل بتنظيم شؤون الادارة في جزيرة الباكأنه يغوي أن يحكم فيها بطريقة جديدة ومدة طويلة وكأن قوة دهائه لا تضيق عنها حدود مثل هذه المملكة الصغيرة : فبحث عن اثناء الجزيرة وموارد الصناعة فيها وطاف في جميع انحاءها ومهد فيها جميع السبل المؤدية الى تحسين أحوالها . ووصل كبرن في ٢٦ مايو مع ابطال الحرس القدماء الذين اختاروا مشاطرة العاهل منفاء وجاءت بعد ذلك الاميرة بولين والسيدة لانيسيا لتقبا معه لانهما لم تشاء الانفصال عنه .

وانتظر نابوليون بفروغ صبر وصول الاخبار من فرنسا . وكما كان في غابر الحين وهو على ضفاف النيل يتصفح صحف اوربا بلهفة ليرى هل جاء الزمان الملائم لاجتياز البحر والعودة الى فرنسا لقلب هيئة حكومة الديركتورات الآن يتوق الى تدبر الصحف السيارة ومطالعة الرسائل الخاصة ليعلم كيف تتحمل الامة الفرنسية نير الاجانب والبوربون وكيف يتصرف هؤلاء الاجانب والبوربون مع الامة الفرنسية ولم يكترث لما تنشره الصحف في كل يوم من الانتقادات المرة الموجهة اليه وقال للجبرال برتران في ذات يوم وقد جاءه هذا بالجرائد الفرنسية : « وهل يبالفون اليوم في تمزيق بردة عرضي » فاجابه المارشال الاكبر : « ليس فيها شيء اليوم عن جلالتك . » فضحك نابوليون وقال : « ستكون اذن نوبتي غدا فهي هي الغب ولكن ستنقضي نوبها . »

وكانت الحكومة التي انشأتها المحالفة لفرنسا تبدي انها جديدة بأصل نشأتها فقد بقيت مواعيد الكونت دي بروفنس عرقوبية وبني لويس الثامن عشر منشورة على ارادته والحق الالهى وعاد النبلاء الى الظهور بمظهر الغطرسة والبذاءة ورجال الدين الى نبذ الهوادة . وصارت سحائب النعم تُمطر من سماء العرش البوربوني على المهاجرين واصبحت صواعق نقمها واحتقارها تنقض على ابطال الجيش القديم . فنجح كادودال لقب شرف وبولغ في الاطراء على مورو وأقيم تمثال لبيشغرو وجرع جنود فرنسا الامناء صاب الدل وعلقم الصغار

وغسلين الغضاضة . وجميع الاعمال التي اتاها الشعب العظيم في عهدي الجمهورية والامبراطورية ألغيت من تاريخه ولم تذكر فيه الا موصومة بوصمة العار والخزاية من جراء الاختلاس والفتنة الناجمة عنهما . وان ذلك الامير الذي عاش في التحول بين ظهرائي اعداء فرنسا حين كانت جنودها تجر اذيال النصر الباهر في فلوروس ولودي ومارنغو واسترلز زعم انه كان صاحب الامر والنهي في فرنسا في عهد استرلز ومارنغو فأرخ اعماله في السنة التاسعة عشرة من ملكه . على ان الصحافة القادرة على مناصبة هذه المبادئ الكاذبة ومقارمة هذه المزاعم الفاسدة وتسويد الاعمال المنكرة لم تكد الحكومة تعلن منحها الحرية حتى عادت فكت فاها وقيدتها بادام الاستبداد واعادت المراقبة غير مبالية بالمنشور الملكي .

ولما تنازل العاهل عن العرش رأى بعين البصيرة ماسياً تيه البوربون من الهفوات وامكان رجوعه الى العرش . وتذكر مفكرات جزيرة القديسة هيلانة ما كان في ذلك الحين يحول في ذهنه من الافكار وتفسر لنا حقيقة المقاصد الجريئة التي سيضعها نابوليون عن قريب موضع الاجراء . ودونكم الكلام عينه الذي فاه به نابوليون عند تكلمه عن الايام الاخيرة التي قضاها في فنتنبلو .

« لو قصد البوربون الى انشاء اسرة خامسة لما احتاج القوم الى هنا ولكان دوري قد تم تمثيله ولكن اذا اصرروا على اعادة الاسرة الثالثة فلا البث ان اعود . ويمكن القول ان البوربون يستطيعون ان يتصرفوا على هواهم بتذكري وسيرتي : ولو اكتفوا بان يكونوا حكاما لامة عظيمة واراءوا ذلك الامر لرأى في سوقة الناس طماعا وطاغية ومشاغبا وآفة .

فما اعظم ما يحتاجون اليه من الفطنة ورباطة الجأش ليقدرني القوم حق قدري وينصفوني ولكنهم شاؤوا ان يعيدوا تمثيل دور السادة الاقطاعيين وفضلوا ان يكونوا زعماء حزب تمثقه الامة جماء .

واذا كان نابوليون قد جعل الناس يقولون عنه في سنة ١٨١٤ انه أصلح سرير البوربون فالبوربون في نوبتهم سيفتحون في وجهه الطريق المؤدي الى العرش وحالما عرف نابوليون موقف فرنسا ووقف على الخط الذي يدخره له مؤتمراً فينا عقد عروة عزمه على ما يجب عليه ان يفعله ولم يردد في اجرائه طرفة .

عين . وقد أكثر الناس من الكلام عن علاقاته بفرنسا وإيطاليا وبأنصاره واحلافه واعضاده وارادوا ان يبنوا خروجه من جزيرة البا على دسيسة ولكن ثبت الآن ان الدسيسة المزعومة لم تخرج عن دائرة ذهنه وانه لم يستشر احدا في ما نواه وان جميع الناس في برتو فراجو كانوا يجهلون ذلك حتى الليلة التي سبقت مغادرته للجزيرة ما عدا دروو وبرتران

وفي ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥ في الساعة الواحدة بعد الظهر أوعز نابوليون الى حرسه بالاستعداد للرحيل فتم أولئك الشجعان في الحال باسرار الحماسة الكامنة في صدورهم وكانت والدة الامبراطور وشقيقته الواقفتان في نافذة القصر تزيديان في تحريك ساكنات الاقدام والاخلاص في افئدتهم . ولم يسمع في كل جهة غير هذه الكلمات . « باريس أو الموت »

وأذيعت على سكان جزيرة البا نشرة رسمية تنبئهم بان العاهل نابوليون مصمم على مفارقتهم وقال الجنرال لابي حاكم الجزيرة في تلك النشرة : ان عاهلنا الاعظم دعت العناية الى خوض غمار المجد وقد اضطر الى مزيلة جزيرتكم وفوض الي قيادة الجند فيها واصار الى مجلس مؤلف من ستة أعضاء من الاهلين ادارة شؤونها والى اخلاصكم وبسالتمكم الدفاع عن قلعته . وهذا ما قاله نابوليون : « انطلق من جزيرة البا وفؤادي يفيض ابتهاجا من تصرف اهليها واني أكل اليهم الدفاع عن هذه البلاد التي اعلق عليها اهمية كبرى . ولا يمكنني ان اعطيهم برهانا اعظم من ابقائي والدي وشقيقتي تحت حمايتهم . ويستطيع اعضاء المجلس وجميع الاهلين في هذه الجزيرة ان يتكلموا على انعطافي وحمايتي الخاصة » . وفي الساعة الرابعة مساء ركب متن السفينة (انكنستان) : ربع مئة رجلا من الحرس القدماء وركب خمس سفن أخرى صغيرة مئتان من المشاة ومئة فارس بولوني وفرقة أخرى من الجنود . وفي الساعة الثامنة مساء صعد العاهل الى السفينة « انكنستان » ومعه الجنرالان برتران ودروو . وفي الحال اعطيت علامة الرحيل باطلاق مدفع واحد فرفعت الفلوس فوق ذلك الاسيطليل

وكانت الريح في بدء الامر مؤاتية ولكنها ما عتمت ان صارت معاكسة فقذفت الاسيطليل الى ناحية الشاطئ فارتأى البحارة العودة الى برتو فراجو

ولكن العاهل نبذ ذلك الرأي وأنشأ في اثناء السفر النشرات التي ابتغى توزيعها على الامة والجيش فنسخ عنها الجنود نسخا متعددة ودخل خليج جوان في أول مارس في الساعة الثالثة ونزع عنه علامة جزيرة البا قبل صعوده الى البر واوعز الى جنوده بنزعها عنهم ووضع بدلا منها العلامة المثلثة الالوان فطبقت اصوات الجنود الفضاء قائلين : فليحي الامبراطور فلتحي فرنسا وصعدوا الى البر عند ساحة كان وكان العاهل اخر الصاعدين . وبينما اركان حربه يعنون بأمر اختيار الموقع الموافق لنزول الجيش الصغير على شاطئ البحر جعل هو يتنزه وحده على الطريق ويحدث الفلاحين ملقيا عليهم أسئلة شتى وفي الساعة الواحدة صباحا امر رجاله بمغادرة ذلك التجم وسرى باقي الليل في مقدمتهم ناحيا غراس وحيث كان مقضيا عليه بالمسير ماشيا قسما من الطريق هوى الى الحضيض مرات كثيرة وحين ابصره احد جنوده ينهض باسم الثغر قال لرفاقه : « هنيئا لنا فلا ينبغي ان توثأ اليوم رجل جان دي ليه (هذا الاسم كانوا يطلقونه فيما بينهم على نابوليون) ويجب ان نسميه جان دي باريس »

ووصل العاهل الى ديني في ٤ مارس وطبع فيها النشرات البديعة التي انشأها على متن « الانكستنان » وقد توقع منها تحريك ساكنات الحماسة والوطنية في افئدة الامة والجيش . ونشر هنا اثرتين من أهم تلك النشرات صادرتين عن خليج جوان في أول مارس وقد أودعهما نابوليون غاية ما تبلغ اليه فصاحته وبلاغته .

نشرة الى الشعب الفرنسي

« أيها الفرنسيون ان خيانة الدوق دي كستليونيه سلمت اعداءنا مدينة ليون بغير مدافعة فالجيش الملقاة اليه مقاليد قيادته كان قادرا بمدده وبسالته ووطنيته على مقاتلة الجيش النمساوي الواقف بازائه ومهاجمة ميسرة جيش العدو المهدد باريس .

« وقد جعلت جيش العدو في موقف اليأس انتصارا ثنائيا شمبوير ومنعبراي وشانوتاري وفوشان ومورمان ومنطيرو وكران ورنس وارسس سور اوب

وسان ديزيه وعضدنا هيجان الفلاحين الاشداء في اللورين والشمبانيا والازاس والقرنش كنته والبرغونة والمواقع التي اتخذناها عند ساقه جيش العدو بفصلنا إياه عن مراكز ذخائره ومؤنه وعدده ولم يكن الفرنسيون قبل ذلك الحين أشداء كما كانوا عليه حينئذ وكان يمكن أن يفقد نخبة جيش العدو على بكرة أبيه وأن يلقوا قبورهم في تلك البلدان الواسعة التي اكتسحوها بصورة همجية ولكن خيانة الدوق دي راغوزا سلمتهم العاصمة وضعضعت أركان الجيش حينئذ غير وجه الحرب ما لم يكن منتظرا من تصرف ذيك القائدين خائفي وطنهما وطاهلهما والمحسن اليهما . وقد أصبح موقفنا مؤلما بحيث أنه حينما انتهت المعركة الناشئة أمام باريس لم يكن لدينا ذخائر من جراء انفصالنا عن مستودعها

« أجل ان فؤادي تصدع عند حدوث هذه الأمور الخطيرة الجديدة ولكن نفسي ظلت ثابتة وغير متزعزعة فلم اعتبر الا مصالحة وطني وآثرت الاعتزال مختارا على صخرة في وسط اللجة وقد كانت حياتي ولا تزال مفيدة لكم ولم ارض بان السواد الاعظم من الوطنيين الذين شاقوا مراقبتي يشاطرونني نصيبي وقد ارتأيت ان وجودهم في فرنسا مفيد لهم . ولم آخذ معي غير العدد النزر من الشجعان الذين رأيتهم ضروريين لحراستي

« وقد وقع اختياركم علي فرفعتوني الى العرش وكل ما صنع بدونكم لا يعتبر شرعيا : فمنذ خمس وعشرين سنة أصبحت لفرنسا مصالح جديدة وانظمة محدثة ومجد طارف لاتصان الاعلى يد حكومة وطنية واسرة ناشئة في مثل هذه الاحوال الحديثة . فالملك الذي يتولى الحكم عليكم ويجلس على عرشي بقوة الجنود الذين اكتسحوا ارضنا واثروا فيها مفسدين يسعى علي غير طائل للاستناد الى مبادئ الامتيازات الاقطاعية ولا يمكنه أن يضمن الاكرامة العدد اليسير من اعداء الشعب الذي شجبه من خمس وعشرين سنة في جميع المجالس الوطنية وحقوقه فانتم تفقدون بثة راحتكم في الداخل واحترام الناس لكم في الخارج .

« ايها الفرنسيون سمعت وأنا في المنفى شكواكم وأمانيتكم فانتم تطلبون الحكومة التي اخترتموها وهي دون سواها حكومة شرعية . ولقد شكوتكم من سبائي الطويل وانثنتم علي باللام زاعمين اني ضحيت بمصالح الوطن العظيمة في سبيل راحتي .

« لقد اجتزت البحار في وسط المهالك على اختلاف انواعها ووصلت اليكم ابتغاء استعادة حقوقى التي هي حقوقكم . وكل ما فعله الافراد أو كتبوه أو قالوه من سقوط باريس سأطوي عنه كشحي وهو أمر لا يؤثر البتة في ذكرى ما أحفظه لهم من الخدم الجليلة التي أدوها فليس من حوادث من طبيعتها أن تكون فوق الانظمة البشرية .

« أيها الفرنسيون ليس من أمة مهما استصغر أمرها الا ويحق لها التلصص من عار الخضوع لملك أقامه عليها عدو انتصر عليها انتصاراً وقتياً . ولما دخل شارل السابع مدينة باريس وقلب عرش هنري الخامس الوقفي اعترف بأنه مدين بنيله العرش لبسالته شجاعته وليس للامير وكيل المملكة البريطانية وافتخر بان يكون لكم ولا بطل الجيش الفضل علي بكل شيء . »

نشرة الى الجيش

« أيها الجنود لم نقهر . فقد خرج من صفوفنا رجال خانا انتصاراتنا وبلادها وعاهلها والمحسن اليها .

« أو هل تظنون أن الذين ابصرناهم مدة خمس وعشرين سنة يجوبون انحاء اوربا ليحرشوا الناس علينا ويقضون حياتهم في مقاتلتنا في صفوف الجيوش الاجنبية لاعتين فرنسا الجميلة يزعمون أنهم يتسلطون على اعلامنا ويقيدها وهم الذين لم يكونوا يطبقون النظر اليها وهل نطيع إن ترامم مجنون غار اعمالنا المحيطة ويستولون على مفاخرنا وأموالنا ويسعون بمجدنا وأحسابنا واذا دام ملكهم فقدنا كل شيء حتى تذكر تلك الايام الخالدة .

« ولشد ما يفعلون لافساد حقيقتها ويمالجون الفض من كرامة ما يعجب به العالم . واذا بقيتمة من يدافع عن أعراضنا فيكون بين اولئك الاعداء انفسهم الذين قاتلناهم في ساحة الهيجاء .

« أيها الجنود لقد سمعت اصواتكم وأنا في المنفى فأنتيت مذلا جميع المصاعب وغير مكثر للمهالك .

« ان قائدكم الذي اختارته الامة للجلوس على العرش وكنتم انتم من أقوى العوامل لشهرته عاد اليكم فهللوا الى موافاته .
 « انزعوا هذه الرايات التي رذلتها الامة وكانت في اثناء خمس وعشرين سنة علامة لتألب اعداء فرنسا وانشروا الراية المثلثة الالوان التي حملتموها في أيامنا العظيمة .

« يمكننا أن ننسى انا كنا سادة الامة ولكن لا يحسن بنا أن نطيع أن نرى أحدا يتدخل في شؤوننا . فمن يستطيع هذا الامر استعبدوا تلك الاعلام التي نشرتموها في ألم واسترلنز وايبانا وايلو وفردلان ووطوديلوا وكهل واسلنغ ووغرام وممولنسك والمسكوكا ولترن وورتنجن ومنميرابل . وهل تظنون أن اولئك الفرنسيين البذيعين القليلي العددي قدرون أن يحتملوا رؤيتها فسيرجعون من حيث اتوا وهناك سيملكون اذا شاؤوا كما يزعمون أنهم ملكوا من تسع عشرة سنة .

« ان أموالكم ومناصبكم ومجدهم وأموال أولادكم ومناصبهم ومجدهم ليس لها من أعداء أشد عداوة من الملك الذي أقامه الاجانب عليكم فهم أعداء مجدهم لانهم قضوا على راية الاعمال الخطيرة الكثيرة التي عظمت اسم الشعب الفرنسي وقد قاتلهم للتخلص من نيرهم

« لقد تجرع كؤوس المهانة قدماء الجنود في جيش السامبر والموز والرين وايطاليا ومصر والغرب والجيش العظيم وقد امتهنت ندوبهم المسكرمة واعتبرت انتصاراتهم جرائم ويعتبر هؤلاء الابطال متمردين ان هم كانوا كما يزعم اعداء الامة ملوكا شرعيين بين جيوش الاجانب . وستكون المعالي والمسكافة والعطف للذين عضدوهم لمناصبتنا ومناهضة الوطن .

« أيها الجنود تعالوا والتفوا تحت الوية زعيمكم فحياته لا تتألف إلا من حياتكم وحقوقه ليست سوى حقوق الشعب وحقوقكم ومصالحته وشرفه ومجده ليست سوى مصالحكم وشرفكم ومجدهم . وسيسير النصر امامكم مسرعا وسيطير النصر بألوانه الوطنية من قبة الى قبة حتى يبلغ ابراج كنيسة نوتردام :
 وحينئذ يمكنكم أن تفاخروا بابرار ندوبكم وحينئذ تستطيعون ان تفتخروا بافعالكم وتكونوا مخلصي الوطن .

« ووقت ماتبلنزون الشيخوخة ومحيط بكم وطنيوكم الذين يحرمونكم
يسمعونكم بكل تجلة تروون ما كان من ما تركم الجليظة وتستطيعون أن تقولوا
بأعجاب : « وانا كنت أيضا من جملة رجال ذلك الجيش الكبير » الذي دخل
مرتين فينا ورومية وبرلين ومديرد وموسكو وانقذ باريس من الوصمة التي
لطلختها بها الخيانة ووجود العدو .

« فسمعنا لهؤلاء الجنود القساور نغر الوطن ! وسحقا خالدا للفرنسيين
المجرمين من أي درجة كانوا وهم الذين قاتلوا خمسا وعشرين سنة مع الاجنبي
لتمزيق بردة الوطن . »

وبشرت هذه اللهجة فرنسا الجديدة بعودة ممثلها المجيد وأعلنت أن
الديمقراطية وجدت لسان حالها وبطلها فالامة والجيش خفا بمهاسة شديدة الى
ملاقات المنفي العظيم .

ووصل نابوليون الى غاب في ٥ مارس فاستقبل في تلك المدينة بمثل التظاهرات
الابتهاجية التي ابداها له القوم على الطريق . وبعد ما جاهر بعضهم بمناوأة الثورة
واستقبلوا بفرح عظيم ملك لويس الثامن عشر القصر المدة عاد الدوفينيون
الشديدو الاختصاص بالثورة وحبوا بمجذل ماوراءه من مزبد الداهية المخلص الذي
قدم لنجدة المساواة ولطالما بذل المجهود في سبيل الدافع عنها وجاء البوربون
الآن يهددون كيانها .

وبرح نابوليون حاضرة الالب الاعلى مصحوبا بهتاف الشعب بمجملته
وعند مروره بسان بونه اقترح عليه الاهلون أن يقرعوا الاجراس ويهبوا هبة
واحدة لتعزيز حاميته لزمهم أنها ضعيفة لا تستطيع ايصاله الى باريس وخصوصا
لان الحاميات الكثيرة منتشرة على الطريق فقال : « لاتفعلوا هذا الامر
فعواطفكم تشعروني بانني لم انخدع وهي تضمن لي عواطف جنودي فالذين
القام على الطريق سينضمون الي وكما زاد عددهم ضمن لي الدجاج فأقيموا
ناصبي البال في منازلكم »

وتم لنا نابوليون على تلك الصورة اختبار ميل الشعب فكان لاسمه ولدهائه
وقع شديد عنده . وبقي عليه معرفة عواطف الجيش وكان يزعم أنه منقاد بمجملته
اليه . ودنا العاهل من غرينوبل وهو يتوقع مقاومة من الحكومة ومن قائده

الجند فأنهى الى الجنرال مرشان امر بارسال فصيلة من الجنود على طريق لامور للتصدي لنابوليون فأرسل الفصيلة الخامسة من المشاة لتلك الغاية والتقت طلائع جنود الماهل بهذه الفصيلة على مقربة من لافريت ولم تستطع ان تقنعها. بفتح الطريق والانتظام تحت راية الجيش القديم. ووقف ضابط من ضباط الجنرال مرشان وأمر جنوده بالامتثال للأوامر العسكرية. ولما انتهى الى نابوليون ذلك الامر اسرع الى حيث كانت طلائعه وترجل ووقف أمام الفصيلة المذكورة وهو يخشى من أن يكون ثباتها مثالا سيئا لسائر العساكر. وكان الحرس يسرون وراءه وسلاحهم منكس وهم يشيرون بذلك الى أنهم لا يبتغون الا لتجاء الى العنف في تصرفهم فصاح نابوليون بأولئك الجنود قائلا : « ما بالكم يا أصحاب أفلا تعرفوني ؟ أنا امبراطوركم واذا كان بينكم من تحدتة النفس بقتل قائده وامبراطوره فهاءنذا أمامه . » قال هذا الكلام وكشف عن صدره فاراد الضابط ان يفتنم الفرصة ويأمر رجاله باطلاق النار ولكن غطى صوته صياح هائل طبق القضاء فان الفلاحين الذين كانوا قد غشوا المرتفعات وملأوا الطرق صاحوا بملء افواههم : فليحي الامبراطور ! وشاطرم الجنود ذلك الصياح وفي لحظة طرف انضم جنود الفصيلة الخامسة الى أبطال جزيرة البا ونصالحوا وتعاثقوا وشد الرماة البولونيون وراء ذلك الضابط حتى ماوراء فيزيل ولكنه تمكن من النجاة منهم بسرعة جواده . واستأنف الماهل مسيره الى غرينوبل يحف به جمهور غفير كان يزدد عدده كلما تقدم . وذكر نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة أنه شاهد في واد من أودية الدوفينه جنديا ضخما الجثة يخرج من بين الجمع المحدث به وهو يبكي من فرط الفرح ويحمل بين ذراعيه شيخا له من العمر تسعون سنة وكان هذا الجندي من حامية جزيرة البا فقد وأولوا فقده على صورته ولكن لم يتوار وقتيا منفصلا عن رفاقه إلا ليأتي بأبيه وبقدمه للامبراطور

ولما وصل نابوليون الى فيزيل رأى حماسة الشعب الدوفيني تزداد شيئا فشيئا وسمعهم يصيحون من كل جهة : « هنا منشأ الثورة وهنا طلب آباؤنا قبل ضميرهم التمتع بامتيازات الاحرار وهنا أيضا ستبعث الحرية الفرنسية وتسرد فرنسا شرفها واستقلالها »



نابوليون الثاني ملك روميا

على أن العاهل وهو مار أمام قصر الدوفين الذي التأمت فيه الجمعية الوطنية الأولى في سنة ١٧٨٨ لم يسمعه الا مشاطرة الجمهور تظاهراته فصاح في نوبته وقد أثر فيه ما أورده الدوفينيون من الحوادث الماضية والموقف المخوف بالخطر الذي صارت اليه الديمقراطية في شخص ممثلها : « نعم من هذا المكان خرجت الثورة الفرنسية . »

وكأنه كان يناجي نفسه قائلاً : وفي هذا المكان أيضاً ستصيب الثورة الفرنسية انتصاراً جديداً على طريقة الحكم القديمة فيضمن النجاح هنا مشروعى المبني على الجرأة والافدام .

وبينا العاهل غائص في لجة التأملات في تلك الامور والشعب الدوفيني ثمل بخمرة الفرح شق ذلك الجمهور ضابط من الفصيلة السابعة وأخبر نابوليون أن فصيلته قادمة على جناح السرعة وفي مقدمتها كولونلها لتحية بطل فرنسا . فنابوليون ولم تكن السكنينة تبرح محياه كما كان شأنه في جميع الحوادث الخطيرة في حياته أظهر على جبينه تأثيراً شديداً من ذلك الحادث الذي أوشك أن يفتح في وجهه طريق التويلري بدون مشقة . وفي الحال أشرفت طلعتة بهجة وأملا وزال عنها بفتة ماعلاها من الفضون الناجمة عن الاعياء البدني والوهن الذهني . وبعد ما أباح لذلك الضابط بكل ما يشعر به من الشكر لفصيلة السابقة ولزعيمها وخز مطيته بالمهاز واندفع الى الامام كأنه ناظر قوس نصر كاروسل . وما أبطأت الفصيلة السابقة ان ضمت صوتها الى أصوات الجماهير التي تصحبها والكونل سائر أمامها كالسهم المرشوق وكان كبير الجسم جميل الصورة وقد جعله طبعه الحاد وقلبه الرقيق وحركاته الدالة على الشجاعة صاحب الامر والنهي على عقول رجاله ضباطا وجنودا . وخرج من غرينوبل في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم السابع من مارس ولما ابتعد قليلا عن المدينة أمر بالسكف عن دق الطبول وبالوقوف ثم أنه شق صندوقاً أخرج منه الراية الامبراطورية ونشرها أمام رجاله وصاح بصوت جهوري : « هذه الراية المحبدة التي ظللنا في أيامنا المشهورة وذلك الذي سار بنا مرات متوالية الى النصر يدنو منا ليفتحم لنا بمن جروا علينا الذل والنكبات . فقد أزف الحين للانتظام تحت رايته فهي مابرحت راية لنا . فليتبغني من يحبني ! فليحيى الامبراطور . »

والجنود الذين لم يتمكنوا إلا يشق النفس من حبس عواطفهم وقت ما كان كولوئلهم يتكلم طبقوا الفضاء بصياحهم « فليحي الامبراطور ! » وكرروا ذلك الهتاف بتحمس ما وراءه من مزيد . وسار وراء الجنود جمهور غفير من الناس على اختلاف نحلهم واعمارهم وجنسهم وطبقاتهم وهم يتلهبون شوقا لتحية الرجل العظيم المتجسمة فيه مبادئ المساواة والمجد الوطني . واشتدت رغبة الثريقين في الالتقاء وما لبثا ان اندغم احدهما بالآخر واختلط هتافهما وانضم اولئك الرفاق بعد ما فرقت بينهم حوادث سنة ١٨١٤ وتعانقوا وهم يصيحون : « ليحي الحرس ! لتحى الفصيصة السابعة ! ليحي الامبراطور ! » ومزج سكان مدينة غرينوبل الخافون للقاء أعظم الغزاة الفاتحين حماسهم بحماسة سكان الجبال المنحدرين من عقابه للحاق بذلك الرجل العظيم . وتمكن لابدويار النبيل الشجاع كولوئل الفصيصة السابعة من الوصول الى نابوليون شاقا للجمهور الغفير فوقع على عنقه وضمه نابوليون بشدة الى صدره وقال له بلهفة عظيمة : « يا حاضرة الكولوئل انك ترجعي الى العرش » .

ووصل العاهل الى غرينوبل وقت دخول الليل فعلم الأهليون والحامية بقدومه حين سماعهم الجلبة الشديدة والهتاف العظيم ولم يتمكن الظلام من اخفائه ذلك الامر عنهم وأمر قائد الحامية باقفال الابواب وأخذ مفاتيحها فغافله بعض الاهلين والجنود وزلوا عن الاسوار وانضموا الى موكب العاهل . فسمعت في الحال قعقة السلاح في المدينة فظنوا أن المدفعيين استعدوا لاطلاق القنابل وعمد الجمهور الى الاختباء وراء البيوت المجاورة الا أن نابوليون لم يبق والخوف على الدخول عليه فظل واقفا على الجسر قبالة البطاريات . فأثرت هيئته الساكنة تأثيرا سريعا في عقول الجمع فصاح أحد الوطنيين قائلا : « ان العاهل يبذل نفسه ونحن نسعى لمداواة انفسنا » . ولما قال هذا الكلام اندفع الى المسكان الواقف فيه نابوليون وحينئذ تلا الجميع تلوه واحاطوا بعاهلهم .

واراد نابوليون أن يعلم حقيقة الحركة التي اجروها على الاسوار فدعا اليه لابدويار وامره بان يخاطب المدفعيين . فصعد الكولوئل على يفاع من الارض وصاح بصوت كالرعد القاصف : « أيها الجنود لقد أرجعنا اليكم البطل الذي سرتم وراءه في معارك كثيرة فيجب عليكم أن تستقبلوه وتكرروا معنا الهتاف

الذي كان علامة لاجتماع قاهري اوربا وهو : ليحيى الامبراطور ! » فالدفعيون الذين لم يبقوا في مراكزم الا اذعانا للنظام العسكري طبقوا الفضاء بالصياح : « فليحيى الامبراطور ! » وانضم اليهم جميع المحققين بهم من الجنود والاهلين وشاطروهم الهتاف الذي بدأ به الكولونل لابدويار

وتبرم نابوليون في اثناء ذلك التحمس من داخل المدينة وخارجها من رؤيته الابواب باقية مقفلة فكان الذين في الداخل يمدون من خصاص الابواب ايديهم لتحية الذين في الخارج من دون أن يفتحوا الابواب فعيل مصطبر سكان ضواحي المدينة وارياضها وجاؤوا باساطين ضخمة من الخشب وحطموا بها باب بون ودخلوا بالماهل المدينة وكان الاهلون فيها يصيحون بملء افواههم مهللين ومكبرين له .

وقال لاس كاس : « لم يوقد الماهل سمير معركة استهدف فيها لنبال العطب بمقدار استهدفه لها وقت دخول غرينوبل فانقض عليه الجنود وهم يبدون الغضب والحنق وخيف حينما من الزمان أن يمزقوه تمزيقا ولم يكن ذلك العمل سوى ثورة الحب والفرح فخلوه بجواده »

وأعيد طبع نشرات خليج جوان في غرينوبل وأذيعت منها نسخ كثيرة وأقام الماهل يومين في المدينة عرض في خلالها الجنود والحرس الوطني واستقبل اصحاب الخطط واعضاء الندوات العلمية وخدمة الدين .

وكان نابوليون في اثناء عرضه الجيش لابسا قممته الصغيرة ورداءه الرمادي المشهور فدنا من مدفعي الفصيلة الرابعة وقال لهم :

« بدأت بينكم خدمتي الجندية فاجبكم جميعكم كرفاقي القدماء وقد سرت معكم الى ساحة الهيجاء ولا ازال راضيا عنكم واؤمل باننا لانتحتاج الى المدافع » ورح نابوليون غرينوبل في ٩ مارس ووصل في الغد الى ليون في الوقت عينه الذي غادر فيه فرنسا السكت دي بروفنس بعد بذله مقدارا كبيرا من الجهد لحمل الجنود على المداومة عن البوربون ولم يخفهم سوى متطوع واحد من متطوعي الملكية وقد انعم نابوليون على هذا المتطوع بنشان جوقه الشرف مكافأة له على أمانته واخلاصه .

واقنع نابوليون كل الاقتناع بان الاستقبال الحافل الذي استقبله به سكان

المدن والقرى يعزى الى المبادئ الديمقراطية التي يعمل هو باسمها والى الرأي العام الذي يعتبره كلمة الثورة وروحها على انه مع الاحتفاظ بتخفيفه في المستقبل من حدة الحركة الديمقراطية لم يلق مندوحة عن منح الاحرار شيئاً من التسهيلات لزعمة انهم هم والجنود المتحمسون ساروا به بانتصار باهر الى باريس واصدر في ١٣ مارس عدة اوامر الغي بها كل ماصدر ضد الثورة في عهد الحكومة الملكية الوقتية وامر بأن توضع موضع الاجراء القوانين التي وضعتها الجمعية الدستورية لالغاء القاب الشرف القديمة ورتبة الفرسان . واصدر امراً آخر بجل مجلس الشيوخ ومجلس النواب وامر باجتماع لجان الانتخاب في باريس ليؤلفوا مجلساً يعنى بامر تنقيح القوانين الدستورية الامبراطورية .

وسار العاهل على طريق برغونة فلمقيمة على جبل انتظاره شعباً لا يقل حبه له وحماسته عن حب وحماسة شعب الدوفينه وكان البوربون قد هدروا دمه في اثناء اجتيازه فرنسا ومسيره نحو العاصمة بين هتاف الجماهير وتظاهراتهم واستصرخ مؤتمر فيينا اوربا جمعاء لحمل السلاح ومقاتلته . وقامت الصحافة في باريس وفي البلدان الاجنبية وعصفت البوربون بنشر المقالات الضافية الفائضة بمحق الملكية والارسطقراطية القديمة معتبرة الرجل العظيم زعيم عصاة من السفاحين العياريين يستحق أن ينزل به وبمصائبه شديد العقاب . على أن المقالات الافتراءية والاهانات البذيئة لم تحل دون اقتراب نابوليون شيئاً فشيئاً من باريس . ووقد في ١٣ مارس في ما كوز وفي ذلك الحين جاهر المارشال ناي في لون ليسوليزيه باحتيازه اليه وقد نشر لذلك نشرة تبتدىء بهذه الكلمات : « ان مسألة البوربون انقضى امرها » . وتوجه الى شالون في ١٤ منه فأثنى على اهلها لما اظهروه من البسالة في مقاتلتهم العدو في الحرب الاخيرة ورغب في توجيه مثل هذا الثناء الى سكان سان جان دي لون على ما اظهروه من الشجاعة في الحرب المذكورة ولكن هذه المدينة لم تكن على طريقه فاكثفى بارسال نشان جوقة الشرف الى حاكمها الهام وقال في ذلك الحين للفلاحين والعملة المؤلف منهم معظم موكبه : « انشأت لاجلكم ايها الشجعان نشان جوقة الشرف وليس للمهاجرين المتناولين الرواتب من اعدائنا . »

وانتهى نابوليون في ١٥ منه الى أوطان بين هتاف الشعب المزداد عدده. حوله وفي ذلك اليوم التأمّت في باريس الندوتان المنشأتان بموجب المنشور الملكي ولبتا دعوة الملك للنظر في أمر قدوم العاهل. وكان لويس الثامن عشر وامراء عترته كالمزول بهم حينما اقترب ذلك المنفي العظيم وكانوا قد هدر وادمه علي غير جدوى. فسكتموا وقتيا أميا لهم المما كسة للثورة وجاؤوا وجددوا ايمانهم للمحافظة على منطوق المنشور الآنف الذكر. ولم تستطع التظاهرات الرسمية أن تستميل اليهم ثقة الملكيين الدستوريين بعد ماخابت امانهم من جراء ما شاهدوه من ارتجاع الحكومة ولم تر الامة في هذه التظاهرات سوى دليل على الخوف وهذا ما جعلها تنظر اليهم بيمين السخرية.

وظل العاهل مغنا في السير نحو باريس وهو غير مبالي بالتدابير الحربية المتخذة لمعاكسته وغير مكترث للاوامر العنيفة الصادرة ضده مع رغبته في التصدي له في زحفه المؤدي الى الانتصار ودخل أكسير في ١٩ منه وقد قدمت الفصيلة الرابعة عشرة من المشاة اليها من أرليان للملاقاة. وكانت هذه الفصيلة قد قاتلت قتال الابطال في اسبانيا من دون أن تصيب ماتستوجه من المكافأة. فوزع العاهل نياشين على الضباط والجنود الذين يفضلون غيرهم في استحقاقها. وجاء المارشال ناي الى أكسير لموافاة العاهل وقد جاء أشجع الشجعان لا كمال عمل لابدويار فسر به نابوليون كثيراً.

وكانت الحكومة الملكية قد صارت الى حالة اليأس والضييق فطلبت من الندوتين أن تخلصاها بسن قوانين تلائم ذلك الزمان واضطرت العظماء الى التحاقر ومداواة الجنود في مقارهم ارادة استمالتهم اليها ولكن ذهبت مساعيهم على غير طائل ولم يجدها تذللهم نفعا فالندوتان لم يكن لهما سلطة على الامة والامراء لم تكن كلمتهم مسموعة عند الجنود وهؤلاء لم يلبوا طلبهم بل نبذوه نبذا محقرا ولم يتصد شيء من الاشياء لنابوليون.

وفصل عن أكسير في ١٩ مارس فوصل الى فنتنبلو في ٢٠ منه في الساعة الرابعة صباحا وغادر لويس الثامن عشر العاصمة في الليلة عينها منطلقا بسرعة الى حدود بلجيكا. واذ كان مسير نابوليون من خليج جوان الى باريس قد تم بانتصار متواصل فان انسحاب الملك من باريس الى غاندا كان شبيها بالهرب. وقد

أنخدع البوربون في معرفة أسباب سقوط نابليون فأنهم توهموا وأعلنوا أن ذلك الذي كان يتصرف بالعروش والممالك على هواه ختم بالختم الإلهي انقلاب السلطة الامبراطورية ليضع حدا في فرنسا لسيادة العصيان والكفر ولم يفتأوا عن القول ان ذلك كان روح العصر والفلسفة الحديثة والثورة وأن العناية تريد تقليم أظفارها وقد ضربتها بشخص نابليون . فالعناية التي نحول نظارها عن الماضي وتوجهها الى المستقبل والتي تحرك الثورات لتجديد الشعوب وليس لارجاع الملوك والتي لم تحرم حمايتها ذلك الرجل العظيم بعد مامنت عليه بكثير من النعم إلا لتعاقبه على تقربه من أفكار وأشخاص الهيئة الاجتماعية القديمة ستظهر مقاصدها بصورة جليلة وتزيل الغرور عن أولئك الملوك الذين لم يدركوا غور مقاصدها الواسعة . وقد مكنت العاهل بعدما سمحت بسقوطه من النهوض بفتنة والمجيء لاستعادة الصولجان وليس لاعادة أسرته الى الملك وتوطيد اركانها على العرش بل لاثاره للعالم طراً قوة الثورة السامية وضعف طريقة الحكم القديمة

وقد ظهرت الآن هذه الشهادة فان الحق الإلهي الذي جاء به البوربون على يد الاجنبي غادر فرنسا فاراً معهم وعادت السيادة الشعبية بانتصار الى التويلري مع نابليون .



الفصل الثالث

المائة يوما

وشاهدت فنتنبلو الماهل ينحدر من عرشه في ٢٠ ابريل سنة ١٨١٤ وقد هجره رفاقه القدماء وأفترق عن حرسه واقتيد أسيرا الى جزيرة البا وعادت فنتنبلو في ٢٠ مارس سنة ١٨١٥ فشاهدت نابوليون محفوا بحرسه وبفرقة المقدسة ومكبرا له من الشعب والجيش ومستعدا للسير الى عاصمته ليقبض بيده على السلطة العليا وقد القت اليه الامة بمقاليدها للمرة الثانية .

ووصل الماهل الى ابواب باريس في آخر النهار فكانت الراية المثلثة الالوان تخفق فوق التويلري من الساعة الثانية بعد الظهر وقد رفعها اكسلمان الشجاع فوق القصر .

وازدحم الشعب والجيش حول نابوليون متسابقين اليه كما فعل القوم في غرينوبل وكل منهم يود لو يشاهد البطل عن كثب . ولما دخل التويلري في الساعة التاسعة مساء استقبله جمهور من الضباط وتهافتوا عليه تهافتا فقال لهم : « انكم تخنقوني يا حضرة السادة . » وجاء المسيو دي منتاليه عند أسفل الدرج الكبير للقاء الماهل واستقبله بين ذراعيه وهذا الرجل خدّم الماهل بصدق واخلاص ودراية وحنكة في أوان مجده وفي عهد سقوطه . وحملوا الماهل على الاكف الى غرفته حيث كانت الملكة هرتنس تنتظره ومعها كثيرون من عظماء رجال الامبراطورية القدماء .

وخيمت الفرقة المقدسة في ساحة كاروسل وتولت خدمة القصر مع الحرس الوطني .

وفي الغد عرض الماهل جميع المساكر الذين في العاصمة فخطب فيهم قائلا : « أيها الجنود قدمت الى فرنسا بتسع مئة رجل وأنا متشكل على محبة الشعب وتذكر الجنود القدماء فلم ينجب أملي . أيها الجنود اقبلوا خالص شكري . ان الفخر الذي جنيناه من أعمالنا مرجعه الى الامة واليكم ونفري محصور بمعرفتي اياكم وتقديري اياكم حق قدركم . »

« أيها الجنود ان عرش البوربون غير شرعي فقد نصبته ايدي الاجانب
بمقد ما هدمته الامة ووافقت على هدمه المجالس الوطنية . فليس فيه ضمان
إلا لمصالح فريق يسير من اصحاب الدعوى والعجرفة المعاكسة مطالبهم لحقوقنا .
أيها الجنود إن في العرش الامبراطوري وحده ضمان حقوق الشعب ولا سيما أول
المصالح وهي مصلحة مجندا .

« أيها الجنود سنزحف لنطرد من ارضنا اولئك الامراء الموالين للاجانب
ولا تكفي الامة بتمنيها لنا الظفر بل تعضد أعمالنا فانا والشعب الفرنسي
نمول عليكم . ونحن لا نبتغي التدخل في شؤون الامم الاجنبية ولكن الويل لمن
يتدخل في شؤوننا ! »

وكان لهذا الخطاب وقع على افئدة الجنود مماثل للوقع الذي كان
لكلام نابوليون على جميع الافئدة فطبخوا القضاء هاتين : فليحي الامبراطورا
واتفق ان قدمت في ذلك الحين فرقة جزيرة البا بقيادة كبرن ولم تكن قد
تمكنت من الوصول الى باريس مع العاهل . ولما وقعت عليهم عين نابوليون
صاح قائلا : « هؤلاء ضباط الفرقة التي صحبتني في الضراء فجميعهم اصدقائي
واعزائي وكلما وقعت عيني عليهم تمثلت فرق الجيش المختلفة فين هؤلاء الشجعان
الست مئة أشخاص من جميع الفيالق . وجميعهم يذكرونني بالايام العظيمة
التي لا يزال ذكرها عزيزا لدي وجميعهم موسومون بندوب شريفة أصابهم في
المعارك المشهورة فحي لهم صدى حيي لكم جميعكم يا جنود الجيش الفرنسي
وهم ارجعوا اليكم راية النسر فلتكن لكم علامة للاجتماع . واذا ما أعطيت
الحرس إياها فأكون كأني قد أعطيت الجيش كله هذه الراية .

ان الخيانة والاحوال السيئة اقلت عليها غشاء محزنا ولكنها بفضل الامة
الفرنسية وبهمتكم حادت الى الظهور بمظهر الجحد . فأقسموا على أن تجعلوها
دائما في المكان الذي تدعو مصلحة الوطن الى رفعها فيه . وليعجز عن النظر
اليها الخونة ومن تحذتهم النفس بغزو بلادنا .

فصاح الجنود بصوت واحد : « إنا نقسم على ذلك » وبينما هم يعمرون أمام
العاهل عزفت الموسيقى بلحن الثورة : « فلنسير على سلام الامبراطورية : »
وكان نابوليون عاد الى عهد القنصلية فقد جعلته النكبات والبوربون يصلح

نابليون في حديقة سان كلود ومع اولاد مورات



الديمقراطية ولم تكن تنال الخطوة عنده في عهد الامبراطورية . ولكي يجعل تلك المصالحة علنية ومشهورة اسند وزارة الداخلية الى كارنو ونصب بنيامين كنستان رئيسا لمجلس شورى الدولة . وقد اعترف بفعله هذا بسيادة الرأي العام واذعن للاميال الحرة التي مثلها ذاك الرجال الوطنيان بكل مجالها . وفانح الامبراطور بنيامين كنستان بحرية فكر في أمر السياسة الجديدة التي وطن النفس على المسير عليها . فانه وان لم يعترف باتحاله المبادئ الدستورية وان لم يجاهر بأنه مستعد لمعضد ذكرى الديمقراطية التي ساعدته مساعدة قوية على إعادة العرش اليه اعلن انه يخضع لمطالب الامة حتى وامياها وانه ينتهج الطريق الذي تميل الافكار الى الجري عليه واليكم شيئا من الكلام المشهور الذي فاه به في تلك الاحوال ونقله اليها ذلك الكاتب الكبير الموجه اليه ذلك الكلام : « ان الامة استراحت من اثنتي عشرة سنة من الاضطرابات السياسية ومن سنة من الزمان من الحرب وهذه الراحة المزدوجة جعلتها محتاجة الى العمل . فهي تريد او تظن انها تريد ان تصيب ندوة ومجالس وهي لم تكن تطلب دائما هذا الامر : وقد عفرت وجهها عند قديمي حين قبضت بيدي على ازمة الاحكام ولا بد من تذكرك هذا وانت قد عاجلت معاكستي . وكافي بميل الناس الى الدستور والمباحثات والخطب قد عاد . . . ولكن هذا الامر لا تطلبه الا الاقلية فلا تتخذ عن بذلك . فالشعب وان شئت فقل الجمهور لا يبتغي غيري . أو لم تبصر هذا الجمهور يزدهم ورائي وينحدر من قمم الجبال وهو يناديني ويبحث عني ويحييني في أثناء عودتي من كان الى هنا لم أفتح البلاد ولكن توليت تدبير شؤونها . فلست كما يقولون جاهل الجنود فقط ولكنني ايضا جاهل الفلاحين والشعب وفرلنا . . . ومع كل ما حدث في الماضي ترى الشعب يعود الي : فبيننا مواطنون وداد متبادلة . . . فيمكنني أن أعطي علامة أو أن أغضي الطرف فيثور الناس على النبلاء في جميع الانحاء ويفتكون بهم فتكا ذريعا . فلقد اكثرنا من العمل من ستة أشهر . . . ولكنني لا أشاء أن اكون ملكا للفتنة واذا كان من سبيل للحكم بواسطة دستور كان ذلك من حسن الحظ . . . لقد سمعت وراء نيل السيادة على العالم وكنت محتاجا لاصابة متوخاي الى قوة غير محدودة . وقد

وحدها... فانظروا ماترونه، ميسورا لـكم وأمدوني بأفكاركم . هل تبتغون حرية الانتخابات وعلانية المناقشات والحرية والقاء المسؤولية على الوزراء فانا ابتغي هذا كله ... وانا مقتنع كل الاقتناع بان خنق حرية الصحافة والمطبوعات يمد ضربا من الحماقة ... انا رجل الشعب فاذا ابتغى الشعب الحرية في الحقيقة فانا مدين له بذلك وقد اعترفت بسيادته ولا بد من الاصاحة الى ارادته حتى واميله . ولم اشأ قط ارهاقه لاطفاء غليل مسرتي بل كان لي ثمة مقاصد عظيمة . والآن نفذ القضاء فلست فاتحا ولا يمكنني ان اكون فاتحا وصرت اعلم ماهو ممكن وما هو غير ممكن . ولم يبق لدي سوى مهمة واحدة وهي اقالة عشار فرنسا والنش في فيها حكومة توافقها ... فالعمل الذي باشرته من خمس عشرة سنة نقض ولا يمكن اعاده بنائه . وقد اقتضت الحال التضحية بمليونين من البشر وقضاء عشرين سنة في سبيل ذلك . وعلاوة على ذلك صار من وكدي توثيق عرى السلم ولا يمكنني ان ادركه بغير الانتصارات الباهرة . ولا اشاء أن اجعلكم تمللون نفوسكم بالآمال الفارغة أو أن اجعل الناس يقولون أن ابواب المفاوضات مفتوحة وهي ليست مفتوحة . وأرى بعين الفكر ان لدينا عرا كاشديدا وحربا خروسا فيجب على الامة والحالة هذه أن تمضدني لانتمكن من القيام بها وهي تطلب الحرية مكافأة لها على عملها وستصيب هذه الحرية ... فالوقوف جديد . وجل ما آثمناه ان نثار بصيرتي فقد شخت والمرء لا يظل في الخامسة والاربعين على ما كان عليه في الثلاثين من العمر . وانا تلاميذ الراحة التي يذوق طعمها الملك الدستوري ... وهي ستكون ولا جرم اكثر ملاءمة لابي»

وكان في جواب العاهل لارباب المناصب الذين بادروا الى تقديم تهناتهم له آثار المبادئ الحرة التي اعترف بيمتها وسيادتها في ذلك العهد ورضي بان تكون له نصيراً .. فقال لوزرائه : هذا هو شعاري : « كل شيء للامة ولقراساء » ولم يكتف بالقول بل اصدر مرسوماً عالياً بتاريخ ٢٤ مارس ألتى فيه قانون المراقبة على المطبوعات فانسكرك عليه ذلك الامر المقربون منه فقال لهم : « يا حضرة السادة هذا الامر يتعلق بكم اما انا فلا أخشى شيئاً ولست ابالي ان هم نشروا ضدي من الانتقادات اكثر مما نشروه منذ سنة من الزمان . »

وسعى دوق انغوليم وقربنته الدوقة لاثارة الالهين في الانحاء الجنوبية

ودعرتهم الى الدفاع عن المبدأ الملكي وبذلت دوة انغوليم من الهمة والاقدام والثبات في بوردو ماجعل العاهل يقول عنها : « انها الرجل الوحيد في الاسرة . » بيد أن مساعيها لم تذلل المصاعب القائمة في وجهها فاضطرها الجنرال كلوزل الى مغادرة بوردو بلا قتال والالتجاء مرة ثانية الى البلاد الاجنبية وسقط دوق انغوليم في يد الجنرال جيبي في لابلود وسيق أسيرا الى بون سانت اسبري فأصبح تحت رحمة العاهل وأقام أنصار البوربون ينتظرون بقلق عظيم ما يقرره نابوليون بحق ذلك الامير . وقد زاد قلقهم ذكر الامر الملكي القاضي بهدر دم نابوليون . وأوقف العاهل الجنرال غروشي المندوب فوق العادة في الانحاء الجنوبية على مقاصده برسالة منح فيها ذلك الامير الحرية بالمضي الى البلاد الاجنبية لينفسح له المجال باثارة الحرب على نابوليون وعلى فرنسا . على انه حدث في ذلك الحين حادث مهم جدا ما وراء جبال الالب فان مورات بعد ما هدده مؤتمرا فيينا سعى لاستثارة ايطاليا على النمسا وانهم الملوك بنكران الجليل نحوه كأن نسكرانهم الجليل لم يكن عقابا لهما له على نسكرانهم الجليل الفظيع بحق نابوليون وبحق فرنسا : ولما قلب مورات ظهر المجن لاولئك الملوك ظنوا أن العاهل لم يخرج من جزيرة الباي إلا بعد مصالحة لحنته واتفاقه معه على ذلك العمل .

وكان ذلك كافيا لسد حكومة النمسا اذنيها عن سماع مقترحات نابوليون السلمية : فلم يتردد الوزراء النمساويون في الموافقة على منطوق المعاهدة المبرمة في ٢٥ مارس سنة ١٨١٥ وقد اصبح الحلفاء بموجبها أكثر عددا مما كانوا عليه من قبل واتفقوا على مداومة القتال ريثما يتسنى لهم ثل عرش نابوليون بعد مازحه بطريقة غريبة . وجعل ذلك العمل نابوليون يقول وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « ان ملك نابولي استهدف مرتين لنبال التهور وكان في كلتا المراتين سببا لمصائبنا : ففي سنة ١٨١٤ جاهر بمناوأة فرنسا وفي سنة ١٨١٥ جاهر بمناوأة النمسا . »

ومهما كان ضعيفا الامل الذي علل العاهل النفس به بفصل النمسا عن المحالفة وحمل الدول الاخرى على طرح السلاح فانه جدد المساعي الرسمية التي عالجها غير مرة ان في عهد قنصليته وأن في عهد امبراطوريته ليدعو اعداءه الى المسالمة

ولالقاءه في كل حال اعباء مسؤولية الحرب على عوانتهم فكتب في هذا الصدد رسائل الى جميع الملوك .

ولم يكتف الملوك انتحالفون بعدم مجاوبتهم إياه على رسائله بل أبوا أن يستقبلوا المفوضين الفرنسيين فرأى نابوليون أنه لم يكن له متدح عن الامراع في إعداد معدات الحرب بصورة جديدة .

وكان نفور الشعب الفرنسي من البوربون مغروسا في القلوب وكان اعجابه بنابوليون شديدا وطاما ومع ذلك كان السلم الضالة التي ينفشدها كل فرد من افراد الامة الفرنسية . على ان هذا الشعب وان يكن مصمما على بذل مايجب عليه أن يبذله صيانة لكرامته ومحافضة على شرفه واستقلاله لم يمل بوجه من الوجوه الى العودة الى خوض غمار الحرب وامل أن يرى عرى المحالفة تنحل بمحطب النمسا موالاة فرنسا وقد اشار نابوليون الى هذا الامر بصورة علنية قائلا ان ماري لويز وملك رومية سيشهدان الجمعية التي ستنعقد للنظر في الحوادث الجارية . إلا أن نتيجة العلاقات السياسية بين الحكومة الفرنسية والحكومات الاوربية الاخرى ولاسيما الحكومة النمساوية وما كان من زيادة نفورهن من فرنسا ازالته عن اذهان الوطنيين الفرنسيين الحقيقيين استار الغرور فعلموا أنهم مدفوعون بحكم الضرورة الى محاربة الدول اللواتي تعمدن الخفض من مقام فرنسا مع ميلهم كل الميل الى التمتع بملاذ السلم وفوائد الحرية في عهد ذلك الداهية الذي أولى بلاده مجداً أثيلا رأوا بعين البصيرة أن السلم لا يمكن بقاؤها مرفوعة الاعلام . وخافوا أن تصبح حربهم معرضة لازوال .

واصدر نابوليون في ٢٢ ابريل ملحقا لقوانين الامبراطورية فانه بدلا من أن ينتظر نتيجة أعمال الجمعية الدستورية الجديدة التي اصدر امرا في ١٣ مارس بالتثامها عمد بذاته الى تنقيح الدستور وفقاً لما وعد به الامة . ولكي يتجنب جدالا مزعجا في ذلك الشأن قلل عدد الناخبين الكثيرين المفوض اليهم امر النظر في الانظمة الاكثفة الذكر واقتصر على استشارة الامة كما استنزلت عن آرائها لما أرادوا تقرير القنصلية مدى الحياة والامبراطورية عن النظام الآتي الذي استودع جميع مجالس البلدية في فرنسا .

المادة الاولى : ان الانظمة الامبراطورية ولا سيما المادة الاضافية رقم ٢٣ فريمار من السنة الثامنة وقرارات مجلس الشيوخ رقم ١٤ و ١٦ ترميدور من السنة العاشرة والقرار المؤرخ في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة يدخل عليها التغيير الآتي

أ. الانظمة الاخرى فتبقى على ما كانت عليه .

المادة الثانية : تسند السلطة الاجرائية الى العاهل والندوتين

المادة الثالثة : تكون العضوية متوراثية في الندوة الاولى المسماة ندوة الاعيان .
المادة الرابعة : يسمى العاهل أعضاء هذه الندوة ويكونون غير قابلين العزل هم وأولادهم الذكور اكبراً عن أكبر رأساً ولا يكون عدد الاعيان محدوداً الخ .
ولا حاجة الى نثر المواد الاخرى من هذا النظام على أن تعزيز شأن الديمقراطية في فرنسا وهي التي أرجعت نابوليون الى العرش بصورة عجيبة جعل نابوليون ينشئ في فرنسا ارسطراطية من أقبح أنواع الارسطراطية بتفويض حكام يتولون الحكم مدى الحياة . ولكن الانظمة الامبراطورية الموضوعة في سنة ١٨٠٦ وكان أنصار المساواة مستائين منها كل الاستياء مع معرفة نابوليون ما لفرنسا من الغيرة الشديدة على هذه المساواة لم تخضع لصدفة النسب سوى القاب ومناصب خالية من الاهمية السياسية : وفي هذه المادة الاضافية زيادة في توسيع سلطة الندوة فانه يسلم للصدفة أول منصب من المناصب العامة ومن خصائص هذا المنصب الحق بالاشتراك في سن الشرائع . فلو انشأ نابوليون مجلساً للاعيان يتوارث أعضاؤه العضوية خلفاً عن سلف وقت ما كان مستاء كل الاستياء من الجمهوريين وكان يعمل بجهد وعناء ساعياً وراء انشاء أسرة جديدة لتوطيد دعائم السلطة المستحدثة لكان ذلك الانشاء مع ما كسبه لروح العصر مطابقاً لاعتقالات من دون أن يقضي أحد منه العجب ولكن الامر لم يبق كذلك بعد النشرتين الصادرتين عن خليج جوان وبعد ما أبصره وسمعه وأعلنه على الطريق من كان الى باريس وبعد المرسوم السامي الصادر عن ليون والمكرر فيه بين تكبير فرنسا وتهليلها القضاء بالموت على الارسطراطية القديمة فلا يحسن به والحالة هذه أن ينشئ في فرنسا مجلساً للاعيان يتوارث فيه الاعضاء مناصبهم خلفاً عن سلف .

وكان ذلك الامر تكذيبا معجلا للامال التي صار القوم في فرنسا بعد ممعهم لهجته الحرة ورؤيتهم أمياله الشعبية يملكون النفس بنيلها . ونهض كارنومعا كسا بكل قوة نشر النظام المحتوي على ذلك الامر المبني على السياسة الخرقاء . فدافع عن المجد الطارف من المجد التليد . وعن الرجال العظام من أعقاب الرجال العظام وكان الخطباء في عهد القنصلية قد تكلموا بمثل هذا الكلام باسم نابوليون حينما ارادوا أن يجعلوا انشاء نشأة جوقه الشرف موسوما باسم الديمقراطية وبيّنوا الفرق بين هذا النشان الحديث والنياشين الممنوحة في عهد الحكومة السابقة . إلا أن أغراض الامبراطورية وتقاليدها تغلبت على ذكرى القنصلية فقد حفظ الفكر الملكي في نابوليون كل قوته وشدته . وزعم الامبراطور كما قال لبنيامين كنستان ان الاقلية هي التي تطلب وضع الانظمة ومهما تكن واضحة وصریحة الغايات التي يرمي اليها الشعب في تظاهراته الاخيرة فان نابوليون أصر على اعتباره المنحة المتمتعة بها الطريقة الدستورية نبرا وقتيا على الذي الحاضر .

وعول نابوليون على ما كان يشعر به الشعب الفرنسي من النفور من رجال الحكومة القديمة في رؤيته القوم يقبلون باجماع الآراء على المادة الاضافية الآتية ذكرها وقد عني باضافته الى نظام عضوية الاعيان الموروثة وبعض المواد الخالية من الحرية التامة مادة تجدد انشاء العشر والحقوق الاقطاعية وملاشات القاب الشرف القديمة وابعاد البوربون الدائم . ولم يعدم نابوليون اشخاصا يقترحون على الموافقة على تلك المادة الاضافية المقوتة وضربها الى الانظمة الامبراطورية ولكن الرأي العام تأثر تأثراً سيئاً من هذا العمل فكان من نتيجة ذلك أن التحمس الشعبي العام الشديد الذي ظهر في شهر مارس صارت نيرانه تحمد شيئاً فشيئاً عند دنو شهر مايو .

وتألفت جمعيات وطنية في الامبراطورية الفرنسية لمضد الحاسة الديمقراطية والنيةظ للدفاع عن الوطن فكان في باريس متحالون تألبوا من سكانها وسكان الضواحي . وجاء متحالون دساكر سان مرسو وسان الطوان وتطوعوا طالبين من الماهل سلاحا واسمهم كلاما لم تعود اذناه مماعة من قبل بيد أنه توقع منذ وصوله الى خليج جوان حدوث مثل هذا الامر فلم يلق مندوحة

عن الاذنان بقدر الامكان لمقتضيات موقفه : فأجاب بالكلام الآتي المتحالفين
القادمين الى معونته :

« أيها الجنود المتحالفون من دساكر سان انطوان وسان مرسو
« قدمت وحدي لانسكالي على سكان المدن والقرى وجنود الجيش ولمعرفتي
تعلقهم بالشرف الوطني . لقد حققتم جميعكم ثقتي بكم فأقبل ما تقدمونه لي
وسأعطيكم سلاحا وأخصص لتولي قيادتكم ضباطا لاتزال الندوب باقية عليهم
وهم الذين تعودوا أن يروا العدو ظرا أمامهم .

« أيها الجنود المتحالفون اذا كان قوم في الطبقات العليا من هيئتنا
الاجتماعية قد لطمخوا لاسم الفرنسي بالمار فقد حفظت محبة الوطن وشعائر
الشرف الوطني عند سكان المدن والقرى وجنود الجيش . ويسرني ان اراكم في
ثقة بكم فلتحجي الامة ! »

ولما فتح السابخون المحتشدون في باريس احقاق الاقتراع على تلك المادة
الاضافة قدم وفد نتيجة ذلك الاقتراع للامبراطور في اجتماع مايو فبلغ عدد الذين
قبلوه ثلاث عشرة مئة الف وعدد المعارضين اربعة آلاف . وكان جواب نابوليون
على خطاب رئيس الوفد الحد المهم الوحيد في ذلك اليوم الوطني العظيم الذي
أذيع عنه في بدء الامر أنه فائحة عصر النهضة وانتهى بامور تافهة أعني بفتح
احقاق أوراق الاقتراع البسيط . وهذا ما قاله الامبراطور في خطابه :

« أيها السادة سواء كنتم عاهلا أو قنبلا أو جنديا فان كل واحد من
الشعب . ففي السراء والضراء وفي ساحة القتال وفي بهرة المجلس وعلى العرش
وفي المنفى لم تنفك فرنسا الموضوع الوحيد الشاغل اوسكري وأعمالي .

« انتم موشكون ان ترجعوا الى مقاطعكم فقولوا للوطنيين أن الاحوال
حرجة فبالاتحاد والهمة والثبات نخرج ظفرين من المراك الذي يقوم به شعب
عظيم على من يعمدون هضمه فليستقص الاجيال الآتية عن سيرتنا ماشاءت
الاستقصاء فالامة تفقد كل شيء حين تفقد الاستقلال . قولوا لهم ان الملوك
الاجانب الذين أجلستهم على عروشهم والذين هم مدينون لي بحفظ تيجانهم على
رؤوسهم والذين كانوا في أيام عزتي وسؤددكم يتهافون على محالفتي وحماية
الشعب الفرنسي لهم يصوبون الآن جميع سهامهم علي : ولو لم أرأهم لايتوخون

إلا السوء بالوطن لدفعت اليهم هذا الجسد القاني الذي يبتغون إهلاكه . ولكن قولوا أيضا للوطنيين أنه مادام الفرنسيون يدخرون لي عواطف الحب الذي اروني عليه دلالات كثيرة سيظل حنق أعدائنا مثلوم الحد .

« أيها الفرنسيون ان ارادني هي ارادة الشعب وحقوقي هي حقوقه وشرفي ومجدي وسعادتي ليست سوى شرف فرنسا ومجدها وسعادتها . »

وكان نابوليون يظهر بمظهر القوي حين ينبري للدفاع عن حياض الامة فيتخذ كلامه قوة حقيقية يشعر بها السامع شعوراً شديدا . وقد سروا برؤيتهم اياه يعترف جهاراً بأن له الحق دون سواه بان يجعل شرفه ومجده مندغمين بشرف فرنسا ومجدها وقد عبر بذلك عن افكار الجميع فكانت كأنها تنعكس على ضمير الرجل الكبير وكان فيه كان صدى للرأي العام عند الشعب العظيم إلا أن الجنسية لم تكن المصلحة الوحيدة الموجهة اليها عناية الجمهور فأصبحت الحرية موضوعا للمباحث الشرعية وانفتح المجال للخوض في القضايا الدستورية ولكن نابوليون لم يخلق لمثل هذه الامور على أنه عاجل أن يجعل كلامه بمثابة وحي للسلطة المطلقة وأن يجعله موسوما بسمه توافق مقتضيات المجالس .

وافتح البرلمان بذاته في ٤ يونيو وخطب خطابا طلب فيه مساعدته قائلا أنه يتوخى تعزيز المبدأ الشعبي المقدس .

ولم يخش نابوليون من معارضة مجلس الاعيان فانه كان صنيعته الا أن مجلس النواب المنتخب في ابان الهياج الديمقراطية على اثر اذاعة نشرتي خليج جوان جعله يخشى من تألف معارضة حرة لا تقتصر على معاكسة أميال العاهل فقط بل تسكدر حياض الوفاق الذي لم يكن بد منه للدفاع عن البلاد بمحدث خلاف في المجالس الكبرى في الامبراطورية . وكان لا فائ ولانجوينه من اعضاء المجلس النيابي وقد كفى مالهما من التفوق فيه منذ انعقاد الجلسة الاولى لاطهار خطهما وهيلهما فانتخب لانجوينه زعيما للمجلس وفوض اليه أن يبسط للعاهل عواطف نواب الامة فتوجه بوفد الى التويلري ليخطب امام العرش خطابا يتضمن امانى المجلس واليكم جواب نابوليون عليه :

« ان الدستور علامة تألبننا والنجم القطبي لهدايتنا في أزمنة الزوابع هذه فكل جدال عام يفضي بالصراحة أو بالتورية الى تقليل الثقة الواجب وضعها

مهر صكة سنة ١٨١٤



بمنطوقه يعد ضربة على الدولة . فنحن في وسط صخور لا حرك لنا ولا جهة ندري التوجه اليها . والمعضلة التي تورطنا فيها شديدة فلا نملك مسلك الساطنة السفلى التي أصبحت سخرية للأجيال التي جاءت بعدها فانها كانت لما شن البربر الغارة عليها من كل جهة تعنى بالمباحث الوهمية غافلة عن آلات الحصار التي كانت تحطم ابواب عاصمتها .

وفصل العاهل عن المدينة في ١٢ يونيو ناحيا الحدود البلجيكية فوصل في ١٤ منه الى آخن واذاع النشرة الآتية :

« أيها الجنود اليوم تذكروا مركتي مارنغو وفردلانغ اللتين قررنا مرتين حظ أوروبا وقد اظهرنا حينئذ من مكارم الاخلاق ما أظهرناه بعد مركتي استرلنز ووغرام واعتقدنا صحة أقسام وعهود الملوك الذين أبقيناهم على عروشهم . واليوم نألبوا وقصدوا الترس بسيادة فرنسا وحقوقها المقدسة . فتمعدوا تمعديا فظيما . فلنرحف لملاقاهم : أولسنا نحن وهم كما كنا عليه من قبل ؟ »
« أيها الجنود أمامنا سير عنيف مقضي علينا انمامه ومعارك ينبغي لنا أن نضرم مواقدنا . ومتالف لا نلقى لنا نذرة عن اقتحامها ، ولكننا سنظفر بالنصران نحن ثمتنا وستعود حقوق الانسان وسعادة الوطن . وقد دنت الساعة لسكل فرنسوي في صدره قاب ليغلب أو يموت ! »

وبينا نابوليون يستثير بهذا الكلام شجاعة جنوده كانت الخيانة تتلصص الى الجيش : فان الجنرال بورمون وبعض القواد الآخرين انمازوا الى العدو . ولما انتهت الى نابوليون انباء تلك الخيانة دنا من ناي وقال له : « يا حضرة المارشال ما قولك في هذا الرجل الذي ظللته بكنف حمايتك ؟ » فأجاب اشجع الشجعان « يا صاحب الجلالة كانت تقني بيورمون بمثابة لثقي بنفسي . » فقال نابوليون « على رسلك يا حضرة المارشال فالأزرق يظل أزرق والأبيض يظل أبيض » وفتحت أبواب القتال في ١٥ منه في فلوروس فانهمز البروسيانيون وقعدوا خمسة مدافع وألقي رجل . وقتل في هذه الموقعة قائد من أشجع القواد الفرنسيين وهو الجنرال ليتور حاجب الامبراطور فانه جرح جرحا مميتا عند أسفل البطن وهو يحمل على أعدائه في مقدمة رجاله .

وكانت جيوش الحلفاء الذين يحاربون نابوليون يقودها ولتن وبلوخر

ويزيد عددها على مئتين وخمسين ألفا على أن الجيش الفرنسي لم يكن عدده ينيف على مئة وعشرين ألفا . وسمى نابوليون منذ ابتداء هذه الحرب للتملص من الخطر الممكن نزوله به من جراء تفاوت عدد الفريقين المتحاربين بفصله البريطانيين عن البروسيين وبذل جهده للتفريق بينهما . وفي ١٦ منه أصابت خطته نجحاً في معركة لينزي فان بلوخر انكسر منفرداً وفقد في ساحة الهيجاء خمسة وعشرين ألف مقاتل إلا أن هذه الخسارة الجسيمة لم تضعف كثيراً أعدوا في صفوفه جنود كثيرون ووراءه جنود احتياطيون يفوقونهم عدداً . وفي الموقف الذي صار إليه الامبراطور كان يعوزه نصر مبين جازم يفني جيش بلوخر فيمتسئ له في الغد الهجوم على ولنتن وسحقه في نوبته . فهذه الخطة المراد بها التكميل المتعاقب بالبروسيين والبريطانيين دبرت بأوار سبرها العاهل الى كل جهة . ولكن لا يغني حذر من قدر فقد طرأت أمور جعلت دهاء يضل عن المرمى ويخطئ مواقع الصواب وعلاوة على ذلك ناجاه حدسه أنه سيطراً حادث غير منتظر يفسد عليه تدابيريه وأن الافذار ستقلب له ظهر الحن متفكرة عليه . وقال فيما بعد : « لم يكن لي في ذلك الحين ما كان لي من الثقة بنفسي وما كنت اتوقعه من النصر النهائي . » وما عثم ان تحققت مخاوفه فبعد يومين ظفر في خلالها باعدائه ظفرا باهرا أصيب في سهول واترلو بنكبة جديدة كانت ختاماً لحياته الحربية والسياسية .

وكان اليوم الثامن عشر من شهر يونيو فافتر ثغر الحظ في بدء الامر للفرنسيين : وهذا ماجاء في التقرير الرسمي : « بعد اطلاق المدافع ثمان ساعات وبعد حمل المشاة والفرسان حملات صادقة ظن جميع الجيش انا سنصيب النصر وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين سارت أربع فرق من الحرس الى الهضاب الممتدة ما وراء جبل القديس يوحنا لنجدة المدفعيين فضابقتها المدافع وحينئذ حملت على البطاريات بالحرا ب لتستولي عليها . وكاد النهار ينقضي فأغارت بعض الفرق البريطانية على كشحها وثلمت حدها . واجتاز الفارون الاودية ولما أبصرت الفصائل القريبة انهزام فصائل الحراس توهمت أن الحراس القدماء انهزموا وتحركت صائحة . « لقد فقدنا كل شيء فالحراس اندحروا . » وبزعج الجنود أنه كان في بعض الجهات أشخاص ذوو نيات سيئة قائمون بالمرصاد

فصاحوا : « فليهرب من يستطيع الحرب ! » وانتشر ذعر شديد في ساحة الحرب فاندفع المقاتلون باضطراب عظيم على خلع الاتصال وكان الجنود والمدفعيون والموكلون بصناديق الذخائر والمؤن يتزاحمون للوصول اليه وهوجوم الجراس القدماء الواقفون للاحتياط .

وأصبح الجيش في مدة قصيرة مختلطاً ببعضه ببعض ولم يبق ممكناً تأليف فيالق متميزة ولما ابصر العدو ما كان من ذلك الاضطراب المدهش ارسل فرسانه فازداد الاضطراب وكان الليل قد دخل خال الظلام دون ضم شمل العساكر واظهار خطأها لها .

وفقد الفرنسيون على تلك الصورة بذلك الخوف المستولي عليهم ما كانوا يأملون اصابته من تلك المعركة المنجزة وذلك اليوم المصلحة فيه التدابير الكاذبة وتلك الانتصارات التي كانوا يعلمون نفوسهم بنيلها في الغد . وتضعفت الفرق عينها المقيدة بخدمة الامبراطور والمصطفة الى جانبه وانهمزت أمام التيار الجارف فلم يبق والحالة هذه سوى السير مع مجراه وسقطت مركبات الذخائر والمؤن والامتعة التي لم تعبر السامر وكل ما كان في ساحة القتال في حيازة العدو ولم يكن من سبيل لا انتظار جنود ميمنتنا . ولا يخفى ما تكون حالة أعظم جيش في العالم حين يعيث به الاضطراب ويفقد نظامه .

هذه نتيجة معركة جبل القديس يوحنا فانها مع كونها مجيدة أصبحت وخيمة التبعة على الجيوش الفرنسية . «

وقد عجل في الوصول الى هذه النتيجة المؤلمة خطأ ارتكبه المارشال غروشي فكان قد انتدب لمطاردة فيالق بلوخر النمساوية والبطش بها ولكنه تركها تزحف الى واترلو حيث كانت المدافع تقصف كالرعد من دون ان يخف اليها هو ذاته اجابة لطلب الجبرال جيرار . واعتقد غروشي أنه واقف بازاء البروسيين مع أنه لم يكن قدماه سوى فصيلة واحدة من جيوشهم . على أن هذا الخطأ وقد عالج كثيرا التلصص من تبعته وألصقه به الرأي العام المبني على رأي نابوليون وغيره من القواد بمن كانوا شهداء عيانين لم يغير فقط في ساعة واحدة نتيجة معركة عظيمة بل غير حظ اوربا ظرا !

وكان نابوليون يعرف الروح السائد ندوة النواب بحيث انه لم يخف عليه

ما يخشى من حدوثه في المجلس من المعاكسة له حين يذبح نبأ انكسار جيشه فشعر بضرورة الاسراع في العودة الى عاصمته ليتمكن بحضوره من الضرب على أيدي اعدائه في الداخل ويتلافى أو يسكن المعضلة المجلسية فوصل الى باريس في ٢٠ يونيو في الساعة التاسعة مساء يصحبه الدوق دي باصانو والقادة برتران ودروو ولا بدويار وغورغو . ودعا اليه في الحال شقيقه يوسف ولوسيان وكيماس باريس المستشار الاكبر وجميع الوزراء . فكان الموقف حرجا وقدم كل منهم ما يراه موافقا لدفع الخطر العام ودعي أيضا مجلس شورى الدولة فبسط له العاهل مانزل به من البلايا وما يحتاج اليه وما يعلق عليه من الآمال . ولما كان يعلم أهمية مدارة مجلس النواب وكم كان ما يمكن حدوثه من الخلاف بينه وبين هذا المجلس قال أنه لا ينسب إلا للأقلية سوء المقاصد في ما بدا في المجلس المشار اليه . إلا أنه اذا كان نابوليون قد اتخذ انخداعا حقيقيا بميل اكثرية النواب الفرنسيين فلم يمس عليه وقت طويل حتى زال اغتراره عند رؤيته أعضائهم فان المجلس كان منقادا الى لانجوينه ولافايت اكثر مما كان نابوليون يتوهم فقرر المجلس اجابة لطاب لافايت أنه ثابت واتهم بالخيانة كل من يمالج حله وهذا التنافر الذي كان من شأنه القاء المسؤولية الكبرى على نواب الامة أصبح ضربة قاضية على حياة نابوليون السياسية . فهل البوربون والاجانب لذلك الامر وأكبروه وأملوا أن مثل هذا الخلاف الشديد بين العاهل وممثلي الشعب يفضي ولا مراء الى تنازل الامبراطور مرة ثانية عن العرش أو يؤدي الى حادث كالحادث الذي وقع في ١٨ برومير : ففرنسا الحرة لا تستطيع بدون نابوليون كما أن نابوليون لا يستطيع بدون فرنسا الحرة مقاومة الجيوش المتحالفة مقاومة طويلة .

ولما ذاعت مقاصد النواب في الالبزه بوربون نشأ عنها اضطراب في حاشية الامبراطور فاستولى اليأس على أخص المقربين اليه بحيث اتهم اشاروا عليه بالاذعان الى الاقدار التي تقتضي منه تضحية جديدة وكان رينيو دي سان جان دنجلي أحد الملحنين عليه لاقناعه بالتضحية بنفسه مرة أخرى على مذبح الوطن . ولما علم نابوليون ان مجلس الشيوخ حذا حذو مجلس النواب رأى أن اصحابه خذلوه كما خذله اعداؤه وأعلن أنه مصمم على التنازل عن العرش لابنه

وكان رجل واحد في المجلس يخالفه على عزمه لزعمه ان هذا الامر يلقي فرنسا بين أيدي الاجانب وذلك الرجل هو الرجل ذاته الذي أقام التكبر وحده على انشاء الحكومة الامبراطورية وهو كارنو . فانه مع شدة اعتصامه باهداف المبادئ الحرة لم يعتقد أنهم يجب عليهم أن يمرضوا للخطر الاستقلال الوطني بأفراطهم في التحفظ من المعامل وكان متوهمًا أن هذه المصاحبة الاولى للامة تعرض للخطر بإبعاد الزعيم الوحيد الذي يرضى الجيش والشعب بالمسير وراءه ولما ساد الرأي المخالف لرأيه جلس أمام منضدة وغطى وجهه بكتفائديه واستخبط في البكاء . فحينئذ قال له نابوليون : « لقد عرفتكم متأخرًا » وعند ذلك نظم المعامل الاعلان الآتي بيانه :

« أيها الفرنسيون لما باشرت الحرب للذود عن استقلال الوطن كنت متكلاً على مضافة جميع الامة ومساندة جميع رجال الحكومة وقد علت النفس حينئذ بأدراك الوطر المروم وازدريت بكل ما اذاعته الدول غني ولكن الاحوال تغيرت وجوهها . فاقدم نفسي ضحية لبغض أعداء فرنسا فياليهم يكونون صادقين في اذاعتهم فيقصرروا انتقامهم على شخصي . خيائي السياسية انقضت واريده أن أبايع ابني مطلقاً عليه اسم نابوليون الثاني عاهل الفرنسيين ويؤلف الوزراء الحاليون مجلساً للحكومة بصورة وقتية على أن اهتممي بابني بمجملني ادعوا المجالس الى أن تنشئ بدون تأخير وكالة المملكة بموجب قانون فاعقدوا عزاءكم على الامن العام وظلوا أمة مستقلة . »

وفي الحال بسط هذا الاعلان للمجلسين فكبر له النواب الذين كانوا سبباً لانشاءه ولستهم لم يقرروا شيئاً جازماً جلياً عن نابوليون الثاني وقد دعمت شرعية حقوقه اقوال بعض الخطباء ولا سيما بيرمجه ودي لادروم . وعلى أثر المباحثة الدائرة على رحي ذلك الموضوع صعد الى المنبر رجل جعل الناس يقولون عنه منذ ابتداءه بالكلام : « لقد جاء ليرث ميرابو . » وكان اسمه مانويل

وارتأى مجلس النواب أن يرسل وفداً الى نابوليون ليهنئته على تنازله عن العرش للمرة الثانية .

فخطب نابوليون الوفد بالكلام الآتي : « اني شاكر لكم ما تبدونه

من العواطف لي فيسألني تنازلي عن العرش يحجب الهناء على فرنسا ولكنني
لأأمل هذا الامر فهذا التنازل يترك الدولة بغير رئيس وبغير كيان سياسي
وقد كان يمكننا استمهال الوقت الضائع لقلب الملكية لتمكين فرنسا من سحق
اعدائها . وأوصي المجلس بالمبادرة الى تعزيز الجيش فن يريد السلم يجب عليه
أن يستعد للحرب . وحذار أن تتركوا هذه الامة العظيمة تحت رحمة الاجانب
أو ان تغتروا بآمالكم : فمناك الطامة الكبرى . وكيفما كان المصير الذي انتهى
اليه سأكون سعيدا بمعرفة أن فرنسا رائعة في مجبوحة الغبطة .

الا أن خصوم الاسرة الامبراطورية ظفروا بأمانهم في مجلس النواب
فنبذوا دبر آذانهم مبايعة نابوليون الاول لنابوليون الثاني وألقوا مفوضا
من خمسة من أعضائهم وهم فوشه وكارنو وغرينيه وكينيت وكولانكورليفشتوا
حكومة وقتية . ولما انتهى هذا الخبر الى نابوليون قام وقعد وارغى وازبد
وصاح قائلا : « لم أتنازل عن العرش ليخلفني ديكوار جديد بل تنازلت عنه
ليخلفني ابني . فان لم يبايعوه الخلافة كان تنازلي لغوا . فالجلسان يعلمان أن
للشعب والجيش والرأي العام رغبة فيه وميلا اليه ولكن الاجنبي يحبسهم عنده .
ولا يستطيعان أن يضطرا الحلفاء الى الاعتراف بالاستقلال الوطني بالتصاغر
والتطامن وتعقير الجباه . ولو كانا شاعرين بحقيقة موقفهما لمايما مختارين
نابوليون الثاني ولا بصر الاجانب ان لكم ارادة وغاية وعلامة للاجتماع ولعلموا
أن حادث اليوم العشرين من شهر مارس لا يعتبر مسألة احزاب وضربة من
ضربات المتأمرين بل نتيجة تعلق الفرنسيين بشخصي وباسرني ولا أصبح
اجتماع الكلمة الوطنية أشد وقعا عليهم من جميع اختلافاتنا الدنيئة المحقرة »

وكان في باريس عدد وافر من الوطنيين يفتكرون ككارنو بانه يجب الاهتمام
قبل كل شيء بالدفاع عن البلاد وأن هذا الدفع لا يتيسر بغير ذراع الامبراطور
ودعائه واممه . وكان رجال الجندية يذهبون هذا المذهب ويجاهرون به . وقد
ارتفعت في كل ناحية هذه الاصوات : « اذا لم يكن امبراطور فلا يكون جنود »
بحيث ان الجمهور المزداد عدده حول قصر الاليزه بوربون مقر نابوليون جر
الفلق على المجلسين وعلى فوشه متولي الحكومة الوقتية والمفاوضات مع الاجانب
خافوا ألا يكون تنازل العاهل عن العرش معتبرا في أعين الاجانب سوى ألعبوبة

مادام صاحب العرش مقيما في باريس . فقوض الى كارنو أن يبسط لنا بوليون مخاوف زملائه وأن يدعوهم الى الابتعاد عن العاصمة . فتوجه كارنو الى الالبزه للنهوض بأعباء مهمته فوجد نابوليون وحده يستحم . ولما أوقفه على الغاية التي قدم لاجلها ابدى المعامل الساقط العجب من المخاوف الناجمة عن وجوده وقال له : « لست سوى فرد من افراد الشعب وأقل من فرد منه . »

على أنه وعده بأجراء رغبة المجلسين والحكومة الوقتية وتوجه في ٢٥ يونيو الى المالميزون واذاغ على الجيش النشرة الآتية :

« أيها الجنود اني بأذواني الى الضرورة التي تلجئني الى مغادرة الجيش الفرنسي الباسل أتبحث كل التحقق ان هذا الجيش سيحقق بما يأتيه من الخدم الجليلة وبما يتوقعه منه الوطن الثناء الذي لايسع اعداءنا انفسهم أن يضمنوا به عليه »
« أيها الجنود اني ارافقكم وان كنت غائبا عنكم فأنا أعرف جميع الفيالق ولا يظفر فيلق منها بالنصر على العدو إلا وأطري على البسالة التي يروح بمكتموماتها فكلانا قد استهدف لنبال السعاية . ان بعض الاشخاص اللثام الذين لا يستحقون خدمكم رأوا في تعلقكم بي غيرة مقصورة علي دون سواي . فلتظهر لهم انتصار انكم المستقبل انكم كنتم تخدمون الوطن فوق كل شيء حينما كنتم تطيعونني . واني اذا لقيت عندهم حبا كنت مدينا بذلك الى حبي الشديد لفرنسا أم جميعنا . »

« أيها الجنود أظهروا قليلا من الجهد فتتحل عرى المحالفة ويعرفكم نابوليون من الضربات التي تضربون بها اعداءكم . »

« خلصوا كرامة الفرنسيين واستقلالهم وكونوا حتى النهاية كما عرفتم من عشرين سنة فلا يشق لكم غبار ولا نبارون بمضمار »

وكان نابوليون في المالميزون قريبا من باريس بحيث أن أعداءه لم يكن يقر لهم قرار بوجوده فيها وخشي فوشه من اقدامه على عمل جديد فاوعز الى الجرال بكر أن يراقب حركاته وسكناته عن كشب زاعما أنه يحافظ بذلك الامر على حياته . وفي ٢٧ يونيو لما ذاعت أنباء اقتراب الحلفاء ورأى نابوليون فرصة ملائمة لضربهم ضربة قاضية كتب الى الحكومة الوقتية يعرض عليها تطوعه كجندي لخدمتها :

« اني بتنازلي عن العرش لم أزل وطنيا معتصما بحقوق الوطنية الشريفة
ومعتبرا ان لي الحق بالدفاع عن بلادي .
وان دنو الاعداء من العاصمة لا يدع ادنى مجال للارتياح بمقاصدهم
واغراضهم المنعرجة .
« فقي هذه الاحوال الحرجة اقدم خدي كجنرال معتبرا نفسي كاول جندي
للوطن »

على أن الذين اصروا على طلب تنازل العاهل عن العرش لم يوافقوا على
تسليم قيادة الجيش الى الرجل العظيم الذي أنزلوه عن سرير الامبراطورية . وعلموا
حق العلم أن جنديا نظيره لم يكن من منصب يليق به الا منصب القيادة العامة
وأن قبولهم اياه كمساعد يكون مدرجة الى اعادة السلطة العليا اليه . فنبذوا طلبه
وكان جوابهم مثيرا لحنقه بحيث قال انه يريد أن يزحف في مقدمة الجيش ويضرب
ضربة ممثلة لضربة ١٨ برومير . الا أن الدوق دي باصانو غير فكره مبدئيا له
ان الاحوال الحاضرة غير ممثلة للاحوال التي كانت في السنة الثامنة للجمهورية
ولما لم يلق بدامنا الاذعان للقدر فصل عن المالميزون ميمما روشقور وهو ينوي
الشخص الى الولايات المتحدة الاميركية .

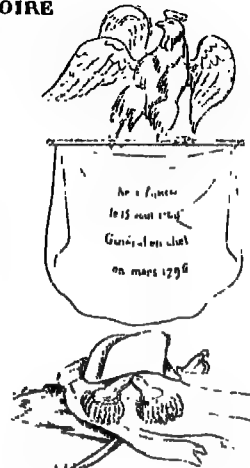




LE TEMPLE DE LA GLOIRE



NAPOLEON .



Drouillon excitement de la main de l'Empereur de la lettre qui adressa de Wochefau au Duc de
Anglais d'Angleterre, le 15 juillet 1815

est un fait qui nous a vu en l'honneur de la plus grande
de leur jeu leur volonté de leur expression
nous sur la base de leur base de leur base
leur base de leur base de leur base
leur base de leur base de leur base

Signature de l'Empereur

Napoleon

En suite aux fautes qui doivent nous payer, et à l'insulte des plus grands puissances de l'Europe, j'ai tenu une
carrée politique, et je vous, comme l'homme de la guerre, m'a vu au foyer du peuple britannique. Je me mets sous la protection de ses
lois, que je respecte de V.A.R. comme du plus puissant, du plus constant et du plus généreux de nos amis.

Let. Henri et Henri

4 sous .

Aut. 5. André 209

هيكل المجد

الفصل الرابع

وصول نابوليون الى روشفور — رسالة الى الامير وكيل المملكة في بريطانيا العظمى — ركوبه متن البليروفون وشخصه الى بريطانيا — تصرف الوزارة البريطانية نحوه — معا كسة العواطف الودية التي ابداهاله الشعب البريطاني — اعتراض نابوليون على المكان الذي عينته له الوزارة البريطانية — ركوبه متن النرمبرند وانطلاقه الى جزيرة القديسة هيلانة .

ان بكر الذي فوضت اليه الحكومة الوقتية مراقبة حركات العاهل وسكناته في المالميزون تلقى الاوامر بمرافقته الى روشفور وبعدم افتراقه عنه الاعلى متن السفينة التي نقله الى العالم الجديد . وقال هذا الجنرال الشجاع للعاهل عند اقترابه منه : « لقد فوضت الي مهمة شاقة وسافعل كل مايتعلق بي لاضطلع باعبائها وفقا لرغبتك ومرضاتك » وقد بر هذا الجنرال بوعده من دون أن يحيد دقيقة واحدة عن المنهاج الذي نوى انتهاجه ومن دون أن ينسى مايجب عليه عمله من المجاملة لذلك الداهية الهاوي عن حالق مجده

وفصل نابوليون عن المالميزون في ٢٩ يونيو فوصل الى روشفور في ٣ يوليو وفي الغد واقاه اليها شقيقه يوسف . وكان العاهل في أثناء اقامته في تلك المدينة يسمع دائما هتاف الشعب له حول المنزل المقيم فيه . وخرج غير مرة الى شرفة دار الحاكم فابصرهم يقيمون له المظاهرات الاكرامية الولائية نفسها التي ادخلها له الشعب . وركب متن البحر في ٨ يوليو وهو ينتوي المضي الى الولايات المتحدة الاميركية وقد وثق بأن الجواز الذي وعدته به الحكومة الوقتية لايلبث الخلفاء أن يرسلوه اليه بدون تريث ولا ابطاء . وبعد يومين أرسل لاس كاس وسافاري الى المركب البليروفون ليعلم من ربان هذه السفينة الحربية البريطانية هل جاءته أوامر من وزراء الدولة البريطانية بعدم تعرضهم لركوبه متن ذلك المركب ولم يكن قد وصل الى الربان مايتلاند قائد البليروفون تعليمات في هذا الشأن فقال انه سيخاطب أمير البحر في هذا الصدد . وفي ١٤ منه كان نابوليون في جزيرة كس ينتظر الجواب فتولاه السأم من الصمت الطويل واراد أن يخرج من دائرة الشك

المضروبة حوله من اربعة أيام . وعاد لاس كاس ومعه لالمان الى الريان مايتلاند فوجد أنه لم يتلق التعليمات بشأن العاهل ولكنه عرض عليهما أن نستقبله على متن مركبه ويسير به الى بريطانيا حيث يلتقى مايطمع به من حسن المعاملة وكرم الضيافة .

ولما عاد لاس كاس والالمان وأوقفا العاهل على نتيجة مهمتهما جمع رفاقه في نكبتهم واستشارهم في ماينبغي له أن يفعله . فكان أمامهم مركب حربي لايمكنهم المرور على رغم منه ووراءهم أرض جمل غزوا لاجانب لها وعودة البوربون اليها المقام ينبو فيها بكل من يطلق عليه اسم نابوليون وبكل من شاطر عن كذب مجده وسؤدده . فارتأى نابوليون في ذلك الموقف الحرج أن الافضل له الالتجاء الى سكارم اخلاق الامة البريطانية واختيار المقام بين ظهرانيها فتناول القلم وخط السطور التالية الى الامير وكيل المملكة :

« يا صاحب السمو الملكي ان خطتي السياسية انتهت على أثر استفحال امر الاحزاب الناجم عنها الانقسام في بلادي وبسبب عداوة الدول الاوربية العظيمة وقد نهجت منهج تستوكل فحئت لاجئا الى ديار الشعب البريطاني لاستظل بكنف شرايعه والتمس هذا الامر من سموك الملكي معتبرا إياك أقوى اعدائي وأنبتهم واكرمهم . »

وحمل لاس كاس وغورغو هذا الكتاب الى الريان مايتلاند وانبأه أن نابوليون سيأتي في الغد الى مركبه . وفي ١٥ منه عند أول النهار قلت السفينة « ابرفيه » العاهل الكبير وأوصلته الى البليروفون ، ولما وصل نابوليون الى المركب ورأى أن الجنرال بكر يدنو منه ليودعه قال له بلهجة شديدة : « ارجع يا حضرة الجنرال فلا اشاء أن يظن الناس ان فرنسويا اسلمني الى اعدائي . » ولما خاطبه بهذا الكلام مد اليه يده ولم يفرق عنه إلا بعد معانقته إمام .

ولما وصل نابوليون الى البليروفون قال للريان : « اتيت الى مركبك لاستظل بكنف شرائع بريطانيا العظمى » فسار به الريان في الحال الى الغرفة المعدة له وزار العاهل في الغد السفينة « سوبرب » الراكب فيها أمير البحر هوثام قائد الاسطول وعاد الى البليروفون في اليوم عينه فأبحر به توا الى بريطانيا العظمى . وقال لاس كاس ان أمير البحر هوثام أظهر في اثناء زيارة نابوليون له كل مايستطيع

إظهاره من اللطف والسكينة انسان عالي المقام ممتاز بربيته . وفضلا عن ذلك لم يكن العاهل يظهر بين اعدائه الالاء من دون أن يكون لظهوره بينهم تأثير شديد ناجم عن تفوق سلطته . واقتدى الربان والضباط والبحارة بقائدهم في اكرام الضيف العظيم واحترامهم له . فاذا خرج الى متن السفينة يادر كل من يبصره الى نزع قبعته عن رأسه ... ويمكن القول ان نابوليون كان على متن البليروفون طاهلا ولما انتهى الربان م'يتلاندي في ٢٤ يوليو الى طورباي ارسل الى اللورد كيث يخبره بما وقع وينتظر أوامره فأمره بالتوجه الى بليموث وألقى البليروفون مراسيه في مرفأ هذه المدينة .

وحالما انتشر في السواحل البريطانية نبأ قدوم العاهل أظهر القوم رغبة شديدة في مشاهدته فغشت سفائن كثيرة ميناء طورباي واشتد اعجاب الناس بذلك الرجل الداهية . وكان ذلك الاستقبال معاكسا لما نوت الحكومة البريطانية إعداده لنابوليون بحيث ان وزراء الملك جورج لم يعالجوا منع التظاهرات المعاكسة للسياسة المنكرة التي ازمعوا السير عليها . وفي بليموث أحاطت بالبليروفون قوارب مساحية أمرت باطلاق النار على الفضوليين لتزيق شملهم . على أنه مع ما أعطت الحكومة من الاوامر العنيفة خفت جماهير غفيرة من انحاء الديار البريطانية الى بليموث رغبة في مشاهدة بطل فرنسا . وظلت السفن تغشى البحر حول السفينة المعتقل فيها ذلك الرجل الفاقد النظير .

وفي خلال التظاهرات التي أقامتها الامة المعادية له عيل مصطبره لمعرفة الخطة التي تقرر الحكومة البريطانية انتهاجها معه ، وجاء اللورد كيث الى البليروفون ولكن زيارته المقرونة بالبرودة والتحفظ لم تطل مدتها . وفي الايام الاخيرة من شهر يوليو عاد الشفاليه بنبري وقد جاء هذه المرة لازالة الارتباب من ذهن العاهل : فانه كان حاملا مذكرة من الوزارة البريطانية تعين بموجها جزيرة القديسة هيلانة مقرا للجنرال بونابرت . وكانت هذه المذكرة بمثابة حكم بنفيه الى اقليم وبيل الهواء يخشى من أن يكون من وراء حصره فيه قضاء عليه بالموت . ولما علم نابوليون من فم أمير البحر ماقررت الوزارة البريطانية بشأنه امتلا غيظا واحتج بشدة على خرق حكومته لحقوق الانسانية فقال : « انا ضيف بريطانيا ولست أسيرها وقد جئت مختارا لا أستظل بكنف شرائعها فداوسوا بمعاملتي

هذه المعاملة حقوق الضيافة المقدسة فلا أذعن أبدا اختارا الى الاهانة التي أتوها نحوي فالعنف وحده يكرهني على الانقياد اليها »

وأرادوا أن يشددوا في التضييق عليه بمحصرهم عدد الاشخاص المرخص لهم بمرافقته فأذنوا لثلاثة رجال أن يصحبوه وخبروه في انتقائهم ماعدا سافاري ولالمان . فهذان الخادمان المخلصان لنا بوليون ظنا أنه مقضي عليهما بالابعاد عن تلك البلاد وانهما سيساقان الى النطع المهيأ بأمر لويس الثامن عشر في ٢٤ يوليو وكان اسمهما المذكورين في جدول الاسماء المقضي على اصحابها بالموت .

فإذا وقع في نفس نابوليون بعد ما بلغه اللورد كيث القرار القاضي بابعاده الى الجزيرة السكمن فيها الموت ؟ السجن في المنفى ربما يأتيه الموت الزؤام ببطء ما أمر ذلك النصيب لمن ضاقت أوروبا بأسرها عن مطامعه الكبيرة وهو ذلك الجبار الذي شاهد الملوك الصيد يتسابقون الى استعماله اليهم وينتظرون أمام غرفته وقتا طويلا ! فهل ازمع أن يعطي العالم مثالا عن الاذعان الذي لم يسمع بمثله أو يريه مشهدا من مشاهد اليأس المبتذلة ؟ ودعا اليه لاس كاس وسأله عما يعرفه عن جزيرة القديسة هيلانة وهل يستطيع المعيشة فيها ثم أنه قال له : « وهل انت متأكد اني سأسير اليها ؟ وهل يتعلق الانسان بامثاله حين يشاء صرهم حبال حياته ؟ يا عزيزي كثيرا ماتنا جبي النفس بان أغادر كم وهذا ليس بالامر الصعب ، »

فأقام لاس كاس النكير على ماعقد نابوليون عليه عروة العزم بما قذف الذعر على فؤاده وابتعد عن العاهل تبرمه في حمل انتقال الحياة بتعليقه إياه بالآمال في المستقبل وبقوله له : « ومن يعرف اسرار الزمان ؟ » ولما ذكر العاهل ما يتوقعه من الملائة في جزيرة القديسة هيلانة قال له لاس كاس ولسكننا سنعيش دلي الماضي فأجابه الامبراطور : « وسنكتب مفكراتنا . أجل ان الانسان مقضي عليه بأن يشتغل والشغل يعتبر منجل الزمان . وعلاوة على ذلك مكتوب للمرء أن يتمم حظه : وهذا مبدئي العظيم فليتم حظي » وعلى هذه الصورة تاب نابوليون الى نفسه . واذا دفعه حيناً من الزمان شر البشر وخيانتهم وجحودهم الى اليأس من جراء نفوره من أعمالهم فأوشك أن ينتحر فانه ماغم أن أقبل عثار قواه الادبية لما أعاد على نفسه ذكرى مجده الماضي وأعانتته على ذلك طبيعته القوية .

وخرج البليروفون من ميناء بليموث في ٤ اغسطس ولكنه لم يتوجه الى

ناحية الجنوب بل توغل في المانش فعلم حينئذ نابوليون أنهم سينقلونه الى مركب آخر يدعى الرنمبرلاند أمر بالمضي به الى جزيرة القديسة هيلانة على أن الكلام الشديد اللاهجة الذي خاطب به اللورد كيث لما بلغه ذلك القرار كاد التاربخ ينفقده لو لم يدونه في احتجاج رسمي سيره الى أمير البحر - المذكور وهذا كلامه بنصه : « احتج رسميا امام السماء والبشر على ما عوملت به من المعاملة العنيفة وعلى دوس اقدس حقوقي بتصرفهم بالعنف بشخصي وبحريتي . لقد أتيت بملء حريتي على متن البليروفون فلست أسيراً بل أنا ضيف بريطاني . لقد أتيت اليها لإجابة لاغراء الربان القائل أن معه أوامر من حكومته بقبولي في مركبه والحجيء بي الى انكلترا مع حاشيتي اذا كنت ارجب ذلك . وعليه جئت بثقة تامة ابتغي الاستقلال بكنف شرائع بريطانيا ، وحالما وطئت باخصي متن البليروفون صرت اعتبر نفسي في أرض بريطانية . فاذا كانت الحكومة باصدارها الاوامر لربان البليروفون بقبولي مع حاشيتي في مركبه قد نصبت لي نكاحاً فانها تكون قد خرقت حرمة الشرف ولطخت علمها بوصمة العار .

واذا أتت الحكومة البريطانية هذا العمل المنكر فلا يعود يحسن بالبريطانيين من الآن فصاعدا ان يدروا ذكر مروءتهم وشرائعهم وحريرتهم فتكون عزة النفس البريطانية قد قضى عليها في ضيافة البليروفون . « اي أبسط هذا الامر للتاريخ فسيقول ان عدوا للشعب البريطاني حاربه عشرين سنة نخانه الجذ نجاء بملء حريته ملتجئاً الى شرائعه . واي برهان واضح يستطيع أن يعطيه اياه عن احترامه وثقته . وكيف يقابلون في بريطانيا مثل هذه المروءة . اظهروا انهم يمدون لهذا العدو يدا للرحيب به وحين استسلم اليهم واثقا بصدقهم وامانتهم محروه . »

وفادر نابوليون البليروفون في ٧ أغسطس منتقلا الى الرنمبرلاند المتولي قيادته أمير البحر كوكبرن . وقد اغتنموا هذه الفرصة فنزعوا السلاح من جميع الاشخاص المتألفة منهم حاشية العاهل ولكن بقي لهم شيء من الحياء جعلهم يبقون له سيفه . اما أمتعته فان أمير البحر ذاته تفقدها بمساعدة مأمور من مأموري المكس . فاخذوا من بين أمتعته أربعة آلاف دينار ولم يتركوا له سوى الف وخمس مئة دينار ليستعين بها على القيام بأود معيشته . ولما قضى عليه بمفارقة

أصدقائه الامناء الذين ضنوا عليهم بمشاطرته سجنه ومنفاه البعيد خر ساقطاً عند قدميه والدموع تنهل من مقلتيه وقبل يديه . وقال لاس كاس : وقبله الامبراطور وهو رابط الجأش وسار نحو الزورق . وبينما هو سائر كان يحيي برأسه الذين على طريقه وعلامات اللطف على جبينه وكان جميع الفرنسيين الذين طارقناهم يذرفون العبرات الغزيرة فلم يسعني الا ان أقول للورد كيث الذي كنت احادثه في ذلك الحين : « ألا تري يا سيدي اللورد ان الذين يكون هم الذين يبقون . »

الفصل الخامس

السفر في البحر - الوصول الى جزيرة القديسة هيلانة

المقام في هذه الجزيرة حتى سفر لاس كاس

وكان اللورد كيث متناهما في اللطف والتحفظ مع الفرنسيين الذين على متن البليروفون ولم يقل عنه كوكبرن في مجاملتهم واظهار الاحرام للرجل العظيم الذي كان على كره منه سجنانه الوقي والمبالغة في العناية به . واستاء الوزراء البريطانيون مما ابداه الربان مايتلاند وبحارته من الاحرام لنابوليون ولاموه على اطلاقه على اسيره اللقب الذي كان يحمل به وهو على العرش واتخذوا التدابير العنيفة لئلا يحدث شيء مثل ذلك على متن النرويجلند وذكروا في تعليماتهم انه لا يجوز ان يطلقوا على المعاهل الساقط سوى لقب جنرال . ولما عرف نابوليون ما كان من تلك الاشياء الصغيرة المراد بها تحقيره قال : « فليطلقوا علي ما شاؤوا من الاسماء فلا يمكنهم ان يمنعوني عن أن اكون أنا » وخرجت النرويجلند من خليج المانش في ١١ أغسطس وبينما هي مارة عند رأس الهوغ عرف نابوليون سواحل فرنسا ففي الحال حياها بمد يده نحوها وصاح بصوت متهدج : « اودعك يا أرض الشجعان اودعك يا فرنسا العزيزة فلو لم يكن فيك بعض ثمر من الخونة لبقيت سيدة العالم : » هذه كلمات الوداع

الاخيرة التي وجهها الرجل الكبير الى الارض الشريفة التي فيها الشعب العظيم .
وكان العاهل ذات يوم يتنزه في اثناء السفر على متن السفينة كما لو ف مآذته
بعد الغداء فهبت عاصفة شديدة فلم يشأ دخول غرفته وامر بأن يأتوه يردائه
الرمادي المشهور ليتقي به المطر الغزير ولم يكن البريطانيون انفسهم ينظرون الى
ذلك الرداء الا بمقلة الاعجاب والاحترام :

وقتل العاهل الوقت بمطالعة الصحف فنذر ان يقرأ صحيفة من دون ان
يكون فيها اراجيف ومطاعن موجهة اليه ولكنه لم يكثر لذلك الامر فقال
للاس كاس في هذا الصدد : « لم يكن السم يؤثر بمزيدات فالوشاية اصبحت
من سنة ١٨١٤ لا تؤثر بي . »

ووصلت النرويج الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٥ اكتوبر وفي ١٦ منه
صعد العاهل الى البر يصحبه امير البحر والجنرال برتران . واقام في ريق الامر
في بربار عند تاجر من الجزيرة يدعى بلكب .

وكانت اقامته في منزل بلكب وقتية فان المقر النهائي المعد له كان في لونود
وهو منزل للحاكم في البراء ولكنه لم يكن مهيبا لسكنه فيه . ووجد عند
المستر بلكب كل ما يستوجبه من الاكرام وبعض وسائل تقبل الضجر . ولم
تدخر تلك الاسرة الكريمة شيئا من الاشياء الخفيفة عنه نقل السامة التي يلقاها
في ذلك المكان .

وفي ابان إقامة نابوليون في بربار لم يخرج سوى مرة واحدة لزيارة قائد
الفصيلة التي في الجزيرة فكان يعي بمفكراته ويملي مدة طويلة على لاس كاس او على
ابنه او على منطولون او على غورغو او على برتران ويتنزه في المعابر المغطاة أو
الآجام في بربار فلا يرى سوى الوهاد الهائلة من تلك المتنزهاة

وكان زنجي يقال له طوبيا يحرق حديقة المستر بلكب وهو هندي من
هنود ماليزيا اختطفه البريطانيون وباعوه رقا . وكان العاهل في خلال تنزهه
يلقى ذلك المنكود الحظ في ظاب الاحيان ويظهر له اهتماما شديدا بأمره .
وصمم على دفع فديته وكلما ذكر اختطافه يستشيط غضبا ولما وقف امامه في ذات
يوم لم يتمالك عن ضبط افكاره المزدهجة في نفسه وطلق يقول : « ما اعجب
هذه الآلة البشرية المسكينة فلا غلاف منها بمائل غلاف الاخرى ولا داخل منها

الا ويختلف عن غيره . فلو صبرت طويلا نظير بروتس لانتحر ولو صيرته كايروب لأيته الآن مستشارا للحاكم ولو صيرته مسيحيا غيورا وورعا لحمل قيوده امامه تعالى وباركها اما طوييا المسكين فلم ينظر الى ذلك عن كشب بل أقبل على العمل مذعنا بكل بساطة . « وبعد ما تأمل فيه حيننا من الزمان وهو صامت قال وهو يبتعد عنه : « انه ولا جرم فرق بين طوييا المسكين والملك ريشار ... ومع ذلك فالذنب لا يقل عنه فظاعة فلماذا الرجل اسرة وافراح وحياة خاصة وقد اقترفوا جناحا عظيما باتيائهم به الى هذا المكان ليموت رازحا تحت اقبال العبودية . » ثم انه صمت فجأة وقال للاس كاس :

« ولكنني أقرأ في عينيك أنك تفكر أنك لست نسيج وحده في جزيرة القديسة هيلانة فيا عزيزي لا يمكن أن يكون ادنى علاقة به هنا واذا كبرت الجريمة كان للضحايا موارد اخرى . فهم لم يكرهونا على مزاوله الاشغال البدنية ولو أنهم طالجوا ذلك لوجدوا ان لنا نفسا ينخدع بها الظالمون ... وقد يكون لحالتنا من ميل ... وسنظل شهداء لمبدأ خالده ... وملايين من البشر يبكون علينا والوطن ينتحب والمجد يلبس ثياب الحداد ... وللنكبات أيضا شدة ونحر ... وقد كانت الشدائد تنقص خطي ... فلو قضيت نحبي وانا على العرش محفوقا بمجالي العظمة والسطوة لبعيت لغزاً لا يرى الناس سبيلا لحله أما وقد صرت الى هذه الحالة فأنهم باتوا بما نزل بنا من الرزايا قادرين على الحكم علي حكما مجردا . »

وبرح نابوليون بربار في ١٨ دسمبر متوجها الى لونود للاقامة فيه : أجل ان المقر الجديد توفرت فيه أسباب الراحة ولكنه قاسى كثيرا من عنف سجانيه وخشونتهم . فاقاموا خفراء أمام نوافذه واحاطوا المسكن بجميع أنواع التحفظ المحقرة الجائرة : فامر منطولون بان يكتب الى امير البحر عن ذلك ولم يشأ ان يتولى بذاته شيئا من الاشياء معه لئلا يدع لاحد مجالا لأن يقول : « قال لي العاهل كذا وكذا . »

وخرج في أواخر شهر دسمبر للتنزه راكبا جوادا فاضطرته وعورة الطريق الى التراجع وقد غاص في الوحل حتى ركبتيه بحيث لم يتمكن الا بشق النفس من الخروج من ذلك المأزق الحرج . وقال حينئذ عن ذلك : هذه واقعة قدرة . »



قبل معركة واترلو

ولما تخلص من تلك الورطة قال : « لو هلكنا في هذا المكان فإذا يقول الناس في اوربا ؟ والمراؤون يقولون ولا مرء انا هلكنا بسبب ما آمننا . »

وكان جميع البريطانيين المارين بتلك الارزاء يرجون على جزيرة القديسة هيلانة لمشاهدة الضحية العظيمة التي ألقوها حكومتهم على تلك الصخرة الصماء فيستقبلهم نابوليون بلطف مقرون بالعظمة . ولما كانوا يجدونه خلافا لما صوروه لهم مدة عشرين سنة كانوا يمتدرون عن تصديقهم الاراجيف المذاعة عنه . فقال نابوليون لاحد من باسم : « اني مدين لوزرائكم بجميع هذا اللطف فقد شحنوا اوربا بالنشرات القاذحة والمثالب الموجهة الي وقد يمتدرون عن ذلك بقولهم اهم لم يفعلوا شيئا غير المجاوبة على النشرات الصادرة ضد من فرنسا . ولكن لا بد للمرء من أن يكون منصفاً فالذين رقصوا من قومنا على انقراض وطنهم لم يعترفوا بخطأهم وعمدوا الى الاكثار من نشر مثل تلك الذنرات . »

ومال أمير البحر الى النظر في الشكاوي التي نقلها منطلون اليه فجاء الى العاهل وفاوضه في شأنها وافترقا وكل منهما راض عن الآخر . وكان السكولونل سكتن معاون الحاكم يكثر من ابداء الاحترام لنابوليون فيدعوه العاهل غير مرة الى تناول الطعام هو وامراته على مائدته .

واجتمع رفاق الرجل العظيم في اول يناير سنة ١٨١٦ ليقدموه اليه ثم انهم بدخول العام الجديد على أن نابوليون الذي ذكرته تلك الحفلة بأيام مجده وسؤدده لم يدع احدا يشعر بشيء مما يجول في جنانه عن مقابلته الاستقبال البسيط في لونود بالاستقبالات الرسمية في التويلري . فاكرم وفادة رفقائه الذين اختاروا مشاطرته النوائب ودعاهم الى الغداء معه . وخطبهم بالكلام الآتي : « لستم سوى نفر قليل في طرف العالم وسيكون عزائكم في ان يحب بعضكم بعضا . »

وكانوا في كل يوم يرون حول لونود بحارة خالفوا التعليمات المعطاة للخبراء ودنوا من المنزل ليروا وجه الجبار السجين وقد قال نابوليون في هذا الصدد : « ما أعظم قوة التصور وما أشد تأثيرها في البشر ! فهؤلاء الناس لا يعرفونني ولم يروني قط ولكنهم همموا عني . فأني شيء لا يشعرون به وأي شيء لا يأتونه

حباً لي ؟ وجميع هذه الامور الغريبة تتجدد في جميع البلدان وفي كل عصر وعند
كلا الجنسين . هذا هو التعصب فالتصور متسلط على العالم .
ولم تكن الفسحة التي يستطيع نابوليون أن يتزده فيها راكبا فزسه تمكنه
من السير اكثر من نصف ساعة ومع ذلك اضطر فيما بعد الى العدول عنها :
فتارة كان أحد الضباط البريطانيين يزعم أنه أهين ببقائه وراء غيره وانه يشاء
الاختلاط بوايجة العاهل وتارة لم يكن الجنود البريطانيون يدركون معنى
نظامهم فيرفعون بنادقهم على اكتافهم ويصوبونها عليه .
ولم تلبث حالة الجو والاسران ظهر تأثيرهما فتوعكت صحة العاهل وتوعكا
بيننا ولم يكن ذا بنية قوية على ما يزعمون وقد قال أحد رفاقه في المنفى : « لم يقدر
جسده من الحديد ولكن عقله قد منه . » وكان الدكتور اوميرا الجراح
الانكليزي يعالجه وقد نال فيما بعد ملء ثقته .

وجاءت الجرائد الى جزيرة القديسة هيلانة باخبار موت مورات وخروج
بورليه على الحكومة والاقتصاص منه ومحاكمة ناي واجراء الحكم عليه بالموت
ولما قرأ لاس كاس امام العاهل الجريدة المذكور فيها خبر مصرع ملك نابولي
الفاجع قبض نابوليون بشدة على يده وقال بصوت عال من دون أن يزيد كلمة
واحدة : « ان الكالابريين أشد انسانية من الذين ارسلوني الى هذا المكان . »
ولم يدهش من عمل بورليه فقال : « عند رجوعي من جزيرة الباجاء في
الاسبانول الذين فاقوا سوام في المعارضة لي على غزوي وفي المدافعة عن بلادهم
وقالوا انهم لم يقاتلوني الا لاعتبارهم اياي طاغية وقد جاؤوا يلتمسونني خلاصهم
ولم يطلبوا مني سوى مبلغ يسير ليستعينوا به على التحرر وعلى اضرار نيران
فتنة في شبه الجزيرة تحاكي نيران الفتنة التي اضرمتها . ولو أصبت النصر في
واترلو لبادرت الى نجاتهم وهذا الحادث يفسر لي معنى السعي لاثارة الفتنة
الاخيرة ولا امثري في انها ستجدد مرة أخرى . ولقد سمى فردينان عبثا في
شدة سخطه للقبض على صولجانه بمخنق فسوف يغلت من يده يوماً من الايام كما
يغلت الجري . »

ورأى ان اقامة الدعوى على ناي غير محكمة كما ان الدفاع عنه غير حسن فنار
ناثره من ذلك الحكم المدوسة فيه الحقوق المقدسة على أن هذا الحكم الجائر لم

يزد وصف اسير جزيرة القديسة هيلانة له بالظلم على وصف عضو من أعضاء مجلس الشيوخ له فيما بعد في وسط المجلس عينه .

ثم انه انتقل الى رفض اولياء الامر والنهي في فرنسا منح المرحمة التي التمسها عقيلة لافالت وفرار زوجها فانتقد السياسة الخرقاء التي جرى عليها البوربون وقال : « ان الاندية الخاصة في باريس تمدي الاميال عينها التي تبديها الاندية العامة وقد عاد النبلاء الى تمثيل دور اليمعويين ... على أن الفرنسيات قد شرفن عواطفهن : فعقيلة لا بدويار اوشكت أن تموت من الحزن وعقيلة ناي صارت مثالا للاخلاص المقرون بالشجاعة العظيمة وعقيلة لافالت كادت تبث جبارة اوربا »

ولم يقتصر نابوليون على السياسة المعاصرة فانه بعد ما ألقى نظرة فكرية سريعة وثابتة على حالة اوربا في ذلك الوقت وخلص الحوادث سر بالعودة الى الماضي وتمثله أمامه الاشخاص المشهورين والحوادث العظيمة في التاريخ وجعل يعمل في ذلك الامر فكرته السامية وعقله الراجح . وحدث أنه في أثناء التأملات في العصور القديمة وقف عند العراق الشديد الذي نشب بين النبلاء والسوقة في رومية القديمة وذكر الاوهام والمناقضات العابثة بالاجيال التالية عن تصورها بالعراك فقال : « ان التاريخ يمثل العراق مشاغبين وثوريين وسفاحين ولكنه يبين بوجه الاجمال أن لهم فضائل ولطفًا وزاهة ودمائة أخلاق وانهم كانوا ابناء كرنيليا الشهيرة وهذا من شأنه أن يستميل اليهم أصحاب القلوب الكبيرة فما سبب هذا التناقض ؟ فدونكه : ان العراق وقفوا نفوسهم مدفوعين الى ذلك بكرم الاخلاق على حقوق الشعب المهضومة للدفاع عنها من اعتداء مجلس الشيوخ الجائر وكانت مواهبهم العقلية السامية واخلاصهم الكريمة تعرض للخطر ارسطقراطية شرسة الطباع ولكن هذه الارسطقراطية ظفرت بهم ونسكت بهم وأذلتهم . وقد نقل المؤرخون ذوو الاغراض أخبارهم اليها موسومة بسمة هذا الروح .

« وفي العراق الهائل الدائر بين الارسطقراطية والديمقراطية والمشددة وطأنه في هذه الايام وفي سخط الحالة القديمة على الصناعة الجديدة المختمرة في جميع الاقاليم الاوربية لا يمر في أحد في أنه لو ظفرت الارسطقراطية بالقوة لما لقيت

في كل مكان عددا وفيرا من الغراك لتعاملهم برقة على مثال ماعومل به الذين تقدموهم . »

ولما طاه نابوليون بهذا الكلام لم يكن سخط الارسطقراطية العصرية معتبرا افتراضا بسيطا فان ما حدث من الانحجاج في سنة ١٨١٥ ساق الدمار الى فرنسا : وامتزج دم لابدويار وناي وشتران وموطن دوفره بدم يرون ورامل . وكان القائمون باعمال الاجانب والملك يكملون مهمة السفاحين الذين قذف بهم رعايا المدن الجنوبية .

أو لم تحمر الارسطقراطية في جزيرة القديسة هيلانة أعظم الديمقراطيين وأشدّهم بأسا ارادة أن تجهز عليه على مهل ؟ واذا كان نابوليون وهو في المنفى يذكر لاس كاس مخدمه للملوك الذين يتهمهم بشكران الجليل ويفتخر بحبسه عنهم ما أطلقوه عليه فان هذه الذكرى تفصح عن بيان أسباب سقوطه وتبريء ساحة الامة التي اهتمته فعد ذلك الامر من جملة أحكام العناية التي لا مرد لها . إلا أن الملوك لم يشبههم ذلك الامر عن تعقبهم في شخصه جندي المبادئ الديمقراطية الاول ولسان حالها ورسولها وقد فاخر حتى في لونود بهذا اللقب المطلق عليه وفضله على لقب مخلص الملكية والمحسن الى الارسطقراطية .

على أن التصور المشؤوم الذي دبر سقوطه انتاب مخيلته وهو ملقى في وهدة الشقاء فقد كان رسول الثورة ميالا الى صيرورته وسيطا بين الماضي والحاضر وبين رجل الملوك والشعوب . وهذا التنافر الذي بيناه زال من ذهنه وقت ما اذاع الملوك نشرتهم المشهورة في ٢ اغسطس سنة ١٨١٥ . فقال نابوليون : « اذا عقل القوم في اوربا واستتب النظام في كل ناحية فلا نساوي المال والاعتناء المنفقين علينا في هذا المكان ويمكن التملص منا وقد يقتضي هذا الامر بضع سنين أي نحو ثلاث سنين أو اربع سنين أو خمس سنين : وفي ما خلا ذلك وفي ما عدا الحوادث العرضية التي لا يستطيع العقل البشري تداركها لالقي سوى أمرين كبيرين غير معينين يمكن الاستعانة بهما على الخروج من هذه الجزيرة . حاجة الملوك الي معارضة تيار الشعوب الجارف أو حاجة الشعوب الي الخروج على ملوكهم : فاني في العراك الشديد الناشب بين الحاضر والماضي أراي حكما ووسيطا طبيعيا . وقد طمعت بان أصبح الحكم الاكبر في مثل هذه الحال وجعلت وكدي

في ادارتي الداخلية وعلاقاتي السياسية الخارجية أن أصل الى هذه الغاية الكبيرة ولقد كانت النتيجة ممكنة وميسورة لو لم تتوخ الاقدار خلاف ذلك الامر . وثمة غرض آخر وهذا يرجح امكان حدوثه وهو حاجتهم الي اللوقوف في وجه الروس إذ أنه ما دامت الحال على هذا المنوال تصبح اوربا جماء قبل عشرينين قوزاقية أو جمهورية . هؤلاء هم رجال السياسة الذين أنزلوني عن العرش ... » ورأى العاهل فيما بعد أنه يصعب عليه تفسير معنى النشرة المذاعة في ٢ اغسطس سنة ١٨١٥ بغير بيان اخلاق كل من المعاهل والملوك الموقعين عليها فقال : « ان فرنسوى متدين وأنا صهره . والاسكندر ابرمت بي وبينه أسباب المودة . وملك بروسيا سقت اليه كثيرا من الاذى ولكنني كنت قادرا على جر مضرات أعظم وأشد عليه وفضلا عن ذلك أفلا يشعر المرء بسرور واقتضار بتوسيع دائرة سلطانه ؟ وبريطانيا نلت ما نلته من جراء بغضاء ووزرائها لي ولكن بهم الامير وكيل المملكة أن يرى تلك الامور ويشدخل فيها لئلا يتهم بالبلاهة وحماية أهل الشر . وانه لأمر محقق ان جميع هؤلاء الملوك سودوا صحيفتهم وهبطوا من حالق مجدهم بمعاملتهم إياي بهذه المعاملة . »

أيها الرجل الكبير دع اولئك الملوك والمعاهل يسودون صحيفتهم وهبطون من حالق مجدهم بمعاملتهم إياك بتلك المعاملة فان عملهم هذا محدود من جهة الاعمال الداخلة في مهمتك فانت لم ترسل لتثبيت عروش الملوك وان يكن قد بدر من فيك ما يدل على هذا الامر وبدت منك افعال تؤيده بل أرسلت لتكمل هدم البناية الملكية بنكباتك كما فعلت بانتصاراتك ...

وهذه صورة النشرة الآتفة الذكر التي أثار حنق العاهل وذكرته بما فعله لاجل الموقعين عليها .

« حيث أن نابوليون بوناپرت أصبح في قبضة الحلفاء فاصحاب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وراولندة وعاهل النمسا وعاهل روسيا يقررون بموجب شروط الوثيقة المنعقدة في ٢٥ مارس سنة ١٨١٥ ما يتعلق بالتدابير الملازمة لاحتياط كل عمل يباشره لاقلاق راحة اوربا :

« المادة الأولى — تعتبر الدول الموقعة وثيقة ٢٠ مارس المنقضي أن

نابوليون بوناپرت اسيرهن .

المادة الثانية — يفوض أمر خفارته بنوع خاص الى الحكومة البريطانية
الح. الح. الح. ٤. وحيث أن الحكومة البريطانية رضيت بأن تكون آلة
تديرها بغضاء اوربا القديمة ولم تبال بحقوق الامم فلم ينقص السجن المملكي في
وندسور إلا أن يبحث في نوبته عن آلة أخرى أوجدتها الطبيعة لاجراء الحكم
العنيف الذي اصدره اولئك العمال فدلّه وزيراه كاسلري وباثريست على هدمن لو.

الفصل السادس

هدمن لو — مقاومة نابوليون المستمرة لمزاعم الحاكم المنكرة وأعماله —
أوجاع العاهل وانحطاط صحته — اضطرار لاس كاس الى الافراق عن نابوليون
هدمن لو ! ان ذكر هذا الاسم* يستثير الاستفطاع والاشمئزاز في جميع
النفوس الكريمة ... وانما يا كيث وكوكبرن ابدينا شيئاً من الاعجاب بالمجد
ومن الاحترام للدهاء ومن الميل الى عظمة الشهرة والحظ ولكنكم لم تكونا
عارفين حق المعرفة المهمة المنتدبين لاجلها . فقد ظنننا انكم انتدبتم لمراقبة جبار
فرنسا وابقائه محصوراً في السجن ... فاهنثا ببلاهة كما اوها قد جاء الآن سجان
يحسن فهم مقاصد مواليه العظام فهو سيفهمكم ما يقتضيه الانتقام والخوف منكم
وما يستطيع نيله بواسطتكم في بضع سنوات من اقليم حالة جوه كحالة جوجزيرة
القديسة هيلانة اذا أعانه رجل كهدمن لو .

ووصل الحاكم الجديد الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٤ ابريل سنة ١٨١٦
وعند اجتماع نابوليون به للمرة الاولى وجده شخصاً تقذى به النواظر وتنفر منه
القلوب فقال عنه : « هو انسان كريبه الطلعة ذو وجه تنبوع عن منظره الاحداق
ولسكن فلنثرو في ابراز الحكم عليه : فربما اصلحت اخلاقه ما أفسده منظره
وليس هذا الامر بمستحيل . »

وأول أمر باشره هدمن لو انتداب رفاق العاهل في المنفى الى توقيع صلح
يثبتون فيه انهم مقيمون باختيارهم في لونود وانهم يخضعون لمقتضيات
أسر نابوليون .

وكان هدمن لويسر بايصاله الى العاهل نشرات وصحفا شخصيا اعدائه
بالمطالب والمطاعن بحقه وحق حكومته وقد دبحت احدى تلك النشرات راعة
الاب دي برادوت فاديرت رحي البحث فيها على ارسال السفراء الى فرسوفيا .
ولم تكن مثل تلك الاعمال المبنية على اللؤم سوى أمور صبيانية صادرة عن
رجل مثل السر هدمن لو . واستدعى للمثول امامه جميع خدام العاهل ليسأل
كلا منهم منفردا عن نوع بقاءه في جزيرة القديسة هيلانة هل هو باختياره أم
لا وكأنه لم يقتنع بصحة الصكوك المكتوبة المقدمة اليه في هذا الصدد . فتأثر
نابوليون من هذا العمل بيد أنه لم يلق بدامن أعضاء الطرف على هذه الاهانة
الجديدة ولما فرغ الحاكم من هذا الاستنطاق المقرون بالقحة دنا من لاس كاس
ومنطولون وقال لهما أنه انتهى من عمله وسيكتب الى حكومته ليخبرها أنهم
جميعهم وقعوا الصكوك مختارين ثم انه جعل يطب في مدح موقع الجزيرة وقال
ان العاهل ورجاله مخطئون بتذمرهم وفضلا عن ذلك يتمتع جميعهم بصحة جيدة .
ولما قالوا له انه ليس في الجزيرة شجرة واحدة يمكنهم ان يستظلوا بظلها في مثل
ذلك الاقليم الحار قال لهم والخبث يقطر من شفتيه : « ستفرس فيها الاشجار »
وبعد ما حبس لسانه عن الكلام تركهم ومضى .

وازدادت صحة العاهل توعكا يوما بعد يوم وفي اواخر ابريل الفى ذاته
مضطرا الى نبذ الحرية القليلة الممنوحة له لانتزعه فلم يكن يخرج من غرفته . فجاء
الحاكم لعيادته فاستقبله المريض العظيم وهو مضطجع على مقعد ولابس ثياب
النوم . وكانت أول كلمة فاه بها قوله للسر هدمن انه مصمم على الاحتجاج على
الوثيقة المبرمة في ٢ أغسطس . وبعد ما قال انه ابى الالتجاء الى روسيا او النمسا
وانه لم يشأ الدفاع في فرنسا حتى النهاية مما كان يجمله بأل نيل شروط ملائمة له
قال : « ان اعمالكم لا تشرفكم في التاريخ وما عدا ذلك ستنتقم العناية لي وستجنون
ثم اعمالك المرة عاجلا او اجلا ولا يمضي وقت طويل حتى تسكفروا عن هذه
الجريمة فيتبدل يسركم بالعسر وتتضعض شرائعكم . . . وقد برهن وزرائكم للملا
طرا بما اصدروه من الاوارح محتملي أنهم يشفون التملص مني فلماذا لم يحرقوا الملوكة
الذين أبعدوني على القضاء على جهارا بالموت ؟ ولا يخفى ان هذا النوع من الموت

او ذاك النوع منه متماثلان في شرعيتهما فتعجيل موتي يدل على عزيمة شديدة فيهم اكثر مما يدل عليها الموت البطيء الذي قضوا به علي »

فاجابه الحاكم انه لم يفعل الا ما أمر به وأن الاوامر الصادرة اليه تقضي بان يلزمه احسد الضباط ملازمة خياله له . فقال نابوليون : « اذا وضعتم هذه الاوامر موضع الاجراء على هذه الصورة امتنعت عن الخروج من غرفتي » وحينئذ اخبره السر هدهن لو انه ستصل عن قريب سفينة تقل قسرا من الخشب ورياشا واطعمة تخفف من اثقال المعيشة عن سكان لوفود الا أن العاهل لم يكثر لما علموه به من الآمال وشكاشكوى مرة من حرمان الوزارة البريطانية اياه جميع انواع العزاء كحبسها عنه الكتب والجرائد واخبار ابنه وزوجته . وقال : « اما الاطعمة والرياش والمسكن فانت وانا جنديان يا حضرة السيد ونحن نعتبر هذه الاشياء بقدر قيمتها الحقيقية لقد انتجعت مسقط رأسي وقد تكون زرت بيتي فهو وان لم يكن احقر بيت في الجزيرة وان لم أكن أستحيي به لا بد من أن تكون قد شاهدت انه صغير . واعلم اني وان اصبحت عرشا ووزعت تيجانا فلم أنس حالي الاولى : فقمدي هذا وسريري الذي تراه امامك بكفيا . »

ولما هم الحاكم بالانصراف كرر على العاهل اقتراحه عليه بارسال طبيبه اليه وكان في اثناء الحديث قد اقترح عليه ارساله فنبذ نابوليون اقتراحه . وعلى أثر مزايلة الحاكم لنابوليون أخبر هذا ما دار بينهما من الحديث . ولما فرغ من مقاله صمت قليلا ثم قال : « ما أقبح هيئة هذا الحاكم ا فني أثناء حياتي لم تقع عيني على نظيره واذا وقف الى جانبي هنية من الزمان مثل هذا الرجل امتنعت عن شرب فنجان القهوة ... ويمكنهم أن يرسلوا الي ما هو شر من سجان : » وكأنه لم يكفه ماساقه اليه أعداؤه من سوء المعاملة رغبة في تعذيب ذلك الداهية وإتلاف حياته حتى حدثت اختلافات بين خدامه زادت في تعذيبه وتمزيق نفسه وكان أن الشقاق قد تلصص الى أبطال الامانة فقال لاس كاس : « حدثت بيننا مشاحنات ومخاصمات ساءت العاهل وسببت له نكد العيش . » وهذا ما قاله لنا في هذا الصدد : « يجب عليكم أن تبذلوا الجهد لكي تؤلفوا هنا أسرة واحدة



نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة

فلقد صحبتهموني لتخففوا عني وطأة الشقاء أفلا يكفي هذا الامر لي جعلكم تتسلطون على عواطفكم ؟ »

ونشأ ذات مرة خلاف شديد بين خادمين شديدي التعلق به وحين سمعهما العاهل يعينان موعد المبارزة اغتم اغتما شديدا وانهرهما بالكلام الاتي :
« أتقولان انكما صحتما في رغبة في مرضاتي ؟ فكونا أخوين وإلا جررنا علي الانزعاج ... فكونا أخوين ان رغبنا في هنائي . كونا أخوين وإلا جلبنا علي العذاب .

« أتقولان أنكما تريدان المبارزة وذلك أمام عيني أو لم أصبح في نظركما كل شيء يجب عليكما الاهتمام به أو لا تزال عين الأجنبي موجهة اليها ؟ وأريد أن تكون روحي منعشة لكل واحد منكم هنا . وأريد أن يجمع جميع المحيطين بي كؤوس الهناء وان يشاطروني ما بقي لنا من الملهي والملاذ . وليس من أحد حتى عمانوئيل الصغير ذاته الا واريد ان يأخذ قسطه منها . »

وضعت صحة العاهل يوما بعد يوم واقتضت مزيد عناية فشاء ان يباحث الدكتور أوميرا في ذلك الشأن ليعلم هل كان يعنى بأمر معالجته كطبيب للحكومة البريطانية مخصص لسجن الدولة ام كطبيب معين لمعالجته الخاصة : فاجابه الطبيب بمزة نفس وصدق لهجة انه طبيب نابوليون ومن ذلك الحين وضع المريض النبيل كل ثقته به .

وبعد ما دعا الحاكم على غير جدوى الجنرال بونايرت الى تناول الطعام عنده توجه الى لونود حوالي اواسط شهر مايو ليخبر سجينه ان المنزل الخشبي وصل فلم يكرم العاهل وفادته وقال له ان امير البحر مع اجرائه بعض الامور المخالفة لمشيئته نال ثقته التامة ولا يرتئي أن ينيل خلفه مثل ما أناله . فاستاء المرهض من ذلك التعنيف وقال له انه لم يأت ليتلقى منه درسا .

فقال العاهل : « ليس ذلك لكونك غير محتاج اليه فقد قلت يا حضرة السيد ان التعليمات التي تلقيتها هي أشد عنفا من تعليمات أمير البحر فهل أمرت بأن تميتني بحمد السيف أم بالسهم : واني أنتظر كل شيء من وزرائكم فهنا نذا أمامك فأجر في حكمهم . وانا أحمل طريقة معالجتك قتلي بالسهم اما قتلك بإي بحمد السيف فلديك الذريعة التي يمكنك التذرع بها لاصابة بغيثك . واذا حدث

كما سبق لك ان هددتني به ان تخرق حرمة منزلي فاشعرك بأن رجال الفصيلة الثالثة والخمسين الشجعان لا يلجونه الا بعد ان يدوسوا جثتي . »
 وابتدأت صحة نابوليون تتحسن قليلا فالحوا عليه بأن يغتنم الفرصة من ذلك التحسن ويستأنف تنزهه على متن فرسه . ففهي مؤتلف الامر أبي اجابة سؤلهم لانه لم يشأ الرضى بالانحصار ضمن الحدود الضيقة المعينة له وان « يدور على نفسه كأنه في ميدان ترويض الخيل » وفي آخر الامر رضي باجابة طلبهم ومر وهو عائد امام المعسكر البريطاني فبادر الجنود الى الاصطفاف تاركين كل شيء ليحيوه التحية العسكرية فقال حينئذ : « اي جندي اوروبي لا يتأثر عند دنوي منه : »

وحاذر همدن لو الا يظل الماهل شاعرا شعورا كافيا بأنه سجين في لونود وعليه كان في كل يوم يبالغ ان يذكره بذلك الامر بما كان يأتيه نحوه من ضروب الاهانة والعسف والقسوة . فضبط المسكايب الواردة اليه من أوربا زاحما انها لم تمر على أحد الوزراء وضبط ايضا رقعة خطها عقيلة برتران بدعوى انها كتبت بغير اذنه . ونهى بصورة رسمية الماهل ورجاله عن كل علاقة خطية او شفاهية بسكان الجزيرة بغير موافقته.

وحولت الوزارة البريطانية القرار السياسي الصادر في ٢ اغسطس الى نظام رسمي في ما يتعلق بسجن نابوليون . ولما وصات الى الحاكم اوامر مبنية على قرار البرلمان في ذلك الشأن اغتنم الفرصة لتجديد غذاب سجينه ، و اضاف الى تلك الاوامر ملاحظات محقرة دن نفقات الماهل ملمحا عن وفرة عدد الخدام الذين أكثروا البقاء مع مولا .

وعلى هذه الصورة تخرج الماهل كؤوس المهانة منرعة الى اصبارها وبعد ما كان يقتحم ميادين القتال غير مبال بالعلية المدافع ووميض الشفار استسلم الى التبرم وآثر الاعتزال في غرفته . ولم يكن يفصل عنها الا ليمود عقيلة دي منطولون بعد ولادتها . وكان لهذه السيدة غلام في الثامنة من عمره يدعى ترستان فكان الماهل يسر بان يسمعه يتلو بعض الحكايات . ولما قال له الغلام انه لا يشتغل كل يوم سأله الماهل قائلا : « او لا تأكل كل يوم : » فاجابه الغلام : « بلى » فقال نابوليون : « بلاء عليه ينبغي لك ان تشتغل كل يوم

فالمرء لا يستحق أن يأكل أن لم يشتغل : « فقال الغلام : « اذا كان الامر كذلك فاني سأشتغل كل يوم » فقال نابوليون وهو يضحك ويدغدغ الولد على بطنه : « انظروا الى تأثير البطن الصغير فالعالم يحركه الجوع والبطن الصغير : »

وكانت أسرة بلكمب توالي زياراتها لنابوليون فيجمل استقبالاتها . على أن ذلك الغازي الهام والقائد الهصور الذي لم يظن وهو في يربار أن لعبة الغميضة تنقص من كرامته لم يظن قط وهو في لونود انه يكسف بهاء مجده ودهائه بمزاويلته تلك اللعبة وبتعليمه احدى اوانس بلكمب لعب البليار ..

ووصل مندوبو الدول الاوربية الى جزيرة القديسة هيلانة وابدوا رغبتهم في رؤية نابوليون . فزار امير البحر ملككم نابوليون واخبره ذلك الامر . وكان نابوليون يحب ذلك البحار الشجاع فقال له انه يتعذر عليه أن يستقبل مندوبي الحلفاء وختم حديثه بهذه الكلمات : « يا حضرة السيد انت وانا انسانان وانا اجملك حكما في هذه القضية : أمن الممكن أن اهل النمسا الذي اقترنت بابنته بعدما التمس مني وهو جاث أمامي ان اعقد هذا القران وبعد ما رجعت اليه طاصته مرتين وبعد ما حبس عنده امرأتي وابني يرسل الي مندوبه من دون أن يرسل الي معه سطرًا واحدًا ومن دون أن يخبرني عن صحة ابني ؟ فهل استطيع والحالة هذه استقباله ؟ وهل عندي شيء من الاشياء اقله له ؟ وما قلته عنه يمكنني أن اقله عن الاسكندر فاطلما افتخر هذا بصداقتي ولم تكن حروبي معه حروبا شخصية بل حروبا سياسية . وما يتباهيان عبثا بكونهما عاهلين فنحن لسنا سوى بشر ولا اتقاضهما الآن غير هذا اللقب . أو ليس لجميعهم قاب ؟ وصدق يا حضرة السيد اني حين استاء من لقب جنرال الذي يطلقونه علي لا ارتاع منه ولا انبذه الا لكونه يدل على اني لم اكن عاهلا . ولا يخفى أن دفاعي عن شرف غيري في هذا الشأن يفوق الدفاع عن شرفي . »

واعطى امير البحر العاهل جرائد منشورا فيها نعي عاهلة النمسا والاحكام المبرزة على القواد الذين تناولتهم الاوامر الصادرة في ٢٤ يوليو وتبرئة ساحته كبرن والقضاء بالموت على برتران . وانتهت الى العاهل في ذلك الحين رسائل من والدته وشقيقته بولين وشقيقه لوسيان .

وخطر لنابوليون في اليوم السابق عيده ان يصطاد الحجال فلم يستطع

المشي طويلا فاضطر الى ركوب الحصان . ولما كانوا جالسين على العشاء وصمهم يقولون انهم في ليلة ١٥ اغسطس قال لهم بتأثر : « غدا سنشرب في اوربا انخاب كثيرة توجه الى جزيرة القديسة هيلانة وستجتاز المحيط امانى حارة وعواطف نبيلة . » وتندى في الغد مع جميع رجاله الامناء في خيمة كبيرة جميلة امر بنصبها في الحديقة وقضى سحابة مهادنة بينهم .

وكان ما وجهه نابوليون من التعنيف المر والاهانة الى السر هدمن لو قد زاد في إيقاد نيران البغضاء في قواده وسيره يشدد في التضيق على السجين النبيل . ولما كان المستر همبوس قد ارسل الى العاهل الكتاب الذي ألغى عن المئة يوما وكتب عليه باحرف مذهبة : « الى نابوليون الكبير » ضبط الحاكم الكتاب بدعوى ان كاسلري منتقد فيه بلهجة عنيفة . وبعد هذا العمل المنكر ببضعة ايام تجاسر على الاطلاع على العاهل فوجده في الحديقة . وعالج التنصل مما عزي اليه قائلا انهم لو عرفوه حق معرفة تخففوا من لهجة انتقاده الا أن هذه الوقاحة جرت عليه اهانة جديدة في حضرة امير البحر ملككم .

فقال له نابوليون : « انك لم تتول قيادة غير قيادة العيارين الكورسيكيين وبعض الفارين من الجندية والمصوص البيمانتيين والنابوليين . وانا اعرف اسماء جميع القواد البريطانيين الذين امتازوا عن غيرهم في ساحة الهيجاء ولكنني لم اجمع احدا يتكلم عنك الا ويدعوك كاتب بلوخر او رئيس عصابة من الاشقياء . فانت لم تتول قط قيادة اشخاص من أهل الشرف ولم تتعود المقام بين ظهرانيهم . » ولما قال له السر هدمن انه لم يسع لنيل المهمة الموكول اليه امر قضائها قال له نابوليون : « ان هذه المناصب لا يسعى الناس وراءها فالحكومات تسندها الى الاشخاص المتجلببين باسمال العار . » حينئذ قال له الحاكم ان الواجب عليه ان يأتي هذه الاعمال وانه لا يمكنه مخالفة الاوامر الآتية اليه من الوزارة فقال له نابوليون : « لاأظن أن حكومة من الحكومات يحدوها اللوم على اعطاء مثل الاوامر التي تجريها . » واخبر هدمن لو سجينه ان الحكومة البريطانية تنوي تخفيض النفقات في لونود . فقال العاهل : « لاترسلوا الي شيئا من المظلم والمشرب اذا راقكم ذلك فأنا أتناول الطعام على مائدة ضباط الفصيلة الثالثة والخمسين الاشداء وأنا متأكد ان كلا منهم يسر بأن يمنح كرسيًا مجانبه الى جندي قديم .

فلست الا من الشحنة الصقلية ولست بريطانيا . فلا تمثل أمامي من الآن فصاعداً
الا حين تأتيني بالقضاء علي بالموت حينئذ تنفتح جميع الابواب في وجهك .
ولما رأي هدمن لو أن نابوليون وجميع الفرنسيين في لونود يحتقرونه
حاج حمل البريطانيين الذين في الجزيرة على معاداتهم فاذاع أن رفض نابوليون
استقباله ناجم عن بغضه الامة البريطانية وأن هذا البغض يتناول ضباط الفصيلة
الثالثة والخمسين الذين لا يشاء مشاهدتهم . ولما انتهت هذه الارجيف الى مسامع
العاهل بادر الى دعوة أقدم ضباط تلك الفصيلة وهو الكبتن بولتن فأكد له
أنه لم يقل شيئاً ولم يخطر له شيء مما أذاعه ذلك الحاكم كذباً وافتراء وقال له
« لست من المعجائز وأنا أحب الجندي الشجاع الذي خاض غمرات القتال أياً
كانت الامة المنتهي اليها . »

وبعد ما زاد السر هدمن لو في الطين بلة بمعالجته التوصل مما اتهم به تعمد
اتيان اهانات جديدة فظيعة فدعا اليه الدكتور أوميرا زاهماً أنه يريد أن
يستخبر منه عن صحة سجنه ولكنه كان في الحقيقة يبتغي التذهر من جراء
ملاحقه من المضاضة في اجتماعه الاخير به فقال له وشرر الضبط يطير من عينيه:
« قل للجنرال بونا برت أنه يجب عليه أن يعتدل في تصرفه وإذا أصر على غيه
لم أر لي بدا من اتخاذ التدابير العنيفة لزيادة التضييق عليه . » ثم أنه اتهم نابوليون
بأنه أهلك الملايين من البشر وختم كلامه بقوله : « أنه يعتبر علي باشا سفاحاً
يستوجب الاكرام أكثر مما يستوجبه بونا برت . »

ولام العاهل نفسه على اللهجة العنيفة التي خاطب بها الحاكم فقال : « كان
الاشبه بي أن أعبر برباطة جأش عن جميع هذه الاشياء فانها تكون أشد
تأثيراً . » وجاء الدكتور أوميرا وأخبره أن هدمن لو لن يطاق برجله أرض لونود :
على أن نابوليون لم يعتبر الاحتجاجات الشفاهية مع شدة لهجتها وفصاحة
عبارتها كافية لان تنقل الى الاحياء الحاضرة والمستقبلية الحكم الفاضح الذي كان
في نوبته قد عرف به القضاء الذين أصدروه وانتقدم وهو في منفاه في الجزيرة
الجرداء من دون أن تفارقه السياسة الادبية المتصلة اليه من العدالة والدعاء والمجازة

المواصف السياسية عن صدمها وهدم صرحها . فقوض الى الكنت دي منطولون أن يبلغ الحا كم صورة رسمية عن احتجاجه ضمنها جميع شكاويه بلهجة شديدة منطقية .

ولم ين هدمن لو عن التذمر من اسراف سكان لوزرد وانكاره كل يوم ما يطلبونه من الطعام والشراب من دون أن يخشى أن يحتقر من جراء تنازله الى التدخل في مثل تلك الامور التافهة كاعتراضه على بعض قناني من الحجر أو بعض ارطال من اللحم . على أنه أذن بأن تزد النفقات بحيث تعرض عليه دأ ما وهدمهم بزيادة التضيق ان هم نبذوا اقتراحه وهذا ما جعل لاس كاس يقول في مفكراته « كانوا يساومون في أمر حياتنا . » ولم يشأ العاهل قط أن يتدخل في مثل تلك المسائل وأمر بالايعدودوا الى ذكر شيء منها أمامه .

ووضع السر هدمن لو تهديده موضع الاجراء بتنقيصه النفقات فاعتم سكان لوزرد أن شعروا بنقص الاشياء الضرورية لهم . فذات يوم بعد ما تناول العاهل غداءه مر بالفرقة التي تتناول حاشيته الطعام فيها فوجد أن ما كان لديهم من الطعام والشراب قليل جداً لا يكفيهم فأمر من ذلك الحين بأن يباع كل شهر قسم من الآنية الفضية التي له للاستعاضة بشئها عن المبالغ الذي حسمه الحا كم . ولم يكتف هدمن لو باضطراب العاهل الى بيع آنيته الفضية ليعيش من ثمنها بل أراد أن يغتم الفرضة من ذلك الامر لايجاد أسباب أخرى يزعم بها سجنه . ولما كان الناس يتنازعون شراء أشياء تخص الرجل العظيم وكان تراحمهم قد جعلهم يدفعون مئة دينار ثمن صحيفة واحدة أعلن الحا كم أن هذه الصحيفة لا يمكن بيعها إلا للشخص الذي يعينه ولكن العاهل فكر في وجوب وضع حد لتلك المزاحمة وأمر بأن تحذف من الآنية المكسرة جميع العلامات الدالة على أنها تخصه ولم يحفظ منها سوى النسور الموضوعة على الاغطية .

وأثرت هذه المعاملات الدنيئة في ضجة العاهل شيئاً بدم شيء فبدأ على سجنه شحوب غير هيئته وألقى القلق في الافكار بحيث أنه صار شديد الشبه بأخيه البكر . على أن آلامه وهزاله لم يحولا دون مواصلة الرياضات والاعمال العقلية التي باشرها منذ وصله الى الجزيرة : فكان يدرس الانكليزية على لاس كاس ولا يهمل الاملاء على قواده أو لاس كاس أو ابنه عن حروبه والحوادث الخطيرة .

في حياته . وفي اليوم عينه الذي تعمد فيه همدن لو ازعاجه بمطالبه الاخيرة بشأن الآنية الفضية املى حوادث موقعة مارنفو على الجنرال غورغو وأعاد النظر مع لاسكاس في حوادث معركة اركول التي أملاها عليه قبلا . وذكر في المفكرات أن العاهل قرر أن تقرأ عليه في المساء الفصول التي أملاها ولكن حدث ذات ليلة أن إحدى السيدات استهواها النعاس فنامت وجعلت تنظ في نومها فلم يعد الى قراءة تلك الفصول في المساء وقال في هذا الصدد : « ان المؤلفين يحبون دائما بمصنفاتهم . »

وبعد الاذنان والاضطهادات المتوالية التي وجهها همدن لو الى العاهل وبعد كثرة الغضاضة التي تجرعتها من قبله طلب أن يشاهده فأصر العاهل على رفض استقباله اصرارا شديدا . فصمم الحاكم على أن يرسل اليه بواسطة الدكتور أوميرا رسالة ذكر فيها أنه لم يخطر له قط أن يهين الجنرال بونايرت أو يجرح عواطفه وهذا ما يخوله الحق بأن يتقاضاه اعتذارا عن اللمحة العنيفة التي خطبه بها في مقابله الاخيرة . وطلب أيضا همدن لو اعتذار الجنرال برتران عن إغلاظه الكلام له في اجتماعهما الاخير وقال اوميرا : « ان العاهل تبسم باحتقار عند افتكاره بطلب السر همدن لو منه أن يعتذر اليه . »

وجاء الكولونيل ريب الى لونود بعد يومين وطلب الدخول على العاهل وكان حاملا مذكرة يطلب فيها السر همدن لو مطالب جديدة . فأدخل الكولونيل على نابوليون وقرأ له المذكرة المكتوبة بالانكليزية وأبقاها معه من دون أن يترك له نسخة منها أو ترجمة عنها . وهذه خلاصة مذكرة همدن لو .

« يحجب على الفرنسيين الراغبين في البقاء مع الجنرال بونايرت أن يوقعوا الصك البسيط الذي يبسط لهم وأن يرضوا بالاذعان لجميع النواهي الممكن وضعها للجنرال بونايرت من دون أن يبدوا أدنى ملاحظة خاصة في هذا الشأن . والذين يأبون التوقيع يرسلون توا الى رأس الرجاء الصالح : فيخفف عدد الخدام الى أربعة وهؤلاء ينبغي لهم أن يعتبروا أنهم خاضعون للقوانين نظير رعايا بريطانيا العظمى ولا سيما فيما يتعلق بالقوانين المراد بها تأمين الجنرال بونايرت والمعلمة أن كل مساعدة له على الهرب تعتبر جريمة خيانة . وكل من يقدم منهم على خيانة الحاكم أو الحكومة المنتقمي ايها أو يبدي ملاحظات عليهما أو يسيء التصرف

نحوها يرسل في الحال الى رأس الرجاء الصالح ولايسهل له طريق العودة الى أوروبا. «
ولما أبلغ نابوليون الدكتور اميرا المذكرة الصادرة من سجنانه قال بعد
ما اعمل رويته قليلا : « أفضل أن اراهم جميعهم يسافرون على أن أرى حوالي
أربعة اشخاص أو خمسة أشخاص لاينفكون عن التخوف ويهددون في كل دقيقة
باركابهم متن السفن بالقوة . ويستنتج من هذه المذكرة أنهم جميعهم تحت مطلق
تصرفه فليبعد عني جميع الناس وليجعل الخفراء على الابواب والكوى وليرسل
الى الخبز والماء من دون غيرها فهذا لا يهمني لأن فسكري مطلق وقلبي حر على
مثال ما كانا عليه حين كنت أسن الشرائع لأوربا . »

ونحن لم نذكر حتى الآن كل التضيق الذي تعمد هدمن لو اجراءه بحق
العاهل نابوليون فأعلن أنه بموجب السلطة المطلقة الممنوحة له في جميع مساحة
السجن الموكولة اليه خفارته لا يستطيع نابوليون أن يعيل عن الطريق العام أو
يدخل بيتا من البيوت أو يكلم شخصا من الاشخاص الذين يلتقي بهم وهو يتنزه
راكبا جواده أو ماشيا على قدميه . ثم أن ذلك التضيق على الجنرال بونا بورت
ما عثم أن تشمل جميع حاشيته . فلم يصدق القوم في لونود في بدء الامر صحة
عنف ذلك التضيق وعهد الى الدكتور اميرا في أن يستوضح الحاكم عن الحقيقة
فبسط هدمن لو لاوميرا ايضا حاقا واقيا بلا تردد أو محاولة تخفيف وطأته .
ولما كان شديد الاهتمام بالاحتجاج الرسمي الذي وجهه اليه الميسو دي منطولون
أراد أن يعلم هل ارسل ذلك الاحتجاج العنيف الى لندرة واوروبا وهل كانت
نسخ عنه في الجزيرة ؟ ولما أجابه اميرا بالايحاب ساوره قلق عظيم .

وانتظر نابوليون كل معاملة قاسية من هدمن لو وقد أعلن له ذلك في
مقابلتهما الاولى إلا أن المعاملة الاخيرة صيرت كاس حنقه دهاقا لانه لم يخطر
بباله أن يعامل بمثلها وظل مترددا في اعتقاده أنه لا يمكن أن تأمر الوزارة
البريطانية بمثل هذه المعاملة وان يكن الحاكم قد أبلغه بواسطة اميرا أنه
لايجري الا الاوامر التي يتلقاها من حكومته . فقال : « اني متحقق انه لا توافق
على هذا العمل الجائر الاخير الا وزارة اللورد بانرست »

وقال نابوليون متذمرا : « أنهم يقصرون حياتي باناثرتهم كامنات سخطي
وكانت حالته الصحية تتأخر يوما بعد يوم فأصابته الحمى وصار يشعر بتوعك



معركة واترلو في ١٨ يونيو ١٨١٥

عام . ولم يشأ أحد من رفاقه في مصائبه مفارقتها مهما كانت عنيفة التدابير التي لجأ إليها هدمن لو . فأرسلوا الصك الى الحاكم وقد وقع جميعهم وفقا لطلبه مع استبداهم لفظة نابوليون بوناپرت بلفظة العاهل نابوليون . فأبى هدمن لو الموافقة على هذا التغيير وأعاد الصك الى الجنرال برتران ليعيدوه الى نصبه الاول . ولما علم نابوليون ما كان من ذلك الامر طلب أن ينهوا هذه المسألة برفضهم توقيع الصك والرضى بالانتقال الى رأس الرجاء الصالح .

وجاء الحاكم الى لونود ليخبر الجنرال برتران أن الجنرالية ولاسكاس وأفراد حاشية الجنرال بوناپرت الذين أبوا توقيع الصك سيرسلون حالا الى رأس الرجاء الصالح .

وكان لذلك الانذار القريب أجل الاجراء ما توقعه الحاكم من الوقع الشديد فان اولئك الاشخاص الذين اختاروا المنفى الى ذلك الاقليم البعيد المزار راضين باحتمال شظف المعيشة حبا لذلك الجبار العظيم الذي أحبوه فوق كل شيء اضطروا الى الاذعان للاستبداد مؤثرين ذلك على مفارقتها . وبعد منتصف الليل ساروا الى الكبتن بوبلتن من دون أن يشعروا العاهل بذلك ووقعوا الصك الذي نظمه الحاكم وتخلف عن توقيعه سنطيني لاصراره على الامتناع عن توقيع أي ورقة كانت لا يطلق فيها على مولاة لقب امبراطور . على أن نابوليون لما درى ما كان من هذا الامر لم يدهش من الادلة الجديدة على شدة اخلاصهم له وتعلقهم به فقال : « أنهم لا يتأخرون عن توقيع أي ورقة كانت ولو أطلق فيها علي لقب الطاغية بوناپرت أو غير ذلك من الالتاب المحقرة بحيث يستطيعون البقاء معي في المنفى يشاطروني الشقاء ويؤثرون ذلك على العودة الى أوروبا حيث يمكنهم أن ينجروا ذلاذل القبضة ويرتعون في بحبوحة الهناء . » وقال العاهل للدكتور اوميرا : « انه لضرب من الحماقة ان أرضى بقلب امبراطور في الحالة التي صرت اليها اذا كان الوزراء البريطانيون ينكرون علي هذا اللقب واكون والحالة هذه كواحد من اولئك التاعسين الذين في معقل بدلام فهولاء يتوهمون أنهم ملوك وهم مقيدون في الاغلال ومضطجعون على المشيم . » ولكنه كان شديد الاعتصام بذلك الأمر لاعتباره اياه من جملة حقوق الشعب الفرنسي ولم يتمسك به اجابة لداعي العجب والمجد الباطل .

وتناول بغض الحاكم نابوليون جميع الفرنسيين المقيمين في لونود الا ان بغضه
 للاس كاس كان أشد واقوى لان هدمن لو رأى فيه مذبح اعماله الخسيسة
 اليومية . فاحتال السير هدمن لو لاجل التملص منه على اخذ خادم خلاصي متقيد
 في خدمته سم أن الخادم عاد خفية الى لونود ليعرض على سيده القديم خدمته
 بارساله جميع المكاتيب والرسائل التي يبتغي تسييرها الى اوربا . فاعتقد لاس كاس
 صحة كلامه واعطاه مكاتيب ومن جعلها مكتوب الى لوسيان بونابرت . فما ابطأ
 هدمن لو ان استولى على المكاتيب وسقط لاس كاس في الفخ المنصوب له
 وظفر السجنان الغاشم بحاجته واوشك القانون الموضوع لسكان لونود ان يجري
 بحق شخص يعيل هو كل الميل الى التملص منه . وفي اواخر شهر نوفمبر سنة ١٨١٦
 جعل لاس كاس في السجن في جزيرة القديسة هيلانة وبعد ما تفقد هدمن لو
 جميع اوراقه استنطقه وامر بإبعاده الى رأس الرجاء الصالح . وكان ذلك الامين
 الصادق المستهدف لنبال الخيانة يستحق المكافأة والتعزية فافتكر نابوليون به
 وكتب الى لاس كاس وهو في السجن رسالة لئلا يترك الحاكم الجائر ضبطها فلم تصل الى
 لاس كاس الا بعد وفاة العاهل نابوليون .



الفصل السابع

ايام نابوليون الاخيرة ووفاته

ان غورغو الذي كانت تحدث بينه وبين لاش كاس مشاحنات ومناظرات عنيفة لم يشأ أن يدعه يبرح الجزيرة من دون أن يبين له أن قلبه لا يحمل حقدا . فطلب أن يصحب برتران الذي نال الاذن لمشاهدة لاش كاس وجاءا معا لوداع رفيقهما المنكود الطالع وقد حول منقاه الاختياري الى منقئ إجباري ،

ودامت المظالم في لونود بعد ذهاب لاش كاس كما كانت حين كان فيها على أن الدكتور اوميرا كان الوسيط الدائم بين نابوليون والحاكم وقد نهض باعباء المهمة الشاقة بخفة روح استجالت اليه ثقة العاهل به يوما بعد يوم وصيرته مشتتة فيه عند هدمن لو . وحقق ذلك الرجل بفعله ما قاله عنه نابوليون اي أنهم ارسلوا اليه من هو شر من سجان . وتجدد الاضطهاد كل يوم تحت اشكال شتى . ولما ابدى العاهل رغبته في تصفح الكتاب الذي وضعه بيليه عن بريطانيا وطلبه من الدكتور اوميرا اخذ السر هدمن لو من مكتبته كتابا عنوانه : « تاريخ الرجال الخاطئي الاصل عند جميع الامم الذين اختلسوا القاب امراطور وملك وامير . » وأعطاه الدكتور قائل له : خذ هذا ايضا للجنرال بوناپرت فقد يجد فيه صفات تنطبق عليه . هذه كانت اخلاق ذلك الرجل الذي اختاره اعداء نابوليون ليكون في جزيرة القديسة هيلانة لسان حال الملوك والارسطراطيين في اوربا وينتقم لهم من الجبار العظيم الذي ابقى عليهم بعد ما كان يستطيع تعفية آثارهم وطمس رسومهم .

وقد أصاب نابوليون الغرض حين وصف السر هدمن لو مطلقا عليه لقب « الشحني الصقلي » ولم تكن وايم الحق هذه اللفظة كافية للعبير عما يشوي في نفس ذلك السجان اللئيم من الخساسة والدناءة والخبت والفظاعة . وكان كلامه ترجمان جنانته وكثيرا ما استعمل اخشن الالفاظ للتعبير عن احقر المواطف . فذات يوم اطال لسان القدح بحق رفاق المعاهل الصادقين فقال : كان الافضل

للجنرال بونابرت ان لا يكون معه اولئك الكذابون كمنطولون وبرتران
ابن الكلبة الذي لم يكن دأبه غير التذمر .

وانه لامرؤك د ان حاشية نابوليون كانت قذى في عين مجري ارادة المحالفة
المقدسة ولم يشأ همدن لو ان يخفف اصدقاء نابوليون عذابات مولايم بما يبدوونه
له من دلائل التعلق والاخلاص بل شاء أن يضرب ضحيته ضربة قاضية في الحلوة
من دون أن يخشى أن يكون لتلك الضربة صدى . ولهذا الغاية ابعده عنه
لاس كاس وصار يجهد في ابعاد الدكتور اوميرا عنه .

وقال همدن لو غير مرة للدكتور اوميرا : اصبحت مشتبها فيك ولم يبق
لي مندوحة عن التحفظ منك . وكتب الى لندرة يطلب اخراج الدكتور اوميرا
من جزيرة القديسة هيلانة .

وحين كانت كتابته سائرة على الطريق الى اوربا كان الدكتور اوميرا يزدري
باتهام الحاك اياه وتقوره منه وثابر على عيادة مريضه النبيل وتقديم وسائل
التعزية اللازمة له علاوة على تقديم الدرائع الطبية التي يراها ملائمة . ولما لم يكن
خاضعاً للنظام العنيف الخاضع له سكان لونود استفادوا من حرية علاقاته
بالخارج وابدى نابوليون ثقة عظمت به .

وكان نابوليون في اثناء الراحة التي يتركها له الحاك كم يسر باعادة ذكرى
رجال التاريخ أو البحث في القضايا المهمة المتعلقة بالسياسة الحاضرة .

وقد مثل الماهل الثورة في مجموعها ومبادئها وهو في شاحق الفلسفة وموقف
التجرد عن كل ميل أو هوى في الحالة التي اوصلته اليها تقلبات الاقدار ووضعت
حدا لحياته السياسية قبل اوانها . وقد قال في هذا المعنى : « ليست الثورة
الفرنسوية نتيجة تصادم اسرتين تتنازعا على العرش بل هي حركة عامة صادرة عن
مجموع الامة لمناوأة اصحاب الامتيازات ... وقد استنارت بمشكاة مبدأ المساواة
واضحلال بقايا ازملة اصحاب الاقطاعات وانشأت بلاداً فرنسوية جديدة قسمت
ارضها تقسيماً متجانساً ومنحت نظاماً قضائياً واحداً ونظاماً ادارياً واحداً وشرائع
مدنية واحدة وشرائع جنائية واحدة وطريقة واحدة لجباية الضرائب . وصارت
فرنسا الجديدة المحتوية على خمسة وعشرين مليوناً من السكان تؤلف طبقة واحدة

من الوطنيين خاضعة لشريعة واحدة ونظام واحد وقانون واحد . وقد جاء ذلك
التفكير موافقا لخير الامة وحقوقها ولجري العمران . »

فاذا استمدت الثورة والحالة هذه اصلها من مبدأ المساواة وهداها دهاء
الحضارة فهل يستطيع اعداؤها الالقاء المتعجرفون الغض من كرامتها ؟ أجل
انهم خلعوا ممثليها عن العرش ونفوه وسجنوه وجرعوه كؤوس المهانة والعذاب
ولكن ذهب مساعدهم على غير جدوى فالمستقبل مضمون لها . واذا أقصتها
الحكومة عنها لاذت بعقوة الهيئة الاجتماعية . فصارت الصحافة لسان حالها
بعد نابوليون وستعيد اليها هذه الصحافة ادارة الحكومة يوماً من الايام .
وابصر سجين القديسة هيلانة وهو في الاغلال وعلى مسافة بعيدة انتصارا
جديداً أصابه المبدأ المقدس الذي كابد ما كابد من أجله حتى فاضت روحه وهو
يجاهد في سبيله فقال : قبلما تنقضي عشرون سنة على وفاتي بعدما يغيبني الحفير
سترون في فرنسا ثورة جديدة . »

ولم تقتصر نبؤته على فرنسا وحدها بل هدد مبدأ المساواة الارسطقراطية البريطانية
نفسها فقال للدكتور اوميرا : « في رؤوسكم كثير من العجرفة الارسطقراطية
فانتم تعتبرون سوقة الناس مجبولين من طينة أدنى من الطينة المجبولين انتم منها
تسكلمون عن حريتهم ولكن هل ترون افظع من تجنيدهم بحارتكم بتلك الطريقة
الاستبدادية . ومع ذلك فالوقاحة تحذوكم على انتقاد تعبئة الجنود في فرنسا .
وهذا الامر يجرح عواطف كبرياتكم لانه ليس من تمييز بين طبقات المجتمع الاساني
ما أحقر المنزلة التي ينزل اليها عندكم ان النبيل عند اضطراذه الى الدفاع عن
وطنه ومساواته لاء بناء السوقة وتعريض حياته كانه واحد من أبناء الشعب .
ومع ذلك جعل الحق سبحانه وتعالى المساواة بين جميع الناس . فمن تتألف
الامة ؟ لا تتألف فقط من لرداتكم أو اساقفتكم الكبار أو رجال كنيستكم أو
نبلائكم أو بعض الخاصة عندكم . فسيأتي يوم ينتقم فيه الشعب وسيشاهد
الناس أموراً هائلة : »

وكان نابوليون من جهتي التنازع والنبؤة يحب بنوع خاص ان يعالج لخص
ملكه وحياته مثنيا عليهما فاختصر ما تخللها من الحوادث بسطور وقال :
« نقد اجهدوا نفوسهم على غير طائل يحذفهم واستقاطهم ما شاؤوا حذفه .

واسقاطه وتشويههم ما راموا تشويهه فيتعذر عليهم أن يطمسوا رسومي . ولا يلقي المؤرخ الفرنسي مندوحة عن ذكر الامبراطورية وإذا كان له قلب فلا يلقي له بدا من ارجاعه الي شيئاً من الاشياء ومن اعطاني نصيبي مما استحقه . ولعمري الحق انه سهل عليه هذا الامر لان الحوادث تتكلم وتبدو واضحة كالشمس في رابعة النهار .

« لقد سددت ثلثة القوضى وحللت عقدة الخلاء وطهرت الثورة وشرفت الشعوب وثبت اركان عروش الملوك واستثرت حب المنافسة وكافأت اصحاب الاهلية وأخرت حدود المجد . ولا يخفى ان هذه الامور لا يستهان بها . وهل يمكنهم ان يتجهجوا علي قاذحين ولا يقوم المؤرخ للدفاع عني ؟ وهل هذه مقاصدي ولكن ثمة أسباب تدعو الي تبرئة ساحتي . فهل أنهم بالاستبداد . يبين ان الحكم المطلق كان امرا لاغني عنه . وهل يقولون اني القيت الجنادل في سبيل الحرية فانه يبرهن عن ان فساد الاخلاق والقوضى والاضطرابات أو شكت ان يستفحل أمرها . وهل يتهمونني بشدة الميل الي الحرب . فانه يقول اني اتخذت خطة الدفاع . وهل يزعمون اني توخيت وضع اساس الامبراطورية العامة فانه يظهر ان ذلك الامر نتيجة عرضية للحوادث وان اعدائي الجأوني الي تلك الحال . وهل يدعون ان مطامعي كانت سببا لذلك البلاء فانه ولا مرأه سيوجد لي من المطاعم مقادير وفيرة ولكن أعظم تلك المطاعم واسماها انشاء سلطنة العقل ومزاولة القوى العقلية وقد يضطر المؤرخ هنا الي التأسف على حبوط تلك المطاعم... هذا تاريخي بكامله حصرت في هذه الكلمات القليلة . »

وصمم هــصن على ابعاد إوميرا عن نابوليون كما أبعد عنه لاس كاس . ولما لم ينل من لندرة ابعاد الدكتور أوميرا فكر في إخضاعه في نوبته لقانون جائر ثقیل الوطأة يتعذر عليه احتمالـه فيضطر الي التماس منه بالمبادرة الي الاستقالة . فاصاب بغيته من ذلك الامر ان أوميرا أكره على البقاء محصورا ضمن دائرة لونود ومحروما معاشرة البريطانيين وتولي العلاقات مع أي كان من الناس اللهم الا ما كان من خصائص مهنته الطبية فعالمج التخفيف من ذلك التضييق برفع واقع الحال الي امير البحر بلامبين المقيم في بريار . ولما ابى

امير البحر ان يستقبله عقد عروة العزم على الاستقالة وبادر الى الكتابة في الحال الى الحاكم.

الا ان مندوبي الدول المتحالفات لما علموا ان صحة العاهل تقتضي عناية متواصلة وخافوا ان يكون انطلاق الدكتور أوميرا قبل ان يعينوا له خلفا يرضى به نابوليون سببا لحدوث أمور محزنة تزيد في عظم المسؤولية الملقاة على عواتق حكوماتهم ألحوا على الحاكم في ابقاء الطبيب البريطاني يزاول مهنته في لونود . واخيرا اقتنع هدمن لو بابقائه بعد جدال عنيف طويل اسكنه عاد الى تجديد وشايته بحق الدكتور أوميرا طالبا من الوزارة في لندرة اخراجه من الجزيرة لثلا يفسد عليه أمره في المهمة الموكول اليه قضاؤها ،

وحرص عليه قائد الفصيلة السادسة والستين التي خلفت الفصيلة الثالثة والخمسين وافتنعه برفض جلوس الدكتور اوميرا على مائدة الضباط وبعد ارسال تقارير مطولة من كلا الفريقين في وصف تلك الحالة انتهت الى الدكتور اوميرا رسالة من ادورد وينيارد نائب الكولونل يخبره فيها بالنيابة عن مدعين لو انه وردت اوامر من الكونت باثريست في ١٦ مايو سنة ١٨١٦ بابلاغ الدكتور اوميرا الاعتماد عن الجنرال بونايرت وعدم مخالطة ابي كان من سكان لونود

وقال اوميرا : ان الانسانية وما تقضي به علي مهنتي وحالة نابوليون الصحية حالت دون اذعائي لتلك الامور العارية عن الشعائر الانسانية . فصممت لساعتي على ما ينبغي لي عمله فازممت التمرد غير مبال بعواقب فعلي هذه . واقتضت صحة نابوليون ان اُصف له طريقة المعيشة وان اُهيء له العلاجات اللازمة في اثناء تغيب الجراح . وعاد الدكتور الفاضل الى لونود واوقف المعامل على امر الكونت بائسرت فقال نابوليون : « انهم يجولون في ارتكاب جريمتهم فقد طالحت حياتي في انظارهم . »

وبسط الدكتور أوميرا لعليله النصائح الطيبة الواجب عليه المسير بموجبها بعد مفارقتها إياه . ولما فرغ من الكلام انشأ نابوليون يتكلم بحدة ويقول : « حين تصل الى أوربا اذهب الى أخي يوسف او ادعه اليك وقل له اني ارجب ان يعطيك الرزمة المحتوية على المكاتيب الخاصة السرية التي كتبها الى الاماهلان الاسكندر وفرنسوى وملك بروسيا وغيرهم من العمال والملوك والاقبال

في أوروبا وقد سلمته اياها في رومشور . فاطبعها ارادة ان يقنع بالعار وأولئك العاهل والملوك والاقبال ويقف العالم طرا على الاكرام المقرون بالتذلل الذي أدوه لي حين التمسوا مني نعماً أو طلبوا مني المحافظة على عروشهم . وحين كنت ذا سطوة وبأس وكانت السلطة في قبضي تزاخوا على طاب حمايتي ونيل شرف محالقي ولحسوا التراب تحت قدمي . اما وقد شخت غلهم تهنضوا حقوقي بخساسة وفرقوا بيني وبين زوجتي وابني . فارجو منك ان تفعل ما أوصيك به واذا رأيت أحدا ينشر صدى مثالب ومطاعن عن الحين الذي قضيته معي وقدزت ان تقول : « لقد ابصرت بعيني وعلمت ان ما قيل ليس صحيحا فعارضه . »

ثم ان العاهل املى على الكونت برتران رسالة ذيلها بحاشية بخط يده اوصى بها ماري لويز باوميرا . وفوض الى ذلك الدكتور ان يستخير عن أسرته ويخبر انسابه الاذنين عن الحالة التي صار اليها .

وقال له : ابسط لهم ما ادخره لهم من العواطف وكن ترجانا عن محبتي لزوجتي العزيزة ووالدتي الغاضلة وشقيقتي بولين . وان انت ابصرت ابني قبله غني وقل له ألا ينسى أبداً أنه ولد أميراً فرنسويا وعبر للادي هولاند عن العواطف التي احفظها لكرم اخلاقها وما أشعر به من الاحترام لها . واخيرا ابذل الجهود لترسل الي اخبارا صحيحة عن الطريقة التي يجرون عليها في تربية ابني . « ولما قال العاهل هذا الكلام قبض على يد الدكتور أواميرا وضمه الى صدره قائلاً له « اودعك يا أواميرا فلم يبق لنا أمل باللقاء وأؤمل ان تقضي حياتك بالهناء . » ولم تكن مفارقة أواميرا لنابوليون خاتمة أحزانه فلم يكد الطبيب يفادر جزيرة القديسة هيلانة حتى اضطر غورغو في دوره ان يبرح الجزيرة الويسلة الهواء ليتداوى من الداء الذي كان يبرح بجسمه منذ زمان طويل . ولما وصل هذا الجنرال الى أوروبا اذاع في كل مكان ما ينتابه من المخاوف على صحة العاهل وقد ألم بأسرة الرجل العظيم من جراء ذلك الامر كآبة ما وراءها من مزيد . وتفتت بنوع خاص مرائر والدته حين انتهى اليها ان ابنها مورد هناها ومصدر نقرها مصاب بداء يخشى ان يصير قتالا من دون ان يكون على مقربة منه طبيب يعالجه بما يتيسر له من اساليب الفن . فسعت مع أخيها الكردينال فش لمفاوضة اللورد بائرس في امر نجلها فنال منه الترخيص بإرسال الدكتور الطومرخي وكاهن وشخصين آخرين الى جزيرة القديسة هيلانة .



ولنتنن فی واترلو

ووصل انطومرخي الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٨ سبتمبر سنة ١٨١٦ فدهش من حسن استقبال هدمن لوله وجعل هذا يشكو من انفة الجنرال بونايرت وخشونته واحتجاجاته الا ان هذا الاستقبال لم يمنع ريد وغوريكور خادمي الحاكم عن القيام باعباء المهمة الملقاة المفوضة اليهما. واعتذر غوريكور عن اضطراره الى الاطلاع على المكاتب والخطوط والمرسلة الى لونود اما ريد فانه لم يتمكن له عذرا وعمد الى تفقد امتعة انطومرخي ورفاقه وكان بينهم الابوان بونافيتا وفينيلي .

ولم يحسن استقبال انطومرخي في لونود كما أحسن استقباله في مقر الحاكم وحيث ان العاهل لم يكن قد أشعر من لدن الكردينال فش أو غيره من أفراد أسرته بقدوم الطبيب الجديد تردد في مفتتح الامر في قبوله لتفوره وتحفظه من كل ما يأتيه من بريطانيا او بواسطة الوزارة البريطانية . الا ان انطومرخي ازال شكوكه منذ أول مرة دخل فيها عليه فقال له العاهل : « انت كورسيكي وهذه هي الملاحظة التي جعلتني أَرْضَى بِمَقَائِكَ عِنْدِي : » ولما ركن اليه نابوليون استنخر منه عن والدته وزوجته واخوته واخواته ولاس كاس وأوميرا والورد والادي هولاند . وصرف الدكتور بعد تلك الاستخبارات . وبعد بضع ساعات دعوه فباشرفخص المريض القادم هو من اقصى ايطاليا لثولي معالجته .

فقال له نابوليون : « ماذا ترى يا حضرة الدكتور هل اظن وقتا طويلا سببا لتخمة الملوك — ستميش بعدم يا مولاي . — أظن ذلك فانهم لا يمكنهم ان يبعدوا عن أوروبا أخبار انتصاراتنا فستجتاز العبور وتحدث عن الغالبين والمغلوبين وعن كرام القوم ولثامهم . وستبرز الاجيال الآتية احكامها لكنني لا أخشاها . — ان هذه الحياة ملك لك . . . ولكنك لم تلتها بعد الى غايتها فليدك مجال واسع تجري فيه . — كلا يا حضرة الدكتور ان البريطانيين قضوا لبائهم مني ولا أستطيع ان اعيش عمرا طويلا في هذا الاقليم الوبيل الهواء . » وقد رضي بان يمثل لوصايا الطبيب ووصفاته بعد ما كان يأتي الخضوع لها . ثم انه قال له : « لقد تركت كل شيء لتأتيني بوسائل الفن فالحال تقضي علي بأن افعل ما يساعدك في مزاوله مهمتك وان اذعن لما تبغنيه مني . » وقص على الدكتور انطومرخي ما لقيه من العذاب بعد ارحال الدكتور أوميرا فقال :

« لقد منعوا عني منذ سنة من الزمان مساعدة الطب وحرموني معالجة ارباء الذين اثق بهم . فالجلاد يجرد نزعني بطيئا جدا فيمجله ويستنفد الميسور لتقريب اجلي مني . فاهواء نفسه الذي استنشقه يجرح نفس ذلك المرء الخسيسة . وهل تظن ان مساعيه اطليل اجلها وانها تجري بصورة علمية واني اوشكت ان ابيت صريح النصال البريطانية فالجنرال منطولون كان متوعدك الصحة وقد ابى هدمن لو مفاوضة برتران وشاء ان يتولى المفاوضة معي رأسا . فكان يرسل الي مرتين في النهار مندوبيه ريد ووينيار الواضع ثقته فيهما فبزعجان هذه المساكن الشقية وبيتغيان الدخول علي فاقفلت ابوابي وحشوت غدارتي وبنادقي ولا تزال محشوة الي الآن وهددت بالهاب دماغ اول شخص تدفعه الوقاحة علي اقتحام مشواي عنوة فرجما وهما يصيحان بلء اشداقهما اتها يبغيان رؤية نابوليون بونابرت وانه يجب علي نابوليون بونابرت أن يخرج وانهما يعلمان كيف يجبران بونابرت علي البروز . فظننت ان تلك المشاهد المحقرة انتهت ولكنها تكررت في كل يوم بعنف متزايد باشكال شتى كاطلاعهما علي منزلنا فجأة وتقوهمما بكلام التهديد وقدفعهما بالسباب وتركهما مكاتب مشعونة اهانة وتحقيرا : وكان خداعي يلقون في النار تلك الرسائل ولكن طفحت كأس الغضب : وصار ينتظر من حين الي آخر حدوث فاجعة . ولم يسبق لي أن كنت مستهدفا كما كنت في ذلك الحين لسهام العطب . وكنا في اليوم السادس عشر من شهر اغسطس وقد ابتدأت تلك الاعتداءات في ١١ منه ، فاشمرت الحاكم بأني قدرت افكاري وأن بنائق صبري انقثت وأن أول سفاح مأجور يجتاز عتبة بيتي اصره بعبار ناري من غدارتي . فاعتبر بهذا الكلام ووضع حدا لتلك الاهانات ... اني تنازلت حرا مختارا لاجل ابني والدستور وبممت بارادتي انكثرا ونويت أن أعيش فيها معتزلا تحت كف شرائعها ولكن هل للارسطقراطية شرائع ؟ وهل يستطيع شيء من الاشياء أن يوقفها عند حد ؟ وهل من حق من الحقوق لاندوسه برجلها ؟ فجميع زعمائها مرغوا وجوههم أمام اعلامي وقد وضمت تيجانا علي رؤوس بعضهم واقطعهم بلدانا من فتوحني واجلست البعض الآخر علي عروش هوت أمام النصر . وقد حاملت الجميع بالشفقة والمروءة

ولكن الجميع أعرضوا عني وغدروا بي وتهافتوا على تشديد حلقات قيودي :
وبت تحت رحمة لص من لصوص البحر . »

وبقي انطومرخي ثمانية عشر شهراً يقارع بكل ما أوتيه من الدهاء في العلم
وبكل ما فطر عليه من الحمية مرضاً اشتدت وطأته على العاهل وقد عرف جميع
سكان لونود ماسيكون من نتيجته على الرجل العظيم . وعلم ذلك الطبيب الحاذق
أن مساعيه باطلة فسكتب في أواسط شهر مارس سنة ١٨٢١ الى رومية الى
السكافاليا ركولونا حاجب السيدة لاتيسيا والدة نابوليون يخبره أن نهاية حياة
العاهل اقتربت وكان في جملة ما قاله له : « تذيع الصحف البريطانية ان صحة العاهل
جيدة فلا تصدق هذا الامر وسيريك الحوادث هل يصدق مروجونك الارجيف
أم يحبطون في دياجى الضلال . »

وبعد أيام قليلة دار بين نابوليون وانطومرخي الحديث الاكثي عن صحة
الاول منهما فقال للثاني :

« يا حضرة الدكتور اراني مع ما تصفه لي من العلاجات مقرباً من النهاية أو
لاتظن ذلك ؟ - انك مخطيء في وهمك . - حسناً قلت ولكن هو غرور طبي
فأي تأثير سيكون لموتي في أوروبا ؟ - لا يكون له ادنى تأثير يا مولاي . - أتقول
أنه لا يكون له تأثير ؟ - نعم لانه لا يحدث . - وهب حدث . - خيئت يا مولاي ...
- ماذا يكون ؟ - ان جلالتك قبلة امانى الشجعان فان دجى النعم يغشاهم . -
وماذا يصيب الشعوب ؟ - يديتتون تحت رحمة الملوك ولا تقوم قائمة للمبدأ
الشعبي . - أتقول أن هذا المبدأ لا تقوم له قائمة يا حضرة الدكتور ؟
وماذا تفكر عن ابني ؟ هل تظن ... - كلا يا مولاي ولكن ما اطول المسافة
الباقية امامه - وهل هي اطول من المسافة التي عبرتها ؟ - ما اكثر المصاعب
التي لابد من تذليلها ! - وهل كانت المصاعب التي ذللتها اقل منها ؟ وهل كانت
البداة التي ابتدأت بها اسمى من بداءة ابني ؟ فاعلم يا حضرة الدكتور انه يحمل
اسمي وقد خلفت له مجدي ومودة اصدقائي وحسبه هذا الامر في اصابته هذا
الارث . » وقال انطومرخي فيما بعد : كان ذلك الكلام هذيان اب دخل في
طور النزاع فلم أطل البحث في الموضوع مخافة أن انسج من ذهنه الاغترار
النازل فيه .

والنرم العاهل سريره من اليوم السابع عشر من شهر مارس وحين لم يسهل على الضابط الموكل اليه امر تحقق وجوده في كل يوم في لونود ان يبصره يبرز للانظار اشعر الحاكم بذلك فظن هذا في بدء الامر ان سجينه فرجاء بذاته وجعل يطوف حول المنزل ليتمحقق وجوده فيه . ولما لم يحل بطائل من بحشه اعلن انهم اذا لم يأذنوا لمدوبه بالدخول مرة واحدة في كل اربع وعشرين ساعة ورؤية الجنرال بونايرت اضطر الى المجيء بذاته مع اركان حربه ودخول غرفة المريض عنوة غير مبال بما يكون من العواقب الوخيمة من وراء دخوله . ولم يتمكن الجنرال منطولون من افناعه بالمعدول عن مقصده ببسطه له حقيقة حال صحة اعاهل . فقال له السر هدمن لو انه لا يهمل موته الجنرال بونايرت اوحيايته وان من الواجب عليه أن يتحقق وجوده ولا يسهل الاتمم ما يجب عليه . وبينما هو على تلك الحال لقيه الدكتور انطومرخي فعنفه هذا على كلامه القاسي واعماله المنكرة . فلم يشأ السر هدمن لو ان يسمع منه اكثر من ذلك الكلام وعاد وهو يرعد ويرق وظل انطومرخي يقبح اعمال جلادي الرجل العظيم مخاطباً ريد بهذا الكلام : « ان نفوسكم محبولة من طين التمايز ولذا اتيتم لمراقبة انقاس الميت الاخيرة وعندكم ان نزاعه طالت مدته فتريدون تعجيله والتمتع به . ان السميري الذي فوض اليه امر قتل ماريوس تردد في عمله ... واما انتم ... لا بأس من ذلك فاذا قيس الهوان بالجريمة فنكون قد انتقم لنا . »

واغتاز السر هدمن لو من كلام انطومرخي وظل مصراً على مقاصده الوحشية فزم على وضع تهديده موضع الاجراء ولكن العاهل رضي بالحاح برتران ومنطولون عليه بان يستشير طبيباً آخر وسما له الدكتور انرولت . وقد فوض الى هذا الطبيب أن يثبت رسمياً وبأوقات معينة لمدوب الحاكم وجود السجين . واقترب الاوان الذي أوشكت أن تزول فيه مخاوف السجان ففي ١٩ ابريل اعلن نابوليون لاصدقائه المتوهمين انه يتعافى ان منيته تدنو منه فقال :

« لستم مخطئين فانا اشعر بتحسن في صحي اليوم ومع ذلك لا يدفع غني هذا التحسن الشعور بدنو أجلي . وحين أقضي يتعزى كل منكم بتمكنه من العودة الى اوربا . وسيبصر بعضكم ذوي قرباه والبعض الآخر اصدقاءه وانا

سأجتمع بابطالي في دار النعم . » ثم أنه رفع صوته قائلاً : « ان كليبر وديزه وبسيار ودوروك وناي ومورات وماسينا وبرتيه سيخفون جميعهم الى لقائي وسيحدثوني عن كل ما فعلناه وسأقص عليهم حوادث حياتي الاخيرة . وحين يشاهدوني تستفزهم خفة الحماسة والفخر . ونحدث سيديون وحنيدل وقيصر وفريدريك واشباههم عن الحروب التي اضرنا مواقدنا ويكون في ذلك الامر لذة عظيمة ... ما لم يستول الخوف ثمة على القوم من اجتماع هذا الجمهور الغفير من المقاتلة . »

ووصل الدكتور ارنولت في تلك الاثناء فأحسن العاهل استقباله وحادثه عن آلامه وما يشعر به من الحوادث الموجهة ثم أنه قطع اسباب حديثه فجأة وقال له بصوت أجش :

« لقد قضي الامر يا حضرة الدكتور ورشقت بالسهم ودنوت من النهاية وسأرد جثاتي الى التراب . تقدم يا برتران وترجم لهذا السيد ما ستسمعه مني : فهي سلسلة من الاهانات جديرة باليد التي جرنها الي . ترجم كل شيء ولا تحمل كلمة ما :

« اتيت الى الارض البريطانية ملتجئاً ومستضيفاً فداسوا الحقوق البشرية وكبلوني بالحديد فالاسكندر يستقبلني بغير هذا الاستقبال والعاهل فرنسوي يحسن مجاملي وملك بروسيا ذاته يبدي لي من مكارم الاخلاق اكثر مما ابداه لي البريطانيون . وقد استأثرت بريطانيا بمخادعة الملوك وجرم الى اعطاء العالم مشهداً لم يسبق لهم ان رأوا نظيره وهو تألب اربع دول عظمى على رجل واحد . وقد اختارت وزارتك هذه الصخرة الصماء التي تفنى عليها في أقل من ثلاث سنوات حياة الاوربيين مبتغية ان تنهي حياتي بالقتل . فكيف كانت معاملتك لي من الحين الذي القيتموني فيه علي هذه الصخرة ؟ انكم لم تدخروا تحقيراً أو فظاعة الا وسرستم بتجريعكم اياي كأسها . فالواصلات الاهلية التي لا تحظر على أحد ضنتم بها علي ولم تتركوا خبراً أو رسالة من اوربا يصلان الي فامراتي وابني لم يبقيا في عالم الوجود عندي وابقيتموني ست سنوات معذبا بجهل كل شيء . وفي هذه الجزيرة التي لا تصاح للسكنى عينتم لي السكنى في موضع لا يصاح للاقامة

فيه ويشعر نطينه بوخامة تبعة جوه الاستوائي . فاضطررت الى حبس نفسي في ضمن أربعة جدران واستنشاق هواء فاسد بعد ما جبت على صهوة جوادي جميع الاقطار الاوربية . لقد اطلت على تعديبي وقتلي متعمدين فاجري هدصن لو الوغد مقاصد وزرائكم العالية . وستكون نهايتكم نظير نهاية جمهورية البندقية المتمجرفة وانا حين اموت على هذه الصخرة الصماء وقد حرمت ذوي وكل شيء التي اعباء تبعة موتي وما يصحبه من القظاة والمار على عاتق الاسرة المالكة في بريطانيا العظمى . »

واستأنف الكلام الذي فاه به نابوليون ما بقي فيه من القوة فهو بعد قليل من الحين مغشياً عليه الا أنه ثاب اليه نشاطه في الفد وتمكن من النهوض عند تباشير الصباح فقضى ثلاث ساعات يملئ ويكتب ولكن ذلك التحسن كان وقتياً فلم يغير به . وما مكثت الحى ان عادت فاستأنف العليل مسيره الى الرمس . وفي ذلك اليوم (٢١ ابريل) دعا اليه الاب فينيالي وقال له : « هل تعرف المحكمة التي تصدر على المحبوسين الحكم بالموت بالنار ؟ - نعم يا مولاي . - وهل توليت خدمتها ؟ - كلا . - بناء عليه ستؤول خدمة محكمي . » وبعد ما قال هذا اقبل على الكاهن واخبره بالتدقيق ما يجب عليه أن يفعله . وقال انطومرخي : « كانت هيئته منتعشة ووجهه منقبضاً فتنبعت بقلق ما يبدو على محياه من العبوسة واذا به قد لاحظ على وجهي حركة ساءته فقال : « انت اسمي من هذا الضعف ولكن ماذا تبغني فلست فيلسوفا ولا طبيباً ولكني أؤمن بالله ولا ازال معتقماً باجساد دين ابي ومن يشأ الايمان لا يكفر . » ثم أن نابوليون عاد الى مخاطبة الاب فينيالي فقال له : « ولدت في حضن الكنيسة الكاثوليكية واريد أن اتم فروضها واقبل المساعدة التي تراولها . »

ولما انصرف الاب فينيالي جعل العاهل يلوم انطومرخي على قلة ايمانه ويقول له : « وهل تستطيع أن تنكر ذلك الى هذه الدرجة وهل يسمك ألا تؤمن بالله ؟ فكل شيء يذبح وجوده وفضلاً عن ذلك آمن به جميع اصحاب العقول الكبيرة » فاجابه انطومرخي انه لم يشك قط بوجود الحق سبحانه وتعالى وان العاهل اخطأ في تفسير الحركة التي لاحظها على وجهه . فقال نابوليون متبسماً : « انت طبيب

باحضرة الدكتور . « ثم قال بصوت منخفض : « ان هؤلاء القوم لا يفكرون
الا بالامور المادية ولا يؤمنون بشيء . »

وكان العاهل في اواخر شهر ابريل يقدر مع ضعفه المتزايد على النهوض من
سريره والجلوس في البهو ولم يكن يطيق اطالة المكث في غرفته الفاسدة الهواء
وعرض عليه على غير جدوى الاشخاص المقيدون بخدمته ان يحملوه فقال لهم :
« تحملوني حين اموت ويكفي الآن ان تسندوني . »

وبعد ما قضى في الغد ليلة نائمة اشتدت عليه وطأة الحمى دعا الدكتور
نطومرخي وخاطبه بما يأتي وهو رابط الجأش ساكن البال :

« بعد موتي القريب اريد أن تفتح حثي واربد بل احتم ان تعذني بألا تدع
طبيباً من اطباء البريطانيين عديده الي . واذا لم يكن بد من الاستعانة بطبيب
فيممكنك أن تستعين بالدكتور ارث لث دون سواء . وابتهني أن تأخذ قلبي
وتضعه في الكحل وتحمله إلى زوجتي العزيزة ماري لويز في بارما . وقل لها
اني احببتها حباً شديداً وان زرحي لها لم تحمد قط . واخبرها كل ما شاهدته
وكل ما يتعلق بحياتي وموتي . واوصيك خصبها بأن تدق في شخص معذني وان
تنظم عن نتيجة الفحص تقريراً كاملاً مفصلاً تدفعه الى اني ... فالتيء اتواصل
بمحلمي اظن أن المعدة هي العضو المصاب بالمرض من بين جميع اعضاءي ولا يبعد
عن ظني انها مصابة بالداء عينه الذي دفع اني الى القبر أي بداء السرطان عند
فتحتها ... فاذهب بعد موتي الى رومية لرؤية ولدي واسمي واخبرهم كل
ما شاهدته عن حالتي ومرضي وموتي وعن هذه الصخرة العما . وقل لهم ان
نابوليون الكبير قضى في اشقى الحالات وهو يعوزه كل شيء وقد ترك شأنه
هو ومجده . وقل لهم انه عند وفاته ترك لجميع العبر المالكة العار والفضافة
الذين شعر بهم في أواخر حياته . »

وانضم الهذيان الى الحمى فكان ذلك العقل الكبير الذي توهمه العالم صادراً
عن الحكمة الالهية خاضعاً للاموس الطبيعى الخاضع له جميع البشر . وصاح
نابوليون : « يا مستنجل ياديزه يا ماسينا مال النصر اليها اذهبوا واسرعوا واحملوا
حملة صادقة فقد منحنا اكتبهم . » ثم أنه وثب عن سريره واراد الخروج الى
الحديقة ولكنه هوى الى الحضيض ساقطاً فانسرع النطومرخي لينهضه . فنقل

الى سريره وهو يهذي وظل يلح في الخروج الى الحديقة . وأخيرا خفت حدة الهذيان وهبطت درجة الحرارة وثاب السكون الى الرجل العظيم . فظهر بمثل ما كان عليه في الحقيقة وقال للدكتور : « تذكر ما اوصيتك بفعله عند مغارقي هذه الدنيا فصدق في فحص جسدي ولا سيما معدتي ، فقد قال اطباء منبليه ان داء السرطان في فتحة المعدة سيكون متوارثا في اسرتي ... فيجب علي علي الاقل ان اخلص ابني من هذا الداء الوبيل . فستراه يا حضرة الدكتور وتصف له ما يحسن به ان يفعله . ويجب أن تكتم عنه ما أقاسيه من العذابات وهذه آخر خدمة انتظر منك قضاءها لي »

وحادث الحمى بعد ثلاث ساعات (٢ مايو عند الظهر) فقال العليل النبيل لطيبه وهو يتنفس الصعداء : « اشعر باشتداد الألم علي يا حضرة الدكتور واشعر بان وفاتي حانت : » ولم يكده يفوه بهذه الكلمات حتى غاب عن الهدى فقال انطومرخي ان النهاية اقتربت واوشكتنا أن نفقده فصار كل يضاعف غيرته عليه ومجاملته له ويريد ان يعطي علامة أخيرة عن اخلاصه وتعلقه . وكنت أنا ومرشان وسان دنيس قد احتفظنا بالسهر عليه ليلا ولكن نابوليون لم يكن يطيق النور فاضطررنا الى انهاضه وتغيير ثيابه والاعتناء به بقدر ما تقتضي حالته من العناية وكل ذلك في الظلام الحالك . وكان القلق مضافا الى التعب وقد هتت قوى المارشال الاكبر ولم يكن الجنرال منطولون مستطيعا عمل شيء ولم اكن أقوى منهما . وحينئذ احببنا القرنسويين الذين في لونود على طلبهم الشديد واشركناهم معنا في القيام بتلك الواجبات المؤلمة . فكان بيارون وكورتو وغيرها يسهرون بالتناوب مع واحد منا . وقد اثر في العاهل ما أبدوه من الفيرة والعناية فاوصى بهم قواده . وطلب منهم أن يساعدوه ويعضدوه ولا ينسوم وقال « يجب ألا تنسوا الصيغيين المقيدين بخدمتي فليعط كل منهم بضع عشرات من الذهبات ويحسن أيضا أن اودعهم . »

وانتظر الاب فينيالي كلمة واحدة من العاهل لينهض نحوه باعباء مهمته الروحية فخرجت تلك الكلمة من فم الرجل العظيم في ٣ مايو في الساعة الثانية بعد الظهر . وكانت الحمى خفيفة وقد صرف الجميع ماعدا الكاهن الجليل فتناول نابوليون الزاد الاخير .

تالپون في واترلو



وثابت اليه الحمى بشدة بعد ساعة من الزمان ولكن ظلت حواسه تتم وظائفها . فأنهز الفرصة من تلك الحال واوصى الموكل اليهم اجراء وصيته وهم برتران ومنطولون ومرشان بالألا يأذنوا لطبيب من اطباء البريطانيين ماعدا الدكتور ارنولت بأن يدنو من جثمانه حين يفقد الحس . ثم انه قال لهم : « اني مشرف على الموت وانتم عن قريب تعودون الى اوربا وعندني نصائح ابسطها لكم وعليكم باعتبارها في سيرتكم : لقد شاطرنوني المنفى وستظلون حافطين ذكرى ولا تفعلون ما يشوهه . لقد كرست جميع المبادئ وادجمتها في شرائمي واعمالى ولم ادع مبدأ واحدا منها إلا وقدسته . ولكن الاحوال كانت واسئناه عنيفة جدا فاضطرت الى المعاقبة والارجاء وجاءت الزايا فلم أستطع حل ونز القوس وحرمت فرنسا الانظمة الحرة التي اعددتها لها فهي تبرز علي حكما لينا وتقدر لي مقاصدي حق قدرها وتمز اممي وانتصاراتي فاقنوا بها واخلصوا النية للآراء التي دافعنا عن حياضها والمجد الذي اصبناه وليس في ما خلا ذلك سوى العار والحزى . »

وهبت عاصفة شديدة في الليلة التالية على جزيرة القديسة هيلانة فاقتلعت جميع المغروسات في لونود ولم تنج من العاصفة الصنفاقة التي كان العاهل يجيها ويستظل تحتها من حرارة الشمس في تنزهه العادي .

ودام النزع سحابة الغد كله (٤ مايو) وفي ٥ منه عند طلوع النهار اشعرت حالته بمفارقة الروح جسده البارد ومع ذلك بقي يتنفس ولكنه غاص في لجة الهذيان ولم يلفظ سوى هاتين الكلمتين : « مقدمة ... الجيش ... » واقتربت الساعة الرهيبة واوشك « العمل التريطاني » ان يتم وان تلتفتض اوربا القديمة وكاد بطل فرنسا الحديثة ينتهي الى غاية حياته العجيبة . وانتظر هدمن لوتقطع انفاسه الممدودة وقد عيل مصطبره لبشر الاسطقراطيين والملوك الذين انتدبوه لتلك المهمة ان عمله تم بصورة عجيبة وانه اجهز على ضحيته .

وكان ثمة مشهد مؤلم ختمت به المأساة : فان عقيلة برتران المضطرة الى ملازمة الفراش بمرض نابها نسيت اوجاعها وجاءت الى غرفة العاهل المحتضر ومعها ابنتها وابناؤها الثلاثة ليمتصوا للمرة الاخيرة برؤية وجه الرجل العظيم . فاسرع الاولاد مندفعين على سرير العاهل وقبضوا على يديه وقبلوها وغسلوها بدموعهم واشتد

الحزن على نابوليون على برتوان الحدث اشتدادا صرعه على الحضيض مغشيا عليه . وذرف جميع الحاضرين الدموع ولم يسمع في الغرفة سوى العويل والنحيب فقد اوشك ان يتم حادت عظيم في العالم ... وفي الساعة الخامسة والدقيقة التاسعة والاربعين فاضت روح نابوليون بونابرت .

وبعد تشريح الجثة بحسب ما أوصي به الدكتور انطومرخي وضعت الجثة على سرير وغطيت بالرداء الرمادي الذي لبسه نابوليون في معركة مارنغو . وتقاطر سكان الجزيرة وظلوا يومين محدقين بمجسم العاهل الميت . وحين رفعت جثة الرجل العظيم تنازعوا ما كان يحسه او ما كان يخصه واتخذوه ذخيرة ثمينة .

وأقيمت لنابوليون مناحة في ٨ مايو فدفن في مكان يبعد عن لونود نحو ميل . وأصبح قبره منذ اليوم الاول لدفنه موضوعاً للاحترام العام ولاقبال الناس على زيارته . على أن هدمن لو الجدير بالمهمة المعهد اليه فيها ظل مثابراً على اضطهاد الرجل الكبير حتى بعد وفاته فاستاء من الاكرام المقدم لريبب الثورة الفرنسية العظيم ووضع حول الرمس خفرا يمنع الناس عن الدنو منه وأعلن أن الخفير سيمظل في ذلك المكان الى ما شاء الله . ولكن المثنوى الاخير لذلك البطل الشهير ظل مثابة للزائرين مع ما اتخذته هدمن لو من التدابير . وكانت زيارة الناس لذلك المكان تتم بشكل لا تنفر منه الفلسفة لصدورها عن حب المجد وقد أريد بها تخليد التعلق بالرجال العظام باعطاء نوع من التقديس الديني للعجاب والاحترام اللذين يوحيهما الدهاء من غير ما يميز بين الامكنة والازمنة وكان مدفن نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة وقتيا لانه عين في ذيل لوصيته بتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٨٢١ مدفنه النهائي فقال : « اريد أن يستريح رفاقي على ضفاف السين بين الشعب الفرنسي الذي احبته كثيرا . » على أن تتميم امنية الرجل العظيم الاخيرة اقتضت لقاء الشعب الفرنسي نير البرربون عن منكبيه وتحرر حكومته تحررا تاما من التمسود الاجبي . فسقط البوربون بعد عودهم وتمت نبوة نابوليون في الوقت الذي عينه .

ولما انتهت انباء مصرع نابوليون الى اوربا لم يصدقها الناس في ريق الامر لوعهم أن نابوليون خالد وانه ليس فيه شيء معرض للفناء ولا اعتقادهم أن حياته ملازمة لجده . وكان عدم تصديق ذلك النعي بمثابة تأليه حقيقي للرجل العظيم على ما يوافق روح العصر :

الفصل الثامن

في نقل رفات نابوليون الى فرنسا

مات رجل عظيم ! هذه العبارة فاه بها زعيم الاسرة البوربونيه حين طرق مسامعه خبر مصرع نابوليون . على انه وان يكن الدهاء عند نخود نيرانه قدصير خصومه عادلين ينصفونه حقه فانه لم يجعلهم يسلسون مقادهم للسياسة ويلينون لها مجسهم . فان الخوف الداخلى على ملوك اوربا القديمة من ذلك الجبار وهو في المنفى البعيد المزار ظل يقلق خواطهم ويبلبل مجالسهم ومن جراء ذلك قضى على رفاته بالابعاد عن بلاده كما قضى عليه وهو حي بالابعاد عنها كأن تلك الذراع الهائلة التي زعزت العروش ودكتها تستطيع وهي في ظلمات الرمس ان تحرك ساكنات الشعوب . وكان هذا الخوف في التويلري أشد منه في القصور الاخرى المقيم فيها ملوك اوربا . فذكر حادث ٢٠ مارس بما لاسم نابوليون من التأثير في مجموع الامة فاعتراهم الحذر من ازدياد هذا التأثير عند رؤية رفاته خوفا من أن يعيد العرش بالجالس عليه قبل ان تتوطد دماغم . وبقي رفات اعظم رجل في الثورة مقضيا عليه بالنفي عن وطنه في خلال مدة حكم البوربون بعد عودتهم الى العرش . وكان المتفقوه باسم نابوليون يعد عندهم مرتكباً جريمة لا تغتفر فينزلون به انسكا العقوبة . ولكن لما هدمت الثورة في ثلاثة أيام ما بناء البوربون في خمس عشرة سنة كان اول أمر طلبه الشعب الظافر جلب رفات العاهل الى فرنسا . فلم توافق الندوتان على هذا الطلب في مبتدأ الامر مخافة أن تستحكم حلقات العرافيل امام الحكومة الجديدة بتمثيل شبح نابوليون في ذلك المهرج الذي صير موقف أسرة أرليان متزعزعا ، ولشد مادحش الملا الفرنسي حين رأوا ان المسألة المطروحة على بساط البحث في عهد البوربون تحت ظل الراية القديمة المنبوذة على رغم معاطس الامة أعيد طرحها عليه في عهد أسرة ارليان تحت ظل الراية المثلثة الالوان ووافق جميع اعضاء المجلسين على جلب رفات الرجل العظيم الذي ألبس فرنسا رداء من المجد ضا في الاذيال ليدفن في الارض الفرنسية . وحرك رفض البوربون لجلب ذلك الرفات ساكنات قريجة فكتور هوغو الشاعر المطبوع

فنظم قافية في ذلك الموضوع الخطير نكتفي بذكر الايات التالية منها :

ضننتم بسلوان على أيم صمت لدى كل حزب في البلاد صفاتها
 قسمتم للاسكندر الملك ملكه وخفتم اشباحا وخيف رقاتها
 فما أسخف الاحلام فيكم فانها اذا اشتد وقع الخطب خفت حصاتها

وجاءت بعد ذلك أيام الصفاء وقد ترأس الوزارة الفرنسية رجل كان لحظه السياسي ولجده الادبي علاقة بمجد فرنسا الفتاة . فحققت العواطف الوطنية اصوات المخاوف عند خلفاء البوربون وكان عمانوئيل دي لاس كاس يكثر من سؤال الميسيو تيارس عما آلت اليه عروض الحال الجديدة المرفوعة الى الحكومة من سنة ١٨٣٠ . ثقل رفات العاهل نابوليون فاجابه الميسيو تيارس في أول مدة وزارته الاخيرة بانهم باثروا مفاوضة الحكومة لبريطانية بهذا الشأن .

وبعد حديث دار بين الميسيو تيارس واللورد غرانفيل كتب الميسيو غيزو سفير فرنسا في لندرة الكتاب الآتي المؤرخ في اوائل شهر مايو سنة ١٨٤٠ :

الى اللورد بالمرستن

« انا الموقع اصمي ادناه السفير فوق العادة والمفوض من لدن صاحب الجلالة ملك الفرنسيين اتشرف باعلام سعادة وزير خارجية جلالة ملكة مملكتي بريطانيا العظمى وارلندة المتحدتين اتي بموجب الاوامر الواردة الي من حكومي اشعركم بأن الملك راغب رغبة شديدة في نقل رفات نابوليون الى فرنسا الارض التي دافع عنها وشرفها وهي تضم في أحشائها رفات الوف من رفاقه من القواد والجنود الذين شاطروه الاخلاص في خدمة الوطن .

« فانا الموقع اصمي ادناه اعتقد ان حكومة جلالة الملكة لا ترى في رغبة جلالة ملك الفرنسيين هذه سوى عاطفة عادلة دينية وانها ستبادر الى اصدار الاوامر اللازمة لاجل نقل رفات نابوليون من جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا . الخ . الخ . الخ غيزو »

وكان اللورد بالمرستن قد عرف ذلك الامر من اللورد غرانفيل فارسل الى الميسيو غيزو جوابا بطيه نسخة عن الرسالة الآتية التي وجهها الى السفير البريطاني في باريس .

من اللورد بالمرستن الى اللورد غرانفيل

« يا حضرة اللورد ان حكومة جلالة الملكة نظرت بعين الاعتبار الى طلب الحكومة الفرنسية لنقل رفات نابوليون بوناپرت من جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا ويمكنكم ان تؤكدوا للمسيو تيارس ان حكومة جلالتهما ترغب في أن تعتبر فرنسا السرعة التي نعطي بها هذا الجواب برهاناً عن رغبة جلالتهما البريطانية في اطفاء نيران تلك العداوة الوطنية التي كانت في حياة العاهل قد جعلت الامتين في حرب دائمة . على ان حكومة جلالتهما البريطانية معتقدة انه اذا كان باقياً ثمة بعض آثار لتلك العواطف العدائية فانها ستدفن في القبر الذي سيضم رفات نابوليون . وستتخذ حكومة جلالتهما البريطانية والحكومة الفرنسية التدابير اللازمة لنقل ذلك الرفات . بالمرستن »

وبادر اللورد غرانفيل الى اشعار المسيو تيارس بأمر الرسالة التي وصلت اليه ولما استوثقت الحكومة الفرنسية من رضى الحكومة البريطانية اسرعت واوقفت الندوتين على حقيقة الغرض الوطني الذي نحتسه . وفي ١٢ مايو وقف المسيو دي ديموزا وزير الداخلية خطيباً على منبر المجلس وفاه بما يأتي :

« يا حضرة السادة اصدر جلالة الملك امره الى حضرة صاحب السمو الملكي مولاي البرنس دي جوانفيل بالمضي بسفينته الى جزيرة القديسة هيلانة لجلب رفات العاهل نابوليون .

« وها نحن نطلب منكم التذرع بالذرائع اللازمة لاستقباله بكرامة في أرض فرنسا وبانشاء الضريح الاخير لناپوليون . ولما كانت الحكومة طامعة بالقيام بما يقضي عليها العمل الوطني فانها فاوضت بريطانيا في هذا الصدد وطلبت منها الودعة الثمينة التي دفعها اليها الاقدار . ولم تكف فرنسا تظهر تلك الفكرة حتى بادرت الحكومة البريطانية الى قبولها . وهذا هو الكلام الذي خاطبتنا به حليفتنا الكريمة :

« ان حكومة جلالتهما البريطانية ترغب في ان تعتبر فرنسا السرعة التي نعطي بها هذا الجواب برهاناً عن رغبة جلالتهما البريطانية في اطفاء نيران تلك العداوة الوطنية التي كانت في حياة العاهل قد جعلت الامتين في حرب دائمة . على أن

حكومة جلالها البريطانية معتقدة أنه اذا كان باقيا ثمة بعض آثار لتلك العواطف المداثية فانها ستدفن في القبر الذي سيضم رفات نابوليون «
 » يا حضرة السادة ان بريطانيا مصيبة في هذا الكلام فان ارجاع ذلك الرفات النبيل يوثق عرى العلاقات التي تضمننا وتجهز على إزالة كل أثر محزن من آثار الماضي ولقد جاء الحين الذي يجب فيه على كلتا الامتين ألا تتذكرا إلا بحدها «
 » وان السفينة الموقرة رفات نابوليون ستصل الى مصب نهر السين وهناك ينتقل الى سفينة أخرى تجلبه الى باريس ويوضع في الانفاليد . وستقام حفلة عظيمة واحتفال ديني وعسكري باهر لافتتاح القبر الذي يضم ذلك الرفات الى الابد .

» يا حضرة السادة ان نخامة ذلك الذكر تقتضي ألا يظل المدفن الجليل معرضا في مكان عام بين اظهر جمهور كثير الضوضاء فيوافق ان يوضع في مكان هادئ . ومقدس يستطيع ان يزوره فيه بورع جميع الذين يحترمون المجد والدهاء والعظمة والشقاء .

» لقد كان عاهلا وملكا وكان صاحب السلطان الشرعي في بلادنا ويستوجب لجله هذا اللقب ان يدفن في سان دنيس ولكن لا يحسن ان يعطى نابوليون مدفن الملوك العادي فيجب ان يملك ويأمر في الموضع المدفون فيه جنود الوطن والمهاقات عليه المندوبون للدفاع عنه . وسيوضع سيفه على ضريحه .

» وسينصب الفن تحت القبة في وسط الهيكل الذي كرسه الدين لرب الجنود ضريحا جديرا اذا أمكن ذلك بالشخص الواجب وضعه فيه . ويجب ان يكون لهذا الضريح جمال بسيط وشكل كبير ومنظر ثابت لا يتزعزع ويسخر بتقلبات الاقدار ويجب أن يقام انابوليون نصب خالد كذكره .

» والغاية التي نرمي اليها في طلبنا هذا الاعتماد المالي من المجلسين هو نقل الرفات الى الانفاليد وإقامة الحفلة الدينية وبناء الضريح .

» ولا تخامرنا ريبة يا حضرة السادة في أن المجلس سيشارك بإعاطفة وطنية في الفسك الملكي الذي بسطناه لديكم .

«فن الآن ستمعرز فرنسا وحدها ما بقي من نابوليون وقبره وشهرته لايخصان

غير بلاده . فالحكومة الملكية المنشأة في سنة ١٨٣٠ ستكون الوراثة الشرعية الوحيدة لجميع التذكارات المفتخرة بها فرنسا .

« فن خصائص هذه الحكومة ولامراء - وهي أول من ضمت جميع القوى ووفقت بين جميع أماني الثورة الفرنسية - نصب التمثال والضرىح للبطل الشعبي وتكريمهما وهنالك شيء واحد لا يحاذر المقابلة بالمجد ألا وهو الحرية »

ويتعذر علينا وصف التحدث الذي أيقظه من رقدته ذلك الخطاب في المجلس فكان شبح الرجل العظيم تراءى عند كلام الوزير لنواب فرنسا خففت في الحال اصوات الاحزاب الضالة في احكامها والشقية في بغضائها ولم يكن يسمع غير كلام الاعجاب والافرار بالمعروف والتجرد من ذلك الجيل النافذ صبره وتقلص ظل الشقاق وزال الخلاف من بين النواب على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وامياهم في تلك الامة التي كان قاهر ايطاليا اول من اطلق عليها اسم «عظيمة» وعند ذكر اسم نابوليون زال ما كان ضيقا وصغيرا في سياسة ذلك العهد وقد تم زواله بشكل يصح أن نسميه ضربا من السحر . وان البغضاء الشديدة والخصومات الحقةرة نالها ما نال السياسة عند ذكر ذلك الاسم . وكان السلي أمهلم يضع ساعات امتزجت في اثنائها جميع القلوب المتنافرة واتحدت في عاطفة كبرياء وطنية شريفة وحب عام شديد لريب فرنسا المجيد الذي ساد العالم وكانت أرض الوطن تنتظر رفاته منذ عشرين سنة .

واغتتم المسيودي ريموزا الفرصة من ذلك التأثير الشديد وقرأ على النواب اقتراحا طلب فيه منهم تقرير اتفاق مليون فرنك في ميزانية سنة ١٨٤٠ وانتداب الوزارة لنقل رفات العاهل نابوليون الكبير الى كنيسة الانفاليد وتشيد ضريح له .

وما عم التأثير الذي ألم بالمجلس النيابي ان اتمثر بسرعة البرق في جميع انحاء فرنسا فكانوا بتحييتهم اسم نابوليون يكرمون الوطن والشرف الفرنسي على ان الامة التي قضى عليها أن تظل مدة طويلة تسمع بعض الناس يطلقون اسم «مختلس» على ذلك الجبار المتوج بيدها السامية لاحظت ببهجة مقرونة بمعرفة الجليل ان الوزارة تتحرى الانتقام للشعب الفرنسي من بذاة الارسطقراطية الاوربية واحتقارها باعادتها الى ارادة الامة قدرتها الكلية وتكريسها تكريسا

قابتا الصفة التي وسمت نابوليون بها باطلاقها لقب « صاحب السلطان الشرعي » على ذلك الذي أقصته أوهام النسب عن العرش بعد ما أجلسه عليه مرتين اقتراع وطنيه اجابة لنداء الدهاء والمجد :

وخامر الحكومة الاتهاج من نيل مبتغاها وصدى حماسة كلامها في افئدة الامة فبادرت على القور الى إعداد البعثة الموكول اليها جذب الرقات الثمين المودع في جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا . فقوض الملك الى البرنس دي جواناتيل أحد امجاله قيادة السفينتين « بل بول » (الدجاجة الحسنة) و « القافوريت » (المحبوبة) . وغادرت البعثة طولون في ٧ يوليو وصحب الامير على متن السفينة المسيو هرنو ربانها وحاجبه والضابط المسيو طوشار المقيد بمخدمته والمسيو دي روهان شابو معتمد الملك والمسيو دي لاسكاس عضو مجلس النواب والجنرالان برتران وغورغو والدكتور غيليار والاب كوكرو وسان دنيس ونوفراز خادمي العاهل الخاصين وبيارون وكيل طعامه وشرابه وارشبول مدرب كلابه .

وتألفت بعثة القديسة هيلانة من الاشخاص المار ذكرهم وانضم اليها ايضا مرشاتي الامين الذي كان نابوليون شديد الميل اليه وركب متن القافوريت المتولي قيادتها الربان غيه .

وأخذ الجنرال برتران معه ابنه ارثور المولود في جزيرة القديسة هيلانة وهذا الغلام قدمته والدته للامبراطور بصفة كونه « اول فرنسوي دخل لونود بغير اذن الحاكم » .

ومرت السفينتان في ١٥ يوليو في بوغاز جبل طارق وألقتا مراسيمهما في القند في قادش .

ووقفتا في ماديرا في ٢٤ يوليو واحتفلتا في جزيرة طريف في ٢٩ منه بتذكار ثورة سنة ١٨٣٠ . وفي هذه الجزيرة يتكلم الناس الفرنسوية وبعضهم ينظم فيها الشعر وقد قدم شاب للامير قصيدة بالفرنسوية نسج برديتها على منوال نقل رقات العاهل طالبا فيها اغضاء الطرف عن نظم شاب كناري يشاطر الفرنسويين وهو في ذلك المكان المنفرد في عرض المحيط الاثلاثيكتيك حبه للبطال نابوليون وإعجابهم به .

واجتازت السفينتان خط الاستواء في ٢٠ اغسطس ووصلتا في ٢٨ منه الى



الحرس يموتون ولا يستسلمون

باهيا ولبثنا فيها الى اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر . وبعد ثلاثة وعشرين يوماً
بلغنا جزيرة القديسة هيلانة . فكتب برتران الشاب من ذلك المسكان ما أتى :
« ان المشهد المنبسط امام عيني مجهول عندي فقد كنت صغيراً من عشرين سنة
وغير قادر على تمييز وعورة المسكان والصخور السوداء الجرداء المحيطة من كل
جانب بجزيرة القديسة هيلانة ولم يبق في ذهني سوى تذكارات مهمة . يا الله
ما أوحش مسقط رأسي وأقفره عند الناظر اليه ! وما كان فيها من الملاعة
لاحتفار رمس فيها ! »

وكان اليوم السابع من شهر اكتوبر وقبل ذلك الحين بعشرين سنة وفي
الشهر نفسه أي في ١٥ وصلت الى جزيرة القديسة هيلانة سفينة بريطانية تقل
الركاب انفسهم على التقريب وكان على متنها ماعدام رجل لم يكن العالم يسع
عظمته وسطوته وقد انتقم الملوك منه بحصرة في تلك الجزيرة ، وكان ذلك الرجل
يجيل نظاره كبرتران الحدث في تلك الصخرة الصماء المعينة سجناءه وقد ظل
حبيته ساكناً . وكان الى جانبه شخص من حاشيته شديد التعلق به يلاحظ
حركاته وسكناته فكتب في مساء ذلك اليوم في مفكراته ما أتى : « لم أنظر على
حياء ادنى تأثر ومع ذلك كان هذا المكان سجنه الابدي وربما سيكون قبره »
ووصلت « البلبول » الى جزيرة القديسة هيلانة وقد تحققت حينئذ
الافكار التي جالت في خاطر ذلك الشخص في ١٥ اكتوبر سنة ١٨١٥ .

وبينما سفينة البرنس دي جوانفيل تهم بدخول الميناء اليها جاء اليها قائد سفينة
حربية آتية من شر بورغ بربان من المانش الى « البلبول » ولم يكن القائد سوى الربان
دوره أحد البحارة الاشداء الذين قدمهم الجنرال برتران نابوليون في سنة ١٨١٥
وهو في جزيرة اكس وكانت غايتهم اختطاف العامل والمضي به الى الولايات المتحدة
ورست السفينتان في ١٨ اكتوبر وماتم مندوب الملك والمسيو عمانوئيل
دي لاس كاس ان صعدا الى البر .

وصعد البرنس دي جوانفيل وحاشيته الى البر في الغد في الساعة الحادية عشرة
وساروا توا الى مقر الحاكم واستأنفوا بعد قليل من الحين المسير الى المدفن
المودع فيه نابوليون وقد نفذ صبر الامير الشاب لعله أنه ممثل من فرنسا ونائب
الثورة وأنه جاء متأخراً لاخذ رفات أعظم ابنائها ولاصلاح ما يمكن اصلاحه

من نتائج انتقام الملوك الاوربيين ومن اعمال الارسطقراطية البريطانية الموسومة
بسمة جريمة لانجى .

واليك ماقاله المسيو عمانوئيل دي لاس كاس : « دخلنا السور في الساعة
الثانية والدقيقة العشرين ... فبدا القبر لانظارنا ... ولم يكن ثمة سوى رفات
ذلك الذي ادهش مجده وبأسه العالم .

« ورفع البرنس دي جوانفيل قبعته عن رأسه وخر الاب كوكرو ساجدا
عند يسار المدخل الى جانب سروة وصلى ... وابصروا على الارض جذع شجرة
من اشجار الصفصاف الباكي وكانت هذه الشجرة حية حين دفنوا نابوليون في ذلك
المسكن . وابصروا أيضا شجرة أخرى باقية حية تظلل الضريح . وكنا صامتين
كأن على رؤوسنا الطير ... وكل منا غارق في لجة الافتكار ... وتأملنا عن كثب
بتلك الصفائح السوداء ... فلم يكن مكتوبا عليها شيء ... ولم نستطع تحويل انظارنا
عنها ... فدار الامير على مهل حول القبر وقطف بعض أوراق من نباتات بصلية
قائمة عند الجهة الموسد فيها الرأس . وبعد ما أمر بان يهتأوا له بعض فسائل من
الصفصاف او عز الى المسيو هرنو حاجبه بان يدفع الى الجندي الشبخ حارس القبر
كل ما يمكنه حشده من المال . فوجد قبضة من الدنانير الممقوشة عليها صورة
نابوليون . ثم انصرفنا »

وبعد ما غادر الامير المسكن المدفون فيه نابوليون توجه الى المنزل الذي
فاضت فيه روح الرجل الكبير . ولشد ما كان عظيما تأثر الذين اقاموا مع العاهل
في لونود عند دنوهم من ذلك المسكن فقد شاهدوا فيه عذاب وموت الرجل العظيم
الذي أحبوه وأعجبوا به واحترموه حبا واعجابا واحتراما وراءها من مزيد
والقائد الكبير الذي كان في حياته موضوع عبادتهم الحقيقية والذي أصبح
ذكره بعد موته بعشرين سنة سغلا شاغلا لافكارهم .

وترجل الامير عند وصوله الى لونود وبسط الجنرال برتران ورفاقه في
المسنى للامير الشاب ما ابتغى الوقوف عليه من الايضاح عن الاماكن التي كان
ينتجها العاهل وعن كل ما يتعلق به . وكانت الابنية الخارجية قد تحولت الى
اسطبلات وحظائر للمواشي . ولم يكن يرى من الغرفة الاولى التي كان يسكنها
العاهل سوى جذرانها الاربعة . ولما دخل الامير ورفاقه اليها رفعوا قبعاتهم

عن رؤوسهم فخذوا البريطانيون حذوهم . ثم انهم دخلوا الغرفة التي نقل اليها المحتضر وتقطعت فيها انفاسه المكدودة فقال الجيرال برتران والمسيو مرشان : « كان مضطجعا هنا . . . وقد أدار رأسه الى هذه الجهة . . . » وقد تحولت الغرفة الى مطحنة دقيق وبدأت آثار الخراب على أرضها وسقفها وجدرانها ونوافذها وابوابها . اما غرفة النوم فقد حوت الى اسطبل : وتجنب الضباط البريطانيون مرافقة الامير ولما التفت هذا وراءه ليلقي عليهم اسئلة لم يجدهم فقد خجل أولئك الشجعان عن حكومتهم وعن افعالهم المقصود وبفضها الشديد الباقي في قوادها فع اجمع امم الارض والقوم في الممالك البريطانية الثلاث على اجلال اسم نابوليون واكرامه والاسراف في تعظيم مجده بطل فرنسا ظل أعضاء الارسطقراطية البريطانية الذين لم يخدم لظي بعضهم بمجدون قيام هدمن لو السريع باهباء المهمة المفوضة اليه على اهانة ذلك الذي كان العالم طرا يحترمه ويعجب به ، وبعد انزالهم الردى بضحياتهم حفظوا في قلوبهم حنقهم وظلمهم له . واذ لم تبق لهم المقدرة على جرم الاذى الى شخص الرجل العظيم جعلوا من وكدهم الاضرار بشبهه وذكره وكل ما له علاقة به غير مستثنين من ذلك الجوامد التي لامسها نفسه الاخير وكانت صدى لكلماته الاخيرة . فان اولئك المدنسين لهيكل الدهاء جعلوا الاقدار وحشائش الارض تعبت بالاما كن المشتهرة بسجنه والمقدسة بانفاسه الاخيرة ولم يحمر حفيد هنري الرابع وحفيد لسيب لويس الرابع عشر على دخولها من دون ان يرفع قبعته عن رأسه . فلا يستطيع الناس ان ينسوا ان بين هذه الاخشاب المتداعية وهذا السقف الجانح للسقوط وهذه الجدران المتزعزعة والمفشاة بالاقذار ارتفع صوت سرده الاجيال الآتية ، وفاء بهذه الكلمات الخالدة : « لقد أطلتم أجل تعذي وقتلي وتعمدتموه فأجري هدمن الوغد مقاصدوزرائكم العالمية . . . وستكون نهايتكم نظيرهاتية جمهورية البندقية المتمجرة وأنا حين اموت على هذه الصخرة الصماء وقد حرمت ذوي وكل شيء القى اعباء تبعة موتي وما يصحبه من الفظاعة والمار على طاق الاسرة المالكة في بريطانيا . » وعند رجوع البرنس دي جوانفيل من لونود توجه الى دار حاكم الجزيرة لتناول الغداء ولما كان من الغد اهتموا بتنظيم حفلة اخراج الجثة من القبر وقد ارادت الحكومة البريطانية ان تعنى بهذا الامر فضرب اليوم الخامس

عشر من شهر اكتوبر موعدا للحفلة وكان افراد البعثة الفرنسية يجالسون على الطعام في الفترة الباقية لحلول الاجل المعين ضباط الفصيلة الحادية والتسعين فيجتمعون ببعض ضباط المدفعية وفرقة المهندسين . وفي نهاية احدى الولائم رفع أحد الفرنسيين كأسه وقال : اشربها على اتحاد البلادين الوثيق العرى . فكبر جميع الحضور عند سماعهم كلامه وطبقوا الفضاء باصوات الهليل ولايخفى ان الجيش في البلادين كان على مثال الشعب غير مشارك للحكومة في بغضها واوهامها وغير مماليء لها بغير هدى على اعمالها .

وجاء مندوبو الاملتين في نصف الليل في ١٥ اكتوبر الى قبر العاهل لي شاهدوا إخراج الجثة منه . فبوشر العمل بعد نصف الليل برع ساعة وبعدما حفروا نحو خمس اقدام من التراب الندي وصلوا الى طبقة جاسية فظنوها الصفيحة المغطى بها اللحد ولسكنهم بعد تلاوة صك الدفن الذي نظمه هدسن لوعلم المسيو دي روهان شابو انهم وضعوا فوق الصفيحة المغطى بها التابوت طبقتين من الحجارة المبنية بالكس والمشبكة بقضبان من الحديد . وعلم المندوبان بعد فحص قصير ان الطبقتين المذكورتين في الصك لم تكونا سوى الطبقة التي وصل اليها الحفارون .

واقتربوا من الوصول الى التابوت فاستعد الاب كوكرو للقيام باعباء مهمته الدينية وقال المسيو ارثور برتران : « اوشكنا ان نشاهد ذلك الذي اصبح من ثلاثة اشهر موضوع احاديثنا واهتمامنا افلا نجد كما كان في التخمين سوى بقايا غير معروفة لذلك الذي انتدبنا لنقله الى الوطن ؟ فكان الخشوع عاما والقلق شديدا ولم نكن نتنفس الا بمشقة » وخفق قلبي خفقانا كاد يشق صندوق صدري

« وحالما رفع الغطاء عن التابوت المصنوع من الحديد الابيض ابصرنا مادة بيضاء وهي الفراش المصنوع من الحرير . فرفعه الدكتور غيليار مبتدئا من الرجلين حتى انتهى الى الرأس فظهر نابوليون كأنه حي . وقد خرجت اصابع رجله من الحذاء الذي كانت اخطاه قد تهرت . وكانت قبعة موضوعة على ركبتيه ويده اليسرى على فخذه ولم يكن جلد على عظم بل يد حية بيضاء وكان لحم ... وحفظ رأسه شكله وقد اصفرت البشرة بعض الاصفرار وخداه اللذان كانا ممثلين هبطا فاصبح الوجه اطول مما كان عليه وهو حي .

« ونظرت بين الشفتين بعض الاسنان البيضاء وقد نبتت لحيته بعدما حلقت في الليلة السابقة وفاته . وتغير طرف الانف وأطبقت اجفانه فلم يستطع رؤيتنا . ونحن أبصرناه بمشقة من جراء الدموع الغزيرة المتساقطة من اعيننا ولكنه ربما كان ينظر من أعلى السموات الى ما نبديه من التعلق به . وهو يعلم كما أنبأ ابنه ان العالم سيتحدث عما كان من مجده ومن اصفاله العظيمة . »

وقال شاهد آخر عياني وهو المسيو عمانوئيل دي لاس كاس : « هذا نابوليون بعينه وقد فقد الحياة من دون ان يلم به البلي . وكان الناظر اليه يتوهم في آخر يوم من حياة الجد والعمل والمهالك ... وفي أول يوم من أيام الابدية ... فلو شهد ابي هذا المنظر لكان عظيما جدا ما يشعر به في قلبه من الحماسة . ولعمري ان قوته تخذله عند رؤيته مثل هذا الشهيد فيرزح تحت أثقال حزنه . وكاد الجنرال برتران يهوي الى الحضيض وبكى كثيرون من الحضور متنجسين وبدت الكتابة على وجوه غيرهم وابتلت عيونهم بالدموع . وتماطرت العبرات على صفيح خد الكنت دي شابو الشاب . اما أنا فكنت أتمثل نابوليون ميتا وقد خيل الي عند رؤيتي ما حولي ابي أرى حلما سماويا . »

وتعجب الدكتور غيليار الذي مس وحده جسمان نابوليون من بقاء ذلك الجسمان سليما من الفساد مع أنه لم يحنط وارتأى هذا الدكتور انه لا شيء أفضل من اعادة الجثة الى حالتها الاولى لابقاء رفات الرجل العظيم محفوظا فعني بعد رشه قطرات من الكريوزوت (روح القطران) على الجثة باعادة الحبر المحشو قطنا وغطاء الحديد الابيض وغطاء الخشب وصفيحة الرصاص ووضع ذلك كله في التابوت الرصاصي المغشى بصفيحة كبيرة كتب عليها بأحرف ذهبية ما يأتي :

— ١٢٤ —

نابوليون

امبراطور وملك

توفي في جزيرة القديسة هيلانة

في ٥ مايو سنة ١٨٢١

وبعد ما لحقت اطراف هذه الصفيحة وضع التابوت في نعش من الابنوس
رصع غطاؤه بأحرف ذهبية تؤلف اسم العاهل

نابوليون

وفرغت حفلة اخراج الجثة وأتمت الحكومة البريطانية مهمتها . وقرأ
الربان الاسكندر صكا دفعة الى المسيوروهان دي شابر وكان مبنيا فيه ان
رفات العاهل نابوليون موضوع في النعش الذي أرسلته الحكومة الفرنسية
وانه سينقل الى الموضوع الذي يوضع فيه على متن السفينة بعناية الحكومة نفسها
وفي الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين سار الموكب الى جيمس طون ولما تحرك
الموكب للمسير جاء الماجور جنرال تشرشل لابسا ثياب الحداد ومعه ضابطان وم
مكشوفو الرأس وغير مباينين بالامطار وارادوا باظهار ذلك الخشوع ان يبينوا
للملا طراً ان شجعان بريطانيا العظمى على مثال شجعان الامم الاخرى يأبون
ان يوافقوا على ما ارتكبت الحكومات الاوربية من اعمال الظلم والجرائم
بحق الرجل العظيم .

واقام البرنس دي جوانفيل على المرفأ ينتظر الوديمة الثمينة الموكول اليه
نقلها الى فرنسا ووصل الموكب في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين وسلم الماجور
جنرال مدلمور قائد الاسييطيل الفرنسي الشاب رفات نابوليون . فصار الان
الرفات بحسب رغبة الجبابرة عند دنو أجله يستريح تحت ظل الراية الوطنية . وفي
الحال فتح التابوت وقال المسيو دي لاس كاس : وكان الامير ينظر اليه وهو

- ١٢٥ -

لا يبدي حراكا وقد بدا على وجهه وجميع جسمه تأثير شديد وشعاع متنوعة من الحزن والانفة فكانه يقول : انظروا ما بقي من ذلك المجد العظيم . . . وهاءنذا أرد الى فرنسا رفات نابوليون . . . فياليت هذا الامير الشاب يحفظ طهارة وسمو المواطن التي ابداه في هذه الاحوال . »

وكانت الشمس في ذلك الحين تنحدر نحو الافق وقد انارت أشعتها الاخيرة خروج نابوليون من أرض المنفى ورجوعه الى ما بين ابنا فرنسا . وحالما ابتعد عن البر الزورق المقل النعش اطلقت المدافع من القلاع والمراكب ثلاث طلقات مبشرة الاصقاع البعيدة بأن المنفي العظيم أعيدت اليه حقوقه بعد موته بمشرين سنة وانه عائد كاهل الى وطنه تحت ظل الراية الشريفة التي نصبها مرات كثيرة بيديه الظافرين فوق ابراج جميع العواصم في القارة الاوربية واسوارها

وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٨١٥ جاء امير بحر بريطاني باسم الارسطقراطية البريطانية وممعيدي البوربون الى عرش فرنسا ودفن حيا في جزيرة القديسة هيلانة ممثل الديمقراطية الفرنسية . وكان ذلك الضمان لازماً للظافرين في وائرلو وموقعي وثيقة فينا فنفي « المختلس وموته يكمنهم دون سواهما من ضمان الامن والراحة للملوك الشرعيين فالضمان الذي اشتدت رغبة الملوك في اصابته وجد : فهواء الجزيرة الويل ومعاملة هدمين لو ساندنا على ايجاده فتلا الموت نفي ذلك الجبار . . . فاذا جرى والحالة هذه ؟ هل نجت الارسطقراطية الاوربية بما تذرعت به من الدرائم المنكرة وتحذته من المعاملة العنيفة واتته من الندابر القاسمية المحقرة متخلصة تخلصا نهائيا من المخاوف التي كان قرب عهدها بالثورة الفرنسية يسوقها اليها بشخص نابوليون ؟

اليكم جواب التاريخ عن هذا التقرب البسيط : نحن الآن في اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٠ امام جزيرة القديسة هيلانة وامام رفات ذلك الشخص المعبر وجوده حاجزا حصينا في وجه انتصار معاكسة الثورة انتصارا جازما نرى قائدا بريطانيا يمثل خلفاء بت وكاسلري ينافس أميرا من أسرة البوربون في بذل الغيرة و اظهار الاعجاب والاحترام والاكرام السامي لمنتخب الشعب ومنفي سنة ١٨١٥ وعدو البوربون والبريطانيين . ولا يخفى ان هنالك ما هو أعظم من تفوق الدهاء والمجد وعدالة الاجيال الآتية في تغير من مثل هذا التغير : ففي

هذا الموقف تتجلى تجليا خاصا قوة المبدأ المتجسم في نابوليون وهو المبدأ الذي ساد قبله ونال خصل سبق في مواقف شتى على يده وادرك بعده نصرا مبينا الا وهو مبدأ الثورة . فالثورة هي التي أرجعت ممثلها العظيم الى فرنسا والثورة هي التي عودها العجيب الدهش في قلب أوروبا القديمة وتولت الرئاسة في حفلة مناحة ابنها العظيم واعادة الكرامة الى ذكره بطريقة رسمية وتعظيم ذلك الداهية في القبر الذي علمت الحكومات الاوربية النفس بتغييبه فيه مع مبدأ الثورة الى ما شاء الله .

وعاد العاهل نابوليون الى فرنسا وتقل في ظل الراية المثلثة الالوان الى المقر الابدي الذي ابتغاه وعينه في تربة الوطن . ولما وصلوا به الى متن السفينة ومروا به بين اركان الحرب المصطفين والسيوف مصلطة بأيديهم صدحت الموسيقى باللحن الحربي . وكانت تلك التظاهرات صدى عواطف الشعب الفرنسي الممثل بأولئك الشجعان القليلي العدد المحتفلين بتجسس شديد بعودة العاهل الكبير مختار الامة تحت ظل الراية الوطنية . وكان المدفع والصور صدى اصوت الخطباء على منبر المجلس الفرنسي وقد رددا كلام الوزير الذي له اليد الكبرى في نقل رفات نابوليون الكبير واعادا كلام المسيودي ريموزا القائل : « كان نابوليون عاهلا وملكا وكان صاحب السلطان الشرعي في بلادنا . »

واقلع الاسميطيل في ١٨ اكتوبر فاجتاز الخط في ٢٨ منه والتقى بالسفينة الهولندية « اغمون » في ٢ نوفمبر وكانت آخر الاخبار الآتية معها عن باريس مؤرخة في ٥ اكتوبر وما لها محاولة الهنس لويس قلب الحكومة والحكم عليه ووثيقة ١٥ يوليو واطلاق القنابل على مدينة بيروت وحصار سورية وطلب استقالة الوزارة الفرنسية . وقد ملأت حوادث بولونيا قلوب رفاق نابوليون في المنفى حزنا ومرارة . وقال برتران الشاب في هذا الصدد ما يأتي : « ما أحزن الاخبار التي بلغتنا ونحن عائدون من جزيرة القديسة هيلانة فالثورات تشبه العواصف ولا بد من ان يرى لحال الغرق . »

اما الاخبار عن امكان تقطع العلاقات بين فرنسا وبريطانيا العظمى فقد اقلقت خواطر الجنود والبحارة الفرنسيين العائدين برفات اكبر قائد في فرنسا واعظم عدو وجد للارسطراطية البريطانية . فكان نابوليون سمع وهو موسد في النعش



ارثور ولسلي دوق ولنغتن ولد سنة ١٧٦٩ وتوفي سنة ١٨٥٢

كلمات اللورد بالمرستن المحقرة فانتفض من شدة الغضب ونزع عنه السكفن مندفعاً الى متن السفينة ليعطي العلامة لمحاربة البريطانيين . وكانه بعد ما أعلن في حياته انه ضامن لنجد فرنسا وعظمتها لا يزال محافظاً على ذلك الضمان وهو في القبر وانه لا يبتغي الخلود الا ليندمج مع شعبه العظيم في المستقبل كما توخى ذلك الامر في اثناء حياته . وعاد الروح المنتشر في معسكر بولون الى الظهور على متن « البل بول » فانبعث من صدر الجبار الذي طالما هزت سطوته المعمورة والذي لم يمسوا رفاته من دون ان يهزوا اعصاب الامم ويحركوا البر والبحر ويتعرضوا لصدمات جديدة شديدة .

وسرى الى قائد السفينة الهمام تأثير ذلك الروح السري المنبعث من داهية فرنسا الاكبر وهو الروح الذي هب في صدره من سنة من الزمان عند شواطئ سان جان دولوى . واقتخر ذلك الجندي الشاب بان يمجّد في المقاربة بين اصله وفصله والمهمة المفوضة اليه صلة بين الشهرة التاريخية والمجد العصري . واظهر انه حفيد نبيل لهبري الكبير وامين جدير بالمحافظة على رفات نابوليون العظيم . ولم تنقض ساعتان على اطلاع البرنس دي جوانفيل على الاخبار الواردة مع السفينة « اغمون » حتى أصدر امره الى ربان سفينته بانه مطلق اليد في العمل للاسراع في المسير وأمر أيضاً بان يستعدوا للقتال وعقد عروة العزم على أن ينحدر الى قعر اللجة مع رفات نابوليون ولا يدعه يعود الى أيدي البريطانيين وفي الحال نزعوا جدران قرته ووضعوا المدافع في الكوى المخصصة لها . وقال الميسو دي لاس كاس : « ان الامير بعدما كان لنا مثالا في ذلك الامر قال لنا وهو ضاحك انه استاء من ذلك ولكنه لا يلقى مندوحة عن وضع المدافع في مراكزها . وقد اذن بان يهيئوا لنا غرقاً في البطاريات فشغلت كل غرفة محل المدفع المأخوذ . وبعد تناول الصبوح في ٣ منه شرعوا في الحال في هدم غرفنا فألقيت في البحر الجدران الخشبية والامتعة وأطلق اسم لاسيديمون على الجهة المبنية فيها الغرف الجديدة » وكانت تلك التدابير باطلة فلو سخرت اوربا القديمة بفرنسا الحديثة ونفها من المؤتمرات السياسية المعقودة لتقرير المسألة الشرقية وبعثت اليها من لندرة بما يجبر الاهانة والتحقير لتحركت فرنسا الجديدة على غير جدوى وظل ما تشعر به من الخنق والحماسة الحربية عقيماً . وعرف اللورد بالمرستن حق المعرفة ما تصير اليه

حالة فرنسا فان القوم فيها يهيجون ويضجون ولكنهم يسمعون عند دنو الساعة الرهيبية لان فرنسا الثورية يمثلها أصدقاء وخدام قدماء لاوربا القديمة وهؤلاء الاشخاص الذين تصوروا فيما مضى وجود كلمة مرادفة لخنق حرية المطبوعات سيلقون الآن امتيازاً متقناً لخنق كلمة الشرف الوطني . وان هم وجدوا في سبيل المراقبة ان كلمة « منع » تؤدي معنى « استدراك » فلا يفوتهم عهد سبيل السلم على أي وجه كان ويتحرون أن يشعروا الشعب العظيم قبل الاحتفال بمناحة داهيته بأن تقي فرنسا من مؤتمرات الممالك الاوربية لا بعد سوى طريقة مستهجنة لا يستطيع تشبيهها بالاهانة . خيفة أن يزول الغرور ولا يبقى من اثر للتسود ويسهل علينا أن نعلم أن نابوليون الذي كان كانه قد بعث الى الوجود على متن « البلبول » قد مات حقيقة ولم تبق فرنسا مرتابة قط بان البرنس دي جوانفيل لم يأتها إلا بالرفات ليس إلا .

ان التاريخ مدون هذا الانحطاط الغريب بعد تلك العظيمة السامية ومسجل هذا العار العظيم بعد ذلك المجد الاثيل لا يمكنه إلا الاعتراف بفضل الامير الشاب زعيم بعثة جزيرة القديسة هيلانة وعواطفه الكريمة واغراضه النبيلة . ويقول كما نقول نحن وكما يقول جميع المكبرين للشجاعة والوطنية : المجد للبرنس دي جوانفيل .

وهدمت غرفته وغرف حاشيته ونصبت المدافع في الاماكن التي تشغلتها ولكن تلك المدافع لم تضطر الى مجاوبة المدافع المطلقة قنابلها على بيروت لانه حين وصلت « البلبول » في ٣٠ نوفمبر الى ثغر شربرورغ علمت ان وثيقة ١٥ يوليو عقدت من دون ان تقيم فرنسا النكير عليها وان الوزارة التي رأت في تلك الوثيقة تهديدا واهانة لبلادها اضطرت الى الاستقالة بحيث ان البعثة المرسلة الى جزيرة القديسة هيلانة لم تسلم رفات الامبراطور الى الوزارة المفوضة اليها نقله وبدلاً من أن ينقل رفات نابوليون الى هيكل مارس في عهد وزارة المؤرخ الشهير الذي دون حياة قاهر ايطاليا سيستقبله في ارض الوطن كتاب ساقهم الحظ المنكود في عهد النكبات الحاله بفرنسا الى المسير تحت راية الاجنبي أو تحيتها .

الفصل التاسع

مناحة نابوليون

وطمعت جميع المدن الفرنسية التي على شاطئ البحر باستقبال رفات نابوليون في موانئها وجاھرت معظم تلك المدن برغبتها في نيل تلك الامنية . وكانت مدينة طولون أشد من مجاھرة في ذلك الامر لاعتبارها نفسها مهداً لعظمة ذلك الجبار : إلا أن الحكومة قررت تعيين مدينة الهافر للاستقبال . وهذا ما جعل الناس يقولون أن الحكومة فضلت مدينة الهافر على سواها لأنها أقرب من غيرها من المدن البحرية الى باريس وكانت غايتها من وراء ذلك حجبها رفات الرجل الكبير بقدر ما يمكنها حجبها عن انظار الشعب المتحمدة في فؤاده نار الحماسة . وقد عالج بعضهم ان ينقي عن الحكومة مثل هذه التهمة ولكن تأليف الوزارة الجديدة أيدها فقد كان في تلك الوزارة الى جانب خدام الامبراطورية المشاهير رجال تسلطت على افكارهم مبادئ مخالفة لمبادئ الامبراطورية وأرْبى خوفهم من الديمقراطية الفرنسية على خوفهم من الارسطراطية الاوربية . ولما دخلت « البُل بول » مرفأ شربورغ حينها مدافع الاسوار ورددت تلك التحية المدافع التي على الحصون البعيدة .

وجاءت ثلاث بواخر وهي « نرمنديا » و « الفيلوس » و « الكوربه » واصطفيت حول « البُل بول » وقد فوض اليها استقبال بعثة جزيرة القديسة هيلانة ووديعتها المقدسة والمسير بها الى نهر السين وتم النقل في ٨ ديسمبر . وسار الاسييطيل قبالة الشواطئ التي ودعها نابوليون للمرة الاخيرة وهو أسير ومتوجه الى جزيرة القديسة هيلانة على متن « البرنمبرلند » بقوله لها : اودعك يا أرض الشجعان اودعك يا فرنسا العزيزة فلو لم يكن فيك بعض نفر من الخونة لكنت باقية سيادة العالم . » وخف سكان نرمنديا الى الشاطئ فطبقوا الفضاء باصوات التهليل والتكبير . وكان القوم على طول ضفاف نهر السين كما كانوا على طول شواطئ المانش يهرعون زرافات زرافات والتحمس بالغ منهم . وكان نابوليون وهو جثة

هامدة محجوبة عن الابصار وسائرة الى المقر الآخر المعد لها في الانفاليد يقيم القوم ويقعدون في المدن والقرى والسهول والجبال ويجتازوا الناحية التي اجتازها شارل العاشر من عشر سنوات هاربا وهو صامت وقد أعرض عنه جميع الناس على التقريب . يارجال الماضي ما أعظم الانذار الذي ترونه في هذا الاختلاف ! ووصلت السفن الى الهافر في ليل اليوم الثامن من شهر ديسمبر والقمر يرسل أشعته الفضية على البسيطة . وفي صباح الغد في الساعة الخامسة تحرك الحرس الوطني في المدينة وضواحيها للاحتفاء بمرور رفات العاهل . وهانحن نورد الكلام الذي فاه به حاكم ولاية السين السفلى : « لم يصحب حادث من الحوادث التاريخية ما يصحب نقل رفات العاهل نابوليون من العظمة والابهة ... فأنتم تؤدون لهذا الرجل العظيم ما يستحقه من الاكرام بسكينة وكرامة ملائمتين لقوم شعروا غير مرة بتأثير سطوته الحامية وعطفه الخاص . »

ودخلت « نرمنديا » نهر السين وهي رافعة الرايات الوطنية والراية الملكية فوق السارية الكبرى بين أصوات المدافع حين كانت الشمس الساطعة طالعة من وراء الافق كما كانت طالعة في يوم استرلنز وغصت ضفتا النهر بمجماهير المتفرجين الفقيرة . ولم تنقطع أصوات الحماسة والطلقات النارية دلالة على ذلك الاحتفال الباهر . وظل القوم يبدون مثل تلك التظاهرات الحماسية حول الموكب في اثناء الطريق كله . وكان في كلبوف معظم الحرس الوطني الذي في نرمنديا السفلى لخيومه بالتحية العسكرية . ووقف الموكب عند قال دي لاهاي في مساء اليوم التاسع منتظرا اسبيطيل السين الاعلى المعد لنقل العاهل الى كوربنوى . فوصل في صباح اليوم العاشر منه ونقل النعش الى متن « الدوراد » في الحال .

ودنا الاسبيطيل من روان وكانت هذه المدينة الكبيرة الصناعية المكرم فيها اسم العاهل تستعد من ايام للاحتفاء باستقبال رفات الرجل الكبير الذي أحبه حباً شديدا لاجل احسانه اليها وأعجبت بالمعجزات النادرة التي اتاها . ونصبت قوس نصر في وسط النهر تحت قنطرة من قناطر الجسر المعلق . ورفعت على العدوتين اهرام رسمت عليها اسماء أهم الانتصارات في عهد الامبراطورية . ووصل الاسبيطيل الى روان في ١٠ منه عند الظهر وازدحمت جموع غفيرة كالبنيان المرصوص على ضفتي السين وهم يرددون هاتين الكلمتين « ليحي الامبراطور »

- ١٣٣ -

واظهر الحرس الوطني في المدينة وضواحيها وجنود الحامية التحمس نفسه الذي اظهره الالهون وخرج الكردينال رئيس الاساقفة من الكنيسة من الساعة السادسة صباحا بطواف احتفالي يحف به نحو مئتي كاهن وبعم رصيف سان سيفر وجاء اليه ايضا رجال الحكومة على اختلاف خطتهم ومعهم رجال المجلس البلدي . ولما وصلت السفن الى موضع معين بين الجسرين وقفت « الدوراد » فابتدأ الكردينال الحفلة الدينية وكانت في اثناء ذلك مدافع الحرس الوطني المنصوبة على مرتفعات القديسة كاترين ومدافع السفن الراسية في الميناء تطلق قنابلها وبين الطلقة الواحدة والاخرى مهلة دقيقة فتجيب « الدوراد » بالتدقيق على كل طلقة منها . ولما فرغوا من الصلاة أطلق مئة مدفع ايذانا بذلك ومن ذلك الحين لم يكن الناس يعتبرون انهم ينقلون رفات جبار الى مقره الابدي بل رأوا امامهم امبراطورا كبيرا عائدا بانتصار الى عاصمته . فزالت جميع علامات الحداد وصارت الاجراس تقرر قرعا متواصلا والطبول تدق دقا متواليا والجنود يحيمون الموكب برفع السلاح والموسيقى تعزف بالحن النضر . ومر نابوليون تحت قوس نصبها الروانيون الصناديد ووقف قدماء الجنود ينتظرون وصوله بنافذ الصبر فنثروا عليه من أعلى الجسر أ كاليل من الكتلة الدائمة النضارة وغصونا من الغار والرياحين واطلقت المدافع في تلك الاثناء مئة طلقة وطلقة ايذانا باستئناف الموكب سيره .

وفي ألوف وبون دي لارش وفرنون ومانت وجميع الامكنة التي مر بها الاسيطليل هرع السكان مهرولين لتحية النعش الامبراطوري . ولما وصلوا به الى جسر بواسي انتظروا السفن البخارية المرسله من باريس لاستقباله ، وحالما ذاع في العاصمة نبأ قدومه اهتزت العاصمة بأسرها . وكانوا في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر . على أن الحكومة المسرعة في تهيئة المعدات اللازمة عينت اليوم الخامس عشر منه موعدا لدخول العاهل مدينته الفخمة باريس . وفي الصبر عند القوم على اختلاف طبقاتهم ومقاماتهم فغصت جميع الطرقات المؤدية الى بواسي ،

ورأى الزنس دي جواتيل ان السفينة المرسله من باريس وان تكن مبنية بفخامة وزخرفة وفقا لقواعد الفن لاتضمن سلامة النعش الامبراطوري

فظلت السفينة « الدوراد » حاملة حملها الشريف حتى بلغت مرسى كورنفوى حيث ابتدأ رفات نابوليون يحس ارض فرنسا
 وضرب اليوم الخامس عشر من ديسمبر موعداً لدخول النعش مدينة باريس. ففي الاجل المسمى شرعت طبول الحرس الوطني ومدافع الانفاليد تعلن للعاصمة من الساعة الخامسة صباحاً حلول الاجل المضروب . وفي أقل من لمح الطرف خرج الاهلون الى الشوارع والطرقات المعينة لمرور الموكب فيها وهم غير مباينين بالبرد القارس والظلام الحالك وقد استعانوا بالانوار والمشاعل . ولما بزغت الشمس كان الحرس الوطني والجنود تحت السلاح وقد أمر الحرس الوطني بالاصطفاف صفين الى كل جانب من سريى نوبىي صف من الجسر الى حدود « الاتوال » ثم يمتد الى الجهة اليمنى فقط حتى ينتهي الى مدخل القصر. وكان وراء الحرس والجنود نحو ثمانى مئة ألف نفس يترقبون مرور الموكب

ووصل الاسييطيل الى كورنفوى في ١٤ منه وجاء في المساء الى ذلك المكان فريق كبير من مريدي الرجل العظيم غير مباينين بالبرد القارس وقد حذاهم الشوق على المجيء لتكريم رفاتة . وكان بين الجمع كثيرون من الجنود القدماء الباقين من الجيش اللهام وقد قدموا من ديار شاسعة ليشهدوا الاحتفال ولم يحفل في وهمهم قط أن وجودهم وهم الذين تحطمت سيوفهم حين تحطم سيف الماهل في معركة الاخيرة يجعل الخونة يحمرون خجلا في ذلك الموقف الرهيب وهؤلاء الاخرون خانوا وطنهم بانتظامهم تحت ألوية ولتني وبلوخر . وقضى اولئك الشجعان ليلتهم عند جسر نوبىي وكان الزمهرير شديداً فهبطت الحرارة الى الدرجة الثامنة تحت الصفر في المقياس المئوي الا أنهم اعتبروا انفسهم مالكين ناصية السعادة بوجودهم ذواتهم بعد خمس وعشرين سنة انقضت على معركة واترلو مقيمين في المعرس عينه المقيم فيه نابوليون ومنشاطرين الامة معرفتها الجميل نحو قائدهم الخالد الذكر . وفي ١٥ منه في الساعة الثامنة صباحاً ابصروا شيخاً لابساً ثياب الحداد وقد ربط شريطة سوداء على ذراعه وسيفه يقترب من النعش واستند الى رجلين يشاطرانه اسفه . وهو شيخ جليل باح بأسرار فنه مدة سنوات كثيرة للمدافعين عن الوطن حين كان رئيس جراحي الحرس الامبراطوري وجميع الجيوش الفرنسية في عهد نابوليون وهو لاري المحترم مثال المرؤة والصدق . وقد أسهب في الثناء عليه

سجين جزيرة القديسة هيلانة حين نظم وصيته . وكان يستند الى ابنه والى جراح من جراحي الجيش يدعى تشارلز وهذا كان في حملة روسيا وصحب العاهل الى فيلنا . وتمكن لاري الشيخ من المسير على قدميه من المرسى الى الانفاليد وراء رفات الذي أحبه حبا شديداً وقدر صدقه وكرم اخلاقه حق قدرها وحين رفع النعش الامبراطوري من «الدوراد» وأصعد الى البر ووضع على المركبة المعدة له تحت قوس النصر المنصوب أمام المرسى ابصروا فريقا كبيرا من القواد يتهافتون على مثال البارون لاري للدنو من نابوليون وكان بينهم دسبان كوبيار وزير الحرب سابقا بزة كولونل الفصيلة الاولى التي تولى قيادتها في وارلو . وفي تلك الساعة الرهيبة ارتفعت اصوات الجوع مرددة «فليحي الامبراطور» وكان ذلك دلالة على وصول رفات الرجل العظيم إلى الارض الفرنسية

وفصلت العربة القالة النعش عن كورنفوي في الساعة العاشرة صباحاً فوصلت في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين الى قوس النصر عند «الاتوال» بين جماهير غفيرة تملأ الفضاء هتافا . وأطلق واحد وعشرون مدفعا إذانا للباريسيين بأن الرفات المنتظر بنافذ الصبر وصل الى اثر من الآثار العديدة التي نصبتها ذلك الجبار لمجد فرنسا .

واجتاز الموكب على مهل شارع الشانزليزه الغاص بخمس مئة الف متفرج مملوئين تحمسا وفي الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين انتهى الى ساحة الانفاليد حين كان الاسييطيل الحامل النعش الامبراطوري من روان الى كورنفوي يلقي مراسيه أمام الجسر .

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حين أذن المدفع بوصول مركبة النعش الى مدخل الانفاليد . وحمل بحارة «البل بول» على أذرعهم الوديع الثمينة التي جاؤوا بها الى فرنسا وسلموها الى ضباط الحرس الوطني والجيش وهؤلاء حملوها الى الكنيسة حيث كانت رئيس اساقفة باريس مقبياً على حبل انتظارها محفوا باكليروسه . وكان الملك والوزراء والمارشالية وامراء البحر ومجالس الحكومة تحت القبة ولم يتمكن اصحاب المناصب العالية من شق الجماهير الغفيرة الا بشق النفس . أما سفراء أوروبا القديمة فانهم ظلوا معتزلين عن غيرهم لعلمهم ان أوروبا القديمة لا يجمل بها ان تشهد رسمياً حفلة أقامتها فرنسا الجديدة ارادة اصلاح

ما كان من أمر الوثيقة المعقودة في ٢ أغسطس سنة ١٨١٥ . على أن حضور ممثلي
الحكومة القديمة في هذه الحفلة لم يكن امرا مستحسنا .

وكان بين المارشالية واحد يعد عميد الجنود في فرنسا فهذا كان من أيام
يسأل طبيبه هل يظل حيا الى اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر وهو الوطني
الصادق الذي قاتل الاجنبي عند ابواب باريس في ٣٠ مارس سنة ١٨١٤ حين
بدأت الخيانة تظهر في كل جهة والذي فضل بعد ثمانية عشر شهرا خسارة منصب
المارشالية والسجن في قلعة هام على صيرورته آلة للانتقام الملكي من رفاقه في
الجنودية . بعد استجابات السماء توسلات حاكم الانفاليد الشيخ فان المارشال
منسي وان تكن الشيخوخة والاسقام التي نالته في الحروب قد منعتة عن المشي
بقي حيا في ١٥ ديسمبر فحملوه على كرسي الى امام المذبح قراب نعش نابوليون
ليودعه الوداع الاخير ويستمطر على نعشه سحائب البركات والدموع .

ولما أطلق أول مدفع إيذانا بوصول الموكب الى مدخل الانفاليد الكبير
خرج رئيس أساقفة باريس محفوقا باكليروسه بطواف حافل الى الرواق
لاستقبال جثمان العاهل وما عثموا ان عادوا بالنظام نفسه ووراءهم الموكب السائر
في مقدمته البرنس دي جوانفيل وحمل اطراف بساط الرحمة أربعة وهم المارشالان
اودينو وموليطور وأمبر البحر روسان والجنرال برتران . ولم تحف ما في هذا
الاخير قط في أثناء سير الموكب . وحالما اقتربوا بالنعش من الدكة المنصوبة في
الموضع المعد لتشييد ضريح لنابوليون انحدر الملك عن العرش ومشى لملاقاة
الموكب حتى انتهى الى مدخل القبة وهناك قال له البرنس دي جوانفيل : مولاي
أقدم لك جثمان نابوليون فقد جئت به الى فرنسا تلبية لاوامرك . فأجابه الملك :
اني استقبله باسم فرنسا . وكان الجنرال اطلان يحمل على وسادة سيف العاهل
فتناوله الملك من يد المارشال سولت وناولوه الى الجنرال برتران قائلا له يا حضرة
الجنرال اكلفك بأن تضع سيف العاهل الجيد على نعشه .

وبعد ما أتم الجنرال برتران ما أمره به الملك عاد هذا الى كرسيه ووضع
النعش على الدكة وخينئذ باشرؤا صلاة الموتى . وبعد القداس نضح رئيس
الاساقفة الماء المبارك على الجثة وقدم المنضحة للملك . فهذا تم ما هو مقضي



جبهارد لبريخت بلوخر ولد في سنة ١٧٤٢ وتوفي في سنة ١٨١٩

عليه ثم انصرف وختمت الحفلة . وخرج الجمهور من الكنيسة بخشوع واخبات
 وحينئذ قال منسي الشيخ : والآن اطلق يا رب عبدك بسلام
 وفي الايام التالية بلغ عدد الزائرين الذين جاؤوا لرؤية نعش العاهل مئات الالوف
 فازدحم مريدو الرجل العظيم عند رتاج الاتفاليد فأذنوا لهم بالدخول والتفرج على
 المنصة الموضوع عليها النعش . وفي أواخر شهر سبتمبر سنة ١٨٤١ كان نحو مئة
 شخص ينظرون باحترام الى ضريح العاهل الوقتي واذا بيبكاء وانتحاب قد صمما عند
 مدخل الكنيسة فشخصت جميع الابصار الى الجهة الآتية منها الصوت فرؤي
 شيخ مستند الى ذراع شاب وخيل للحاضرين حينئذ ان صوتا خارجا من
 النعش يقول : « دعوا هذا الجندي الباقي من الجيش العظيم يدنو مني فقد
 صعبني في ابتداء حروبي في ايطاليا وكان معي أيضا حين قلب لنا الحظ ظهر الجن في
 الاصقاع الشمالية . » وحينئذ صاح الجميع : افتحوا طريقا فهذا ولا مراء رفيق
 من رفاق العاهل في حروبه . وفي الحال انشق الحاضرون وافسحوا مجالا
 للسكولونيل الشيخ الذي تولى قيادة الفصيلة السابعة والحسين وركي الى رتبة
 امير لواء في معركة المسكوفيا . وقد قطع مسافة مئة وخمسين ميلا وقدم مع
 زوجته وابنه ليذرف العبرات على رفات الجبار الذي رافقه في حروبه الخالدة
 من منتنوت الى وارلو .

وانسا في ما كتبناه عن سيرة نابوليون الكبير اودعنا في كل صفحة سر
 تلك القوة التي لايزال ذكرها مؤثرا في جميع اصحاب الاحلام الراجعة فنابوليون
 ذاته نم بها في معظم الخطب التي كان يلقيها ولكنها جاءت بشكل واضح صريح
 في الكلمات الآتية التي فاه بها « لست طاهل الجنود كما قالوا عني بل أنا طاهل
 الفلاحين والشعب وفرنسا ومع كل ما جري في الماضي ترون الشعب مقبلا علي .
 وليس شأني شأن المختارين فالنبلاء خدموني وتزاحوا على بابي ينتظرون التفاتي
 اليهم ولم يكن من منصب الا وقبلوه وطلبوه والتسوه . وكان ثمة كثيرون من
 أمثال منمرسمي وأشباه نوايل ونظائر روهان واقران بوفو وارتاب برتمار ولكن
 لم يكن من مشابهة تامة بينهم فالجواد كان يتطامن لانه كان مدربا على ذلك كل
 التدريب ولكنني شعرت بانه يرتجف اما مع الشعب فليس الامر كذلك :
 فمواطني الشعب صدى لمواطني وقد خرجت من صف الشعب ولذلك كان

لصوتي تأثير فيه انظروا الى هؤلاء المتجندين فهم أولاد الفلاحين وانا لم اكن
أتملقهم بل كنت أعاملهم بالقساوة ومع ذلك لم يبتعدوا عني ولم تجملهم تلك
المعاملة يقللون من الهتاف « فليحي الامبراطور . » وليس ذلك لوجود تشابه
في الطبيعة بيني وبينهم . فهم يعتبرونني سنداً لهم ومنقذاً من الزبلاء »

أو لا نري أن كل ما حدث في خلال خمس وعشرين سنة بعد موته وكل
ما نظر وسمع في مناحته حقق العاطفة العميقة الدالة على ميل الشعب اليه ميلاً
غير منقسم العرى . أجل ان الشعب مع كل ما حدث في الماضي ثاب اليه
وسيطل الى ما شاء الله متعلقاً به فالجندي المتوج مع كل ما فعله ليرميم صرح
الارسطراطية المتداعي سيمثل في انظار الاجيال الآتية كما كان في انظار الملوك
المعاصرين سبب دعر لاوروبا القديمة وداهية فرنسا الحديثة وريذب الديمقراطية
وكلمة الثورة المجيدة

انتهى



ذيل للجزء الثالث

نذكر في هذا الذيل موضوعات شتى لها علاقة بنابوليون الكبير
تتمة للقائدة :

برنادوت وأسرته

جاء في كتاب نسجت بردته براعة شاتوبريان الكاتب الفرنسي المشهور ما يأتي : « كان في مدينة مرسيليا أسرة غنية تدعى أسرة كلاري يتعاطى أفرادها التجارة . فذات يوم جاء هذه الأسرة ضابط برتبة كبتن في فرقة المدفعين وهو في ريعان الشباب بيد انه كان يشكو من ضيق ذات يده وطلب الاقتران بأصغر كراشم تلك الأسرة . وكان شقيق ذلك الضابط الاكبر واسمه يوسف قد اقترن باكبر بنات الأسرة المذكورة . فمهدت الأسرة مجلسا للنظر في طلب الضابط الشاب . وبعد مباحثة طويلة رد طلبه : وجاء بعد ذلك ضابط آخر في مقتبل العمر وفي غاية الاملاق أيضا بيد انه أجل صبورة واكثر حنكة فراقهم ورضوا به صهرا . وكان الاول يدعى نابوليون والثاني شارل جان برنادوت وهو الذي جلس فيما بعد على عرش مملكة اسوج . وكانت كريمة تلك الأسرة المزاولة للتجارة بعد ما اوشكت أن تصبح امبراطورة قد كتبت لها الحظ بأن تكون ملكة فقط . »

قد يتوهم قارئ هذه السطور الوجيزة أنها مجمل حكاية من الحكايات ولكن هي قصة حقيقية تاريخية الا ان كلام شاتوبريان لا يعبر عن واقع الحال تماما . وقد عثرنا على أصل هذه الرواية فاحببنا نشرها اظهارة للحقيقة وتفككة للقراء .

كان في مرسيليا في أواخر القرن الثامن عشر أسرة من أسر التجار الاغنياء تدعى أسرة كلاري تقيم في منزل نفخ بشارع الفوسيين . وكان لهذه الأسرة ابن وحيد واربع بنات وقد لعبت اثنتان منهن دورا خطيرا في التاريخ .

فالبنت الكبيرة تدعى جوليا وكانت على جانب عظيم من الرزانة والتعقل وقوة الارادة ولكنها لم تسكن جميلة الصورة فتاة المحاسن . والبنت الصغيرة تسمى دزيره ولها عيناان مجلاوان وشعر اسود جميل وقامة صغيرة بيد أنها ممشوقة ويدان ناعمتان وقدمان صغيرتان وذكاء مقرون بالحدة والنشاط وكانت دزيره ألطف وأجمل فتاة بين فتيات مرسليليا . وتعرفت أسرة كلاري في سنة ١٧٩٤ بشاب كورسيكي يقال له يوسف بونايرت اتخذت أسرته من عهد غير بعيد مدينة مرسليليا محلا لاقامتها . ولم يكن للآسة دزيره سوى ثلاث عشرة سنة من العمر فشغف بها يوسف وطلبها من والديها . فخل طلبه عندهما محل القبول وتم الاتفاق بين الفريقين على ارجاء الزواج سنتين بالنظر الى سن الفتاة .

وقدم من طولون الى مرسليليا في تلك الاثناء قائد من قواد المدفعيين اشتهر فيها اشتهارا امتد صداه الى الاصقاع السحيقة . وكان هذا القائد شقيقا ليوسف بونايرت واسمه نابوليون . فقدمه يوسف الى أسرة كلاري وعرفها به . ولم تسكد عين هذا الضابط تقع على دزيره الحسناء حتى افتتن بحبها وشغف بلطفها وفي ذات مساء خاطب شقيقه في هو منزل أسرة كلاري بكلام لا يستطيع أحد مما كسسته قائلا : « اذا شاء الزوجان ان يعيشا بالوفاق والوئام وجب على أحدهما أن يسلس قياده للآخر . فانت يا يوسف متردد في اصمالك ودزيره ذات خلق عائل خلقك أما أنا وجوليا فنعلم ما نريد فخير لك أن تقرن بجوليا وأما دزيره فستكون لي زوجة . »

قال نابوليون هذا الكلام وأجلس البنية دزيره على ركبته . وبعد نصف قرن رددت تلك المرسليلية الصغيرة وكانت قد صارت ملاكة اسرج كلام الضابط الصغير المدفعي على مسمع سكرتيرها وقالت له : وعلى هذه الصورة اصبحت خطيبة لنابوليون .

وتم كل شيء وفقا لمشيئة الرجل الذي ابتدأ من ذلك الحين يمثل دورالماهل المطلق الارادة الحر الاميال . فرضيت جوليا بان تكون خطيبة ليوسف وكانت تحبه سرا ويوسف وان لم يكن يحب جوليا بل كان يحب دزيره طلق قلبه حب هذه الاخيرة وتزوج جوليا لأن هذه كانت مشيئة أخيه . وصار جميع افراد الاسرة يعتبرون نابوليون خطيبا لدزيره .

وجاء اليوم التاسع من ترميدور وهو الموافق لليوم السابع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٧٩٤ وفيه هوى روبسيار عن كرسي مجده وانقضى عصر المخاوف بانقضاء ولايته . وكان قائد المدفعيين الشاب الأنف الذكر قد أحرز رتبة أمير لواء فانطلق الى باريس للقيام بمهمة خطيرة وتداعى في الحين عينه ما شاهده الحبيبان من صروح الاماني في ذهنهما . فكانا في بدء الامر يسكتان مودعين كتبهما عبارات أرق من النسيم واصفى من الزلال . وبعد حين من الزمان صارت الفترات طويلة بين المكتوب الواحد والمكتوب الآخر من مكاتيب الخطيب وما غم نابوليون ان وجد في التيسار الباريسي ملاهي جديدة جعلته ينسى الاقسام التي خلفها لتلك المرسيلية الصغيرة الحسنة .

وتعرف نابوليون في ذات يوم عند عقيلة تاليان بامرأة بارعة الشكل وهي أيم جنرال قطعت عنقه في مقصلة الفتنة . وكانت تلك المرأة تدعى جوزفين دي بوهرنه . وهي أكبر من نابوليون في العمر . فخلت في فؤاده محل دزيره حتى أنه بدلا من ان يعود الى مرسيليا في سبتمبر سنة ١٧٩٥ انجازا لوعده كتب الى جوليا زوجة أخيه طاهدا اليها ان تبلغ دزيره انها أصبحت من ذلك اليوم مطلقة القياد وباح لها بحبيته لتلك الايم الحسنة وقال لها انه صمم على الاقتران بها في وقت قريب .

فكان لذلك النبأ وقع اليم على دزيره فأكبرت نقض نابوليون لعهدته وكتبت اليه ما يأتي :

« هل استحق يا قاسي الفؤاد أن أعامل بمثل هذه المعاملة . . . أولا تذكر عهدك ووعدك ؟ لقد صبرتي ناعسة طول حياتي . . . فلا استطيم تعود هذه الحال فانها تقضي علي . . . ولا أقوي على العيش بعدها . . . وسأريك اني ارجى عهد الامانة لوعودي فلا اتزوج بغيرك وان لك انت قد نقضت حبال الموائيق التي تربطنا . وقد علمتني التجارب معرفة اخلاق الرجال والتحفظ من فؤادي . . . »

وقد تسرعت دزيره في عقد عروة العزم على نبذ الزواج فلم تبق عائسا في بيت أبيها بل تزوجت . على ان الحظ وان يك قد حال دون صيرورتها امباطورة لم يحل دون صيرورتها ملكة .

ويستنتج مما بسطناه ان شاتوبريان اخطأ في روايته الانف ييانها فلم ترد أسرة كلاري طلب نابوليون مصاهرتها بل هو نابوليون الذي خان عهد دزيره وسمى وراء غيرها من النساء .

ولبثت دزيره في ريق الامر على ما كانت قد صحت عليه عزيمتها فردت طلب كثيرين ابتغوا الاقتران بها وفي جملتهم جونو أحد رجال نابوليون ولكنها مالت الى دوفو الا أنه لم يتم شيء من هذه الجهة لانه قتل في رومية في اثناء فتنة .

وظن صيرفي اسوجي واسع الثروة أنه يتمكن من استماله قلب تلك الفتاة وتليينه ولكنه عاد بصفقة المقبون .

وجاء برنادوت وكان شابا جميل الطلعة بعيد الشهرة له المنزلة الثانية بعد نابوليون بين قادة جيوش الجمهورية . فرضيت دزيره به خطيبا لها . ولم يستعملها اليه شيء من الاشياء التي بسطناها بل قبلته لانهم قالوا لها : « هذا هو الرجل الوحيد القادر على مناجزة نابوليون ومناواته » وكان حب الانتقام السبب الذي من اجله رضيت تلك المرسيلية الصغيرة بأن تصير زوجة لبرنادوت .

وتم زواجهما في صوف في ٣٠ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية . وكان للمريس اكثر من اربع وثلاثين سنة من العمر اما العروس فلم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من سننها . واقبلت على حب زوجها حبا شديدا غير مبالية بما بينهما من التفاوت في السن وابدت له تعلقا واخلاصا ما وراءها من مزيد وتمكن بفضلها من النجاة من تعقب نابوليون له بداعي اشتراكه في سنتي ١٨٠٢ و ١٨٠٤ مع موردو في دسيسته المشهورة مع انه كان لدى نابوليون ادلة كثيرة تثبت اشتراكه فيها ومن ترجمة برنادوت انه نجل محام من مدينة بو تطوع في الجندية في سنة ١٧٨٠ واخذ يرتقى من درجة الى درجة حتى وصل الى درجة فريق في سنة ١٧٩٥ قبل وصول نابوليون اليها . وامتاز في جيش الين وجيش السامر والموز وجيش ايطاليا . ثم قلد وزارة الحربية ومستشارية الدولة وقيادة جيش الغرب في سنتي ١٧٩٩ و ١٨٠٠ ورتقي الى درجة المارشالية في سنة ١٨٠٤ وجعل حاكما لهانوفر وابلى جلاء حسنا في معركة استراتز فكافأه نابوليون على ذلك بمنحه اياه

لقب برنس دي بتي كرفو وبأسناده اليه حكومة المدن التجارية في ألمانيا الشمالية الغربية .

وتبتدى من ذلك الحين الحوادث التي استالت اليه احترام الاسوجيين له واعترافهم بحميله وتمهيدهم في وجهه سبيل الوصول الى عرش بلادهم .
ومال غستاف الرابع ملك أسوج الى موالاة البريطانيين ومعاداة فرنسا ففوض الى برنادوت أمر مقاتلته فخاربه وظهر عليه وأحسن معاملة الضباط الاسوجيين الناشين في حبائل أسره . وخلص غستاف الرابع عن العرش بعد أربع سنوات خلفه شارل الثالث عشر . ولما لم يكن للاسوجيين امير يرث الملك بعد ملكهم الجديد تذكروا معاملة المارشال الفرنسي لهم بالحسنى وصحت عزائمهم على انتدابه لولاية العهد .

واستشير نابوليون في هذا الامر فوافق عليه وإن لم يكن يركن الى هذا الخطة الذي كان يخشى شره ومن المحتمل أنه لم يشأ أن يرضى بتاج الملكة على التي ضمن عليها بتاج الامبراطورة .

وانتخب المارشال برنادوت وبرنس دي بتي كرفو في ٢١ اغسطس سنة ١٨١٠ وليا للعهد في مملكة اسوج وتبناه الملك شارل الثالث عشر .

ووصل برنادوت الى السنور في ١٩ اكتوبر سنة ١٨١٠ ودخل مدينة استوكهولم في ٢ نوفمبر واستلم قيادة الجيشين البري والبحري . وما لبث أن قبض بيديه على ادارة السياسة الاسوجية بالنظر الى تقدم الملك شارل الثالث عشر في العمر واعتلال صحته .

وتوفي شارل الثالث عشر بعد سبع سنوات خلفه برنادوت متخذاً اسم شارل الرابع عشر جان .

واصبحت المرسيلية الصغيرة التي كانت في شارع الفوسيين ملكة على اسوج الا ان مقامها الجديد لم يرو غليل رفائها . وكما ابت اختها جوليا عند صيرورتها ملكة على اسبانيا ان ترافق زوجها الى شبه الجزيرة الايبيرية آرت دزيره المقام في باريس بقصرها الفخم في شارع انجو على المضي الى الاقاليم الشمالية ولبس التاج على رأسها . ولكنها لما انتخب زوجها وليا للعهد في مملكة اسوج وافته الى وطنه الجديد فاحتفى الاسوجيون باستقبالها احتفاء باهرا جعلها تمكث

ردحا من الدهر في استوكهلم على انها لم تفتأ تحن الى باريس ومع ما كان يبيده لها الملك الشيخ من العطف ويعاملها كابنته ومع شدة تعلقها بزوجها ومع فرط حبها لولدها الوحيد البرنس أسكار الحدث « فليون » نابوليون تولاها التبرم من الإقامة في اسوج . ولما اوشكت الحرب ان تنشب بين اسوج وفرنسا اغتنمت الفرصة للعودة الى باريس رغبة في السعي لاطفاء جذى سخط العاهل واسمائه الى برنادوت وتبديد الغيوم المتلبدة في أفق السياسة .

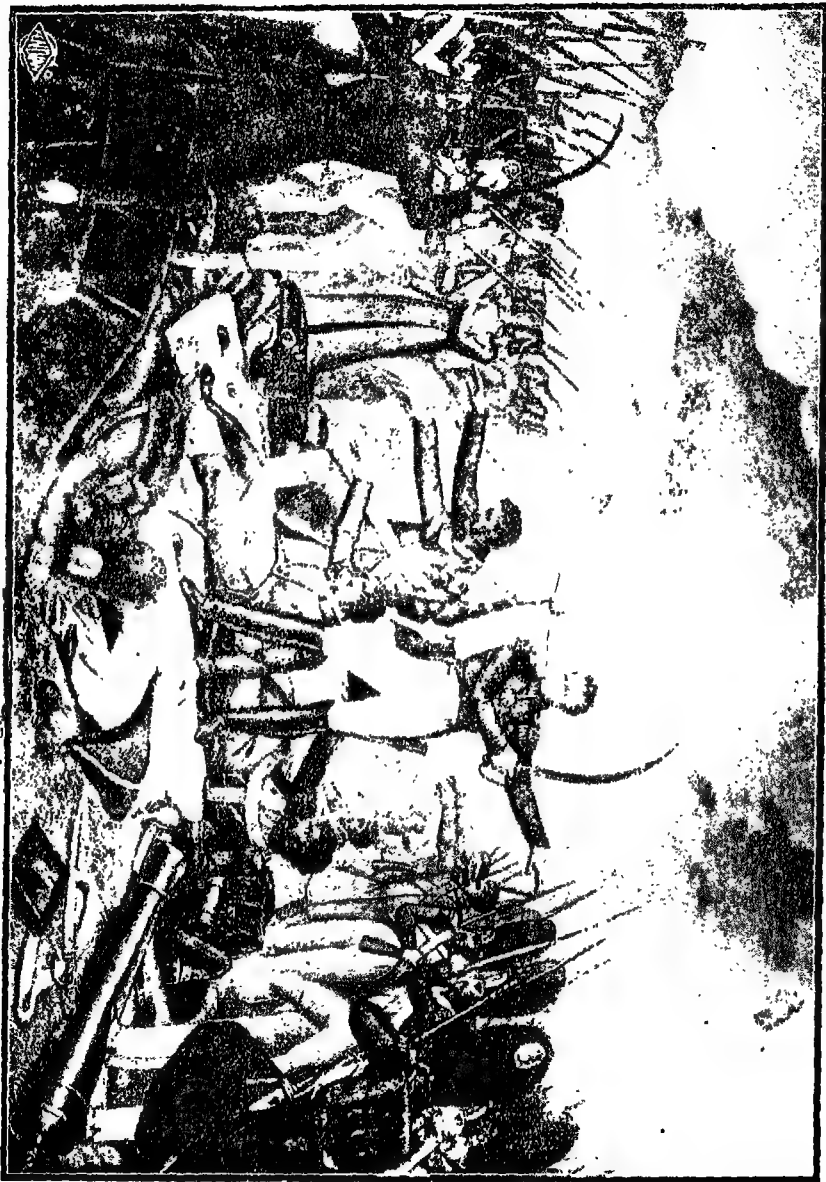
ولم تدرك هذه المرة ضالتها المنشودة وفي شهر مايو سنة ١٨١٣ تولى برنادوت قيادة جيوش الحلفاء وقهر رفيقيه القديمين اودينو وناي في غروس بيرن ودنوتز واجرى الخطة الحربية التي رسمها وانتهت عند ليزينج وعلى هذه الصورة حقق برنادوت ما اخبروا دزيره عنه فلم يكن فقط الرجل القادر على مقاومة نابوليون بل الرجل القادر على قهره .

ولما وضعت الحرب أوزارها وتضمنت اركان امبراطورية نابوليون لم تشأ دزيره كلاري المضي الى استوكهلم للتمتع بانتصارات زوجها الحربية فبقيت في باريس . ويقال ان النكبات التي حلت بنابوليون اثارت في فؤادها دفين عواطف قديمة لرجل الحظ والافدار . ويروى أيضا انها لم تفتأ عن مرافقة الدوق دي ريشليو الى حيث يمضي ارادة اسمائه الى سجين جزيرة القديسة هيلانة وبقيت زهاء عشر سنوات بعيدة عن زوجها ولم تشخص الى اسوج الا في سنة ١٨٢٣ لتشهد حفلة خطبة ابنها لوحيده لكريمة أوجين دي بوهرنه البكر . ولم تنتجم تلك الربوع الا على أمل الرجوع الى قصرها بشارع المجو لتستأنف الايام السعيدة التي قضتها فيه .

الا ان مقتضيات مركزها كزوجة وأم وملكة قضت عليها بالبقاء في استوكهلم فعاشرت فيها سبعا وثلاثين سنة وكانت تحن دائما الى باريس وتأسف على عدم تمكنها من العودة اليها . وقضت تلك السنين في اعمال البر والخير كزيادة المرضى وتعمد المساكين واغاثة الملهوفين .

وفاجأتها المنية في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٦٠ ولها من العمر ثمانون سنة وكان زوجها قد سبقها الى القبر قبل ست عشرة سنة وكان بعد سنة ١٨١٥ ان اسوج

کیرن فی وائرلو



قررت الاعتماد عن التدخل في الشؤون الاوربية والاقتصار على النظر في شؤونها الداخلية . فظهر برنادوت أو شارل جان انه من مشاهير الرجال الاداريين السياسيين كما كانت معدودا من كبار القادة المحنكين . ولما حضرته الوفاة في سنة ١٨٤٤ بعد ملك دام ستا وعشرين سنة وسلطة فعلية دامت احدى وثلاثين سنة خلف لابنه أسكار الاول بلادا عامرة زاهرة تهطل عليها سحائب الخير ويدر عليها الرزق .

وظلت الامة الاسوجية سائرة في طريق الحضارة والعمران في عهد شارل الخامس عشر واسكار الثاني نجل اسكار الاول وغستاف الخامس ملكها الحالي .

نابوليون الاول وحرب روسيا

وضع الكونت لاون تليستوي الكاتب الروسي المشهور كتابا بعنوان « نابوليون وحرب روسيا » وصف فيه فظائع تلك الحرب الهائلة بأسلوب انتقادي خطأ فيه مزاعم معظم المؤرخين الفرنسيين والروس الذين أسهبوا في الكلام عن تلك الحرب وسفه آراءهم من مثل إيجاد مؤرخي الفرنسيين أعذارا لعاهلهم تنصله من تبعه تلك الحملة التي هلكت فيها مئات الألوف من البشر وأنفقت في سبيلها القناطر المقنطرة من المال ومثل ادعاء مؤرخي الروس أن قيصرهم وقادة جيوشه تمكنوا بدهائهم من القاء الفرنسيين في تلك الورطة التي فغرت قاهها وابتلعهم . ولما كان تليستوي ينظر الى نابوليون بغير المقلبة التي ينظر بها اليه السواد الاعظم من بني الطينة أحببنا ان ننقل الفصل الاخير من الكتاب المذكور وننشره على علاته قال تليستوي :

نابوليون والاسكندر الاول

اذا جاربنا المؤرخين زاعمين معهم ان الرجال العظام يسرون بالانسانية الى غايات معلومة وأن الموازنة الاوربية وانتشار الافكار الثورية وعمران البلاد وغير ذلك من الاغراض تتعلق بمظمة الدولتين الروسية والفرنسية

تعذر علينا والحالة هذه ان نفسر معاني الحوادث التاريخية من دون ان نجعل للصدفة والدهاء شأناً فيها . ولو كانت الغاية من الحروب الاوربية التي شبت نيرانها في مقتتح هذا القرن (التاسع عشر) اعلاء شأن الدولة الروسية لا يمكن ادراك تلك الغاية بغير الحروب التي سبقتها وبغير تلك الغزوة . ولو كانت عظمة فرنسا الضالة المنشودة لاستطيعت اصابتها بغير الثورة والامبراطورية .

ولو كان الغرض الذي يرمون اليه نشر الافكار الثورية لمكانت الكتب اسهل منالاله من الجنود

ولو كان رفع منار العمران الحاجة التي يطلبونها لسهل عليهم قصاؤها بذرائع انجم من اهلاك عباد الله ونهب اشياءهم .

ولماذا جرت الحوادث في هذا المجرى ولم تجر في غيره ؟

ان التاريخ يجيب أن الصدفة أوجدت الحالة فاستفاد منها الدهاء ولكن ماهي «الصدفة» وما هو معنى لفظة «دهاء» ؟

إن كلتي صدفة ودهاء لاتعبران عن شيء موجود في الحقيقة وهذا هو السبب الذي يجعل تحديدهما متعذرا .

فهمالاتدلان الا على طريقة واحدة يستعان بها على ادراك حقائق الامور فانا اجهل مثلا سبب هذا الحادث ويجري في وهمي أي اعجز عن فهمه ومن جراء ذلك لأعالج الوقوف على كنهه فأقول ان الصدفة أوجدته .

أي ارى قوة تنتج عملا لاينطبق على صفات البشر المألوفة وحينما تصعب علي معرفة سبب تلك القوة اقول ان هذا ضرب من ضروب الدهاء .

ان الخروف الذي يضعه الراعي في كل مساء في حظيرة خاصة ويقدم له طعاماً وافراً يفوق من جراء ذلك رفاقه في السمن ويبين لاولئك الرفاق ان في امره شيئا من الدهاء على ان الحقيقة هي ان ذلك الخروف بدلا من ان يدخل في كل مساء الحظيرة العامة مع رفاقه يفرز في حظيرة خاصة يقدم له فيها العلف . وحينما يسمن ذلك الخروف ينجر ويباع للجزار فيؤثر ذلك الامر في باقي الغنم ويبين لها انه نتيجة من نتائج الدهاء المقرون بسلسلة من سلاسل الصدف الغريبة .

ولولم تكن الغنم تعتمد ان كل مايجري يرمى به الى غايات تتعلق بها دون

سواها ولوزعت أن الحوادث الطارئة تجري الى غايات مجهولة الحقيقة لتجلب لها في الحال وحدة في العمل وتماقب منطقي في كل ما يطرأ على الحروف المسمن . ان الغم وان لم تدرك للغاية من تسمينه تدرك انه لم يحدث شيء مما حدث للخروف من باب البدهة ولا تحتاج الى تفسير معناه الى الالتجاء الى الصدفة او الى الدهاء . ونحن لانكتشف في حياة الاشخاص المذكورين في التاريخ تماقبا منطقيا للحوادث التي تقتضيها الضرورة الا حينما نعرض عن معرفة غاية الاشياء الاخيرة باعترافنا ان فهمنا يقصر عن الوصول اليها . حينئذ يتجلى لنا سبب التفاوت بين اعمالهم ومقدرة الاشخاص العاديين ولا نفل البتة محتاجين الى الاعتقاد بكلمتي صدفة ودهاء ، وبناء عليه نقول انه يكفي ان نعتقد اننا نجعل الغرض من حركات الشعب الاوربي وانا لا نعلم الا الحوادث الناشئة عن المجازر التي جرت في فرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا وان الداعي لتلك الحوادث هو زحف الشعوب الغربية الى الشعوب الشرقية والعكس اي زحف الشعوب الشرقية الى الشعوب الغربية . وحسبنا الاعتقاد بهذه الامور حتى لانظلم نجد شيئا من الدهاء والشذوذ في صفات نابوليون والاسكندر الاول ولا نبقي نعتبر ذينك العاهلين الا رجلين كسائر الرجال ولا نبقي فقط محتاجين الى ان نفسر بالصدفة معنى الحوادث الصغيرة التي صيرت ذينك الرجلين في الحالة التي كانا عليها بل يتضح لنا بجلاء ان تلك الحوادث الصغيرة لم يكن بد منها .

وحينما نهمل أمر المسير الى الغاية النهائية ندري انه كما يتعذر وجود ازهار وبذور لنبات من النباتات غير الازهار والبذور التي له يتعذر وجود شخصين من الاشخاص الذين يذكرونهم التاريخ يستطيعان على مثال الاسكندر الاول ونابوليون من مفتتح حياتهما الى مختتمها ان ينهضا كل النهوض باعباء المهمة الملقة مقاليدها اليهما .

ان السبب الاصلي للحوادث الاوربية في فاتحة هذا العصر منشأه الحركات الحربية التي أجرتها في بدء الامر الشعوب المحتشدة للزحف من الغرب الى الشرق وفيما بعد من الشرق الى الغرب . كان بدء هذه الحركة في الغرب وكانت الامور الآتية تدعو الشعوب الغربية الى الاغارة على الديار الروسية والتوغل فيها حتى موسكو .

١ — ان تلك الشعوب كانت متكاتفه تكاتفاً حربياً يمكنها من تلقي صدمة مجموع الشعوب الحربية الشرقية.

٢ — انها نبذت كل تقاليدھا وعاداتھا .

٣ — انها ائتمرت لاجراء تلك الحركة الحربية بأمر رجل تمكن من تزكية نفسه وتبرئة ساحتها باستعاذته بالكذب والنهب والقتل لادراك غايته . وان الثورة الاصلية الصغيرة المنتمية الى الثورة الفرنسية الكبرى تبددت من جراء صغرها . وتغيرت التقاليد والعادات فتألفت شيئاً فشيئاً جماعة جديدة وانشأت معها تقاليد وعادات جديدة وفي ذلك الوسط نهض الاضطلاع بمهمته الرجل الذي ساقته الاقدار يوماً من الايام الى رأس الحركة وحمل إعباء مسؤولية الحوادث التي توالى . ان ذلك الرجل الذي لم تكن له مبادئ ولا عادات ولا تقاليد ولا اسم والذي لم يكن فرنسويًا هادئاً الاحداث مهادنة غريبة وعرضية فنال ماوصلت اليه يده في أول الامر وتدخل مع جميع الاحزاب التي كانت تلقي الشقاق في فرنسا من دون أن يعتصم بمحبل واحد منها وكان من أمره انهم رفعوه الى أعلى درجة .

ان جهل المحيطين به وضعف خصومه وعدم الاعتماد بهم واخلاصه في الكذب وضيق دائرة عقله الذي تكتنفه الدعوى دفعت ذلك الرجل الى تولي زعامة الجيش .

وان حسن الانتظام في جيش الحملة الايطالية وما أبداه العدو من الرغبة عن القتال وثقة ذلك الرجل بنفسه وجراته الوهمية كانت مرعاة الى مجده العسكري وقد رافقته في كل شيء صدف سعيدة على زعم بمضهم . وكان أولياء الامر والنهي في فرنسا ينظرون اليه شزراً . الا أن تلك المعاملة ساعدته على نيل رغائبه .

على أن المساعي التي بذلها لتغيير الخطة التي تجرى المسير عليها حبط الواحد منها بعد الآخر فالدولة الروسية أبت أن تدخله في خدمتها والدولة العثمانية نبذت ماعرضه عليها من الخدمة

وفي حرب ايطاليا كان غير مرة الخطر أدنى اليه من قاب قوسين بيد أن أحوالا غير منتظرة أخرجه من تلك الورطة الويلة .

ان الجنود الروسية التي كانت قادرة على تقويض أركان مجده بجميع أنواع التدابير السياسية لم تطأ أوروبا بأقدامها مدة بقاءه فيها .

ولدن رجوعه من ايطاليا وجد الحكومة الفرنسية في حالة من الانحلال تقضي على الاشخاص المتألفة منهم بأن يتواروا أو يهلكوا فكان الخروج من تلك الحالة المصحوبة بالخطر على نابوليون قد عرض من غير سعي ولا تهديد وكان ذلك الامر قد افضى الى حملته الى افريقيا . وهي حملة لا محل لها من الاعراب وقد دلت على حماقته .

وحدث الصدفة الى خدمته بنوع عجيب فان مالطة المعتبرة منيعة جداً استسلمت اليه بلا حرب وان عزائم نابوليون التي لا تخلو من التعرير بالنفس كللها النجاح .

وترك أسطول العدو أي أسطول البريطانيين جيشاً برمته يمر في عرض البحر على أنه بعد قليل من الحين لم يأذن لمركب وان زورقا أن يمر على متن اللجة وفي افريقية ساق كثير من الفظائم الى قوم عزل على التقرب وكان الرجال الذين أتوا تلك المنكرات ولا سيما زعيمهم يزعمون أن ما أجروه عظيم وجميل وأنهم يجنون من أدواحه ثمار المجد . وان ما آثم وما آثمهم الخطيرة تحكي ما رقيصر الروماني والاسكندر المقدوني وما تبعهما

وان تصوراته الوهمية بالمجد والسؤدد التي لم يكن من شأنها فقط الاحجام عن اقتراف الجرائم بل الافتخار بها والنسبة اليها معنى يفوق الطبيعة والتي ستكون هادياً لهذا الرجل ولجميع مريديه وأشباعه أطلقت حريتها للاستعداد في افريقية :

وقد أفضى الى الفوز كل ما عالج به فان الطاعون تجاوزه ولم يتمتر قتله الا سرى جناية تلحق به

وان انطلاقه المعجل الوهمي الخيالي من سبب موجب والبال على النذالة لتركه وراءه رفاقه في حال الضيق عده له بمضهم فضيلة وقد مكنه الاسطول البريطاني مرة ثانية من النجاة .

حينئذ انبهر من تلك الجرائم التي فتحت في وجهه باب السعادة وانتهى الى باريس من دون أن تكون له غاية مقررته للحكومة الجمهورية التي كانت منذ سنة

من الزمان تستطيع اهلا كه بلغت موقفا من الانحلال أوصلها الى شفيع الدمار وكان حضور ذلك الرجل الذي لا ينتمي الى حزب من الاحزاب مدرجة لارتقائه الى مكانة عالية ولم يكن قد رسم له خطة ما بل كان يخاف كل شيء الا أن الاحزاب اعتقدت ان فيه نجاحها ولذلك التمس مساعدته .

فهو وحده بما جال في خاطره من أوهام المجد والعظمة وما ساوره من تلك الاحلام في ايطاليا وفي مصر وما كان فيه من الاعجاب بنفسه والجرأة على ارتكاب الجرائم والاخلاص في الكذب يستطيع أن يحقق تلك الحوادث المشوكة أن تتم .

وكان هو الشخص اللازم للحلول في المركز الذي يتوقعه وقد اشترك بغير ارادته ومع فقدان الخطة الواجب الجري عليها ومع ما هو عليه من الردد . ومع ما أتاه من الهفوات في تدبير مكيدة يراد بها القبض على أزمة السلطة فكان الفوز موالياً له .

فدفعوه الى وسط جلسة عقدها الديركتوار فذعر وصمم على الهرب لتوهمه أنه قد هوي الى وهدة المطب وادعى انحراف الصحة . وفاه بكلمات خالية من المعنى كادت تكون القاضية عليه

ولكن الاشخاص المؤلفة منهم حكومة فرنسا في ذلك العهد بعد ما كانوا قبل ذلك الحين كبار النفوس وراجحي الحصة شعروا في تلك الساعة بأن دورهم انقضى ، وكانوا أشد اضطراباً من نابوليون نفسه ففأهوا بخلاف ما يجب عليهم التفوه به للمحافظة على السلطة وخذل المختلس .

ان الصدفة أو بالحرى ملايين من الصدف ساقط اليه السلطة وان جميع الناس قد اتفقوا على تثبيت تلك السلطة كأنهم قد تفاوضوا في ذلك الامر وقد أوجدت الصدفة ضعف أخلاق أعضاء الديركتوار الذي حملهم على الخضوع لنابوليون .

ان الصدفة منحت بولس الاول تلك الاخلاق وجعلته يعترف بسلطة نابوليون ان الصدفة كادت له تلك المكيدة التي وطدت صرح سلطته بدلا من نقض دعائمها ان الصدفة اسلمته البرلس دنغين ومكنته من الفتك به بنوع غير منيظر وقد برهن هذا العمل أكثر من سواه للملاطراً على ان لنابوليون الحق باجرائه لان القوة بجانبه

ان الصدفة جعلته يستنفد الميسور لتأليف حملة يغزوها انكلترا . وهو مشروع يأول الى هلكته . ويتعذر وضعه موضع الاجراء . بيد أنه وقع على غير انتظار على ماك والجيش المتساوي الذي استسلم من غير ما حرب ولا قتال . ان الصدفة والدهاء جعلاه ينتصر في اسرلترز . وقد اعترفت بالصدفة جميع الامم وأوربا بأسرها ما عدا بريطانيا التي لم تشرك في الحوادث الموشكة أن تحدث مع ما كانت جرائم نابوليون تثيره في أفئدتها من النفور والفظاعة بسلطته واللقب الذي انتحلته لنفسه وأوهام المجد والعظمة التي وجدها جميع الناس جيلة ومعقولة .

وكانت قوات الغرب المنهزمة للقيام بحركة في المستقبل معظم وتتوطد أركانها بعد ما كانت قد رمت بأنظارها غير مرة الى الشرق في السنوات ١٨٠٥ و ١٨٠٦ و ١٨٠٧ و ١٨٠٩ .

وفي سنة ١٨١١ اتحدت العصاة التي تألفت في فرنسا مع شعوب الوسط وأنشأت مجموها هائلا .

وكان مع تعاظم ذلك المجموع تعاظم تبرئة ذلك المترس عليه من تبعه المسؤولية .

وكان أن ذلك الرجل في خلال السنوات الست التي جرى فيها الاستعداد للحركة العظيمة تولى العلاقات بجميع عهال أوربا وملوكها وأقيالها . وأن الامراء الذين فقدوا تيجانهم لم تكن أوهامهم المعقولة مما تقاوم به الاوهام غير المعقولة التي ابتدعها نابوليون لنيل العظمة والمجد وقد بادر الواحد منهم بعد الآخر ليبيّنوا له أنهم ممن لا يعتمد بهم .

وأرسل ملك بروسيا زوجته الملكة الى ذلك الرجل العظيم طمعا بنيل الخطوة لديه واعتبر حائل النساء أن ذلك الرجل يوليه نعمة كبرى بأقترانه بابنته وجعل البابا جارس القداسة في البشر الدين قاعدة لتمثال مجد ذلك الرجل الداهية .

وان كل ماحف بنابوليون أوحى اليه المنهاج الذي جرى عليه في تمثيل دوره وجعله يلقي على طاقه عبء مسؤولية الحوادث الحاضرة والمستقبل بدلا من أن يهيم نفسه لتمثيل الدور المقضي عليه تمثيله .

ولم يأت عملا من الاعمال ولم يقترب جريمة من الجرائم ولم يباشر سرا من الاسرار البسيطة الا وبادر الناس الى التنويه ببسالته .
ولم يجد الالمان شيئا يروقه أفضل من الاحتفال بتذكار معركتي ايانا وارستاد ولم يكن هو وحده عظيما بل كان أجداده وأخوته وأولاد أخوته وأصحابه جميعهم عظماء . وقد آل كل شيء بسهولة الى أن يزول منه آخر أثر من آثار العقل وبعده لتمثيل دوره الهائل . ولما تم له الامر كانت جميع القوى مستعدة لمناصرته .
وشرع في غزو المشرق فانتهى الى الغاية الاخيرة وهي موسكو فاستولى على تلك العاصمة وساق الى الجيوش الروسية متالف لم يك قد ساق مثلها الى الجيوش المعادية له من عهد استرلنز الى اليوم الذي وقعت فيه موقعة وغرام .
وعوضا عن الصدفة والدهاء اللذين جعلاه يتنقل من انتصار الى انتصار جاريا إلى الغاية المنصوبة له تلقى خفاة مجموع صدف مما كسبه له من الزكام الذي اصابه في بورودينو الى الشرارة التي أضرمت النار في موسكو والرد القارس في روسيا .
وبدلا من الدهاء نجد فيه ضعفا وصغارا لم يذكر التاريخ ما يماثلها .

وكانت الغزوة تتقدم ولكن بشكل معا كس وصارت جميع الصدف معادية له بعد ما كانت من أحلافه . وحينئذ شهدنا حركة مخالفة موجهة من الشرق الى الغرب تشابه كل المشابهة الحركة التي سبقتها .

وقد أعلنت حركة جديدة بمساعي كثيرة جرت في السنوات ١٨٠٥ و ١٨٠٧ و ١٨٠٩ فتأملت عصاة كالعصاة الماضية وجعلت تكبر حتى صارت جهابرة غفيرة وتأملت شعوب أوروبا الوسطى عند تلك الحركة المعتبرة تكرارا للحركة السابقة لانه لم ينقصها شيء لئماثلها مائلة نامة من مثل التردد في أثناء الطريق وازدياد السرعة عند الاقتراب من الغاية . وأدركت باريس وهي الغاية الاخيرة لتلك الحركة وكان من وراء ذلك انكسار نابوليون وجيوشه

وان نابوليون ذاته لم يبق شيئا مذكورا وصارت أعماله الاخيرة تستثير الشفقة عليه والنفور منه . ومع ذلك بدت صدقة جديدة تعجز الافهام عن ادراكها فان المنتحالفين كانوا يبهضون نابوليون ويعتبرونه سببا لجميع مصائبهم . وكان يقضى عليهم في ذلك الحين عند زوال مهابته وتقلص ظل قوته وأتهم الناس اياه باقتراف الجرائم والغدر بان ينظروا اليه بالملقة عينها التي نظروا اليه



تابو ليون يستسلم لبريطانيا العظمى

بها قبل ذلك العهد بعشر سنوات وبعده بسنة واحدة أي أن يروا فيه لصا نبذته الشريعة الا أن صدفة غريبة لم تجعل الناس يعتبرونه ذلك الاعتبار ولكنه لم يكن قد أكمل تمثيل دوره بعد فأن ذلك الرجل المعتبر لصا نبذته الشريعة أرسل الى جزيرة تبعده يومين عن فرنسا وأعطى تلك الجزيرة وعين خدمته خفراء وخصص لنفقاته ملايين من الفرنكات لاسباب لا يعلمها الا الله .

وأخذت حركة تلك الشعوب تسكن وهدأت الامواج الزاورة وعقبها في ذلك البحر الساكن موجات لطيفة ركب متنها سياسيون تومهموا أن الفضل في ذلك السكون مرجعه اليهم .

وعاد البحر الى الهيجان فاعتقد أولئك الساسة أن الخلاف الطارئ بينهم أصل لذلك الهيجان وباتوا يتوقعون نشوب حرب بين مواليمهم وباتت لهم تلك الاحوال مأزقا لا يخرج منه . بيد أن الامواج التي شعروا بدورها منهم لم تأت من الجهة التي انتظروا مجيئها منها بل كانت آتية من باريس .

وان ذاك الرجل الذي التي فرنسا في وهددة الخراب عاد اليها وحده من دون أن تصحبه الجنود ومن دون أن يكون لديه خطة معروفة يسير عليها وكانت حياته تحت رحمة كل خفير يلقاه في طريقه ولكنه بصدفة غريبة لم يمس بأذى . وهرع القوم لملاقاته باحتفاء خلافا لما كان منتظرا منهم . وطبقت أصواتهم الفضاء بالتهليل لذلك الذي كانوا بالامس يقذفونه باللعنات والذي سيعودون بعد شهر من الزمان الى لعنه . ولم يقع ذلك الا لانهم كانوا لا يزالون محتاجين اليه لاتمام الفصل الاخير . انتهى الفصل وتم الدور الاخير وأمر الممثل أن يخلع لباسه وينزع عنه خضابه لاستغنائهم عنه .

وهو نفسه أظهر للملاطرا بكل وضوح حقيقة ذلك الشيء الحقير الذي اعتبره البشر قوة وقت ما كانت يد الحوادث غير المنظورة تقوده .

وان مدبر الكائنات الحقيقي لما فرغ من تلك الرواية أمر أهم ممثل فيها أن ينزع عنه ما كان متنكرا به وأرانا اياه قائلا : « انظروا ذلك الذي آمنتم به واعلموا الآن اني انا الذي جعلتكم تسيرون على الطريق الذي سلكتموه وليس هو » الا أن البشر الذين تعمي بصائرهم قوة الانجذاب لبشوا ردحا من الدهر وهم لا يدركون الحقيقة .

وإننا لنجد أموراً كثيرة مقدرة في حياة الاسكندر الاول وهو الذي ترأس الحركة المعاكسة أي الحركة التي حدثت من الشرق الى الغرب . فما هي الصفات المزدان بها ذلك الرجل ليتمكن من تصيير ماسواه نسياً منسياً وترأس تلك الحركة ؟

لقد ازدان ولا مرء بمعاطفة العدالة وعني عناية حقيقية بشؤون أوروبا ولم يتعلق بأذيال أمور لا طائل تحتها . وقد تحلى بصفات أدبية تفوق صفات الملوك المعاصرين له وأصاب اخلاقاً لطيفة تستميل اليه القلوب وشعر باهانة شخصية نالته من نابوليون .

وكانت جميع هذه الاشياء المميزة متجمعة في الاسكندر الاول وقد حشدتها الصدف الكثيرة أو الصدف المزعومة التي حدثت في ماضي حياته وساعدها كل شيء كبريئته واصلاحاته المبنية على أساس الحرية والمستشارين الذين ضافروه . بصرف النظر عن استرلنز وتلست وارفرت .

ولاذ هذا الرجل في أثناء الحرب الوطنية بقوة التحول للاستغناء عنه . ولكنه لما أصبحت الحرب الاوربية مما لا يستغنى عنها برز في المواقف الخطيرة الى الموقف المعد له ليضم متفرق الشعوب الاوربية ويسير بها الى الغاية المعروفة وحينئذ أدركت تلك الغاية . وبعد الحرب الاخيرة التي انشبت في سنة ١٨١٥ كان لدى الاسكندر أعظم قوة يستطيع الانسان الحصول عليها وماذا فعل بتلك القوة الهائلة ؟

ان الاسكندر الاول معيد السلم الى أوروبا والهابة في صدره منذ حدوثه نسحات الرغبة الحقيقية في جر الهناء والراحة الى رعيته والمعتبر في مقدمة الذين أدخلوا الى الديار الروسية الاصلاحات الموسومة بسمة الحرية ذلك العاهل القابض بيديه على عنان سلطة مطلقة كان يستطيع بالحقيقة أن يعمل لخير رعيته ونجاحها . وماذا يبدو لنا الآن ؟ لما كان نابوليون في منفاه يرسم خططاً كاذبة ووهمية ليبين السبيل الذي يمكنه أن يفتحه لسعادة الانسانية لو كانت له السلطة على ذلك كان الاسكندر المحرز تلك السلطة ينهض باعباء مهمته وهو شاعر بيد الله على قلبه ويعلم ان تلك السلطة معدودة من جملة الاباطيل ولذلك

أعرض عنها تاركا إياها في أيدي أشخاص محتقرين وهو لا يني عن ترديد هذه الكلمات : « ليس لنا المجد ولكن لك وحدك »
أنا انسان نظيركم فأتروني أعيش عيشة رجل بسيط لا تمكن من التفكير بنفسى وبالله .

وكما أن الشمس أو كل ذرة من ذرات الاثير تنشئ كرة مستقلة بذاتها وهي لا تؤلف سوى ذرة من ذلك السكائن العظيم الذي يعجز الانسان عن الوصول اليه فان لكل انسان غاية خاصة وفي الوقت عينه يخدم الغاية المشتركة التي يقصر العقل البشري عن الوصول اليها .

تقع النحلة التي تطير عن الزهرة على ولد وتلمسه فيصير الولد يخاف النحل ويتوهم ان غاية النحل في هذا العالم لسع الناس
يعجب الشاعر بالنحلة التي تمتص من كأس الزهرة ويصير يتوهم أن غاية النحل امتصاص شذى الازهار .

يلاحظ المشتغل بتربية النحل النحلة وهي تجمع اللقاح وعصير النباتات لتغذية اليمسوب وصغار النحل فيتوهم أن غاية النحل بقايا الجنس
يلاحظ النباتي ان النحلة تنقل اللقاح من احد النباتات الى عضو التأنث في زهرة اخرى لتلقيحها فيتوهم ان غاية النحل التلقيح
يلاحظ نباتي آخر أن النحلة تساعد على نقل النباتات من مكان الى مكان آخر فيتموهم ان غاية النحلة نقل مثل تلك النباتات .

ولكن الغاية الاخيرة للنحلة ليست في الغايات الاولى والثانية والثالثة التي مر بيانها والتي يستطيع عقل الانسان اكتشافها .

وكما أكرر المرء من البحث عن حقيقة تلك الغاية الاخيرة تجلى له ان عقله يرتد كلياً عن الوصول اليها . ولا يمكنه الا أن يلاحظ العلاقة المشتركة بين حياة النحلة والحوادث الطبيعية الأخرى ، فهو يبقى محصوراً في الدائرة الضيقة عينها للبحث عن غايات الحوادث والاشخاص المذكورين في التاريخ فيظل عاجزاً عن البلوغ الى الغاية الاخيرة .

نابوليون الثاني

أو

ملك رومية

في اليوم العشرين من شهر مارس سنة ١٨١١ كتظت أسواق باريس منذ الفجر بجمهور غفير من الناس كان يهرول ميمما قصر التويلري لعلهم يدنو ميمعاد تمخض العاهلة قرينة العاهل نابوليون الأول . وكانت نواقيش كنيسة نوتردام وجميع كنائس العاصمة تقرر قرعا متواصلا اظهار الالبتهاج الباريسيين بقرب ولادة وارث أو وارثة لعرش عاهلهم الكبير . وعند الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من صباح ذلك اليوم سمع قصف مدفع الانفاليد فكان له في القلوب وقع لم يشعر بمثله القوم في تلك المدينة عند سماعهم صوت ذلك المدفع مع تودهم سماعه غير مرة وكان عدد طلقاته ثلاثا وعشرين طلقة وهو دليل على أن المولود ذكر فينتظر منه أن يكون وارثا لمجد ضخم وولي عهد ممالك كثيرة . فعلت أصوات التكبير والتهليل وتعاقت الجماهير وترتمت باناشيد الفرح وذرفت الدموع من فرط الاغباط وعلات العاصمة بخمرة الجذل .

ولم يرتب أحد في أن فرنسا طرأ ستبتهج في نوبتها بتلك البشري السارة لانه ولد لنا نابوليون العظيم ولد ذكر أطلق عليه اسم « ملك رومية »

ولما شاهد الغلام النور خافوا عليه كثيرا لانه لبث بضع دقائق جامدا لا يأتي أدنى حركة كأنه ميت ولكنه ماعتم ان صار يزق زعقات متوالية وأخذ يتحرك شيئا فشيئا . وقال واحد من الذين طابوه في تلك الساعة أن احمرار وجهه الشديد كان يدل على الجهد الذي حانه في دخوله العالم وأن بكاءه افعم ألفؤاد بهجة لدلالته دلالة واضحة على القوة والحياة . وبينما اصوات الفرح تصعد من ساحة الكاروسل مطبقة القضاء تناول نابوليون غلامه بين يديه وحقق بباصريته في

وجوه ولم يقو على حبس عبراته من الانحدار على خديه .
وتقضي التقاليد في فرنسا أن تتم ولادة أولياء العهد على مرأى من الشهود
ولذلك كان في غرفة الامبراطورة ماري لويز ثلاثة وعشرون شخصاً ونظم صك
الولادة رينيو دي سان جان دمحلي وزير الحكومة الامبراطورية ووقعه الدوق
دي ورتسبورغ شقيق حاهل النمسا والبرنس أوجين بصفة شاهدين . ووقعه
أيضاً نابوليون والملكة جوليا والملكة هرنس وبولين وكباساريس وغيرهم
من الامراء والاميرات . وعند الساعة الحادية عشرة قدمت تسبحة الشكر لله في
قصر التويلري . وفي أثناء تلك التسبحة الاحتفالية أطلقت المدافع وقرعت
النواقيس بلا انقطاع . وزينت الاسواق والشوارع بالاعلام والبنود وانطلقت
عقيلة بلانشار الطيارة المشهورة بالمنطاد من المدرسة الحربية لتذيع تلك البشري
المبهجة في جميع الانحاء الفرنسية ولكن هبت ريح شديدة اضطرتها الى الوقوف
عند مو . وأنفذت الوفود الى الحكومات الاجنبية والمدن الكبيرة في
الامبراطورية الفرنسية كرومية وأمستردام وهامبورغ وتريسته لان جميع هذه
المدن كانت في ذلك العهد معدودة من جملة ممتلكات فرنسا . وفي الساعة التاسعة
مساء من اليوم عينه رشم الطفل في معبد التويلري السكردينال فش خال
نابوليون والسكردينال البرنس دي روهان المرشد الروحي الاكبر بحضور جمع
غفير من السفراء والمشيرين والاساقفة وأصحاب المقامات العالية ولم تسرف صحف
تلك البلاد في وصف مثل تلك الحفلات ولم تتعمد التزلف والتلق . وعلاوة على
ذلك لم ينفسح المجال في الجرائد لنشر مثل تلك التفاصيل وأذاعت صحيفة الديبا
في الايام التالية النشرات الصحفية الآتية بتوقيع كرفيزار وبوردوي وأفيني :
« التقم جلالة ملك رومية بلهفة وغير مرة ندي مرضعه وقد زالت آلام
المفص التي شعر بها جلالة ملك رومية في أثناء هزيع من الليل . وقضى جلالة
ملك رومية نهراً جميلاً وجميع أعضاء جسمه تنهض بأعباء وظائفها حق النهوض . »
ولم يصدر الاطباء من اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس نشرات صحية
عن ملك رومية . وفي ٢٨ من الشهر عينه استطاعت ماري لويز النهوض من سريره .
وضرب اليوم الثاني من شهر ابريل موعداً لتنصير الطفل ولكنهم أرجأوه

الى اليوم التاسع منه وهو عيد الثالوث الاقدس . وقد تمت حفلة العهاد في الساعة الخامسة بعد الظهر . وكان ذلك النهار بهجاً جداً . وانتشرت الجماهير الغفيرة وراء ثلاثة صفوف من الجنود من ساحة الكنكرود الى كنيسة نوتردام . وحكت تلك الحفلة حفلة التتويج . ولما تقدم كبير المنادين الى الوسط وصاح بصوته الجمهوري ثلاث مرات : « فليحيى ملك رومية ! » ردد الحضور ذلك الهتاف وبلغ الصياح معظمه حين تناول نابوليون ولي عهده ورفع به بذراعيه فوق رأسه وأراه للجميع .

وقرر نابوليون منذ شهر فبراير سنة ١٨١٠ — وكان ذلك قبل زواجه الثاني — أن يطلق على ولي عهده اسم ملك رومية وقال نابوليون في ١٦ يونيو سنة ١٨١١ لمجلس شورى حكومته : « إن ولادة ملك رومية جعلتني أدرك وطري وضمنت مستقبل شعبي . » وبعد ما نشرت صحيفة الديبا هذه الملاحظة وهي انه من أيام شارل السابع لم يولد ملك من ملوك فرنسا في عاصمة المملكة قالت : بمجدد بنا أن ننعم النظر في تلك القوة الضخمة المستقبلية وذلك المجد الباذخ الاتي المعلق بهما على يد ملك رومية حظ شعوب كثيرة وحينئذ يمكننا أن نبين السبب الذي من أجله أبدى الناس في هذه الديار ما أبدوه من الابتهاج والفرح .

وهل يقوى أصحاب الوسواس والشكوك على نبذ الثقة بالمستقبل في مثل تلك الاحوال ؟ فليس ثمة حظوظ الحروب والانتصارات والغنائم والفتوح فان نابوليون في الحال التي صار اليها بعد ولادة ولي عهده بلغ درجة من العظمة لم يخطر له قط البلوغ اليها . فلم يبق في نظر الناس ذلك الجندي باهر أبصار الفرنسيين ببروق انتصاراته المتوالية ومذلل الدول الاوربية لدى سلطانته السامي الذي بل موطد دعائم حظه الميمون الواقعة عنده الاحلام حائرة ومحقق المقاصد المبنية على أسس الجرأة والاقدام . وقد صارت له منزلة بين الملوك وأسرم . أو ليس هو القائل انه لا تنقضي عشر سنوات على عثرته حتى يصير الناس يعدونها من جلة العرعر العريقة في الشرف . وكأنه جرى في نفسه انه لا يكتفيه ما أصابه من الدهاء والمجد والحول والطول وما سنه من الشرائع والقوانين وما أخضعه من الشعوب والقبائل وما اعتدى به على الكنيسة حتى انه استمال اليه الحق سبحانه وتعالى أو ظهر عليه وجعله يبارك اقترانه بابتنة القياصرة وان الله

وقد خلع نابوليون نائبه على الارض وألقاه في السجن واغتصب منه مدينة رومية عاصمته أظهر أنه راض عن انتصاراته وثبت أركان أعماله ووقى نابوليون والامبراطورية من تغير الدهر عليه وخيانة الحظ له بمنحه إياه ولدأ ووارثا وخليفة . ولكن ساء ما توهم ذلك العاهل وتوهم أنصاره ومريدوه فان المستقبل ليس له ولكن لله المبدي المعيد . . .

ولو مرت جميع هذه الامور في الحلم في خاطر ذلك الكورسيكي الملازم في المدفعية لا عثرى تخيلته شيء من المس .

وكانت ماري لويز شديدة الحبة لابنها والتعلق به واليكم خلاصة ما كتبتة في أثناء السنوات ١٨١١ و ١٨١٢ و ١٨١٣ عن ثمرة أحشائها : « ان ابني مع صغر سنه عجيب بين اترابه فهو يضحك مقبها وهو شديد الشبه بالامبراطور أبيه واعل النفس بانه سيكون في مستطرف الحين نظير والده مجلبة للسعادة لجميع الذين يعرفونه ... ان ابني قوي البنية جميل الصورة وهو ينمو ويكبر في كل دقيقة ويزداد لطفا واظني ممعته يلفظ كلمة بابا ... »

وأحبت ماري لويز ابنها كما أحبت زوجها حتى جاء حين انكرت فيه الواحد منها واحملت العناية بالآخر . ولم تدر كيف تلاطف نجلها أو تحمله على ذراعيها أو تمازحه ليضحك . وجميع المقربين من الاسرة الامبراطورية شهدوا بما كان نابوليون يفشييه من اسرار الحبة الوالدية المقرونة بالبهجة والمعجب والحرص . وان الذين لا يعرفون حقيقة طبيعة العاهل يقضون المعجب من سماعهم مثل هذا الكلام المروي عن رقة عواطفه فان الدقائق القليلة التي كان يختلسها من مخالب الاعمال المستفرقة معظم وقته كان يقضيها في معاشره امرأته وابنه على مثال الآباء الحنونين والازواج البارين . وقد قالت ماري لويز ان الامبراطور كان شديد العناية بابنه فانه كان يحمله على ذراعيه ويلاعبه ويداعبه ويريد أن يطعمه وينقله على ركبتيه من الواحدة الى الاخرى ويلاعبه باللعبة المعروفة « بالغميضة » ويفمس احدى أصابع الطفل بالرق ويدهن خديه بالمرني . أجل أنه لم يكن خفيف الحركة في معالجة هذه الامور ولكنه كان يفعلها ببساطة وحنان أبوي بحيث لا ينفر منها الطفل بل يسرها ضاحكا ومصفقا بيديه ومادا ذراعيه الى عيني والده . ولم يكن شيء من الاشياء ممنوعا عن ملك

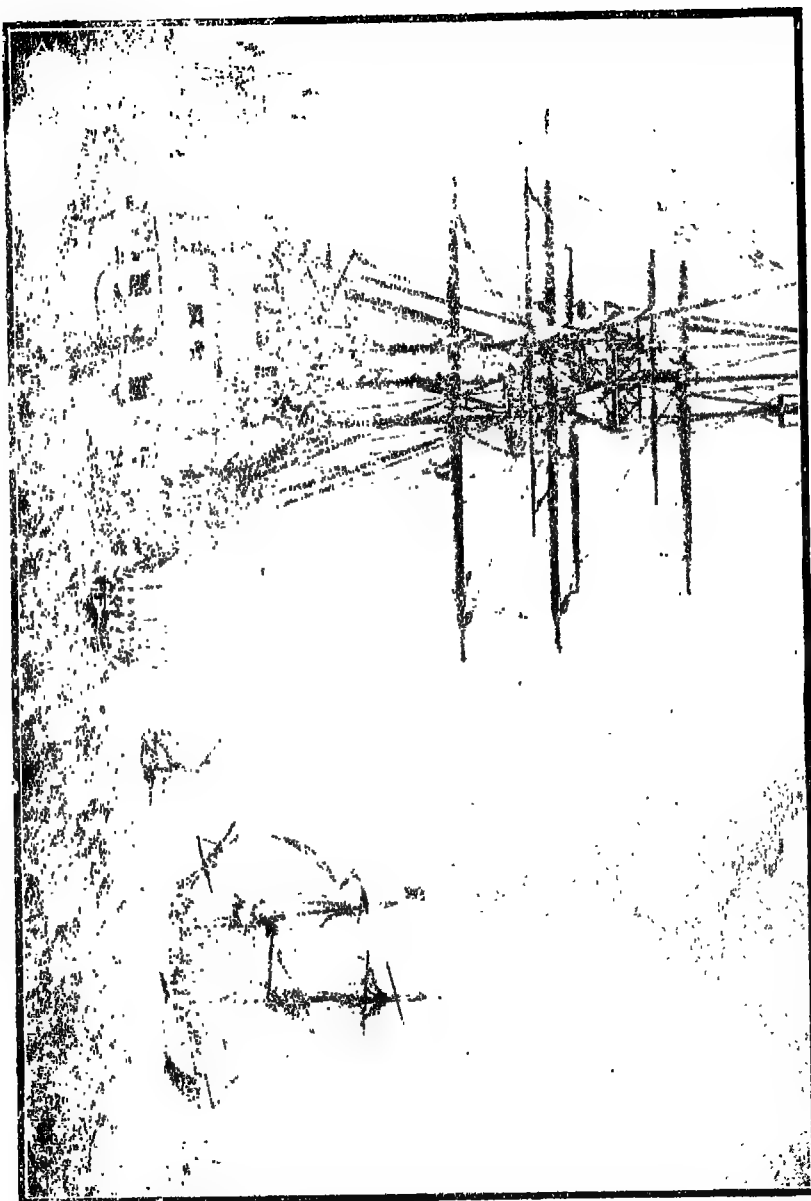
رومية فكان يدخل كل مكان في القصر غير مستثنى غرفة الامبراطور الخاصة فيفتح بكل جرأة ذلك الباب الذي يقف الملوك أمامه منتظرين اذن الامبراطور بالدخول عليه ويقلب الاوراق والقطع الخشبية التي يستعملها نابوليون لتنظيم الخطط الحربية ويجلس على المصورات . فيسر نابوليون سرورا عظيما عند رؤيته الغلام يفعل تلك الاشياء .

ولكن لسوء الحظ لم يكن نابوليون يقضي جميع اوقاته أو معظمها في قصره لان السنوات التي تلت ولادة ولي عهده كانت من أشد الازمنة عليه . وكان الغلام في أثناء تغيب والده يتم باسرار المحبة العميقة لعقيلة دي منتسكيو حاضنته التي كانت تقابله بالمثل :

وكتب منيفال عنه في أواخر سنة ١٨١٣ ما يأتي : انه كان غلاما جميلا للغاية تبدو عليه علامة الصحة والقوة . وكان ادراكه ينمو نماء غريبا وكان رأسه مستديرا وشعره أشقر متجمدا وعينه شديدة الزرقة . وقد ورث من والدته لونها وفمها وشفتها السفلى المخصوصة باسرة هبسبورغ ولكن جبينه وذقنه كانا عمالئين لجبين والده وذقنه . وكان ميالا الى الابتهاج والهذر والتلطف والركة ولكنه كان في الحين عينه سريع الغضب . وما يروى عنه انه كان في ذات يوم يتقلب على حضيض الغرفة ويبكي بصوت عال فبادرت عقيلة دي منتسكيو واقلقت النوافذ فلما حال صمت الغلام وسألها عن سبب اغلاقها النوافذ . فأجابته أنظن ان الفرنسيين يرضون بان يكون ملينهم نظيرك مريع الغضب ؟ ... فقال لها . أنظنين انهم معموفي ؟ ان هذا الامر ليؤلمني كثيرا فاصفحي عني يا ماما كيو (الاسم الذي كان يناديها به) وتأ كندي اني لن أعود ابدا الى مثل هذا الامر .

وكان جسيم الباريسيين يسرون به عند رؤيتهم اياه يمرح لاعبا في حديقة التويلري ولكنه كان يؤثر على تلك الحديقة حديقة سان كلود . وأهدته ملكة نابولي عربة صغيرة تجرها الغنم فكان هو يجرها بذاته ويفضل على كل ذلك ما يختص بالجندية كعرض العساكر واقامة الخفراء في مرا كرم واتشاحهم بالزلات الرسمية ويعمل ميلا غريزيا الى الجنود ويفتخر بثوبه الصغير المفصل على مثال ثياب الحراس ويرد برصانة النجبة الجندية ، وفي ٢٣ يناير سنة ١٨١٤ لما عزم العاهل نابوليون على تولي قيادة ما بقي لديه من الجنود لاضرام نيران المعركة الكبرى

د کوب پاپو لیون ایستنه پرووین



جمع في قصر التويلري بحضرة ماري لويز وملك رومية ضباط الحرس الوطني وقال لهم :

« اذا دنا العدو من العاصمة فاني اكل الى بسالة الحرس الوطني الامبراطورة وملك رومية ... زوجتي وابني ... »

وبعد يومين ودعها وطانقها للمرة الاخيرة .

وفي أثناء شهرين من الزمان اتى نابوليون اعمالا عجيبة من البسالة والدهاء صيرت معركة فرنسا أعظم معركة فانتصر عشر مرات على الروس والنمساويين والبروسيين على التعاقب ولكن لم يكن من سبيل الى الوقوف في وجه قوات تتجدد بلا انقطاع ولا يحصى لها عدد . وفي أواخر شهر مارس زحف المتحالفون الى مدينة باريس وفي الغد بلغ عددهم نحواً من مائة وخمسين ألفاً ولم يكن لدى مرمون ومرتيه ومنسي الذين جمعوا ثمل قواتهم المتبددة سوى خمسة وعشرين ألفاً من المقاتلة . وجمع يوسف بوناپرت مجاس الوكالة وكان الامل بالنجاة من تلك الورطة أصبح مفقوداً ولم يعرف أحد مقر الامبراطور ولا العمل الذي يعمل به . وارتأت الاكثريه انه من المقضي على الامبراطورة وملك رومية الا يرحا العاصمة أبداً وقرأ يوسف كتاباً انفذه اليه نابوليون في ٦ مارس يقول فيه : « اذا زحف العدو الى باريس بقوات لا تستطيع مقاومتها فسير الى جهة اللوار الامبراطورة وابني . ولا تفارق ابني بل تذكر اني اؤثر ان أراه في نهر السين على رؤيتي اياه في ايدي اعداء فرنسا لان حظ استياناك الذي أسره الاغريقيون بان لي انكسك من حظ سواء كما يروي التاريخ ... »

وسطر نابوليون في ٨ فبراير كتاباً آخر مآله : « افضل نحر ابني على رؤيتي اياه يتربى في فيينا كأمر نمساوي ولي حسن ظن بالامبراطورة فهي من رأيي .. » وقد اتخذ نابوليون من هذه الجهة الا ان هذا الفكر اكثر من الاختلاف الى مخيلته فلم يشأ قط أن يصير ابنه رهينة ومع ذلك افضت التدابير التي لجأوا اليها الى طاقبة وخيمة لانه لو لم تغادر ماري لويز مدينة باريس في صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس ولو لم يفصل عنها يوسف بعد ظهر ذلك اليوم لما وقع مرمون صك التسليم ليل ٣٠ الى ٣١ منه ولما كان نابوليون المسرع في

الزحف الى العاصمة انتهى اليها في الحين الملائم لان المسألة لم تكن تقتضي سوى بضع ساعات . . .

ولم يكن من سبيل الى الجدل في أوامر الامبراطور فالامبراطورة برحت القصر مع سليلها صباح ٢٩ مارس وكان انطلاقها شبيهاً بالفرار فخذ تباج الفجر تلبدت الغيوم في الافق وقرس البرد وكانوا قد هياؤا في عرصة قصر التويلري عجالات النقل ومركبات الركوب . وسرت حركة الناس والخيل كثيرا ملك رومية الواقف وراء نافذة من نوافذ رواق المرشالية . وعند الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين لما انتهى كل شيء وأرادوا أخذه جمل يبيكي ويصيح ويقاوم مقاومة اليأس قائلا : لا تذهبوا بنا الى قصر رمبويه فانه ليس قصرا جيلا بل ابقوا هنا . . . فانا لا أريد أن اترك بيتي أو ان أهجره . . . ففي غياب ابني أنا صاحب الامر والنهي

وطالج التخلص من بين ايديهم متعلقا باللائث وبما تصل اليه يدها كالستائر والباب ودرازين الدرج . ولم تستطع عقيلة منتسكيو ولا عقيلة سوفلو (نائبة الحاضنة) ان تسكنا روعه فاضطر أحد الحجاب الى حمله بين ذراعيه لا يصله الى مركبة والدته . ولم يتمكنوا من تهدئة خاطره الا بوعدهم اياه بالرجوع به الى قصر التويلري بعد مدة قصيرة . أجل أنه يسهل التسكلم الان عما جال في خاطر من التسكلم في ذلك الحين . وقد أبدى بوجهه الملاحظة الآتية وهي ان غريزة ذلك الامير الحدث تكلمت بلهجة يخالف لهجة مستشاري الامبراطورية . وكان الموكب المؤلف من المركبات العشرين المرسوم عليها الشعار الامبراطوري وهي مركبات التتويج يحري كانه قافلة مهاجرين أو منفين بين أصوات الجماهير المزدحمة كالبنيان المرصوص . ويصح أن يطلق على ذلك الموكب موكب مناحة الامبراطورية

ووقع نابوليون صك التنازل عن عرش الامبراطورية في ٦ ابريل وبرز فنتنبلو في ٢٠ منه مؤملا أن زوجته وابنه يوافيانه الى جزيرة الباي في أقصر ما يمكن من الوقت بموجب عهد الملوك الرسمي وسافرت ماري لويز في نوبتها الى فينا في ٢٣ منه وكانت المناظر الجديدة التي تقع عليها عينها الغلام تبهجه وتسرع خاطره ولكنه كان يقول من حين الى آخر لماذا لم يتركوني اطاق والدي مودعا اياه .

ولم تسكد ماري لويز تعبر الحدود الفرنسية حتى طادت الى حمل لقبها الاصلي أي ارشيدوقة نمساوية . واجتمعت في شبرن باعضاء أسرتها الكثيري العدد

كأعمامها وأخوالها وشقيقاتها وأبناء أعمامها وأخوالها وبناتهم وكانوا جميعهم يعتبرونها ابنة من بنات النبلاء حملتها الحماقة على عقد ذلك القران الذي لم يلبث أن افضى بها الى الافراق عن زوجها . ولم يخطر لها قط أن تشخص الى جزيرة البا . ولم تجاوب على جميع الرسائل التي انتهت اليها من تلك الجزيرة ولم يكن يهمها سوى أمرين : الذهاب الى حمامات اكس للعناية بصحتها الثمينة والحصول من المؤتمر الموشك ان ينمقد على امارة أو دوقية أو قطعة أخرى من الارض . ومن اول يناير سنة ١٨١٥ انتقطت عن الكتابة الى نابوليون ومجاوبته على رسائله . وقد تولاه التبرم والدعر حين وافقها الانباء عن عودة زوجها الى فرنسا ونزوله الى البر في كان وناجت نفسها قائلة كيف السبيل الى التخلص من ذلك الرجل الجريء وأعلنت انها بريئة من كل ما يفعله زوجها وانها مستظلة بكنف حماية الدول . فكافأها المؤتمر الدولي على تلك المواطف النبيلة بمنحه اياها دوقيات بارم وبلازانس وغواستالا من دون ان يكون لابنها ادنى حق بوراتها .

وعاد نابوليون الى باريس ولكنه قبل ان يدخلها كتب عدة رسائل الى ماري لويز وكان من جملة ما كتبه لها : « يالويز الحبيبة لايوزني شيء سواك وسوى ابني . . . تعالي الي انت وابني . وانا آمل ان اعانقكما قبل نهاية الشهر . . . اني على حبل انتظارك انت وابني لغاية شهر ابريل »

ووصل الى ماري لويز كتب كثيرة بهذا المعنى من نابوليون ولكنها لم تجاوبه عليها . ولما استأذن منها منيفال بالانصراف في مفتتح شهر مايو وسألها هل عندها شيء تكافه بايصاله الى الامبراطور تأملت قليلا وقالت له : انمى له كل ما يمكنني ان آتمناه له من الخير . وكان نابوليون يغالب القنوط وكان مع ما لديه من الهواجس وثقى المهام يقضي ساعات طويلة بعد الظهر بصحبة منيفال ملقياً عليه كثيراً من الاسئلة التافهة .

ولقيت ماري لويز في واترلو وجزيرة القديسة هيلانة تعزية لها ماوراءها من تعزية . وارادت ان تطلب الطلاق والتحرر من قيد الزوجية ولكنها لم تجسر على اتيان ذلك الامر . فهيأت جميع المعدات للحالة التي تخيرتها . وما ابطأت ان تعودتها وصارت تبتهج بها . وكانت تقضي معظم وقتها في بارم عائشة كماهلة في اللال والمعظمة بحيث صارت في مدة قصيرة على جانب عظيم من السمن . وكانت

تذهب كل ليلة الى الملتب لتشهد التمثيل وقالت انها في حال من السعادة لا تحسد عليها احدا من الناس . ومع ذلك كانت من حين الى آخر تكتب : « ان قلبي يقطر دماً حين افكر ان عيني لم تكتحل من سنة من الزمان برؤية ولدي . . . ولا يمكنكم ان تدركوا مقدار ما اشعر به من التنقص وقت ما افكر بأني لالقي لي بدا من ارجاء الحين الذي اتمكن فيه من معاينته . . . » وقد ثبت فيما بعد ان جميع هذا الكلام كان صادراً عن معدن الرياء لان نيبيرغ استأثر بما في فؤادها من العطف والحب . ووزعت ما بقي فيه من ثمالة العطف والحب على طاهيها ومرغربت خادماتها .

والقي نابوليون على صخور جزيرة القديسة هيلانة الصماء فتحقق هذه المرة انه قد قضى الامر ولم يلق مندوحة عن الاذعان ولم يفكر قط في امر الفرار من منفاه ولو مهدوا في وجهه السبيل لنيل تلك الامنية لانه لم يشأ ان يلتبس شيئاً من جلاديه . وقد طلب امراً واحداً وهو الحصول على اخبار زوجته وولده طابوا إجابة طلبه . ولا يخفى ان هـدسن لو ذلك الانكليزي الجمودي الفؤاد لم يكتف بان يضمن على نابوليون بالهواء والتزده وان يقدم له بالكيل والوزن الماء والابن والملح والحطب ويرصد حركاته وسكناته من خصاص الابواب والنوافذ وانقلاب الاقفال وان يهزأ بما يقاسيه من العذابات الفادحة والآلام المبرحة بل تدخل في امر الطبيب الذي يعالجه والادوية التي يصفها له ولم يشأ ان يصدق انه مريض الا بعد تقطع انفاسه المعدودة . ولم يقف هـدسن لو عند ذلك الحد بل تطرق الى تعذيبه بما كسبه عواطفه الشخصية : فحدث ان جاء الى جزيرة القديسة هيلانة بستاني من الأتلي كانوا يعملون في حديقة البلاط النمساوي يقال له ولس ويمكن بواسطه مرشان من اعطاء نابوليون بعض شعرات من شعر ابنه . فلما درى هـدسن لو بما كان من امر ولس بادر الى إخراجه من الجزيرة . وحدث مرة اخرى ان طاهياً جاء نابوليون بشمال نصبي لولده الامير صنعه نحاس في ليفورن فتحدمت مواقد الفضب في صدر هـدسن لو وكاد يتميز من الغيظ واراد الذهاب بنفسه لينتزع بالقوة ذلك التمثال من يدي نابوليون ويحطمه تحطيماً وحدثت حوادث كثيرة غير هاتين الحادثتين مما يدل على ما انطبع عليه ذلك السجان من قسوة القلب وفضافة الاخلاق . ولم يستطع نابوليون ان يشاهد تلك الاعمال الفظيعة

من دون ان يتذمر ويغضب ويكل الحكم عليها للتاريخ والمستقبل فيقول : « انهم
نزعوا مني ابني على مثال اولئك الذين كانوا يسبون اولاد المغلوبين ليزينوا بهم
مركبات الظافر . . . ولعمر الحق انه لا يمكن ان يتصور ان مثل هذه الامور
القطيعة تجري في هذا العصر »

واليكم مخاطب به العاهل نابوليون الدكتور اوميرا الذي طرده ههنا لو
من الجزيرة لانه كان يبدي لنا نابوليون احتراماً مقروناً بالشفقة : « وان انت
ابصرت ابني فقبله عني وقل له ألا ينسى ابدا انه ولد اميراً فرنسوا »

وأني يستطيع ملك رومية ان يظل اميراً بعد ما سرق من ابيه وأهملته
والدته وأخرج من بلاده وسلم الى الاجبي ؟ فكان شعب فرنسا يسميه بونا برت
الصغير ويعتبره وحشاً غريب الشكل واسرته تنظر اليه بالعين نفسها التي تنظر
بها الى شخص ثقیل الروح ودخيل وابن زنا والوزيران مترنيخ وتاليران
يعتبرانه خطراً على السلم وحاجزاً في وجه الراحة . فاذاً يجب والحالة هذه أن
يصنعوا به ؟ فبعضهم ارتأى ان يدخلوه في سلك الاكليروس وغيره ذهب غير
هذا المذهب . اما تاليران فإنه لم يهتم سوى تخليص لويس الثامن عشر منه بأي وجه
كان . واعتبر مترنيخ ذلك الغلام رهينة ووسيلة وآلة بيده تبقي البوربون في فرنسا
يتهيئون دولة النمسا ويحترمونها وتجعل فرنسا تحت وصايتها بتحريك عصا الثورة
والحرب . أجل ان ذلك الامير الحدث لم يكن بمجد ذاته شيئاً مذكوراً ولكنه
كان وارثاً لاسم عظيم ولذلك صممت النمسا على حفظه في حيازتها والاستفادة
منه عند الحاجة . وكان ذلك الحدث حاد الطباع وقد دار في ذهنه ذكر مجد أبيه
وهبت في صدره العواطف الرقيقة وثار فيه الغضب . فهل يجب أن يسحق
سحقاً ؟ ... لا ولكن يلزم ان يذل ويحب أن ينسخ من عقله شيئاً فشيئاً كل
ما هو مرسوم فيه من المبادئ النبيلة . وسنة ١٨١٥ كان ملك رومية لا يزال
عائشاً في شنبين مع الفرنسيين كبوصه مدير قصر نابوليون السابق ومنيفال
كاتب سره الخاص وعقيلة منتسكيو وعقيلة سوفلو وابنتها فاني وعقيلة مرشان
وغيرهم . وقبل ما ادرك الرابعة من عمره صار يحسن القراءة ويعرف بعض المبادئ
التاريخية والجغرافية . وكان مرشد الوكالة الفرنسية يخاطبه باللغة الايطالية
وأحد الخدام يعالج تعليمه اللغة الالمانية ولكنه كان ينفر من تلك اللغة ويلقى

مشقة كبرى في تعلمها بالنظر لصعوبة التلفظ بها . وكان ملك رومية غلاما جميل الصورة أشقر الشعر متجمدة ازرق العينين حادها وحلوها متناسب ملامح الوجه وقد أحبه الجميع لما لقوه فيه من اللطف واللين وسرعة الخاطر في الجواب . وكانت لهجته مماثلة للهجة غلمان باريس . وبين ان انه اكبر وأقوى من اترابه وذو صفات حميدة مشكورة تبشر بمستقبل حسن . ولم تكن ذكرى فرنسا تبرح ذهنه . وحينما كان يسمعون يتحدثون عن وطنه العزيز كان يشعر بحمل شديد اليه . إلا أن التربية والمعيشة الفرنسيتين لم يطل امرها : ففي ٢٠ مارس سنة ١٨١٥ اختار مترنيش اليوم الذي صار فيه للغلام اربع سنوات من العمر والذي عاد فيه والده الى فرنسا ودخل قصر التويلري وأبعد عنه فجأة حاضنته عقيلة دي منتسكيو فبكاه الامير وطلب ارجاعها اليه ولكن نداءه لم يلق اذنا سمعية . فاستبدلوها بعقيلة مروسكي ومنحت هذه فيما بعد لقب كنتة سكارامي . وبعد قاييل من الحين طلب منيفال الرجوع الى فرنسا لانه لم يكن يطيق احتمال الحال التي صار اليها . وفي ٦ مايو ودع الامير الصغير ليعود الى فرنسا فألفاه متغيرا تغيرا بينا ولقي السويداء منتشرة على بحياه وأنس منه نقورا من حاشيته وخوفا من اتباعه فلم يهرع لاستقبال صديقه القديم . وحين سأله هذا هل يعهد اليه في ابلاغ والده شيئا من الاشياء أطرق برأسه الى الارض ورجع الى الوراء بكل هدوء حتى وقف أمام احدى النوافذ . وحين شاهد ذلك الغلام ان منيفال تأثر من رآه تأثرا أجرى الدموع من عينيه وقت ما انحنى ليقبله وبودعه جذبه اليه بلطف وحس في اذنه قائلا له : يامسيوميغا قل له اني لا أزال أحبه حبا شديدا .

وبقي بعض الفرنسيين في حاشية الامير الحدث فعمدوا الى ابعاده وفي شهر سبتمبر صرفت ماري لويز بوصه وغيره من الفرنسيين المتقدين في خدمتها وفي شهر اكتوبر صرفت عقيلة سوفلو وابنتها فاني التي علمت ملك رومية الحروف الهجائية وكانت تلاعبه . وفي شهر مارس سنة ١٨١٦ صرفت عقيلة مرشان والدة خادم نابوليون الخاص وكانت هذه ترقد الى جانب الغلام منذ ولادته وتوقظه وتغير ملابسه الخ . فاصبح وحيدا وهو لا يتجاوز الخامسة من عمره . وما قاله غنتر صديق مترنيش ان ملك رومية قضى عليه بان يعيش في وسط

بسيط يجر الخبال الى عقله لاغبار عليه من الصحة لان التهذيب الذي تلقاه وان يكن ضيق الدائرة هو التهذيب نفسه الذي يتلقاه الارشيدوقون المساويون . ولا ينبغي لنا أن نذهل عن أن مهذبيه قد أحسن انتقاء أكثرهم فديانتر يخدم مربيهم رجل حسن الدخيلة طيب القلب مخلص الخدمة وقائد المائة فورستي معاونه جندي عالي الهمة واسع المعرفة شديد الشفقة على تلميذه والاحترام له وقد جعل ذلك الغلام شديد التعلق به بما باح له بأسرار المودة الصافية والسكران متى كولين الفرنسي الاصل الممين لتعليمه لم يلبث الاميران خطب مودته فصار يلعب معه في حديقة قصر شنهبرن ممثلا رواية روبنسن كروزي . ومع ما كان اولئك الاشخاص المقيدون بمخدمته يبدوون له من علام الحب والاخلاص لم يمتنع كل الابتهاج بمعاشرتهم لاعتباره اياهم غرباء . وكان كثير التحفظ معهم غير ناس انه في المنفى وتمكن من التسلط على ذاته . وفي مساء اليوم الذي اضطرت فيه عقيلة مرشان الى مفادرتة بلا وداع قال قائد المائة فورستي خالفها في السهر عند سريرته : خشيت من انه عند استيقاظه تستولي عليه الاحزان التي تستولي عادة على اترابه الاحداث حين لا ينظر الى جانب سريرته المرأة التي تعود أن يراها الى جانبه في كل صباح ولكنه لما أفاق من نومه خاطبني بلا تردد قائلا لي بسكينة تستعظم عند من كان في سنه : يامسيو دي فورستي أريد النهوض من السرير .

وكانوا يلبسونه ثيابا بيضاء وقد رضي بعد مقاومة عنيفة ان يملقوا في عنقه نشان القديس اسطفان الكبير بدلا من نشان جوقة الشرف ولم يرمندوحة عن الرضى بان ينادوه باسم فرايز وهو اسم يكره حمله . واذا دفعته الحدة الى التفوه بكلمة جارحة او نبذ الطاعة لمهذبيه عاد الى استرضائهم بالنماسة منهم الصنم عن تلك القلتات التي تبذر منه عن غير قصد . وكان يلاحظ ويتأمل ويفهم ولا ينسى أبدا فذات يوم أراه ارشيدوق حدث نوطا ضرب بمناسبة ولادته وسأله قائلا : هل تعرف هذه الصورة ؟ فاجابه الامير نعم أعرفها فهي تمثلني حين كنت ملك رومية . ولما شاهد للمرة الاولى البرنس دي لينيه وسأل عن رتبته وأجابوه انه مارشال قال وهل هو من الذين هجروا والذي ؟

وبينما هو يلعب ذات يوم مع أحد انسابه الارشيدوقين الاحداث عبره ذلك الارشيدوق بقوله له انه لم يبق له أب فامتقع لونه ثم اكفهر وجهه وحبس

زفرة قوية كادت تشق صدره وقال بمنق ماوراءه من مزيد : حين اكبر أتقلد سيفي وانطلق لانتقاذ والدي من سجنه .
ولم يكن أحد يتكلم في حضرته عن والده بهكم أو استخفاف من دون ان يهب للانتصار لذلك الوالد العظيم فحدث ان ضابطا عمساويا كان يحدث مهذبي الامير في أمور الحرب وقد ذهل عن حضوره أو ظنه قاصرا عن فهم حديثه فجعل يورد اسماء القواد العظام كفيرديريك الثاني ومنتيكوكولي والمارشال دي ساكس مردفا قوله بأنه لا يعلم أن العالم انتج قوادا أعظم منهم . فقال الامير بلمهة : ولكنني أعرف قائدا عظيما اغفلتم ذكر اسمه . فسأله الضابط قائلا : ومن هو يامولاي ؟ فاجابه الامير : هو والدي .

ولم يفارق ذهنه ذكر والده ولذلك لم ين عن سؤال دياتريخستين وفورستي وكولين عنه ملحا عليهم بطلب الاجوبة عن ما يلقيه عليهم من الاسئلة : فكانوا يسألون الامبراطور عما يجب عليهم عمله في مثل تلك الحال ، فكان الامبراطور فرنسوى الثاني المعروف بالحلم وجودة القلب يجيبهم بوجوب اجابة سؤال الامير الحدث . وابدى فرنسوى الثاني لحفيده ودالقي صداه في قلب ذلك الحدث ولكن محبة له كانت محبة شخصية باردة بحسب ما يوحيه اليه ضميره الذي كانت تتجاذبه عوامل مختلفة من قصر النظر في عواقب الامور والثبات في مبدأه المبني على مناوأة الامبراطورية الفرنسية والاوهاام الكثيرة التي ما انزل الله بها من سلطان فانه ابغض فرنسا ونابوليون بنفذا يصح أن يضرب به المثل . وقد زاد على مترنيخ في الرغبة في تغيير جنسية ذلك الغلام الفرنسي المعتبر عنده ابنا للشورة والفتح . ومنذ وصوله الى النمسا صدر الامر الامبراطوري بمنع الجميع عن إطلاق اسم ملك رومية عليه وعن تسميته ايضا باسم نابوليون كأنهم بذلك العمل يمحون من صفحات التاريخ ذلك الاسم الكبير . واتفقوا على أن يطلقوا عليه لقب ارشيدوق ريثا يكبر حينئذ ينظر في امره . وسنة ١٨١٧ ظهر التقويم العسكري النمساوي وفيه اسم « فرنسوى جوزف شارل امير بارم » فقلق لويس الثامن عشر لذلك الامر وقال في نفسه : أو لا يخول هذا الاسم ذلك الامير الحق بتقاضي حقوقه على الدوقية وملحقاتها ؟ فاحتج تايران على ذلك اللقب ومنذ ذلك الحين لم يطبع اسم أمير بارم في التقويم الا الف الذكر في السنين التالية .



نابليون في جزيرة القديسة هيلانة

وأصدر فرنسوى الثانى مرسوماً فى ٢٢ يوليو سنة ١٨١٨ قال فيه: انه بهم
الجميع تحديد حالة الامير فريدريك شارل جوزف ابن الارشيدوقه ماري لوبز
(وكان ولا مرأه يعتبر والده مجهول الاصل والفصل) فمنحه لقب معمو الدوق
دي رشستاد وخوله حق الجلوس بعد أمراء العتره المالكة والارشيدوقين .
ولم يبق الدوق دي رشستاد ملكاً لرومية فتوجهت أوربا أنها قضت مهمتها
على أيدي بريطانيا والنمسا فأخذت بريطانيا النمسا والنمسا فرخه .

ان الدوق دي رشستاد أمير ألماني مقامه تحت مقام الارشيدوقين ونسيب
بعيد لهم وقريب مسكين ملطخ العرض بوصمة العار فالجنود القدماء لا يعرفونه
وفرنسا نسيته لانها لم تكن تبصره أو تسمع عنه شيئاً . ويحسن بنا أن نتساءل
هل يصح أن نسمي ذلك الغلام فرخ النمسا أم لا ؟ فكيف كانت العواطف
والافكار والمقاصد والاهام الجائلة في صدر ذلك الشاب الاشقر النحيل الضئيل
الذي كان سكان مدينة فيينا يشاهدونه سنة ١٨٣١ ممتطياً صهوة جواده في ساحة
التمرينات العسكرية أو راقصاً في المراقص المقامة في القصر الامبراطوري وهو
يتمايل كالاملود ويشعر بنار مستعرة في أحشائه وأسرار تشغل خاطره وهو يكاد
يرزح تحت عبء ثقيل ألقاه القدر المعبود على منكبيه . فهل شعر بأن دمه
يغلي في عروقه ودماغه يشتغل بذكرى الاصل المجيد المنتحي هو اليه ؟ أو ان
نفسه تتعطل بتلك الآمال الجسيمة المعلقة عليه وقلبه يهتم بالدور المقضي عليه
بأن يمثل على ملعب هذه الحياة الدنيا ؟ وهل جرى في وهمه أن يحطم قيوده ويفر
هارباً الى فرنسا وهو يأمل أن يراها تهب هبوب النار للقيام بنصره وأن يدخل
باريس باحتفال يفوق الاحتفال الذي جرى لوالده عند دخولها بعد معركة مارنغو
واقعة استرلنز ؟ ... أو ؟ ...

انه وايم الحق موضوع جميل كبير تتبارى في وصفه والاسهاب فيه جياذ
قرايخ الشعراء والقصصيين ، ولم يدرك أحد حقيقة أفكار الدوق دي رشستاد أو
يقف على كنه أسرارده . وكل ما يمكن قوله عن ثقة في هذا الصدد هو أنه مع
ما بذله أرباب السياسة من الجهد بقي الدوق دي رشستاد فرنسويا قلباً وفكراً
ولم يكن نمسويا إلا بثوبه فقط . وكانت وفاته في سنة ١٨٣٢ .

فرنسا و نابوليون

وضع تيارس الداهية المشهور تاريخاً لبلاده في عهد القنصلية والامبراطورية وهو سفر جليل يدل على ما لذلك الرجل الكبير من طول الباع والتفنن في صناعة الكتابة وبعد النظر في الشؤون والتدقيق في سرد سياقة الحوادث واظهارها والتزده عن الميل مع الهوى والانحراف عن الجادة القويمه . وقد وطنا النفس على تعريب فصل من التاريخ المذكور عنوانه «فرنسا و نابوليون» يستطيع القارئ ان يجد فيه خلاصة حكم تيارس على نابوليون وعلى علاقته بفرنسا . قال تيارس : ان لنا نابوليون القابا لا يسعنا انكارها او نسيانها مع صرف النظر عن الحزب الذي تربطنا به الهيمه الاجتماعية التي نشأنا فيها او المذاهب التي نذهبها او المصالح التي نرعى اليها . انه ولا جرم لم ينجحنا الشكل السياسي الواجب على مجتمعتنا الانساني ان يستند اليه استناداً نهائياً ويعيش معه في السلم والهناء ويحني ثمار اليسر والاقبال ويرتفع في رياض الحرية . ولم يجد علينا بالحرية المقضي على خلفائه ان يكونوا مدينين لنا بها الى الآن ولكنه على اثر الاضطرابات المتسلسلة عن الفتنة الفرنسية الكبرى لم يكن يسعه الا ان يوجد لنا النظام وينبغي لنا ان نعرف بانه حباننا مع النظام حالتنا المدنية وانظمتنا الادارية ولكنه لتكد طاعه و طالعنا اضاع عظمتنا . ومن جهة اخرى خلف لنا المجد وهو العظمة الادبية الجارة وراءها على توالي الايام العظمة الماذية . وقد اوجده دهاؤه لفرنسا كما وجدت فرنسا له : فلا هو بدون الجيش الفرنسي ولا الجيش الفرنسي بدونه استطاعا ان يجريا وهما مفترقان ما اجرياه وهما متفقان . فهو علة مصائبنا ولكنه رفيق ما آثرنا الخطيرة . ويجب علينا ان نغلظ الكلام في ارازا الحكم عليه الا اننا لا نلقى لنا بداً من محافظتنا له على العواطف الواجب على الجيش ان يشعر بها نحو قائده الذي سار به الى موطن النصر والغلبة . فلنحذف في التنقيب عن اعماله العظيمة المعتمدة اعمالنا انفسنا فان كنا من رجال الجندية فلنتعلم منه فن قيادة الجيوش وان كنا من رجال الحكومة فلنأخذ عنه فن ادارة الممالك ولنثقف انفسنا تنقيفاً خاصاً بما نشاهده فيه من الهفوات . ولنتعلم مع تجنبنا النسيج على منواله حجة العظمة المعتدلة

وهي تلك العظمة الممكنة النابتة لكونها يسهل على القوم حمل انقالها. وقصارى الكلام لتتعلم الاعتدال من هذا الرجل الغائق غيره في الافراط وتجاوز الحد وبصفة كوننا وطنيين فلنتخذ لنا من حياته عبرة رادعة ولنعلم انه ههما عظم دهاء الانسان واتسعت دائرة عقله ورق شعوره فلا ينبغي لنا ان نفوض اليه تفويضاً اعمى حظوظ البلاد... على انه وان ساغ لشعب من الشعوب ان يستسلم لرجل من البشر فلا يسوغ ذلك الا للشعب الفرنسي ولا سيما سنة ١٨٠٠ حين التى بمقاليذ الزطامة الى نابوليون . ولم يكن في ذلك الحين فوضى كاذبة يتهددون الامة بها إرادة ان يقيدها . بل كان بعكس ذلك الوف من الناس الارباء بهلكون على النطع وفي السجون او في مياه اللوار : فقد عادت الى الظهور فظائع عصور الهمجية في وسط المدنية المذعورة . وبعد ما ابتعد القوم عن تلك القطائع نافرين منها ظلت الفتنة متقلقلة بين الجلادين الذين انزعمت من بين ايديهم والمهاجرين المضروب على ابصارهم وقد شاؤوا ان يجعلوها تتقهقر الى ماض مستحيل مجتازة غدراننا من الدم ومع ذلك كان في ذلك الحين الحسام الاجنبي مصلتنا يتوعد الامة الفرنسية بسوء المنقلب . وحدث في خلال تلك الاحوال ان عاد من الديار الشرقية بطل شاب ملوء دهاء كان ايان سار يذلل الطبيعة والبشر وقد عرف بمحنكته واعتداله وتدينه وكانه ولد ليسحر العالم ويستعبده . ولم يحدث قط شيء من الاشياء الممهدة للامة الفرنسية العذر لاستسلامها الى هذا الرجل نظير الحائط الذي حدث في ذلك العهد اذ انه لم تطراً مخاوف نظير تلك المخاوف التي كانوا يفرون منها ولم يكن قط داهية نظير ذلك الداهية الذي لجأوا اليه . على انه بعد حقبة من الزمن اصبح ذلك العاقل مجنوناً فقد اصابه نوع من الجنون يخالف الجنون الذي حدث سنة ١٧٩٣ بيد انه لا يقل عنه مضرة ولا يقل عن مليون عدد القتلى الذين خروا صرعى بسببه في ميادين الوغي وساحات القتال . وكان من وراء ذلك ان اوربا جمعاء شنت الاغارة على فرنسا فقهرتها وأذلتها واغرقتها في بحر من الدم وسلبتها ثمرة انتصارات متوالية اصابها في عشرين سنة . ويمكن القول بالايجاز انها وصلت الى شفا الدمار ولم يبق فيها سوى جرائم الحضارة الحديثة الكامنة في أحشائها والمعقودة عليها عرى الآمال باستعادة ما فقدته . ولعمري انه لا يعقل كيف أصبح حكيم سنة ١٨٠٠ مجنون سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٣ ولكن الراجح الحصة

لا يفوته ان المقدرة العظيمة مضمرة فيها حماقة تعمي من يداويها وهي الميل الى مزاوله كل شيء حين يأنس المرء من نفسه مقدرة على مزاوله كل شيء ولو كان ما يميل اليه الشر بعد الخير . وعليه ففي هذه الحياة العظيمة التي يلقى الناس فيها أشياء حمة يعلمون بها رجال الجندية وأصحاب الادارة وأرباب السياسة لا يلقى سوقة الناس لهم بدا من أن يتعلموا في نوبتهم شيئاً خطيراً وهو انه لا ينبغي البتة أن تسلم ادارة الدولة الى فرد كيف كان ذلك الفرد وكيف كانت الاحوال . وعند اختتام هذا التاريخ المطول المبني على انتصاراتنا وانكساراتنا يخرج من صدري هذا الصوت الاخير وهو صادر عن اخلاص حقيقي أحب أن أوصل صده الى قلوب جميع الفرنسيين فيقتنع الجميع بأنه لا يحسن بهم بوجه من الوجوه أن يغامروا بحريتهم واذا شاؤوا ألا يدعوا تلك الحرية هدفاً لسهام المغامرة فعليهم ألا يجاوزوا الحد في استعمالها .

مصرع مورات

كان يواكيم مورات ابن صاحب فندق وقد ولد في البستيد مورات سنة ١٧٧١ وتطوع في الجندية سنة ١٧٩١ وتمكن بما أوتيته من الدهاء وصلابة العود وشدة المقدم من بلوغ أعلى درجة في سلم المناصب الجندية على عهد الجمهورية وعهد الامبراطورية . وصاهره العاهل نابوليون الاول فزف اليه شقيقته كارولين وأجلسه على عرش مملكة نابولي في سنة ١٨٠٨ ولما أقل نجمهم سعد نابوليون في سنة ١٨١٤ وجافاه الحظ خلع مورات عن سرير مملكة نابولي . الا أنه عالج في شهر اكتوبر من السنة التالية استعادة مملكته جاريًا في عمله هذا على منهاج اليأس والقنوط . ولم يكده يصعد الى البر في بتزو كالبريا حتى وقع في قبضة فرديناند الرابع الذي عاد الى أريكه مملكته . وحينئذ أمر به الملك فرديناند أن يمثل أمام مجلس حربي .

وهانحن ننشر للقراء الكرام ما اقتطفناه عن لاسرتين مؤلف تاريخ عودة البوربون الى عرش فرنسا بعد ارحمال نابوليون عنها وتقلص ظل الامبراطورية فيها ذاكرين ما كان من أمر مورات في آخر حياته :

مثل ستراتي لدى مورات سجينه وقرأ بتعلم الامر القاضي بمثوله أمام مجلس حربي . فقال له مورات : « لقد نفذ القضاء فالامر القاضي بمحاكمتي هو

عينه الامر القاضي علي بالموت . « قال هذا ولجت شؤونه بالدموع فان ذلك الرجل الموصوف بشجاعة يمز نظيرها تحركت في قلبه عوامل الشفقة على نفسه . وكل نفس حينما توشك أن تزهد من صدر الانسان الجبار تتمايل فيه متألمة . ثم ان ستراتي قال له : ان المجلس سيجتمع في الحال في ردهة ملاصقة لهذا المكان وان القانون الحربي يخولك الحق باختيار محام يتولى الدفاع عنك . فقال له مورات وهو يصمر خده تيهاً وخيلاً : « قل للمحكمة اني آبي المثلول لديها فن كان نظيري من البشر لا يؤدي حساباً عن أعماله الا الله وحده فلتبرز المحكمة ما شاءت من الاحكام علي : فأذعن للقدر من دون أن أعترف بسلطة قاض من القضاة . » وخرج ستراتي ورفاقه من حضرة مورات وجاء الجنرال نزيقي بمجر وورق للسجين وقال له : يمكنك أن تكتب ارادتك الاخيرة أو وداعك الاخير لا سرتك . ولما خلا الجو لمورات كتب وهو يروي القرباس بدموعه ذلك المكتوب المشهور الذي أودع فيه وقلبه يخفق بسطور قليلة ما كان من عواطف نفسه وحظه المنكود وحببه وزوجته وحنانه على أولاده وأتقته كملك وجرائته كجندي .

وقدوجه تلك الرسالة إلى زوجته الفتاة التي كانت مصدر الحب والفخر لشبيبته ومسرورة حياته ونبيها وفي بعض الاحيان غلة عذابه ولسكنها كانت في كل حين موضوع اهتمام نفسه وغرض عنايتها . واليك ترجمة تلك الرسالة .

« يا عزيزتي كارولين »

لقد دنت ساعاتي الاخيرة فبعد قليل من الحين ينقطع وريد حياتي وبعد قليل من الحين تفقدن زوجك . فلا تدعي عناكب النسيان تنسج على ذكري . أنا أموت طاهر الذيل فلم تلتطخ برودة حياتي أدنى وصحة من الجور والعسف . الوداع يا ابني أخيل ! الوداع يا ابنتي ايتيسيا ! الوداع يا ابني لوسيان ! الوداع يا ابنتي لويز ! فاظهروا في المجتمع الانساني بمظهر جدير بي . وأنا أترككم بغير مملكة وطارين من المقتنيات بين أعدائكم الكثيري العدد . فاتحدوا اتحاد الانتمصم عراه وتغلبوا على مصارعة الاقدار لكم واقتكروا في ما أنتم عليه الآن وفي ما كنتم عليه في ماضى والحق سبحانه وتعالى يطر عليكم سحائب بركاته . وحذار من قذف اسمي باللعن . واعلموا ان أعظم ضربة علي عند آخر حياتي هي موثي بعيداً عن

أولادي . فلتحل عليكم بركتي الابوية واقبلوا قبلاتي وعبراتي ولا تدعوا ذكر والدكم التاعس يبرح ذهنكم .»

ان هذه الرسالة التي أملتها عليه الطبيعة وقد أوشك أن يرايل هذه الدنيا وهو على بعد بضعة خطوات من الحكمة المجتمعة لاصدار الحكم عليه تدل دلالة صريحة على كبر نفسه وجودة قلبه ورقة شعوره . فقد كان ذلك الرجل يضع الشيء في موضعه : فيحب وقت الحب ويقاقل آونة القتال . وكان أعظم من ملك وأشجع من جبار أي أنه كان انسانا . وهذه العواطف الاخيرة تدل على غير قصد منه ولتعظيم ذكره على أن كل ما أظهره من التفخيم والتبجيل لرفيقه المنفي الى جزيرة القديسة هيلانة لا بعد شيئا مذكورا بالنسبة اليها . فنبوليون أبداع في توديعه العالم أما مورات فإنه أجاد كل الاجادة في توديعه زوجته وأولاده . نابوليون قضى وهو على ملعب التمثيل أما مورات فإنه قضى كأنه محاط بأسرته . وموت مورات يفوق موت نابوليون كما تفوق الطبيعة المعجزة ووداع مورات يستنبط العبرات من عيون أبناء الأجيال الآتية بعده . وإذا لم ير المرء فيه ضحية وشهدا رأى فيه المحب والاب والبطل ...

وبعد ماروى الصحيفة بدموعه وقبلها مرات عديدة بقدر القبلات التي كان يحب أن يرسلها الى زوجته وأولاده الاربعة طلب مقراضا فقطع خصلة من شعره الطويل وقبلها ارادة أن تلقى فيها أسرته أثره ، وبعد ماوضع الشعر المبلل في طي المكتوب ناول نزيذتي ذلك المكتوب موصيا اياه بايصاله الى المرسل اليهم .

ودخل عليه ستاراسي المعين محاميا رسميا عنه وهو يعالج اخفاء تأثيره وقد خائنه دموعه . فتوصل الى مورات أن يأذن له بالدفاع عنه لدى المجلس الحربي حينئذ عاد مورات إلى اتخاذ اللهجة الملائمة لمركزه كملك وقال لستاراسي : « هؤلاء هم رعاياي وليس قضائي والملك غير مسؤولين تجاه رعاياهم حتي أنهم غير مسؤولين تجاه غيرهم من الملوك اذ أن العروش تصير جميع الملوك متساوين . وهل يريدون أن يحاكموني باعتبارهم اباي نائلا غير لقب ملك كإرशल فرنسوي مثلا حينئذ لابد لهم من تأليف محكمة من المارشالية . وهل يعتبروني جنرالا فينبغي لهم أن يؤلفوا محكمة من الجنرالية .

وقبل أن يضطروني الى الاعتراف بمحكمة كالحكمة التي ينتدبونني للشول لديها لا بد من تمزيق صحائف كثيرة من تاريخ اوربا . فانت لا تستطيع انقاذ حياتي لان الذين سيبتون الامر فيما يتعلق بحظي ليسوا قضائي ولسكنهم جلادي . وعليه فلنخلص في شرف الملكية .»

ولم يلق ستاراسي مندوحة عن الاذعان لمشيئة مورات التي لامردها . وجاء الموظف الموفد من لدن المحكمة لاستنطاق المتهم فقال له مورات : « ليس لك عندي سوى جواب واحد وهو اني يوا كيم نابوليون ملك بلادي صقلية . اغرب عتي . »

ولما تخلص من حضور قضائه الذين كانوا يتباحثون في الردهة الملاصقة لسجنه جعل مخاطب بحرية فكر الضباط الموكل اليهم أمر خفائره ... وكان الكلام الذي خاطبهم به على مثال الرسالة الموجهة منه الى زوجته وأولاده ويستدل منه على أن فكر الحق سبحانه وتعالى كان يفتابه وهو متأهب للارتحال عن هذه الدنيا وخلا به كاهن من كهنة بزوغ قدموه له قبله رجاء التعزي به ونيل الميتة الصالحة على يده ...

ونعم مورات واجبات المحتضرين وناول الكاهن حسب طلبه رجاء الحصول على دفن مكرم الكلمات التالية التي كتبها بيده ووقع عليها : « اعلن اني أموت موت المسيحي الصالح . » ثم أنه عهد الى الكاهن في تسليم ساعته الى خادمه ارمان الامين لاستغنائها منها من ذلك الحين .

وجعل مورات يمشي في طول الغرفة وعرضها مدة بضع دقائق ثم أنه جلس على سريره وأسند رأسه الى كلتا يديه وانبسط لديه وهو على تلك الحال جميع أدوار حياته منذ الايام التي قضاها في الفندق الى الحين الذي دخل فيه قصر الملك . وخيل اليه أن حياته كانت كعالم ذهبي أو كذبة لامية أو حكاية من حكايات الف ليلة وليلة . وكان مورات كقوس قزح ظهرت في خلال طائفة ولكن ماعتم طرفا تلك القوس أن تواريا في غمام ولادته وسحاب موته . وفي آخر الامر ثاب الى نفسه فرقع رأسه فكان جبينه ساكنا بيد أنه ممتقم . ودنا من مرآة فصنف شعره ولم يفارقه شيء من اطواره الغريبة فاعتبر نفسه خطيباً العنية ولذلك احب ان ياتى خطيبته بهيئة جميلة .

وكانت المحكة في أثناء ذلك الحين تصدر الحكم عليه بالموت بدعوى اثارته
الخواطر على الحكومة الحالية وفقا لقانون وافق هو عليه من عشر سنوات
ارهابا للتأثرين في كالبريا ولكنه لم يضع قط ذلك القانون موضع الاجراء .
فتلوا عليه صورة الحكم بصورة علنية فأصغى اليه كأنه يصغى الى قصف
المدافع في ساحة الهيجاء من دون أن يبدو عليه شيء من التأثير أو شيء من
الاستخفاف . ولم يطلب عفواً ولا مهلة ولا استئنافا ...

ثم انه تقدم من ذاته نحو الباب كأنه يريد الاسراع للوصول الى الغاية المعلن
له الوصول اليها . وكانت أمام ذلك الباب عرصة ضيقة وقف على حبل انتظاره
فيها اثنا عشر جنديا وبأيديهم بنادق محشوة . ولم يكن ضيق المكان يمكنهم من
الوقوف في محل يحجب عن عينيه فظاعة الموت . ولما اجتاز مورات عتبة غرفته
لقيهم أمامه وجها لوجه . فأبى أن يدعهم يعصبون عينيه والتفت الى الجنود وقال
لهم مبتسما : « يا أصحابي لاتعذبوني باخطائكم المرمى : فاياكم أن ترتجف أيديكم
وحذار من تصويب بنادقكم الى وجهي فصوبوها الى قلبي وها هو أمامكم . »
ولما قال هذا الكلام وضع يده اليمنى على صدره ليدلهم على موضع القلب
وكان قابضا بيده اليسرى على نوط صغير فيه صورة زوجته وأولاده الاربعة وكانه
شاء أن يجعلهم يشهدون ساعته الاخيرة أو اراد أن تكون صورتهم مرسومة في
ناظره كما هي مرسومة في مخيلته . خفض عينيه على الرسم وتلقى العيارات النارية
من دون أن يشعر بها وهو مستغرق في التأمل في صور احبائه . وسقط جسمه وقد
خرقته عن قرب اثنتا عشرة رصاصة وذراعه ممدودتان ووجهه مكب على الحضيض
كأنه يعانق تلك المملكة التي أصابها والتي لم يسترجعها الا لتكون مدفنا له .
وعلى هذه الصورة انتهت حياة أشجع جندي من جنود العصر الامبراطوري
وهو رجل لا يعتبر أكبر من أترابه ولداته بل يعد من أجراً رفاق الاسكندر
الحديث ...

وقد استوجب أكثر مما استوجبه الجنود والساسة الاطراء الذي ينذر أن
يستوجبه من يتولون شؤون الدول : أي « رجل المروءة » بكل معنى هذه الكلمة
على أن التاريخ الذي بدخر للناس المدح والقدح سيستمطر على هذا الراحل الكريم
شابيب الدموع



أحد مناظر جزيرة القديسة هيلانة و جيمستون

أوجين بوهرنه

— ١ —

ولد أوجين بوهرنه في باريس في ٣ سبتمبر سنة ١٧٨١ من الفيكونت الاسكندر دي بوهرنه أحد قواد الجيش وجوزفين تاشر دي لا باجري الخلاسية المولودة في المرتينيك وأدخل الغلام مدرسة هاركور في باريس بينما كان والده منتخبا بلدة بلوي منتظما في سلك الجمعية الوطنية في سنة ١٧٨٩ وقد عين في مابعدسكرتيرا لهذه الجمعية فرئيسا لها .

وقد أصاب الميسو دي بوهرنه منزلة عالية في هذه الجمعية في سنة ١٧٩١ حينما كانت البلاد بلا حكومة والافكار متهيججة تهيجا شديدا وحدث في أثناء ذلك أن أوجين كان مارا في شوارع فنتنبلو مع والده خياه الجمهور المتحمس مناديا اياه باسم « الامير ولي العهد »

وهذا الامر من غرائب الاتفاق فان هذا الغلام الذي قدر له أن يجلس على درجات عرش الامبراطورية عدة سنوات كانوا وهو مار مع والده يلقبونه بلقب يطلق على ولي عهد فرنسا .

وسار أوجين في سنة ١٧٩٣ مع والده الذي عين قائدا لكبر الجيش الرين وكان في الثانية عشرة من عمره ووضع في مدرسة ستراسبورغ في أثناء المدة القصيرة التي قضها والده في قيادة الجيش وكان يذهب الى المعسكر لمشاهدته وقد تعود منذ نعومة أظفاره سماع لعلعة المدافع وقمقة السلاح .
واسكن دوام الحال من الحال فان الحوادث السياسية اضطرت ذلك القائد الجمهوري الى الاستقالة من منصبه فذهبي الى باريس ومثل أمام محكمة ثورية قضت عليه بالموت فصعد الى المقصلة في ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٤

وكانت حكومة الكونغرسيون في ذلك العهد تجازي في غالب الاحيان على هذا الوجه قوادها سواء كانوا غالبين أو مغلوبين في الحرب واستولت الحكومة على أموال الجنرال دي بوهرنه فبقيت ايمه بلا مال ولها ولدان قضى عليها بالقيام

بأودها فأبقت ابنها هورتنس في منزلها ووضعت أوجين عند نجار ليتعلم النجارة وكان في الثالثة عشرة من عمره ووقف كل محبته البنوية على والدته من ذلك الحين ولم تطل مدة إقامته في حانوت النجار لأن الجنرال هوش أخذه حاجباً له وأخذه معه الى جيش الغرب ولم يكن هذا المركز الرقيق لفتى في الرابعة عشرة من عمره ثابتاً فان الجنرال هوش أرسله الى والدته بعد معركة كيرون في ٢٧ يونيو سنة ١٧٩٥ .

وحينئذ فكرت عقيلة دي بوهرنه تفكيراً جدياً في تعليم نجلها فعمدت في ذلك الى أستاذ في سان جرمان انلاي في محل اقامتها .

وكان الجنرال بوناپرت في ذلك العهد في باريس يهتم بتقليم اظفار الاحزاب فحدث أن فتي جاء في أحد الايام الى مركز القيادة العامة وكان هذا الغلام صبيح الحيا تتقد عيناه ذكاء فطلب مواجهة القائد العام ولما مثل بين يديه التمس منه أن يعاد اليه سيف والده فأحسن القائد العام وفادته وجامله في الحديث مسروراً بطلبه ولما دفع السيف الى الفتى لم يتمالك هذا عن حبس عبراته عن الانهمار ولم يقل تأثير هذه المسكرمة في الوالدة عن تأثيرها في الولد فجاءت بنفسها لشكر للجنرال بوناپرت صنيعه

فأثر في الجنرال بوناپرت عمل عقيلة دي بوهرنه وخلبت محاسنها لبه ومهم أن رد لها زيارتها وكان ذلك تمهيداً لعقد قرانه بها .

وقد غير هذا القران مجرى حياة أوجين الفتى فلما رافقت عقيلة بوناپرت زوجها الى إيطاليا في غد يوم قرانهما وعد الجنرال أوجين بأنه لا ينساه وكان قد ابتداء بوناپرت يحبه وصمم على أن يجعله من المقربين اليه وأن يسهل له الوصول الى ذرى المعالي ولكن نجل جوزفين لم يكن متعلماً تعليماً كافياً فقال له زوج والدته : « ادرس جيداً واعمل بمجد فتسد ما في تعليمك الابتدائي من الخلل وبعد ذلك أعني بأمرك . »

فأقبل أوجين على الدراسة بنشاط وكد وقد قال هذا الفتى في هذا الصدد : « أي في الشهور الخمسة عشر التي قضيتها وحدي في سان جرمان بذلت ما في وسعي لتعلم الرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغة الانكليزية وكنت عالماً بأنني سأجازي على جهدي ومواظبي على الدرس . »

وتلقى أوجين مرسوماً من باراس رئيس حكومة الديركتوار الاجرائية في ٧ ديسمبر سنة ١٧٩٧ بتعيينه ملازماً ثانياً في الآلاي الاول في الفرسان وكان بونايرت قد قدم تقريراً بذلك الى حكومة الديركتوار وبلغه الساعي الذي حمل اليه ذلك المرسوم أمراً بالانطلاق الى جيش إيطاليا حيث كان الجنرال ينتظره فبادر الى موافاة سنده وقد بقي فيما بعد ملازماً له في الايام العصيبة التي مرت عليه .

وحالما وصل عينه بونايرت حاجباً له وعهد اليه في مهام دقيقة لانه انس فيه ذكاء شديدا ومهارة عظيمة واوشك هذا الشاب مرة ان يبيت صريعا في مهمة فوضت اليه في أثناء هرج قتل فيه الجنرال دوفو ملحق السفارة في رومية وكان السفير يوسف بونايرت وقد قتل هذا الجنرال بطيشه وخطأه .

ولا يخفي ان هذا الجندي الشاب الذي واجه المنية مرات كثيرة في ميادين الوغى في أثناء خمس عشرة سنة في الديار الاوربية تعلم الحرب في ساحاتها وفي ١٨ مايو سنة ١٧٩٨ صاحب الجنرال بونايرت الى مصر

ولما فتح الفرنسيون جزيرة مالطة اندفع في المعركة اندفاعاً شديداً ووفق الى انتزاع راية من العدو وكانت أعماله الباهرة في مصر تامة للاعمال الكبيرة التي كان قد ابتدأ بها في اوربا في فاتحة حياته الحربية فشهد مواقع الرملة وشبريس والاهرام وجرح امام أسوار عكا وجرح ايضا في رأسه امام اسوار يافا ولذلك لم يتمكن من الاشتراك في موقعة ابي قير في ٢٥ يوليو ١٧٩٩ . ولما رجع بونايرت من غزواته سكن حدة هذا الشاب وخفف من غلوائه ورقاه الى درجة ملازم مكافأة له على بسالته .

وكان اوجين بوهرنه في باريس في ١٨ برومير الى جانب بونايرت لما قلب هذا حكومة الديركتوار وشهد اوجين الحوادث التي ختمت بها الثورة وكانت مدرجة لزوج والدته للقبض على السلطة وصيرورته قنصلا اول

ولما انطلق بونايرت الى إيطاليا كان اوجين بوهرنه في الجيش الاحتياطي وكان من مهمة هذا الجيش بعد اجتيازه لجبل سان غوتار وزحفه الى بليزاس ان يشغل النمساويين ليسهل عمل جيش لان . ولم يكن اوجين يني عن طلب اسناد مهمة خطيرة اليه يتسنى له فيها أن ينم بأسرار جرأته واقدامه ولكن شق عليه

كثيراً ألا يحضر معركة منتبلو التي اشتهر فيها لان ولقب فيها بمدبر شال وجعل اسرته معدودة من جراء هذا الامر بين الامر المشهورة ولم يستطع اوجين اخفاء تأسفه فأعاضه الجنرال بونا بارت من ذلك بان مهد في وجهه السبيل للأشهار في معركة مارنغو

وقضى اوجين ليلة ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ في طوري دي غارافولو وفي الغد نشبت معركة هائلة امتاز فيها على اقرانه باسره الاعداء في ساحة الهيجاء فرقي الى رتبة قائم كوكبة من الفرسان ولم يكن قد تجاوز السنة التاسعة عشرة من عمره ولما عاد اوجين من هذه المعركة التي ظهر فيها ظمراً مبيداً بالاعداء أقبل على العمل كما لوف عادته ولم يشترك في البعثات التالية ولكن بونا بارت لم يذهل عنه فرقاها الى رتبة امير لواء في سنة ١٨٠٢ من دون ان يتوصل بوسيلة ما لاصابة هذا المنصب الجديد .

٢

تنصيب اوجين بوهرنه

حاكماً في ايطاليا

وبينا كان اوجين بوهرنه يعيش عيشة هنيئة يقضي معظمها في الدرس وبينما كانت البلاد تذوق وقتياً طعم السلم كان الجنرال بونا بارت وقد عظمت انتصاراته يمهّد السبيل للصعود الى العرش وعصب جبينه بتاج الامبراطورية فاستبدل بلقب قنصل اول لقب امبراطور وكان نجح جوزفين مقدراً له في الحالة الجديدة ان يعمل النفس بآمال كبيرة في المستقبل .

انشئت الامبراطورية الفرنسية الجديدة في ٢٤ مايو سنة ١٨٠٤ وتوطدت اركانها في انظار الملا الاوربي على اثر حفلة تنويج منشئها وقد جاء الخبر الاعظم من رومية الى باريس في ٢ دسمبر من السنة عينها لتكريس الامبراطور الجديد وهو يأمل ان يصيب من نابوليون البر بما وعده به .

وشاء نابوليون ان تكون الحفلة مصطبغة بصبغة سناء لم يسبق له مثيل فألف وليجة من رجال خدموا الوطن خدماً جليلاً واصابوا حظوة عنده وكان

اوجين في مقدمتهم وقد جمعت فيه جميع المزايا التي تؤهله الى احتلال منصب رفيع ولذلك اراد نابوليون ان يمنحه الاثرة على غيره فعينه قائداً لفرسان الصيادين وعهد اليه في حل الخاتم الامبراطوري في خلال حفلة التتويج ليقدمه الى الحبر الاعظم في الحين المعين . وكان الامبراطور قد رقى ربيبه الى درجة امير فرنسوي ليمهد في وجهه سبيل الوصول الى الحالة التي يعده لها وسماه كبير مستشاري الامبراطورية ونورد الكلام نفسه الذي فاه به الامير اوجين لما رقى الى تلك الدرجة السامية : « اقول ولا احاذر في القول لومة لائم ان المكانة الرفيعة التي اوصلني اليها الحظ لم تبعثني على الاستعلاء ولم اسكر بسلافة العظمة وبقيت عائشا بين جنودي وضباطي من دون ان اغير شيئاً من عاداتي او من تعبرفي معهم وقد تسائلت علي كتب النهضة وكانت تقبض مدحاً وتؤكد لي صدق مرسلها واخلاصهم فقدرتها على استوجبه من التقدير كما نني عرفت في ذلك الحين ما حققه لي الاختبار فما بعد وقد اثر في شيء واحد في ذلك الموقف وهو الكلام الذي كتبه الامبراطور في المرسوم الذي وجهه الى مجلس الشيوخ ليشعره بترقيتي الى الدرجة التي جاد بها علي . . . »

وأراد نابوليون بعد قليل من الحين أن يعينه كبير امنائه فاعتذر اوجين عن قبوله لهذا المنصب وقال : انه يشعر بأن دما عسكريا يجري في عروقه ولا يأنس من نفسه ميلا الى الانتظام في سلك المقرئين المنزلين . والحق يقال أنه كان في ساحة القتال اكثر ارتياحا منه الى قضاء وقته في ظلال البلاط بين التملق والدسائس وقد عرف نابوليون هذه الخلة فيه فلم يصصر على تعيينه في المنصب الذي كان قد اختاره له .

وشخص نابوليون الى ميلانو في ٢٦ مايو سنة ١٨٠٥ بعد حفلة التتويج في باريس بستة أشهر ليتزوج ملكا على ايطاليا فبارك الكردينال كبرارا التاج الحديدي وهو تاج ملوك لمبرديا لتقديم المشهور فوضعه نابوليون على رأسه وقال : « الله اعطانيه لحذار أن يمسه أحد . »

وأراد الملك الجديد بمد هذه الحفلة أن يترك في هذه المملكة شخصا يوب عنه ويكون معروفا باخلاصه فاختار الامير اوجين نائبا عنه وعين مدينة ميلانو مقرا له وكان يحبه كإنه ابنه الحقيقي وقدمه للامة الايطالية ولم يكن له الا اربع

وعشرون سنة من العمر في ذلك العهد وعين له الميسيو ميجان وزيرا ومستشارا .
واقبل اوجين على التذرع بجميع الذرائع الميسورة له لاسعاد ايطاليا وتوفير
الاقبال لها وليس له مطعم الا نيل ثقة الامبراطور به وتحقيق ماعلقه عليه من
الآمال . فعمل على توسيع نطاق اليسر في الولايات الشمالية ووضع قوانين
استرشد في وضعها بالحكمة والتروي اتميز الصناعة في البلاد وانجز في مانطو
الحصون التي كان الامبراطور قد شرع في تشييدها وفتح الطرق وانشأ ادارة خاصة
للعسور والطرق وعي الامير اوجين بالمحاکم وتطهيرها من الفساد الذي تلصص
اليها في اثناء الحرب وجعلها تقضي بموجب قانون نابوليون وقانون المرافعات
الجديد وانشأ مدارس وعضد التعليم ومد لواء حمايته على الفنون الجميلة والصناعة
والتجارة ولطف معاملة المسجونين وبنى اسطولا صغيرا وقد دل هذا الحاكم
الجديد الذي لم يطو من عمره سوى خمس وعشرين سنة ولم يكن قد تخرج قبلا
منخرجا كافيا على فن الحكم على انه يعرف حق المعرفة ما بين الشعب وحاكمه من
الفرق البين في اللغة والاخلاق والعادات وما بين بلاد وبلاد شعبه من الفرق
في الاحوال الجوية

وحاول الايطاليون غير مرة ان يلقوا عن مناكبهم نير الاجنبي ولاكنهم
فشلوا في مساعيهم وعلموا ان اليد التي تسلطت عليهم من حديد وهي يد
نابوليون العظيم ولكن الاحوال كانت تقضي بأن يسير نائب العاهل في ايطاليا
على خطة المجاملة والملاينة وان يجاهر بالاهتمام بشؤون الشعب الملقاة اليه بمقاليد
ادارته . وكان اوجين بوهرنه متحليا بالصفات اللازمة لمثل هذا النائب .

واذا لم يكن نبجل جوزفين قد أوتي دهاء امتاز به عن اقرانه فانه ولامرأ
رزق ارادة شديدة وذوقا سليما كان الامبراطور يقدرهما حق قدرهما وكان خبيراً
بجميع ضروب الاقتصاد في ادارة الشؤون ولذلك تسنى له ان يقتصد ٩٢ مليون
فرنك في خلال السنوات الثماني التي قضاها في منصبه . ولا بد من القول بان
البلاد التي كانت ادارتها مسندة اليه تشتمل على نحو نصف بلاد ايطاليا وقد
اشهرت بنخصها وهي تتألف من تسكانيا والالب اليوليانية .

ولما زحف الجيش العظيم الى استرلتز شعر الامير اوجين بدبيب الحماسة يدب
في صدره واشتد فيه النزوع الى مشاطرة ذلك الجيش قتال الاعداء والتنكيل

بهم فالتحقن من الامبراطور الترخيص له بموافقة الجيش ولكن العاهل لم يوافقهم على طلبه وفضل ان يعهد اليه في حماية الحدود النمسية لصد النمسيين عن غزوة ايطاليا فانقبض صدر الامير لما بلغه امر الامبراطور لان دمه كان يغلي غليانا ويدفعه الى خوض غمار القتال ولكن احترامه للسلطة العليا عقل لسانه عن الشكوى فكافأه نابوليون عن امثاله لاوامره وكان شديد العطف على ربيبه ففكر في بناء صرح مستقبليته بنزويجه وكان العاهل قد ابصر الاميرة أوغستا اميليا كريمة مكسيميليان يوسف ملك بافاريا فاعجبه ملاحظه فيها من الصفات النبيلة وجمال الخلق والخلق فطلبها من والديها لربيبه الامير اوجين فوافق والداه على طلبه بعد ما ترددوا في الامر وانتظرا ريثما يأتي الشاب لرؤية الفتاة وكان هذا في مقره في ميلانو ولما انتهى اليه الخبر خف الى مونيخ حيث كانت والدته ونابوليون ينتظرانه فقدماه الى خطيبته وبعد ماتم التعارف وانس كل من الشاب والفتاة ميلا الى الآخر عقد قرانهما بعد اربعة ايام في ١٤ يناير سنة ١٨٠٦ في حفلة شائعة شهدها كبار البلاطين الفرنسي والباصري وكانت العروس في الثامنة عشرة من عمرها وانعم عليها نابوليون بدوقية بارم وبلينانس اما اوجين فانه لما عاد نهائيا الى باريس في سنة ١٨٠٧ تبناه نابوليون رسميا واعلن ذلك في مجلس الشيوخ واطلق عليه اسم نابوليون اوجين دي فرانس ومنحه لقب « أمير البندقية » وعينه خليفة له على عرش ايطاليا ومن ذلك الحين لم يكن يناديه الا « يا ابي » . فهتف الحاضرون هتافا شديدا لما أعلن نابوليون تبنيه لـ اوجين وكانت وجوههم طافحة بالبشر والابتهاج اما الامير اوجين فلم يكثر لهذه المظاهرات لزمه أنها موجهة لنابوليون فلحظ هذا ذلك وقال له : « اشكر لهم يا اوجين فانهم يصفقون لك . »

وكان المرسوم الامبراطوري الذي اذيع في ميلانو مؤرخا في ١٦ فبراير سنة ١٨٠٦ ولكن الامبراطور راعى بعض الاسباب السياسية ولم يعلنه قبل هذا الحين وكان ينطوي على خمس مواد أعرب فيه الامبراطور الشديد الحول والطول عن ارادته فكانت كبرياؤه تبعته على الاعتقاد بأنه سينشئ أسرة مملكة يكون هو ارومتها ولكن الحق سبحانه وتعالى يدبر غير ما يفكر به الانسان فانه حطم العزم الخزي في الرجلين في الحين الذي شاءه .

وعاد الامير اوجين وزوجته الى ايطاليا واستأنف مهمته فيها وكان جل اهتمامه منصرفا الى ارضاء نابوليون باعماله . ولم يكد يصل الى ميلانو حتى تلقى أمراً من باريس بالوقوف بالمرصاد للجيش النمساوية وكانوا يخشون من هجومها على ايطاليا في الحرب الجديدة التي اوتدت نيرانها في سنة ١٨٠٧ . وكان في اثناء قيامه بمهامه الحربية انه ولدت له ابنة في ١٤ مارس سنة ١٨٠٧ مماها جوزفين مكسيميليانة اوجيني نابوليونة وقد شاء نابوليون ان يظهر عطفه المتواصل على ربيبه الذي تبناه فنح الطفلة لقب اميرة بولون وقد انشأ خصبها لها .

على ان الامير اوجين مع ما اشتهر به من الصدق والاستقامة مر عليه زمن جنح فيه عن الطريقة المثلى وجارى تيار سياسة نسجت على منوال الدسائس ونحري الخبر انه وضعت وثيقة ايطالية على مثال الوثيقة (الكونكوردا) الموقعة في سنة ١٨٠١ بين الكرسي الرسولي وفرنسا فان الجنرال ميولي استولى على انكونا أثمارا بأمر نابوليون وقد اشتد النضال بين السلطة الروحية التي لاتلين مجستها لاحد والسلطة الامبراطورية التي كانت اوربا تنطامن امامها وكان رجل شيخ ليس له من سلاح الاحقه قد توخى التصدي لهذه السلطة الاخيرة وكان نابوليون في درس في ذلك الحين فانهذ كتابا الى الامير اوجين اغلظ فيه الكلام عن الخبر الاعظم وكان هذا الامير يستطيع ان يلطف المسألة بعدم نشر الكتاب ولا سيما لانه لم يكن مأمورا بذلك ولكن لما رأى قواد الامبراطور ان مولاهم يتعمد تحقير رئيس الكنيسة الكاثوليكية الاكبر توهوا انهم موعز اليهم بسلوك مسلكه واستدرج الامير اوجين الى هذا الامر فأرسل كتاب الامبراطور الى البابا بيوس السابع وضم اليه مذكرة كتبت باهجة التحقير وقد بقيت هذه المذكرة وصمة طار لطحخت بردة سمعة الامير كل حياته رغما مما حاول بعض الكتاب ان ينشروه ليدفعوا عنه معرة اللوم من هذا القليل .

الحفير البريطاني يمنع نابليون عن المرور في جربة القديسة هيلانة



أوجين بوهرنه

في حروب الامبراطورية

وكان نابوليون شديد الميل الى اغداق سحائب نعمائه على كل فرد من افراد اسرته وهو ينوي بذلك ان يؤلف منهم بلاطاً مماثلاً لبلاط اقدم الامبراطوريات الاوربية وكذلك آثر الامير اوجين بوهرنه على المارشال ماسينا وقلده قيادة جيش ايطاليا واسند اليه ادارة شؤون الحكومة فيها .

وزحف كل من الارشيدوق جان والارشيدوق شارل من جبهتين مختلفتين في شهر ابريل سنة ١٨٠٩ من دون ان يكون قد سبق اعلان الحرب بين فرنسا والنمسا وكانا يقودان ١٢٠ الف مقاتل واستصحبها معها المسيودي هورماير السياسي المشهور لانه كان مطلعاً على جميع اسرار الدسائس في البلاد الالمانية والبلاد الايطالية . وكان الامير اوجين في ذلك الحين في بلمانوفا وهي مدينة صغيرة في ولاية اودين ولم يكن يتوقع الهجوم عليه قبل اواخر شهر ابريل ولم يكن عنده الا فرقة سيراس وفرقة بروصيه وكان يتفقد طلائع جيشه مؤتمراً باوامر نابوليون . وكانت الفرق الست الاخرى المؤلفة منها الجيش موزعة على اما كن تبعده عن مركز القيادة العامة . ولما فوجيء الامير اوجين وكان قليل الاختبار مع تعوده الحرب لم يتمكن من الحيلولة دون تقهقر طلائع فرقة الجنرال بروصيه ولم يستطع صد جيش الارشيدوق جان عن عبور الايززو ولم يلق بدا من للتقهقر واجتازت فرقاً سيراس وبروصيه التغلّيا منتو بأمر الامير اوجين وزحفنا الى ليفنزا وهو مكان مجهولون حقيقة موقعه . وقضى النمسيون اربعة ايام في الزحف من الحدود الى ضفاف التغلّيا منتو ولم يعرف الامير اوجين أن يفتنم الفرصة من هذه المهلة الطويلة فان قائداً غيره من القواد المحنكين كان يستطيع أن يحشد جنوده ويستعد لمواقعة العدو بهم ولكنه لم يفعل ذلك بل أزمع التقهقر لئلا يعرض جنوده للمعالف ومع ذلك لم يشأ بما فطر عليه من الجرأة والاقدام وبما كان يهب في صدره من نسبات النبل والانتفة أن يتقهقر تقهقراً يتوهمه العدو انهزاماً .

- ١٠١ -

وكان جيشه مؤلفاً من جنود شابت نواصيهم في ساحات الروع وكانوا قبلاً تعزبهم الجمهورية ومع حبهم لربيب قائدهم الا كبر الذي كان يقودهم الى ميادين الشرف لم يرقهم تردده في مواثبة العدو فأطالوا لسان الانتقاد له وشكوا من قلة اختباره في فن الحرب ولا يخفى أن الانتقاد عند الجنود وعند طلبة المدارس لا يلبث أن ترتفع به أصوات المنتقدين وينتشر بسرعة فسمع الامير أوجين انتقاد الجنود ورأى تفتق بنائى صبرهم وكان سكان بلدة ساشيل يجارونهم في المجاهرة باستيائهم من تردد الجيش الفرنسوي في مناهضة العدو وكان هؤلاء السكان يخشون من اقتراب النمساويين ويتوسلون الى القائدين بالاهمليهم ويوليههم ظهروه . وكان الموقف حرجاً رهيباً : فن الجهة الواحدة يشعر الجنود بقلق شديد ومن الجهة الاخرى يصبر القواد على طلب مناخزة العدو والموت في ساحة المجد . وكان السكان مرتاعين من دنو النمساويين وطلبوا من الجيش الفرنسوي الدفاع عنهم . وكل ذلك كان يحجري وجيش الاعداء يزحف ناعم البال .

جمع الامير أوجين قواده وكانوا أشد اضطراباً منه فتسقطهم عن رأيهم في تلك الحال ولكن اولئك الشجعان الذين اشتهروا بالبسالة والاقدام في الحروب لم يؤثروا موهبة البراعة في قيادة الجيوش فتضاربت آراؤهم في المجلس الذي عقدوه فكان بعضهم يرى التقهقر ضرورياً وكان غيره يرى عكس رأيه ويشير بالاندفاع الى معترك الهيجاء وقد كان من الضروري في ذلك الموقف أن يكون بينهم داهية يستطيع بنظرة واحدة أن يدرك ما يجب عليه عمله ليعزز الموقف ويدفع الغوائل ويدود عن الدمار ولكن الامير أوجين لم يكن ذا جرأة على رد مزاعم قواده وتسفيه الآراء الفائلة التي أبدوها فقرر العمل برأي الاكثرية أي مقاتلة العدو وأذاع على الجيش النشرة الآتية :

« أغار علينا الجيش النمساوي وهذا العمل أقدمت عليه حكومة فيينا غير مراعية مكارم امبراطورنا الكريم وقد تناست استيلاءنا على ألم وانتصارنا في معركة استرلتز المشهورة ودخولنا فيينا ظافرين ومعاودة الصلح المعقودة في زمبرورغ وقد أعيدت اليها بموجبها الولايات التي لم تحسن النسيان الدفاع عنها . »
 « أيها القواد والضباط والجنود يطلقون عليكم لقب « جيش ايطاليا » وليس لي ما أزيد عليه شيئاً أو لا يذكركم هذا اللقب بوجوب اتيان الاعمال

الباهرة . لقد طال عليكم عهد البقاء بلا عمل ولكن أعداءكم فتحوا لكم الابواب للخروج من هذه الحال فأشرق عليكم شمس المجد ولا يذهب هذا اليوم بلا نتيجة قيمة فأنا أعرفكم ويجب عليكم أن تتخذوا لكم شعاراً « النظام والثقة » وعلى كل منكم أن ينهض بما يجب عليه فنحزب بموئنته تعالى رضاء نابوليون . « أجل إن هذا الكلام منعم حماسه وطنية توقظ الشجاعة من مريضها ولكن الامبرأوجين ورئيس أركان حربيه شربنتيه لم يحسنا وضع الخطة الحربية وإدارة الحركات العسكرية للوصول الى نيل الانتصار فلم يراع الامبرأوجين موقع الارض ولم يقف على موقف العدو وفعل عكس ما كانت تقتضيه الحنكة وفن الحرب فوزع فرقته على أماكن متعددة ولبت وحده في مكانه ينتظر هجوم العدو .

وانكسر اوجين وجيشه امام النموسيين في مساء ١٥ ابريل في بوردينوفي وفي ١٦ منه في ساشيل وكتب قائد جيش ايطاليا الاكبر رسالة موجزة الى الامبراطور في مساء ١٦ ابريل هذه ترجمتها :

« يا أبني احتاج صفحك . خشيت من ملامك ان انا احجمت فواقعت العدو وانهزمت . »

ولا ينبغي للتأريخ ان يشوه وجه الحقيقة فان الامبرأوجين تم في ذلك الوقت المعصيب باسرار شجاعة وهمة نادرين ولكن وفرة عدد العدو ودهاء قواده وخبرتهم في مواقع ذلك الاقليم فقت في عضد الامبرأوجين ورجاله المغاوير وعلاوة على ذلك لم يكن له من العمر الا ثمان وعشرون سنة ويستنتج من هذا ان الملوك والحكومات لا ينبغي لهم ان يستسلموا الى العواطف الشخصية لاسناد المناصب السامية الى اشخاص لا يستطيعون - مع كفاءتهم الشخصية - ان يدللوا مايقوم في وجوههم من المصاعب وقد قال المسيو تيارس الشهير في هذا الصدد : « انهم كثيرا ما يبذلون دم الجنود الثمين ويمرضون حظ البلاد للخطر فالملوك ورؤساء الجمهوريات يقدلون اولادهم او اخوتهم أو المقربين اليهم من غير اصحاب الكفاءة مناصب تجعل حياة رجالهم مستهدفة لنبال المهالك وحظوظ بلادهم رهن الخطر . »

في مثل الاحوال التي بسطانها كان الامبرأوجين قادرا على تولي قيادة فرقة من الجيش من دون ان يكون قادراً على تولي قيادة جيش كامل ولا سيما حين

يكون في هذا الجيش قواد نظير لامارك البالغ من العمر تسعا وثلاثين سنة وغروشي الذي كان في الثالثة والاربعين من عمره في ذلك العهد وحين يكون القائد الاكبر يحارب جيشا يقوده قائد هام كالارشيديوق جان النموسي وقد عرف نابوليون في الحال الخطأ الذي ارتكبه ريببه فبادر الى مجاوبته على رسالته وكتب اليه للمرة الاولى كتابا جافيا واليك بعض ما جاء في هذا الكتاب « لا بأس من اندحاركم وقد كان يجب علي ان اتوقعه حين قلدت شابا خاليا من الاختبار قيادتكم على انني لم اشأ ان يتولى الامراء البافاريون والسكسونيون والورتمبرجيون قيادة جنود من بلدانهم وسأرسل اليكم مددا يسد مسد الخسارة التي منيتم بها أما الانتصار الذي اصابه العدو فأسأ صيره عقبا ولكن لا بد لي من ان افق على الحقيقة ليتسنى لي هذا الامر وانا خالي الذهن من كل خبر يتعلق بذلك وأراني مضطرا الى مراجعة النشرات الاجنبية لعلي أصل الى الحقيقة التي ضلنتم علي بها وأنا أفعل ما لم أفعله قط وما يجب ان يعرض عنه قائد محنك فاطير باسطا جناحي في الهواء من دون ان ادري ما يجري حوالي ولعمري ان بقا في جاهلا للحقيقة يقض مضجعي . »

ثم أضاف نابوليون الكلام الآتي ومنه يستشف ما يدخره من تقدير ماسيناحق قدره :

« الحرب لعبة خطيرة يعرض فيها الانسان شهرته وجنوده وبلاده لنبال الخطر والماعل يأنس من نفسه ميلا او تقورا من الحرب ومزاوتها ولم يخف علي انكم تغالون في ايطاليا بالغض من كرامة ماسينا فلو ارسلته قائدا لجيشي فيها لما نزل بهذا الجيش ما نزل من البلاء فماسينا معروف بمقدرته الحربية ويجب عليكم ان تحنوا الرؤوس جميعكم امام هذه المقدرة المجربة واذا كانت فيه عيوب فينبغي لكم ان تغضوا عليها الطرف فخل من لاعيب فيه وقد اخطأت باسنادي اليك قيادة الجيش ... »

أجل ان هذا الكلام كان شديد اللهجة وقاسيا وبما رمت عليه هو ان اوجين قصر في ارسال الايضاح اللازم مع النشرة الرسمية وكان ان الصمت الذي طال اجله اياما ساء الامبراطور وصبر الامور كثيرة التعقيد في نظره

وكان كلام الامبراطور السابق كطعنة نجلاء في صدر الامير اوجين الشاب فصمم على نسخ ما علق بذهن الامبراطور بانتصاره انتصارا باهرا وقد قرن الفكر بالعمل فانه كان يرغب من صميم قواده ان يرى الجنرال مكدونال الى جانبه فلم يمض عليه وقت طويل حتى جاءه هذا القائد المجرب المهام .

وتقدم جيش الارشيدوق جان النمساوي الى نهر الاديج وهو يجر ذلاذل النصر وقد أضع في ذلك الاقليم فرصة ثمينة اغتنمها اوجين فانه في خلال الايام الثمانية التي قضاه العدو بلا عمل ثاب اليه روعه واستعرف مواقع العدو واكثر من مخالطة قواد جيشه وشدد عزائمهم بعد ما كان انكسارهم في ساسيل قد أوهاها .

وتفقد الجنرال مكدونال الاماكن المجاورة فابصر ذات يوم عن بعد عددا كبيرا من الجنود ومعهم عدد الحرب وخيل اليه انهم يتقدمون ميممين فريول وانهم من النمساويين ولكن ما علم ان انقلاب توهمه حقيقة فوخز جواده ودنا من اوجين واثار بيده الى ما كان يبصره وقال : « لقد انتصر الامبراطور في المانيا فانزحف الى الامام »

وقد أصاب الجنرال مكدونال في حدسه فان نابوليون انتصر على جيش الارشيدوق شارل انتصارا باهرا في راتسن ولكن الامير اوجين ورجاله لم يكونوا قد تلقوا تلك البشري . فاشرق جبين اوجين لما بلغه هذا الخبر غير المنتظر وشد وراء الجيش النمساوي وكان الخوف قد دخل على النمساويين فقاتلوا مكرهين وليس لهم مطعم الا في الاسراع في الهرب واشتدت الحماسة في قلوب الفرنسيين فزحفوا بقيادة الامير اوجين الى جهات الالب الكادورية الجنوبية ونموا باسرار جرأة عجيبة بين الاديج وبياني وانتهى القتال في ٧ مايو ١٨٠٩ بعد ما ترك النمساويون ٢٥٠٠ قتيل ومثل هذا العدد من الجرحى وعددا كبيرا من المدافع والذخائر الحربية في ساحة الروع .

واستؤنف القتال في ٩ مايو فظفر اوجين ظفرا مبينا بالارشيدوق جان في ١٢ منه في سان دانيالي واوزوبوا وانهمز النمساويون ومعهم ثلاثون الفا من جنودهم وقد تركوا ١٨ الفا في ميدان الوغى فكان في هذا الانتصار تعويض

للأمير أوجين عن الانكسار الذي لقيه في ساسيل وقد تلقى نابوليون نشرة من جيش إيطاليا نذكر منها الفقرة التالية :

« تصرف الأمير تصرفاً جديراً بأبن الإمبراطور وقد اعجبت برباطة جأشه وجراًة مقدمه . » وكان الانتصار الذي أصابه الفرنسيون في إيطاليا حلقة جديدة تضاف الى سلسلة الانتصارات التي ظفربها الفرنسيون في تلك البلاد ولما انتهى خبر هذا الانتصار الى نابوليون وهو في فينا طلب من الأمير أوجين ان يقدم اليه فيها فبادر الأمير الى تلبية الطلب ماراً بكارنثيا واستولى وهو مار فيها على قرية ملبورغثو الصغيرة ووصل الى الجيش العظيم فسر به نابوليون سروراً عظيماً وقال « لم يقدم عليّ مدفوعاً بموامل الشجاعة بل بموامل العواطف » ونسخ انتصار الأمير أوجين وانضمامه الى الجيش العظيم ما كان قد علق بالاذهان على اثر الانكسار في ساسيل .

وكان اعداء نائب الملك قد سمعوا لتذكير نابوليون عليه واتهامه بالعجز عن تولي القيادة العامة على ماتقدم بيانه فاغلظ له نابوليون الكلام في الرسائل التي وجهها اليه ولكن الإمبراطور نسي ما جرى في الماضي لما انتهى اليه خبر الانتصارين اللذين احرزهما الأمير أوجين في بيافي وسان ويله .

وكان امام هذا الأمير الشاب مجال واسع ل اظهار ما امتاز به من الجرأة والمقدرة الحربية فانه ساق المتالف وهو على مرتفعات ليوبن الى جيش الجنرال يالاشيش ولم يكن عدد رجال أوجين يزيد على ٣٣ ألفاً وحينئذ تيسر له ان يزحف الى فينا من دون ان تصدى له العقبات وبعد ما اذن لرجاله بان يستريحوا حيناً من الزمان ذهب بهم الى نوستاد ثم الى اودنبورغ ليرصد حركات الارشيدوق جان وسكناته ووصل في ٩ يونيو الى ضفاف نهر رعب فلقبي مكدونال وسر كثيراً باجتماعه به

وانتقدت نيران المعركة في ١٤ يونيو حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً فكانت معركة هائلة وكان المكان النازل فيه النمسيون افضل من المكان الخيم فيه الفرنسيون من الجهة الحربية ولكن كان عدد الجنود متساوياً من الجانبين وكان الأمير أوجين يتنقل بين صفوف جنوده راكباً جواده في ساحة القتال ورصاص العدو يتساقط عليه كالوبل فكان يشجع الجنود وينعش قوى الضباط

ويجازف بنفسه مجازفة ببسالة نادرة عجيبية وأتى القواد سيراس ودوروت وسيفيولي أعمالاً عظيمة تدل على جرأة لا يفل حدها وقد استولوا على قرية سزابادهيجي وكانت عملهم هذا فاتحة الانتصار فان فرقة ساهوك هجمت على الاعداء على ضفة رعب الجني وأكرهتهم على الاستسلام فاسرت منهم عدة آلاف وغنمت مقادير كبيرة من المدافع وأتلفت قسماً مما لم تستول عليه ولما رأى قواد الجيش النمساوي أن رجالهم خذلوا دخل عليهم الخوف وتزلزلت أقدامهم فتهقروا وقد ساعدتهم موقع الأرض وانتشار الظلام على التهقير بانتظام ولم يفقد الفرنسيون في هذه المعركة سوى ألفي رجل وكان لهم فيها تعويض عما نالهم من الخسارة في معركة ساسيل أما خسارة النمساويين فكانت عظيمة فمات عدد قتلاهم الذين عدوا بالآلاف تركوا في ميدان الوغى ثلاثة آلاف جريح وتاه منهم ألفان وسقط في أسر الفرنسيين ٢٥٠٠ وحاق المرشال مكدونال في ساحة الروع المنتصر الشاب وكان يهتم دائماً بامرءه وقد سمى نابوليون هذا الانتصار «حفيد مارنغو»

٤

الامير اوجين

وطلاق نابوليون لجوزفين

وجعل الامير اوجين مركز قيادته العامة في برسبورغ بعد معركة وغرام وقد اشترك فيها هو وجيشه ولكنه ما لبث ان رجع الى ميلانو وكانت الحال تقتضي وجوده فيها على انه لم يطل مدة إقامته فيها فقد كانت منتظراً وقوع حوادث خطيرة في فرنسا فدعاه اليه نابوليون الى باريس في ٢٦ نوفمبر ليفاوضه في ما كان ينوي أن يفعله لتطليق جوزفين دي بوهرنه ورأى أن الابن يكون أفضل من غيره لتبليغ والدته ما يبتغي أن يبلغها إياه مما عقد عليه عروة العزم فكتب اليه ما يأتي : « يا ابني أريد أن تغادر ميلانو بحيث تستطيع الوصول الى باريس في ٥ ديسمبر أو ٦ منه تعال وحدك ومر بفنتنبلو . وكان الامبراطور قد صمم على كتمان مقاصده قبل وصول اوجين خفف هذا الى السفر على جناح

السرعة امتثالاً للامر وكان في أثناء السفر يطلق باز الفكر في جو التفكير وقد توهّم صحة ما قالت له زوجته وهو ان الامبراطور دعاه الى باريس ليذيع رسمياً انه يتخذه ولياً لمعهده .

وفي حديث دار بين نابوليون وكيباسارس أنثى الامبراطور على الامير أوجين وقال انه يمنحه الاثرة على غيره ونوه بما أداه من الخدم المشكورة للدولة وبمزاياه الحميدة ولكنه لا يمكنه أن يتخذه ولياً لمعهده ليخلقه على العرش في فرنسا لانه لم يكن متحدرًا من دم امبراطوري ولان أعضاء الاسرة البونابرتية العابثة بهم عوامل الحسد لا يلبثون لاوجين مقادتهم ولا يخضعون لسلطته أبداً .

ولم يبق السر مكتوماً كل السكمان فانه تسرب من القصر الامبراطوري الى الخارج وحالما وصل أوجين الى باريس خفت شقيقته هرتنس الى لقائه وأوقفته والدموع تلج في عينيها على ما كان الامبراطور قد صمم عليه . فأدرك الامير أوجين في الحال تداعي صرح مجده وتمثل في ذهنه انه اذا طلق نابوليون جوزفين وتزوج بامرأة أخرى وولدت له أولاداً جلسوا بدلا منه على عرش فرنسا وإيطاليا . أجل انه لم يسع قط وراء عرش فرنسا ولم يرغب فيه ولكنه كان يرى ان مملكة إيطاليا تخصه وانها ميراث له فقد حلت عليه الآن ضربة مزدوجة بصفة كونه ابناً وأميراً وأبصر انهيار بناء مقاصده العالية الذي كان قد شيده في ذهنه وكيفما كان الامر لم يكن له مندوحة عن تلقي تلك الضربة الشديدة بصدر رحب وعزيمة متينة فقد كان من المقضي عليه أن يكون عضداً ومعزياً لوالدته وشقيقته وقد قضت عليهما الاقدار بأن تجرما كؤوس المهانة مترعة الى اصبارها .

ودخل أوجين على الامبراطور فضمه نابوليون الى صدره وعانقه وباح له بأسرار عطف شديد ولكن أوجين لم يعبأ بشيء من ذلك لان الطعنة التي طعن بها فؤاده كانت نجلاء وحسبه أن يتصور والدته هاوية عن العرش حتى تدك دعامته . وأدخله نابوليون على جوزفين فوقع كل من الابن والام على عنق الآخر وكان أوجين يتعذب لاجل والدته وشقيقته أكثر مما يتعذب لاجل نفسه فكان يقول : « يجب على والدتنا أن تبتمد وأن نبتمد معها لنكفر في العزلة عن عظمة وقتية أقلقت حياتنا أكثر مما زينتها . »



نابوليون يملی مذکراته علی لاس کاس الحدث

وكان نابوليون قد اسند قبلا الى اوجين منصب العضوية في مجلس الشيوخ ولكنه لم يجلس على كرسيه للمرة الاولى الا ليتلو فيه السطور التالية التي ديجتها يراعة الامبراطور نفسه : « والدتي وشقيقتي وانا مدينون بكل شيء للامبراطور فقد كان لنا ابا حقيقيا وسيلقانا في كل حين ولدين مخلصين له وخاضعين لاوامره » فهناك فرنسا يقتضي ان يشيخ منشيء الاسرة الرابعة بين اولاد يتحدرون من صلبه ويكونون ضمانا لسمادة الجميع ولجند الوطن

« ولما وضع التاج على مفرق والدتي بيد زوجها العظيم باسم الامة جمعاء عاهدت والدتي على بذل كل ما عندها من العواطف في سبيل مصلحة فرنسا .. . وقد تأثرت نفسها غير مرة من رؤيتها عوامل الاسى تمزق عداها قلب رجل تعود ان يتسلط على الاقدار وان يوسم الخطى في الطريق الذي يوصله الى غرضه السامي . »

وما من أحد يشك في ان هذه الكلمات لم يفه بها اوجين الا بطرف شقيقه وانه لم يقرأها الا مكرها لان معرفة الجليل حملته على ذلك وكان ايضا يخشى ان يستاء منه الامبراطور اذا هو رفض ما أمره به .

ولما قضى الامر ونفذ السهم رافق اوجين والدته الى المايزون واحاطها بنطاق حبه البنوي ليجمعها تنسى عظمها الزائلة

وكانت زوجة اوجين قد بقيت في ميلانو وكانت على اتصال معه بالمكاتبة وجعلتها نفسها الكبيرة تقهر القدر الذي رشقها بسهمه فكتبت الى زوجها ما يأتي : « محبت اسمائونا من جدول المعظماء ولكن كتبت في سجل السعداء »

وعاد الامير اوجين الى ميلانو ولكنه لم ير بدا من الرجوع الى باريس ليشهد ولادة ملك رومية في ٩ ديسمبر سنة ١٨١٠ وقد حضر هذه الحفلة بصفة كونه اميراً فرنسياً ولكن قلبه كان مع الامبراطورة المنزوع التاج عن جبينها .

لما شخص نابوليون وماري لويز الى شر بورغ رافقهما الامير اوجين . ومع انه كان راغبا في اعتزال السياسة رضي بان يقبل من الامبراطور لقب غرندوق فرنكفور واقتراح نابوليون على الامير اوجين في سنة ١٨١٠ ان يقبل تاج اسوج الذي قبله برنادوت فيما بعد ويقول بعض المؤرخين ان الامبراطور كان يرغب رغبة صادقة في ان يرى ربيبه جالسا على عرش غستاف ادولف ولكن الامير الشاب

اعتذر عن قبول ذلك لانه كان يرى نفسه غريباً في تلك البلاد وبعيدا عن وطنه
وأثر البقاء في ايطاليا معتصما بعري الدين الكاثوليكي الذي ولد فيه
وكان الامير اوجين في اثناء مقامه بميلانو يقضي معظم وقته في الدرس
ويسعى لتحسين احوال بلاده وكان بينه وبين الامبراطور مكاتبات تدل على
لبن جانبه وطول بابه في الشؤون الادارية ولم يترك ميلانو الا للانضمام الى
الجيش العظيم لمحاربة روسيا.

٥

معركة روسيا - عبور البرسينا

وذهب الامير اوجين الى باريس في ابريل ١٨١٢ ليودع والدته قبل انطلاقه
الى معركة روسيا فاجتاز المانيا بجيشه الايطالي المنظم ميمماً مايناس فبلوك
وهناك اسندت اليه قيادة الفيلق الرابع . وبينما كان في ضواحي مدينة بلوك على
ضفاف الفستول قدم عليه وفد من بولونيا ليقدم له تاج بلاده . وكان الاقدار
اصرت على وضع اكليل على مفرقه ولكنه نبذ ما كانوا يقترحونه عليه .
وكتب الكونت دي سيفور قائلاً : « كان نائب الملك في ايطاليا نازلاً في
ماريوبول على رأس ٧٩٥٠٠ من الباطاريين والايطاليين والفرنسويين وانتقل
الى كروني في اول يوليو بعد ماضم شمل جنوده الذين كان الزمهرير قد برح بهم
وكانت الدوسنطاريا تفتك بهم فتكا واستطاع ان يعبر الدوينا بعد جهد شديد
بينما كان الجنرال دوكتوروف الروسي يتقهقر برجاله وشهد المعارك في استروفنو
وموهيليف وارندى فيها بمطارف الفخر والمجد وأدى الامير اوجين في موسكو
خدماً جليلة للامبراطور نابوليون ايدت ما كان مشهوراً عنه من الشجاعة والاقدام
فانه بما أوتيته من المقدرة الادارية والحنكة العسكرية تمكن من دفع الغوائل عن
الجيش العظيم في عاصمة القياصرة القديمة واستطاع ان يحتل حصن بورودينو
المنيع وكانوا يعتبرونه مفتاحاً لتلك المواقع فكان من وراء عمله هذا الظفر العام
وقضت الحال بعد ذلك بالعودة وكان ذلك اعظم الاهوال واشد المخاوف
ويقول الجنرال دي سيفور في هذا الصدد ما يأتي :

« احاط الروس على ضفاف نهر النوب بالفرقة الرابعة عشرة التي كان الامير اوجين يقودها فشاء هذا القائد المقدام تخليصها ولكن الجنود والضباط كان البرد القارس قد خدر جسمهم فان درجة الحرارة هبطت الى العشرين تحت الصفر بالمقياس المئوي وكانت الريح الصرصر تزيد شدة فاضطجع الجنود على الرماد الحار وحاول القواد على غير جدوي أن يروهم العدو محيطا بهم يتحفز للانعكاض عليهم وكان الرصاص والقنابل تنساقط عليهم كالمطر المدمر ولكنهم اعاروهم آذانا صماء وقالوا انهم يفضلون الموت على تحمل مشاق تلك العيشة وشطفها وقد تمكن الامير اوجين بشق النفس من انتقاذ ساقه الحرس . »

وشرع الجيش العظيم في التقهقر في ١٩ أكتوبر ١٨١٢ ووقع قتال في ٢٤ منه في مالو اياروسلوتز وويازما وكان زحف الامير اوجين الى كراسنوي قد جعله معدوداً من دهاة القواد فانه استطاع بجيشه القليل العدد ان يضلل الروس عن تعقبه وكان عدد الروس ثلاثين الفا ووصل الى كراسنوي حيث كان نابوليون فابتهج الامبراطور بمقدمه وعانقه وكان يظن أنه لن يبصره .

وخلص الامير اوجين المرشال ناي في ضواحي اورخا وكان الروس قد اوشكوا أن يحيطوا به وبرجاله في ليل ٢٨ نوفمبر ثم عبر البرسينا ولهذا العبور ذكرى مؤلمة في تاريخ الجيش الفرنسي لانهم حووا يد الدهر فان الجنود الفرنسيين ذاقوا من العذاب اشكالا والوانا في عبورهم لذلك النهر . واستندت الى الامير اوجين قيادة طلائع الجيش بعد يومين

وصمم نابوليون في ٥ ديسمبر ١٨١٢ على ترك الجيش والرجوع الى فرنسا وفاوض في هذا الامر الامير اوجين ومورات وبرتيه والقواد الآخرين ثم قلده ملك نابولي القيادة العامة . وكان من المعروف عن مورات انه متناه في البساطة في علاقاته الاجتماعية بقدر ما كان شجاعا في الحروب ولذلك لم يستطع أن يضطلع بالمهمة التي عهد فيها اليه فاستاء منه كثيرون من القواد وفي جملتهم الامير اوجين وكان هذا شديد الرغبة في العودة الى ايطاليا فكتب الى الامبراطور ما يأتي . « يا صاحب الجلالة وقفت حياتي على خدمتك ويشق علي أن استعملها لمجد غيرك ولا سيما حين تكون عواطف هذا الشخص عداوية نحوي وجلالتك

تعرف حقيقة هذه العواطف ولذلك أجرؤ على الاستئذان من جلالتك بالرجوع الى ايطاليا في الحين الذي تراه ملائماً .

فلم يحالته نابوليون على طلبه وكتب اليه من همورغو في مايلي :
« يا ابني انهض بما يجب عليك واتسكل علي . »

فاذعن الامير اوجين لمشيدة مولاة وبقي مع الجيش ولم يكن يبتغي العودة الى ايطاليا الا للابتعاد عن المكان الذي التقى فيه مورات الشقاق بين القواد .

وعادت الهجة الى فؤاد الامير اوجين فكتب الى زوجته : « دعي المزاح جانبا وانتظري ان تبصري كثيرين منا فقدوا انوفهم وآذانهم وهل يمكنك ان تصدقي يا عزيزتي انه لم يبق معي سوى الفي رجل من فيلتي الكبير وقد جرح نحو نصفهم . »

وبعد أيام قليلة ادعى مورات انه مريض ففصل عن الجيش مغادرا اياه ليعود الى نابولي ولم يكن له من مبرر لعمله هذا وقد حملة على ذلك وهن الزيمة والتواني وانتشر بين الجيش السبب الحقيقي لذهاب مورات . ولما انتهى هذا الخبر الى نابوليون كتب الى ربيبه الكتاب الآتي :

« يا ابني تقلد قيادة الجيش العظيم ويسوؤني أن لا اكون منذ البدء قد ذللتك هذه القيادة واؤمل انك تضطلع بهذه المهمة وانك لا تفقد عدداً كبيراً من هذا الجيش فافات لا يمكن اصلاحه . »

وعاد القائد العام الجديد بالجيش الى مغدبورغ مذلاً مصاعب شتى تصدت له في طريقه . وكان عبور البرسينا بمثابة مقبرة للجيش وابدى الامير اوجين شجاعة تفوق الطوق البشري لانقاذ فلول الجيش فكان يقبل عشار فريقي منه صرخته الشدائد وينفخ روح المرأة في فريق آخر تداعت عزائمه وقد اعتد ان وجود شخص يتولى الزعامة في مثل ذلك الموقف الحرج ويكون رابط الجأش بعينه النظر قادراً على انعاش قوي الجيش امر لا مندوحة عنه .

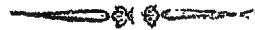
ولا يخفى ان جميع المؤرخين الذين كتبوا عن تفهم الجيش العظيم الى مغدبورغ اثنوا على اختلاف منازعهم السياسية على ما ابداه الامير اوجين من جرأة المقدم وحسن الادارة في ذلك الموقف العصيب وكان للامير اوجين نصيب كبير في الانتصار في معركة لوتزن في ٢ مايو سنة ١٨١٣ فانه كان يقود جيشاً

بحراً مؤلفاً من ١٥٠ ألف مقاتل وخمسة قواد أكبر منه في العمر . وبعد ما قام بتلك الاعمال الحربية الباهرة عاد الى ايطاليا وانتهى اليه وهو فيها ان حماه ملك بافاريا انتظم في سلك المحالفة المؤلفة لناواة نابوليون وأرسل هذا الملك رسولا يحمل الى صهره رسالة يدعو به الى ترك نابوليون ويعدده بان يجعله يصيب تاج مملكة في مقابل انحيازه الى الحلفاء ولكن الامير اوجين اجابه جواباً يدل على الانفة والكرامة ومن جملة ما كتبه اليه ما يأتي :

« انامدين بكل شيء لنابوليون ولا يسعني أبدا الانفصال عنه وربما تضطرنني الاحوال قريباً الى الالتجاء الى مونيخ ولا تخالني ادنى مرة في أن ملك بافاريا يفضل أن يستقبل صهراً بلا تاج على صهر بلا شرف . »

وألح الرسول على الامير اوجين بقبوله اقتراح حميه ولكنه ظل مصراً على الرفض . ومن المدهش ان زوجته الاميرة وافقته على رأيه لانها كانت على جانب عظيم من عزة النفس وقطعت كل علاقة باسرة والدها ولم تبد أي أسف على فقدان تاج يقدحها المحافظة على اعز شيء عندها وهو كرامتها .

وعاد الجيش النمساوي الى غزو ايطاليا ولكن الامير اوجين صمد له بعزيمة لا يفل حدها وبقي شهرين يقاتل بخمسة وثلاثين ألف مقاتل ستين الفا من الاعداء وظهر عليهم أخيراً في ١٠ فبراير سنة ١٨١٤ بعد ما كسرهم شر كسرة وقد فتك رجاله فتبكا ذريماً برجال حميه فان هؤلاء البافاريين الذين كانوا من ثماني سنوات يطبقون الفضا بالهتاف لامبرطور الفرنسيين حينما ذهب الى مونيخ ليشهد حفلة زفاف كريمة مليكهم الى الامير اوجين جاهدوا بنكران جميل فظيع بعد ما انقذت فرنسا بلادهم وحررتها وجعلتها مملكة وأغنمتها باسلاط النمسا .



آخر حياة اوجين بوهرنه

ودخل الحلفاء باريس في ١٣ ابريل سنة ١٨١٤ وكان ذلك فائحة تداعي صرح الامبراطورية فاضطر الامير اوجين الى عقد هدنة مع المرشال دي بلغاردينسوي الذي كان يحاصر مدينة مانطو وتم الاتفاق في هذه الهدنة على ارجاع مانطو وبلاد لمبرديا الى النمسا ورجوع الجنود الفرنسيين منها الى فرنسا مجتازين جبال الالب ونشر الامير اوجين في هذا الصدد الذئرة الآتية على جيشه :

« أيها الجنود الفرنسيون ستعودون قريبا الى بلادكم ويسرني ان اعود بكم اليها وما كنت لاتنازل لغيري - في غير الاحوال الحاضرة - عن السير بكم أيها الشجعان الى موطن الفخار بعدما قد قمتم بانفسكم الى موطن الهلكة ولكن مهام خطيرة تقضي عليّ بالافتراق عنكم .

« أيها الجنود الفرنسيون ثقوا باي لا انسى ابدا الثقة التي وضعتموها فيّ في آونة المخاطر وفي الاحوال السياسية الشديدة التعقد واعلموا اني سأظل شديد التعلق بكم وسأدخر لكم عرفان الجميل وعلاوة على ذلك يخاطب الشعب الايطالي ودمكم ويحترم ما اذنتم به من السجايا الكريمة .

وكان الامير اوجين يتوهم انه يحق له أن يظل في منصبه وان ذلك واجب عليه إلا أن الحوادث تراكت متزاحمة بسرعة تجعل براعة المؤرخ عاجزة عن بيان الحقائق فقد نص في معاهدة فنننبلو على احتلال الجيش النمساوي لاطاليا وعلى تنازل نابوليون و خلفائه عن وضع التاج الحديدي على مفارقهم وكان ذلك خاتمة لمهمة الامير اوجين السياسية والحربية فانه سلم المرشال دي بلغاردينسوي البلاد وقلاعها وانطلق بأسرته الى باريس .

ولا بد من القول ان سني الشؤم تلك التي اجتازتها الامبراطورية والنكبات الشديدة التي اصابتها اوهت عزائم قواد الجيش الفرنسي ورجال الحكومة الامبراطورية بحيث رأوا ان الامر قضي ولم يبق لهم مطمح باستعادة مجدهم الضائع . وتألف حزب في فرنسا جاهر بمبادئه على رؤوس الاشهاد ونبذ المحاذرة

وبث في الامة نظرية فخرها أن الملوك دون سواهم يستطيعون ان يخلصوا البلاد من الاجنبي ويعيدوا اليها السلام والسكينة وان الحال تقضي بابتعاد نابوليون وذويه عن ملعب السياسة ولم يتأسف الامير اوجين على مغادرة ايطاليا ولم يقبل الحكم فيها إلا بعدما رفضه يوسف بونابرت وقد خدم الامير اوجين نابوليون خدمة صادقة في اثناء اقامته في ايطاليا ولما خرج من هذه البلاد ترك مليونين وسبع مئة ألف فرنك في خزانة حكومتها وكان ذلك نتاج حسن ادارته واقتصاده . أجل ان الحكومة النمساوية اعترفت فيما بعد بان هذا المال للامير اوجين ولسكنها لم تؤد شيئاً منه لانه ولا لاولاده فلم يرفع الامير صوته بانشكوى وتحمل بهمة عالية بحامل الافدار عليه ونكران جميل البشر نحوه . واستمال الامير اوجين اليه احترام الايطاليين ومحبتهم له بحكمته ولين جانبه وكان له في هذه العواطف التي اظهرها له الشعب الايطالي سلوانا عما حل به من البلايا ولما عاد الامير اوجين الى باريس اراد نابوليون ان يعطيه علامة أخيرة عن عطفه عليه واحترامه له فانعم عليه بلقب مرشال ولكن الامير التمس من الامبراطور ان يعفيه من قبول هذا اللقب لانه كان يرى أن مهمته العسكرية انتهت . وبينما كان نابوليون سائراً على طريق المنفى في جزيرة البيا . أخذ الامير اوجين وأسرته طريق مونيخ ومنها ذهب الى فيينا لحضور المؤتمر واعطى الامير اوجين في معاهدة فنننبلو في ١١ ابريل سنة ١٨١٤ تعويضا قدره عشرون مليون فرنك في مقابل عقارات وحقوق كانت له في ايطاليا وابتى له المؤتمر حقوقه في اقليم انكون وقبض خمسة ملايين فرنك من ملك الصقليتين ولكنه ترك هذا المبلغ لجميه في مقابل دوقية الخنمبرج وامارة ايشستاد وقد صار من ذلك الحين يعرف باسم دوق دي الخنمبرج .

وكان الامير اوجين يقيم في قصره بمدينة بايروت في اثناء « الايام المئة » فلم يشترك في الحوادث السياسية التي وقعت في سنة ١٨١٥ وشطرت الجيش الفرنسي شطرين متعادين وكان الدوق دي الخنمبرج يرى ان حزب نابوليون لا يرجى قيامه من عثاره لان موارد قوى فرنسا كانت قد نضبت وكانت دعام شجاعة جنودها قد تقوضت وكان الحلفاء يحتلون بلادها ولذلك لم يكن من سداد الرأي والحكمة التمادي في التمس بالافدار .

ويزعم بعض الذين كتبوا ترجمة الامير اوجين دي بوهرنه ان الملك لويس الثامن عشر كان يحترم هذا الامير ويقدر صفاته العالية حق قدرها فعرض عليه منصب « كنيثابل » ولكنه رأى ان هذا المنصب غير لائق به بعد ما كان كملك في ايطاليا . وقد بقي محتفظا بلقب مرشال فرنسوي في عهد البوربون ولم يشأ ان ينكر فضل نابوليون عليه بخدمته ملوك فرنسا فان نابوليون كان بمثابة أب حقيقي له .

ولما كانت والدته مريضة في المالميزون استقبل الامبراطور الاسكندر وكان هذا العامل قد شاء ان يعود زوجة نابوليون الاولى ويظهر لها اهتمامه بامرها فظهر القيصر للامير اوجين علامات عطف وود صادرة عن صدق واخلاص ولكن اوجين اوشك في ذات يوم ان يعتقل بامر الاسكندر نفسه لما كان نابوليون في جزيرة البا ولم ينج من الوقوع في حباله الاعتقال الا بعد ما قطع عهدا بالا يغادر فينا وكانت الحلفاء قد اكرهوه على الاقامة فيها وقد سمى الامير اوجين بعد ذلك رغما من هذا الامر الى الالتجاء الى مكارم القيصر وكلمته المسموعة الافراج عن سجين القديسة هيلانة . فكان جواب اهل الروس مفرغا بقالب الود واللفظ ولكنه ظل جبراً على ورق .

وبعد وفاة والدته في ٢٩ مايو سنة ١٨١٤ غادر فرنسا ولم يعد اليها قط بعد ذلك وكان في اثناء مرض والدته يستنفذ الجهود لتعزيته وتخفيف اوتار غصص الموت عنها . ولم ينزل الى معترك السياسة قط في عهد البوربون بعد نفي العامل نابوليون الى جزيرة القديسة هيلانة وكان ان هذا القائد الهصور الذي تنقل في بلدان اوربا على صهوة جواده في عهد نابوليون الكبير اراد أن يستريح من مشاق الحروب ومشكلات السياسة فأثر الانزواء في بيته بين افراد أسرته يتذوق طعم المعيشة البيتية اللذيذة وكانت اواخر حياته هادئة ساكنة كما كانت اوائلها . ولما عاد نابوليون من جزيرة البا في اول يونيو سنة ١٨١٥ انعم عليه بلقب نبيل من نبلاء فرنسا وكان هذا اللقب آخر علامة شرف نالها .

وطلب ولي عهد أسوج يد جوزفين كريمته الكبرى في سنة ١٨٢٢ وفي اثناء حفلة العرس أصيب الامير اوجين بفالج شديد صرعه فبادروا الى معالجته والعناية به وافق غير الامور . ولما استأنفوا حفلة الزواج بين مجالي الابتهاج



نابوليون على سرير الموت

ومظاهر السرور ولكن الداء عاد اليه بعد سنة بشدة قضت عليه وعلى الآمال التي كانوا يعلقونها عليه فتصرعت حبال حياته في مونيخ بين أسرته في ٢٠ فبراير سنة ١٨٢٤ وهو في الثالثة والاربعين من العمر . ولما بلغ نعيه ملك فرنسا قال : « اني آسف على مصرع الامير اوجين فقد كان رجلا كريما معروفا بصلاحه . » والذي يزور كنيسة القديس ميخائيل في مونيخ يبصر ضريحها فخما من الرخام الناصع البياض صنعه النحات تور والدسن الدانمركي المشهور فان كريمة ملك بافاريا وأبم الامير اوجين ارادت ان تخلد ذكرى زوجها العظيم بأقامة ضريح يليق به واكتفى النحات بان يحفر هاتين الكلمتين « شرف وأمانة » عند قاعدة تمثال الامير وهما كافيتان للدلالة على هاتين الصفتين الكريمتين اللتين كان يحل جوزفين دي بوهرنه ممتازا بهما .

٧

تأبين تيارس لـ اوجين بوهرنه

والدة السلطان محمود الثاني

اقتطفنا ترجمة الامير اوجين بوهرنه من تاريخ القنصلية والامبراطورية لد' هية السياسية الفرنسية ادولف تيارس والى القارئ الكريم تنفة من تأبين تيارس لـ اوجين بوهرنه : « اوجين دي بوهرنه من أجل الصور التي ظهرت في هذا العصر وهو مثال تام للشجاعة والمروءة وقد دعا أحد اساتذة التاريخ جان دارك وماري ستوارت وماري لـ كنزسكا أشهر النساء اللواتي امتزن بالفضيلة وشرفن بلاد فرنسا ولو ذكر هذا الاستاذ اسماء الرجال الذين امتازوا بالفضيلة لوضع ولامرأ اسم اوجين دي بوهرنه الى جانب اسماء دي غيكلان وبايار وطورين وسواء كان في ساحة الهيحاء أو في بلاط نابوليون أو في قصره بميلانو أو في قصره ببايروت بعد سقوطه عن منصبه المالية بقي حافظا سكينته واطفه البادين على جبينه . »

وكان اوجين بوهرنه وضاح الطلعة جذابا وقد استطاع مع تباين الاحزاب وغلbian عواطفها ان يستميل اليه احترام جميع الاحزاب لان الجميع كانوا يعتبرونه جنديا هاما وقائدا شجاعا مترفعا عن المطامع وصغائر الامور . وكان شديد الشكيمة مستقلا في الرأي وقد خدمته الاقدار في أحوال شتى ووضعته على درجات العرش ولكنه لم يعمل قط الى الجلوس عليه ، وكان نابوليون قد جعله نائبا للملك في ايطاليا ولكنه كان يحاذر ان يستخدم ما له من المنزلة السامية عند الامبراطور للتعسف عن محبة الشرف أو تخيانة الشعب الذي كان يتولى حكومته وقد عرف نابوليون حقيقة اخلاق ربيبه وصدقه واخلاصه ولذلك جاهر وهو على تلك الصخرة الصماء في جزيرة القديسة هيلانة بما كان يكنه للامير اوجين من الاحترام وشهد بذلك قائلا : « ان اوجين لم يحملني قط على الاستياء منه . » ونختم هذا الفصل بقولنا انه كان للامير اوجين بوهرنه ثمانية اولاد ولكن لم يبصر أحد منهم النور في أرض فرنسوية ولم يكتف الحظ بان يعبس في وجوههم لما جاؤوا الى الوجود بل ظل متنكرا عليهم في كل حياتهم وكان ذلك مناقضا لحياة الامير والدم فانه بعد ما ابلى بلاء حسنا في سبيل فرنسا في خلال عشرين سنة قضى عليه القدر المعبود بان يقضي نحبه في ارض غربة في ميدان حروب الامبراطورية الاولى .

وقد توفي بعض اعقابيه في المانيا وانتحل البعض الآخر المذهب الارثوذكسي ونالوا لقب اصحاب السمو الامبراطوري الروسي وصاروا معروفين باسم رومانوفسكي ولم يبق أحد منهم في فرنسا . وقبل أن نختم هذه الترجمة نذكر شيئا عن نسبه لجوزفين دي بوهرنه والدة صاحب هذه الترجمة وهذه النبذة مأخوذة عن ترجمة السلطان محمود الثاني الذي يمدونه أبا للاصلاح في تركيا :

كان لجوزفين دي لا باجري (الامبراطورة جوزفين) نسبه تدعى ايمه دوبوك دي ريفري ولدت في جزيرة المريتنيك في سنة ١٧٧٠ ولما بلغت الثامنة عشرة من عمرها ساقها الاقدار الى الزوج بالسلطان عبد الحميد الاول فولدت له السلطان محمود الثاني وتحرير الخبر ان هذه الفتاة لما كان لها من العمر ثمانى سنوات ارسلت الى مدينة نانت في فرنسا لتلتقى العلم في أحد الاديرة فقضت

فيه عشر سنوات وبينما كانت راجمة الى المرتينيك هجم قرصان جزائري على المركب الذي كانت فيه في عرض البحر واسره وتقامموا الاسلاب والغنيمة فوقعت الفتاة آية دويوك دي ريفري في حصه زعيم القرصان ولما نفرس فيها وابصرها آية في الجبال خطرت له في الحال فكرة ارسالها هدية الى مولاه السلطان عبد الحميد الاول رغبة في بقاءه حاصل على عطفه . ولما وصلت الفتاة الى القسطنطينية ووقعت عليها عين السلطان خلبته بحسنها الفتان فتزوجها بعد ما اكرهت على الاسلام لانه لم يكن لها في اليد حيلة وولدت غلاما سموه محموداً وعنيت بتربيته عناية عظيمة جاءت بثمار يانعة في مستقبل حياته فوجدت فيه روح الفضيلة ونشأته على حب الخير والاصلاح في بلاده وظلت مقيمة في القصر السلطاني الى سنة ١٨٢٧ فنزلت بها علة ناهكة أدتها من شفير القبر فمادت اليها ذكرى حداتها واحبت ان تموت على الدين الذي ولدت فيه فدعت لمعلمها السلطان محموداً اليها وهي مضطجعة على سرير الموت وقالت له : يا بني انا موشكة ان اموت ولي عندك طلبه اؤمل انك لاتنصن بها علي . فقال لها محمود : ان رغائيك يا اماء بمثابة اوامر تصدرينها لي . فقالت ولكن الامر الذي اطلبه منك في غاية الصعوبة : فقال لا بأس من ذلك قولي ماترغبين فحاجتك مقضية . قالت : رغبتي هي اني اريد ان اموت على دين آباائي واريد ان تأتيني بكاهن كاثوليكي فاجفل محمود في بدء الامر لما سمع كلام والدته ولكنه مالبت ان وعدها باجابة سؤلها لان هذا السلطان كان على جانب عظيم من الهوادة وكانت تربية والدته قد اثرت به كثيرا ولما خرج من غرفة والدته دعا اليه احد حجابيه وارسله الى رئيس الكبوشيين في دير القديس انطونيوس في القسطنطينية يحمل اليه فرمانا سلطانيا وكان هذا الرئيس يدعى الاب كريزستوم (فم الذهب) وكان الوقت ليلا ولما ايقظوا الرئيس وابصر الحاجب دخل عليه الخوف الشديد وتوهم ان ساعته دنت لانهم لم يكونوا يرسلون الحاجب السلطاني في مثل تلك الساعة الا لامر جليل فطلب الحاجب من رئيس الدير ان يقرأ المرسوم السلطاني ثم يتبعه الى القصر وكان زورق ينتظره فركبه وكان فيه اثنا عشر مجذفاً من الشبان الاشداء وما عثموا ان اجتازوا به البوسفور ولما وصل الرئيس الى القصر أدخل بأشارة من السلطان غرفة فاخرة الرياش

وكانت امرأة مريضة مضطجعة على سرير ولم يكن الى جانبها الا الطبيب ثم دخل السلطان وهو يذرف الدموع منتحبا وقال : « يا اماء اردت ان تموتي على دين آبائك الذي ولدت فيه فقد اتيتك بكاهن كاثوليكي »
قال السلطان هذا الكلام وخرج هو والطبيب وبقي الكاهن مختليا بالسلطانة الوالدة ساعة من الزمان فاعترفت له بجميع خطاياها وشمرت بان حملا ثقيلا انزل عن منكبيها ولما دخل السلطان ابصر الكاهن يناولها القربان المقدس لان ذلك الكاهن كان قد استدرك الامر وجاء بالقربان معه وما لبثت المريضة ان جادت بنفسها الكريمة .

هرتنس بوهرنه

ابنة جوزفين وام نابوليون الثالث

ووصيتها لولديها

في اوائل شهر نوفمبر سنة ١٧٩٠ وصلت الى مدينة طولون قادمة من جزيرة المارتينيك سيدة تصحبها ابنتها وهي فتاة في السابعة من عمرها تبدو عليهم علامات الخوف فانهما غادرتا تلك الجزيرة فرارا من ثورة اشتعلت نيرانها ولكنهما لم تكادا تطأ ارض فرنسا حتى علمتا انها ملعب ثورة لامثيل لها. فالام هي جوزفين دي بوهرنه حفيدة حاكم مقاطعة فرنسوية والفتاة هي ابنتها هرتنس دي بوهرنه وبعد وصول جوزفين دي بوهرنه الى فرنسا انطلقت ومعها كريمتها الى فنتنبلو لموافاة زوجها وقد كان مسنداً اليه في ذلك الحين منصب رئاسة الجمعية الدستورية وارتأى الوالدان ان يسرا في ادخال ابنتهما هرتنس الصغيرة الى مدرسة دير الاباي اوبوى ليجعلها بمنجاة من كل ما يخشى من المكاره الناشئة عن الحوادث في ذلك الحين الا انها لم تطل المكث في ذلك الدير فأخرجت منه بغتة في ١٠ اغسطس وهو تاريخ هجوم الغوغاء على قصر التويلري وقد تلا ذلك الهجوم تدمير الاديوار والمدارس . وفي تلك الاثناء جعل المسيو بوهرنه قائد الجيش الرين

إلا انه لم يلبث طويلا في قيادته لصدور امر يقضي بفصل جميع النبلاء من مناصبهم في الجيش فاعتزل في قريته للاشراف على عقاراته ولكنه لم يلبث ان القى القبض عليه وزج في السجن . وبعد بضعة أيام قبض على زوجته . وحدث أن هرتنس الصغيرة لما استيقظت ذات صباح علمت أن والدتها دخلت عليها وقبلتها من دون ان توقفها وأنها سيقى الى السجن ولم يبق لها من سند تعول عليه إلا شقيقها البالغ اثنتي عشرة سنة من العمر فهذا القى سعى على غير طائل لخلاص والديه وصدور امر يقضي على جميع اولاد النبلاء بتعليم مهنة من المهن فاقتار بوهرنه الحدث مهنة التجارة . وكانت هرتنس الصغيرة تشهد بعيثها من المنزل المقيمة فيه بشارع البينيار جميع حوادث الثورة تجري وهي لا تدرك لها معنى .

وجاء يوم ٩ ترميدور (من شهور الثورة) فدخلت على هرتنس سيدة مقنعة وقبلتها قائلة لها انها سعت لاخلأ سبيل والدتها فنجحت وكانت تلك السيدة عقيلة تاليان . وعادت جوزفين الى بيتها في ١٨ ترميدور من السنة التالية وأطلق ايضا سراح الجنرال هوش في اليوم عينه وكان هذا الجنرال صديقه الوالد هرتنس فلما أعيد الى الجندي بعد خروجه من السجن طلب ان يؤخذ بوهرنه الحدث الى الجيش وكان ذلك فأنحمة خدمته العسكرية . وأدخلت هرتنس في خلال ذلك مدرسة انشأتها في سان جرمان عقيلة كهبان وصيفة الملكة ماري انطوانت .

وكانت تلك الفتاة تخرج في بعض الاحيان من المدرسة فذات ليلة صحبت والدتها الى ليلة ساهرة فتقرر في تلك الليلة حظ هرتنس ووالدتها ونحن نكتفي بايراد ما كتبه هي عن هذا الحادث

« . . . وكان عدد المجتمعين كبيراً فجلست على المائدة بين والدتي وجنرال كان ينحني ويحاول التقرب منها ليخاطبها بلهفة فكانت تضطر الى التراجع الى الوراء وقد تمكنت من التأمل في محياه من دون ان يعلم فوجدته بهي الطلعة ترتسم على وجهه سماء القوة والذكاء الا انه كان مصفرا ، وكان يتكلم بحدة ونزق . وكان ذلك الضابط الجنرال بونايرت . »

ومع معارضة هرتنس وشقيقها في زواج والدتها بالجنرال بونايرت صممت

الام على الاقتران به في ١٩ فنتوز من السنة الرابعة وقت ما أسندت اليه قيادة جيش ايطاليا .

وعقب ذلك سلسلة انتصارات عديدة نالها ذلك القائد وكانت معلمة هرتنس تقول لها : لقد أصبحت حظا بكون زوج امك قائدا كثير الفتوح
فقات هرتنس : ولكنه أصاب فتحها لن انساه ابدا وهو فتح قلب والدتي .
وعاد الجنرال بونايرت من ايطاليا بعد اشهر وسكن منزل جوزفين بباريس وكانت هرتنس المبتهجة برؤية والدتها مستاءة من رؤيتها التغير الطارىء في البيت بوجود بونايرت قاهر ايطاليا فكتبت مايلى : « ما اعظم التغير الذي حدث في مسكننا الصغير فهو يغص بالقواد والضباط وقد صعب على الخفراء منع الناس من الدخول لمشاهدة القائد الظافر . »

وانطلق بونايرت الى مصر بعد حين من الزمان ومعه شقيق هرتنس فرافقت جوزفين زوجها وابنها الى طولون تاركة هرتنس في مدرسة عقيلة كيبان مع كارولين شقيقة بونايرت ونحن نذكر كيف عرفت تانك القماتان حوادث ١٨ برومير واليك ما كتبت هرتنس في هذا الصدد :

« في ليلة ١٨ برومير ارسل اليينا الجنرال مورات المقيم بحب كارولين اربعة من جنوده ليوقعونا على ما حدث في سان كلو وما كان من ارتقاء الجنرال بونايرت الى منصة القنصلية . فليتصور القارئ مجيء اولئك الجنود الاربعة ليلا الى دير فيه نساء فرما كان في ذلك الامر بهجة الا ان عقيلة كيبان لم تنس قط تلك المخالفة لقواعد اللياقة وقد دونت ذلك في مذكراتها . »

وتخير القنصل الإقامة في قصر الكسمبور بعد فتنة ١٨ برومير ولكنه هجره بعد حين من الزمان واتخذ قصر التويلري مسكنا له . وقد قالت جوزفين لابنتها على اثر ذلك الانتقال : ان ذكرى ماري انطوانة تقض مضجعي .

وأزف الحين الذي ذكروا فيه مسألة زواج هرتنس فادركت من سماعها كلام القنصل الاول انها لا تستطيع اتخاذ عمل غير موافق لرغبته ولمصلحة الدولة واضطرت الى الاقتران بشقيقه لويس بونايرت ولم يكن أحد من الزوجين راغبا في ذلك الزواج ولكنهما رضيا به مكرهين .

ومعلوم ان الزواج الذي يتم على كره يكون وخيم المغبة ولا سيما متى اجبرت

عليه فتاة رقيقة الشعور خيالية الافكار حادة المزاج كابنة جوزفين . ومع ما كانت عليه طباع الزوجين من التنافر لم يلبثا ان ولد لهما غلامان في مدى سنتين وهما نابوليون شارل ونابوليون لويس .

ولما انتدب زوجها للجلوس على عرش هولندا لم تجد مندوحة عن المضي الى تلك البلاد لموافاته . ولا يخفى على أحد ان ابنة جوزفين لم تخلق لتكون ملكة غالبالاد التي تربعت في سريرها جاهرت بعداوتها وبما زاد الطين بلة اتصاف زوجها باطوار غريبة .

وفقدت هرتنس ابنها البكر على أثر مرض قصير الامد فغادرت هولندا شاخصة الى جبال البرنات لترويح النفس بعد تلك الصدمة العنيفة التي اصابتها . ثم انها عادت الى باريس واقامت في منزلها بشارع شيرتي ولم تحظر على بالها العودة الى بلاد القاع تلك الميلاد الممقوتة او مسا كنة بعلمها ذلك الرجل المكروه . وكانت تعيش في باريس في وسط يختلف اليه الفنانون وينتابه هوة الفنون الجميلة فعميت بالتصوير ونظم الاناشيد وقد اصبحت النشودة « الانطلاق الى سورية » التي نظمت عقدها النشودة وطنية . وفي ٢٠ ابريل سنة ١٨٠٨ ولدت غلاما ثالثا وهو شارل لويس نابوليون وهذا صار فيما بعد امبراطورا وقد عرف باسم نابوليون الثالث .

وكانت فكرة الطلاق تجول منذ عهد بعيد في ذهن العاهل نابوليون وقد جسم تلك الفكرة بقتة حادث ظاهره تافه الا انه عجل في حمل العاهل على تقرير رأيه هذه المرة ففي حفلة اقامها رفقاء اوجين بوهرنه في الجندية هتفوا له مطلقين عليه اسم خليفة نابوليون ولما درى هذا بالامر فار فائره وجاهر في مساء ذلك اليوم عينه لجوزفين برغبته في تطليقها وقد شهدت هرتنس ذلك المشهد فكان له وقع سيء في نفسها لم تنسه طول حياتها .

وتزوج نابوليون بماري لويز النمساوية بعد اشهر فنالت هرتنس محنة شديدة حين تلقت الامر بحمل وشاح الامبراطورة الجديدة في حفلة العرس . وكانت تأمل ان تكافأ على ذلك ببئلا من الامبراطور الترخيص بالطلاق الا ان نابوليون لم يبد رضى به فاضطرت الى الشخوص مرة ثانية الى هولندا قاصدة زوجها . ولكن حدث لحسن حظها وحسن حظ تلك البلاد ان ذلك الملك الغريب

الاطوار عزم فجأة على التنازل عن العرش فهجره وانطلق من دون ان يخبر أحدا حتى ولا زوجته بالمكان الذي أمه فادارت هرتنس الشؤون نائبة عنه حينما من الزمان ريثما ضمت مملكة هولندا الى الامبراطورية الفرنسية .

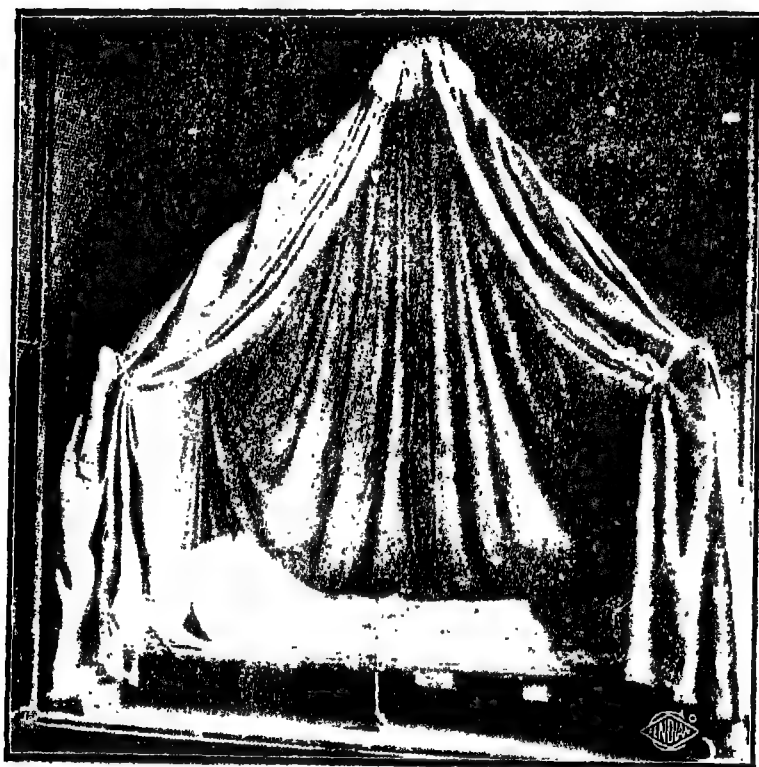
وتخلصت هرتنس في هذه المرة من مملكتها وزوجها معا فقرر الامبراطور اجازة الطلاق وعين لها مرتبا قدره مليون فرنك فتغنست الصعداء وجعلت مقامها في باريس حيث عاشت باهية عظيمة وعلى هواها وأصبحت دارها مثابة رجال العلم وأرباب الفن .

وكانت الحوادث تتعاقب بسرعة في تلك الاثناء وكان صرح الامبراطورية يميل الى التداخي وبقي في فرنسا الحلفاء المنتصرون وأجبر الامبراطور على التوجه الى جزيرة الباي .

واطالت هرتنس لسان الثناء على الملوك المتحالفين لحسن معاملتهم لها فكان قصر الروس يجيء تقريرا في كل يوم الى المالميزون لمشاهدتها وقد قال : « اتيت الى هذه البلاد للاقتصاص من نابوليون ومن غرائب الامور اني لا أجد لذة الا بمعاشرة اسرته » . ونالت هرتنس بمساعدته مرتبا يبلغ اربع مئة ألف جنيه ودوقية انشئت لاجلها مع ابقائهم لها عقاراتها في سان لو .

ولكن ما عتمت ان انتشرت فجأة اخبار رحوع الامبراطور فبهت الناس وخفت هرتنس للملاقاة معبودها المائد من منقاد ولكنه لم يكرم وفادتها واتمها بمالأة اعدائه عليه فكبر الامر على ابنة جوزفين ودافعت عن نفسها بقوة اضطرته الى اغضاء الطرف على ما آتته في اثناء غيابها .

ثم ان نابوليون بعد ما قهر في واترلو احتاج الى شخص فرج كرتبه فاستعملته هرتنس في المالميزون استقبالا محفوا بجميع محلي الاحترام وطلمت منه ان يقبل منها عقداً من الالماس تبلغ قيمته مليون فرنك . ولم يبد الامبراطور يغادر البلاد حتى أمرت بترك باريس في مدى اربع وعشرين ساعة فاخذت ولديها وتوجهت بهما الى طرغوفيا بسويسرا ثم الى كنستانس حيث اقامت قصر ارنبورغ ولم تجد في معزلها هذا الراحة التي كانت تنسدها فلما نشبت ثورة سنة ١٨٣٠ صارحها كبير نجلها برغبته في الاشتراك في الفتنة الإيطالية فأنكرت عليه ذلك ولكنه لم يتحول عن عزمه فسار الى فلورنسة وفي السنة التالية توفي فيها .



سرير نابوليون النقال

ولم يبق لتلك المرأة المنكودة الطالع سوى ولد واحد فصصمت على انقاده من غائلة الاحداث مهما كلفها ذلك الامر من الضحايا والمشقات وبذلت الجهود لابقائه على مقربة منها في ارنبرغ الا أن لويس نابوليون كان ذا مطامع كبيرة فعالج تلك الحركة المعروفة بحركة ستراسبورغ خفية عن والدته فكان من أمر تلك الحركة وتبعها الوخيمة عليه ما كان . فتصدع قلب تلك الام وخافت عليه من نزول التوازل والمام الملمات وخفت الى باريس وانطرحت على قدمي لويس فيليب طالبة منه العفو عن الجرم فمنحها الملك سؤالها مشروطا عليها ان تبرح فرنسا في مدة ٢٤ ساعة . وكانت تلك الحوادث شديدة الوطأة على صحتها فكتبت في ٣ اغسطس سنة ١٨٣٧ الى ابنها نزيل اميركا ما خلاصته « تعال يا لويس تعال لتغصض عيني » . فبادر الامير لتلبية نداء أمه ووصل قبل تقطع انقاسها الممدودة بزمان قصير ففاضت روحها في سويسرا في ٣ اكتوبر من تلك السنة . وأقام لها الامير لويس نابوليون ضريحاً في كنيسة روابل الى جانب ضريح والدتها لازال رفاها فيه وكانت الملكة هرنس موصوفة بالدكاء والدهاء كما يستدل من كلامها الموجه الى نجليها بمثابة وصية ومشكاة يستنبران بها وهذه خلاصته :

« يعتبر حظ البونايريين من اغرب الحظوظ في الازمنة الحديثة فهم الآن مستهدفون للنكبات الشديدة من دون أن تتيسر لهم المجاهرة بكلمتهم الاخيرة فيمكنكم بواسطة اسمنا أن تصبحوا ملحوظي المسكنة في اوربا القديمة وفي العالم الجديد على السواء وفي كل مكان وكل زمان لم يطرأ تغير على البشر فهم على الرغم منهم يحترمون ذرية اسرة هادنتها الاقدار والاسم المشهور اول نصير يجود به القدر على من يبتغي الوصول به الى مدى بعيد . ان نابوليون منشئ شهرتنا سحق الشعوب تحت اثقال مطامعه الا انه احيا موات الآمال الجسيمة عند جميع الصعاليك وحرك عوامل الاعجاب في كل قطر فأنا عرفته في حالي القوة والضعف ولا أصوره لكما كئثال كامل فكثيراً ما كانوا يشبهونه بقصبة مطلية بالحديد . وقد تسلطت عليه تقيصتان : الضعف وعدم التكتم . ولما كان من طبعه الاكثر من الكلام كانوا يستدرجونه الى كشف الغطاء عن جميع أسراره فالملك مقضي عليه بان يصمت او ان يتكلم من دون ان يقول شيئاً وكثيراً ما يستعينون عليه بنقيصته ليبلغوا أوطارهم منه . وكان نابوليون في غالب الاحيان

ينقاد للاصدقاء الاقدمين او المتملقين الجدد فتجنبا الانقياد لشخص يصعب عليك فيما بعد التملص منه . على انه يجب ان ترعيا حق الامانة لاصدقائك فذلك يستميل اليكما تعلق الناس بكما . انما في النكبة الحالية الحالة بنا تجهلان مصيركما ومع ذلك لاتقفلا باب قلبيكما في وجه الامل وافتحا اعينكما وترصدا الفرص الملائمة . وان افلقت فرنسا افلانا نهائيا من ايديكما ففي ايطاليا والمانيا وروسيا وانكثرت اسباب تنسيبان بها للمستقبل وفي كل مكان تطرا بوادر افكار ترفع الى اوج السؤدد وارث اسم مجيد . فلك ولاخيك الحق بان تكونا بعد ملك رومية وارنن نابوليون اذ ان عمكما يوسف ليس له سوى بنات وعمكما لوسيان جعلته اطواره الغريبة يفلت من يده فرصة كان يستطيع فيما مضى انهازها ليجلس على اقرب درجة من العرش وهو على ماأعرفه رجل لا يخلو من المقدرة العقلية فهو جريء ومحتال الا ان حدثه جعلته يضيع فوائد مشروعات كان الاقدام هاديا له في معالجتها وهو البطل الحقيقي ليوم ١٨ برومير بعد ما زال الضعف والتردد والجن من نابوليون في ذلك اليوم . وابدى لوسيان بعد واترلو كثيراً من الشجاعة لما قلبت الاحداث ظهر الجن لاسرته فنسج على منوال نبلاء ايطاليا في القرن الخامس عشر مجاهداً مهمة عالية لمبايعة نابوليون الثاني . ولوجرى نابوليون على رأي اخيه منقادا الى ذوقه السلم لقذف انصاره الى نهر السين اولئك المشاغبين المؤلف منهم مجلس النبلاء والمجلس الاشتراعي وتمكنوا باشارة واحدة من اجراء ذلك الامر بمناصرة البقية الباقية من الجيش واستطاعوا فيما بعد ان ينازعوا الاعداء ارض فرنسا قدما قدماً وكان من الممكن ان تكون الحكومة المطلقة سببا لخلاص الاسرة الامبراطورية ولكن لسو حظ تلك الاسرة لم يكن زعيمها في ذلك الحين الا خيال نفسه . وقد ابصرته عند منتصف الليل صاعدا الى العربية ليوافي جيشه عند حدود بلجيكا فعانقني مبتسماً الا ان وجهه كان منقبضا انقباضاً توهم رؤيته فكانت نفسه مريضة كما كان جسمه وقد نهكه ما بذله من الجهد في الحرب التي أجيح سعيها في أثناء الشهور الثلاثة . ومنذ ذلك الحين أعادت اليه الراحة في جزيرة القديسة هيلانة شيئاً من صفاء ذهنه ولما كان ذاعقل راجح وكان تام الخبرة باخلاق البشر نظم هناك حياته ودفاعه ومجده بلباقة الممثل في الملعب حين يتقن الفصل الاخير من مأساته .

ان الفتنة استنزفت قوة البحث بادلاء الحجج عند الفرنسيين لكنهم لم يسدوا آذانهم عن قمع الصوت البشري ففي الحركات المؤثرة وطلاقة اللسان ما يستطيع ان يوقظ الهممة في الشعب ولكن لا تدوم تلك اليقظة مدة طويلة فحذار ان تتخذها بها وتجنبها الفرص التي يتهزها المتربصون بالحكومة لابقاظها فالعربون الذين استولت عليهم الحماقة ضلوا عن سواء السبيل بترك العناصر المتطرفة تفعل ما تريد في ديارهم وباغضاء الطرف عن خطباء الندوة النيابية الذين يشعلون نار تلك العناصر وربما نجم عن ذلك حريق هائل .

لا تنسيا انكما اميران ولكن لا تنسيا ايضا الاحكام المنفيين انما في ظلها فلقبكما حديث العهد فاذا ابتغيتم ان تصيراه رفيعا ومكرما وجب عليكما ان تبينا انكما تستطيعان النفع . فان انما رأيتم ان ذوي الاموال يخشون على اموالهم من الضياع فعداكم بان تكونا ضامين لها واذا شك الشعب من مظلمة فأظهر له انكما انما ايضا تشكوان من تلك المظلمة وأقنعاه بان خلاصه لا يكون الا على ايديكما . واقول بالايجاز ان مهمة البونابرتين هي الجاهرة بالصدقة للجميع الناس فمن مهمتهم ان يكونوا وسطاء ومصلحين . واعلموا انه لا يتعذر عليكما ان تصبحا كعبود او كفاد او كوسيطبين الاقدار السماوية العنيفة ومصلح البشر فالعربون يميلون الى الالتجاء الى عناية منظورة فلا اسهل من ان يكونوا مودة الشعب فهو في بساطة الاحداث واذا رأى انهم يعنون بأمره استنام اليهم ولكنه ان هو آانس منهم الاستبداد والعبت بمحقوقه قاب لهم ظهر المجن وخرج عليهم وهو لا يصدقهم ان هم تجملوا معه في الكلام واغفلوا في القول لاعداء وهميين يصورونهم له طاملين على ايذائه ،

نهياً لكل خطب مفاجيء ربما تفسر لكما تهينة الحوادث ولا تسيئا الى احد ولا تستسما الى اي كان وأكرما وفادة الجميع حتي الفضوليين واصحاب الاغراض والمستشارين فيمكنكما ان تجنبيا ثمار الفوائد من جميع هذه الامور وارصدا القرص لتغتمها فلا تحدث مهزلة او مأساة من دون ان يكون لكما مغنم من ورائها . وكونا في كل مكان ولازما جانب التعقل والحريية ولا تجاهرا بوجودكما الا في الحين الملائم »

الكردينال فش

لم تكن اسرة بونا بورت معسرة وإنما لم تكن مومرة وكان الاب بونا بورت عم نابوليون يعيش على شيء من الرخاء مما كان يصيبه من المال بصفة كونه رئيسا لشمامسة كاتدرائية اجا كسيو وكان لنسيبه ابن وهو يوسف فش اخو لايسيا الرضيع وقد ولد هذا في اجا كسيو في سنة ١٧٦٣ وارسل الى مدرسة اكس الاكليريكية لما بلغ السادسة عشرة من عمره ولما سيم كاهنا دناه نسيبه اليه وعينه في مركز يعود عليه بشيء من المال وبعد أشهر توفي الاب بونا بورت وخلفه الاب فش في مركزه مع صغر سنه . وكان متحليا بالصفات الكريمة ومحافظا على اقامة القروض الدينية ونوافلها في مواعيدها ولم يدع سمبلا للالسن لا انتقاده ولكنه لم يكن شديد الذكاء .

ولما اشتعلت نيران الثورة وقررت الجمعية الدستورية ان تطلب من جميع رجال الاكايروس ان يقسموا يمين الامانة للدستور لى الاب فش التطلب وهو يقصد تجنب الاختلاف مع السلطة وشهرت الحرب الاهلية في كورسيكا ونهض باولي لمناواة فرنسا والقي الرعب في قلوب السكان فهربت لايسيا بونا بورت واولادها واخوها الاب فش في سنة ١٧٩٣ وذهبوا الى مرسيليا ولم يكن معهم شيء من المال .

فنزح الاب فش ثوبه الاكليريكي وطلب منصباً مدنيا في جيش الالب وكان ثلاثة من اولاد اخته قد دخلوا في خدمة الحكومة فعين يوسف سكرتيرا لموظف كبير وجعل نابوليون كابيتان في المدفعية واسندت الى لوسيان وظيفة ناظر لمخازن الجيش في سان مكسيان في الغار . ونال الاب فش المنصب الذي طلبه بما كان لاسرته من العلاقات باصحاب المكانة العالية وقضى أيامه من ذلك العهد في الجيش نابذا ما كان مركزه الديني يقضي به عليه ولحق بجيش الجنوب متنقلا معه الى جميع الاماكن التي كان ينتهجها .

وجاء الوطني فش الى باريس في أواخر عهد حكومة الديركتوار وكان باقيا في منصبه المدني في الجيش وكان يقضي حياة شديدة الاضطراب فكان على اتصال

ودي دائم بمشاهير رجال الثورة ولم يكتف بمرتبته الذي كان ينفق القمم الاكبر منه على أسرته وقد كانت تشعر بالضيق بل زاول نوما من التجارة فكان ينتاب محال المصورين ويشتري الصور منهم ثم يبيعها

وكان نابوليون في اثناء ذلك يتدرج في المناصب حتى اصبح قنصلا اول حينئذ نصح الوطني فش لابن اخته ان يتقرب من رومية ويقاوضها في عقد وثيقة معها (كونكوردا) لاعادة الديانة الكاثوليكية الى ما كانت عليه في فرنسا ولما ابرمت الوثيقة تذكر الوطني فش انه كان قسا فطلب من رومية ان تحله من التأديبات التي استوجبتها لما حلف الايمان المذكورة آنفا فبادر البابا الى اجابة طلبه وعاد الاب فش الى السلك الاكثريكي والى مزاولة فروض المذهب الكاثوليكي ونوافله وأراد البابا بيوس السابع في سنة ١٨٠٢ ان يرضي بونا برت القنصل الاول فوافق على تعيين الاب فش رئيسا لاساقفة ليون ورفاه في السنة التالية الى درجة الكردينالية وارسلته الحكومة الفرنسية سفيرا لها في رومية فسافر الى مركزه الجديد واختار شانو بريان سكرتيرا له وكان للكردينال فش في ذلك الحين تسع وثلاثون سنة من العمر .

ولما انشئت الامبراطورية طلب الامبراطور الجديد من البابا ان يأتي الى باريس ليرأس حفلة تكريسه وبعد ما تردد بيوس السابع في الامر رضي أخيرا بالانطلاق الى باريس وتقديمه الكردينال فش ليعمد كل شيء على الطريق ليلقي الخبر الاعظم احتفاء عظيما في جميع الاماكن التي يمر بها وانتظر البابا في ابرشيته بليون واقامت للحجج الاعظم احتفالات دينية ومدنية فيها في ١٩ نوفمبر و ٢٠ و ٢١ منه من سنة ١٨٠٤ وقامت في باريس قبل حفلة التتويج يوم واحد عقبة لم يكن بد من تمهيدها وهو ان زواج نابوليون وجوزفين كان مدنيا فقط ولم يشأ البابا ان يكرس الامبراطور الجديد الا اذا اثبت هو وزوجته ان قسا كاثوليكيما بارك قرانهما فحل الكردينال فش هذه العقدة ونصب مذبحا في ردهة مجاورة لغرفة جوزفين وبارك والابواب موصدة زواج نابوليون بأيام بوهرنه في الساعة الرابعة بعد الظهر . وذهب الكردينال بعد ساعتين لمواجهة البابا فسأله بيوس السابع : هل تمت حفلة الزواج الدينية يا ابي العزيز . فاجابه الكردينال نعم تمت أيها الاب الاقدس .

عقال البابا بناء عليه ارى ان كل شيء حسن وسأرأس الحفلة غدا في كنيسة فوتردام .

وعين السكردينال فش المستشار الديني الاكبر في الامبراطورية وعين له مرتب كبير وعهد اليه علاوة على ذلك في تولي الرئاسة الدينية في جميع القصور الامبراطورية التي لم تكن خاضعة لسلطة الاساقفة في الابريشيات المشيدة فيها وفوض اليه نابوليون أيضا توزيع الصدقات ومنحه سلطة تكاد تكون مطلقة لتميين الذين يراهم ملائمين لكراسي الاسقفيات الفارغة .

وللسكردينال فش الفضل في اتيان عمل كان كبير الفائدة لفرنسا وهو انشاء الرسالات الاجنبية

وكان السكردينال فش في عهد الامبراطورية كله وفي أخرج الاوقات حين سجن نابوليون بيوس السابع والحق به غضاضة وسيطا بين ابن اخته والخبز لاعظم وكان مرنا في سياسته فانه مع خدمته لمقاصد نابوليون ومطامعه ومع تجنب قطع علاقات الامبراطور بالخير الروماني ظل حاصلا على ثقة البابا به وكان يستوجب الثقة باعماله هذه ولم تكن هذه الاعمال تعارض سياسة الامبراطور مع أن هذه السياسة كانت في غالب الاحيان عنيفة وموسومة بسمة الظلم . وكان من أشد الصعوبات التي لقيها نابوليون مسألة فسخ زواج أخيه جيروم بالآنسة باترسن وقد اقترن بها جيروم في بلتيمور وهو في التاسعة عشرة من عمره فلما عاد الى باريس وعرف نابوليون بامر زواجه ابرق وارعد وقام وقعد واجبره على الانفصال عن زوجته وبادر الى ارسال الكتاب الاتي الى البابا بيوس السابع :

« ارغب في ان تصدر قداسكم براءة بالغاء زواج اخي جيروم بالآنسة باترسن من بلتيمور في الولايات المتحدة وانه ليسهل عليّ فسخ هذا الزواج في باريس ولكنني افضل ان يتم ذلك في رومية ليكون ذلك عبرة رادعة للاسر الكاثوليكية المماسكة عن تزوج ابناها ببنات الاسر البروتستانتية فارجو من قداسكم أن تفعلوا هذا الامر بلا ضجة وحين ينتهي الي أن قداسكم تريدون ان تفعلوه ابادر الى فسخ الزواج من الوجهة المدنية . »

وبعد مادقق بيوس السابع في هذه القضية ونظر فيها من جميع وجوها أجاب انه لايسعه الغاء هذا الزواج فحينئذ جمع نابوليون كبار اللاهوتيين

الفرنسيين وواعز اليهم بأن يعقدوا مجمعا مستندين في ذلك الى قرارات المجمع التريدينني وخوها احتفاظ الملوك بحقوقهم في الغاء زواج افراد أسرهم فعدوا المجمع وقرروا الغاء زواج جيروم بونابرت بالانسة باترسن لان الامبراطور نابوليون زعيم الاسرة البونابرتية يقيم التكبر على هذا الزواج فبادر العاهل الى وضع قرار المجمع موضع الاجراء أما الكردينال فحس فلم يشأ التدخل تدخلا علنيا في هذه القضية مخافة أن يستهدف لنبال التبعة ويجنبا لاغضاب البابا من جهة ونابوليون من جهة أخرى ولكنه كان وهو وراء الستار يبدي رأيه في المسألة ويوفق بين النظريات المتضاربة ويجعل اعضاء المجمع يسلسون مقادهم للامبراطور ويقضون لمئاته .

وبذل الكردينال فش مجهوده لتسهيل رجوع الرهبان الى فرنسا وكان رجال الثورة قد مزقوا ثملهم واكرههم على الجلاء عن البلاد فاستقبلهم في ابرشيته بليون وساعدهم على لم شعهم وقد كان هذا الامر في غاية الصعوبة بعد ما كانوا قد تشتتوا تحت كل كوكب من سنة ١٧٩٢ ونال الكردينال من الامبراطور مرسوما يحيز لجميع الرهبان الرجوع الى فرنسا بملابسهم المعروفة وكانت هذه الملابس قد زالت من فرنسا من عهد بعيد وأعيد اليهم كثير من حقوقهم وامتيازاتهم المسلوقة منهم فاقبل الرهبان بهمة ماضية على انشاء المدارس المجانية في جميع انحاء البلاد لتعليم الفقراء وقد كانت المدارس « العلمانية » في تلك الايام قليلة وغير وافية بالحاجة ولم يكونوا يحسنون ادارتها . وكان الخلاف يشتد بين رومية وفرنسا وتزداد المسائل الطارئة بينهما تعقدأفانجاز الكردينال فش الى ابن اخته واضطر بحكم الضرورة الى الاختلاف مع البابا وطلب اقالته من منصبه كسفير واستأذن من بيوس السابع بالانصراف في مقابلة تجاوز فيها حدود مايجب عليه من الاحترام لرئيسه الاكبر وعرج على ابرشيته في ليون وهو عائد الى باريس ونظم في اثناء اقامته فيها شئون رهبان « الشارتروز »

ولما وصل الى باريس اغلظ له الامبراطور الكلام وعنفه على ما ابداه من الضعف في الدفاع عن سياسته وتأبيدها في القاتيكان ولكن لم تطل مدة استياء الامبراطور من خاله فانه لما وزع نابوليون التيجان والمناصب السامية والعوارف السنية على اشقائه وشقيقاته وانسابائه ونسبياته في سنة ١٨٠٦ لم ينس الكردينال فش فانه عينه مساعدا لرئيس اساقفة راتسن كبير اساقفة المانيا بحيث يخلفه في

منصبه بعد موته وكان في هذه الابرشية مليون نفس ومن حقوق رئيس اساقفتها رؤس الجمعية الدينية الجرمانية في فرانكفورت على الماين ومنح الكردينال ايضا لقب صاحب السمو ولكنه كان يؤثر على كل ذلك الربيع السنوي البالغ ثلاث مئة الف فرنك وكان يقبضها من دخل المكس في بلاد الرين ووافق البابا على جميع هذه الامور ببراءة خاصة خلافا للاصول التي كانوا يجرون عليها قبل ذلك العهد ومن غرائب الامور ان ذلك الموظف البسيط في مصلحة تموين الجيش اصبح في اقل من عشر سنوات كردينالا ورئيسا لاساقفة ليون وكبير اساقفة غاليا والمرشد الديني الاكبر لامبراطورية وعضوا في مجلس الشيوخ ومن الحائزين لنشان جوقة الشرف من درجة « غران اوفيسييه » ونشان « الحزبة الذهبية » ومعاوناً لصاحب السمو الامير كبير اساقفة المانيا وقد كان في جميع هذه الالتفات ما يجعله يروح تحت اعبائها ولكنه اضطلع بها كل الاضطلاع وكان له في باريس قصر فخيم في شارع « مون بلان » يستقبل فيه ويأدب فيه المآدب التي لم تكن تقل في التأنق عن مآدب الامراء والملوك . ولما حضرت الوفاة الكردينال دي بلوى رئيس اساقفة باريس في ١٠ يونيو سنة ١٨٠٨ اراد نابوليون ان يعين الكردينال فش خلفا له بحيث يجعله في وقت واحد رئيسا لاساقفة باريس ومساعداً لرئيس اساقفة راتسبن ورئيسا لاساقفة ليون فامثل الديوان الاسقفي في باريس لاوامر الامبراطور ولم يرفض الكردينال فش ترشيحه لرئاسة اساقفة باريس ولكن البابا شدد التنكير على ذلك فآثر الكردينال فش البقاء في كرسي ليون وعين لسكرمي باريس الكردينال موري مع نفور بيوس السابع من تعيينه .

واستمر العراك بين البابا والامبراطور وقد انتهت الامر باعتقال الجبر الاعظم وارساله الى دير الشارتر ووزي فلورنسة في بدء الامر ومنه ارسل الى سافون ففنتنبلو . وكان البابا بيوس السابع يعتبر نفسه محروما السلطة الادبية اللازمة في معتقله ولذلك ابى تثبيت الاساقفة الذين عندهم نابوليون اخيرا تثبيتا قانونيا وكان في جملتهم الكردينال موري وقد رضي الكردينال فش بان يتولى رئاسة الجمع الذي عقد وقرر ارسال رسالة الى البابا يطلب بهامنه التسليم بما يقترحه نابوليون



قبر نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة

فاجاب بيوس السابع انه لا يقرر شيئاً في هذا اذا لم ترجع اليه حريته ويرجع بكرامة الى رومية .

ونشأت مصاعب دينية جديدة لما اراد نابوليون تطبيق جوزفين في سنة ١٨٠٩ وكان الامبراطور قد عقد له على زوجته عقد ديني قبل حفلة التتويج بيوم واحد ولذلك لم يكن نابوليون يستطيع ان يعقد زواجا جديدا قانونيا في نظر الكنيسة قبل أن يلغي زواجه الاول . وكان موقنا على التقريب ان البابا يرد طلبه فصمم على الاستغناء عنه وطلب من هيئة مجمع ابرشية باريس الديني ان يقرر فسخ زواجه بجوزفين واورد شاهدا يؤيد ذلك فسخ زواج شارلمان بالاميرة ايمليترود وزواج فيليب اوغسطس بالاميرة انجلورج وشهد الكردينال فش بان زواج جوزفين وقد باركه هو تم بغير شهود فاستند المجمع الى هذه الشهادة وقرر ان هذا الزواج عقد خلافا لمقررات المجمع التريدينتي وابطله وكان عمل الكردينال فش موصوما بوصمة الضعف فانه اذعن لقرار استبدادي وسخر ضميره لمشية جائرة ولم يكتف بذلك بل اقدم بلا تأم ولا تحرج على عقد زواج ابن اخته بالارشيدوقة ماري لويز

ولا نقيض في الكلام عن سني الامبراطورية الاخيرة حين كان الامبراطور في عراك دائم مع الباباوية وحين كان الكردينال فش يعالج تجنب الاختلاف مع ابن اخته مع بقائه متعلقاً بالكنيسة ففي ٢٠ مايو سنة ١٨١١ منح سرالعماد لملك رومية الصغير نجل الامبراطور وولي عهد الامبراطورية . ولما ابى الكردينال فش الموافقة في السنة التالية على تعقب بعض الاساقفة واعتقالهم امره الامبراطور بالذهاب الى مركزه في ابرشيته . ولما نقل بيوس السابع من سافون الى فنتنبلو ومر بليون ليلا لم يجرؤ الكردينال فش على الخروج للقاءه بل اقتصر على كتابة رسالة اليه يؤكد له بها اخلاصه

وقد ضبط رجال الشحنة هذه الرسالة وارسلوها الى نابوليون حين كان في روسيا . وانتهى الامر بسقوط نابوليون في سنة ١٨١٤ فماد بيوس السابع الى رومية وشخص اليها أيضاً الكردينال فش بعدما نقلته حكومة لويس الثامن عشر فاستقبله البابا ولم يذكر الا الخدم التي خدمه بها خال الامبراطور ورخص له بالاقامة في رومية مع اخته لانيسيا .

وطلب لويس الثامن عشر من الكردينال أن يستقيل من رئاسة اساقفة ليون فرفض الكردينال رفضا شديدا ما طلبه منه الملك مستندا في رفضه هذا الى الحق القانوني ولم يتمكن البابا لاون الثاني عشر خليفة بيوس السابع من اقناع الكردينال فش بالاستقالة مع شدة الحاحه عليه وسويت المسألة أخيراً بحفاظة الكردينال على لقبه وتسمية السيد دي برني رئيس اساقفة الي السابق وكيلا لادارة شؤون الارشيه .

ولما جلس الملك لويس فيليب الاول على عرش فرنسا في سنة ١٨٣٠ سمي الكردينال فش الى العودة الى كرسيه حتى أنه اعد العدة للسفر ولكن عرضت مصاعب حالت دون ذلك وقد اتت من جانب الكرسي الرسولي . فبقي الكردينال فش في رومية يعيش عيشة الكبراء حتى حضرته الوفاة في ١٣ مايو سنة ١٨٣٩ فقضى بالداء الموروث في اسرة بونايرت اي بسرطان المعدة وقد نقل رفاته بحسب رغبته في وصيته الى اجاكسيو في سنة ١٨٥١ وضم الى رفات اخته لاتيسيا في كنيسة القديس يوسف .

وفي اجاكسيو شارع اطلق عليه اسم الكردينال فش وفي المدينة مدرسة كبيرة بشارع غرانفال بنيت على اسمه ايضا وقد ادى خدما جليلة لمسقط رأسه وهم يدخرون له عرفان الجليل في تلك المدينة

نابوليون الحقيقي

كما وصفه كاتبه دي بوريان

لما كانت شهادة الشاهد العيان تفوق في القيمة شهادة الناقل صممت على نشر فصل أخذته من كتاب وضعه دي بوريان كاتب نابوليون الخاص وهذا الرجل لم يكن يضم حبا شديدا خالصا لمولاه . وقد لازمه مدة طويلة في روحاته وغدواته حتى كان واقفا على خافيه وباده ومطلعا على عجره وبجره .

وكان في كل يوم يدون في مذكراته الحوادث التي يشاهدها موجهها اليها ملاحظاته وانتقاده وما تستوجبه من مدح أو قدح وكان يفعل ذلك منقاداً الى ذوقه التاريخي ولم يخطر له قط أنه سينشر يوما من الايام هذه المفكرات . وكان نابوليون يعد كاتبه في مستواه ويتخذة أمينا على أسرارهِ ويوليهِ

ثقة غير محدودة . وقد كان دي بوريان صديقا للعاهل في أيام الدراسة وكان هذا يوقفه على جميع مقاصده وتدابيره وخططه ويدعوه اليه مرات كثيرة في الليل ويطلب منه أن يأتيه في الساعة السابعة من صباح كل يوم . وكانت ذاكرة دي بوريان عجيبة وكان يحسن التكلم والكتابة بعدة لغات وقد امتاز بسرعة خاطره في معالجة الاساليب الكتابية . وكان أيضا واسم الخبرة في الادارة والقانون العام وشديد السرعة ومحصنا للامرار . ومع كل هذا لم ينجح دي بوريان من مطاعن خصومه الذين حسدوه على منصبه فلجأوا الى جميع ضروب الدهاء لكي يسقطوه في عين مولاة ويفقدوه الخطوة عنده . ومازالوا يستنفدون موارددهم جميعها حتى عرفوا أن دي بوريان يضارب مضاربات مالية رجاء الكسب فاتهموه بأنه يستفيد من وجوده في منصبه العالي ليحشد الثروة وكان القنصل الاول يستاء كل الاستياء من الذين يتوسلون بوسائل غير مشروعة لجمع الاموال ، فنال نابوليون في ذات ليلة دي بوريان كتابا جاء به سرا رجل مجهول وقال له اقرأه ثم قال له : يا صديقي الحميم لا بد لنا من الافتراق فانت تعلم سبب ذلك كما أعلمه أنا ولم يسع دي بوريان لبراءة نفسه مما اتهموه به ففارق رفيقه القديم في مدرسة بريان بعدما تمانقا

وزعم بعضهم ان الامبراطور أوصد بابه فيما بعد في وجه كاتبه القديم فهذا الزعم فاسد لان دي بوريان بقي يكثر من التردد على سان كلو وعلى المالميزون حيث كانت جوزفين تكرم وفادته وكان بعد ذلك أن دي بوريان أقبل على المضاربات المالية فكان النحس حليفه ويقال أن اقباله عليها حال دون عودته الى خدمة الامبراطور وانتخب دي بوريان بعد سقوط الامبراطورية عضوا في مجلس النواب ثم جعل كاتباً للامبراطور فيلاد رئيس الوزارة في عهد الملك لويس الثامن عشر . وساقته الاقدار في سنة ١٨٢٨ الى بروسل عاصمة بلجيكا وجيبه فارغ والديون متراكمة عليه ففكر في الانتحار ليتخلص من شقاء هذه الحال وقد بلغ التاسعة والخمسين من عمره ولكن حظه ساعده في هذه المرة على التخلص من الضيق فأنه تعرف برجل اسمه لدفوكا يعني بنشر الكتب فجاء هذا وطلب منه أن يدفع اليه المفكرات التي كتبها عن نابوليون لكي يطبعها فيعطيه ستين الف فرنك في مقابلا

ذلك فرضي بعد التردد باجابة طلب لدفوكا . وبرزت هذه المفكرات من خدرها في سنة ١٨٢٩ فكان اقبال الناس عليها عظيما . وقيل أن ناشرها كسب بنشرها مبلغا لا يقل عن مليون فرنك في ذلك العهد .

ملاحح نابوليون

قال دي بوريان

« أني لكي أجعل جميع الناس يقفون على حقيقة حال نابوليون بونابرت عقدت العزم على كتابة فصل خاص أضمنه كل ماشهدته من حياته المادية والأدبية وما عرفته من ذوقه وطاداته وطباعه وأهوائه . أجل ان المصورين والنقاشين رسموا صورته على النسيج أو صنعوا له تماثيل من الرخام ومع أن بعضهم أصاب في تمثيله فلا بد من القول أنه ليس ثمة من صورة شديدة الشبه به أنهم استطاعوا تصوير حجمته بشكل نافي وصوروا جبينه مصعرا ووجهه مصفرا كثير التفكير إلا أن نظره الكثير التحرك لم يقدرُوا أن يصوره تصويرا صحيحا فان هذا النظر كانت تحركه ارادة أسرع من البرق ففي الدقيقة عينها كان نظره الحاد الثاقب يتحول من اللين الى الشدة ومن الارهاب الى المجاملة فتبدو له هيئات مختلفة تعبر عن الافكار الهائجة في نفسه . وكانت له يدان ناعمتان يفتخر بهما ويخصهما بعناية فائقة وينظر اليهما بارتياح واعجاب وهو يتكلم . وكان يزعم أن له أسنانا جميلة ولسكنه ما أصاب في زعمه هذا كما أصاب في زعمه عن يديه .

عاداته في التنزه والاستحمام

واذا تنزه وحده أو مع غيره في البيت أو في الحديقة مشى وظهره محني قليلا ويداه وراء ظهره وأكثرت من اجراء حركة غير اختيارية في كتفه اليمنى برفعه اياها واجراء حركة أخرى في الوقت عينه في فمه من اليسار الى اليمين والذي لا يعلم أن هاتين الحركتين من قبيل العادة يتوهم انهما من قبيل الحركات التشنجية وقد كانت

هاتان الحركتان في واقع الحال تنبئان عن إجهاد عقلي شديد واضطراب فكري عظيم يحوم حول خواطر كبيرة .

وكان بعد رجوعه من التنزه يكتب أو يملي علي ما يحول في خاطره وكان صلب العود فلا يشعر بالتعب وهو على صهوة جواده في ميادين القتال وكان كثيرا ما يسير ماشيا خمس ساعات أو ست ساعات من دون ان يشعر بتعب .

وكان من عاداته وهو يتنزه مع أحد يأنس به ان يتأبط ذراعه مستندا اليها وكان يقول لي كثيرا حينما كان قنصلا اول : « ترى يا بوريان كم أنا قليل الاكل والشرب ونحييف الجسم وكأني بالنفس تناجيني بانه حين يمضي من عمري اربعون سنة اصير فاحش الاكل مترهل الجسم واني مع ذلك اكبر من الرياضة البدنية ولكنه حذر لا بد من وقوعه . »

وكانت هذه الفكرة تعذبه وحيث لم يكن عندي من الدلائل ما يجعلني أوافقها عليها كنت أقول له أنه مخطيء في حدسه .

وكان شديد الولوع بالاستحمام وبعده من الضرورات وقد تعود أن يقيم في حمامه ساعتين متتاليتين في كل يوم وكنت في أثناء ذلك أقرأ له خلاصة الجرائد أو بعض مقالات جديدة متضمنة هجوا قبيحا موجها اليه فانه كان يريد أن يسمع كل شيء ويعرف كل شيء وينظر الى كل شيء بنفسه . وكان في أثناء مقامه في الحمام يفتح دائما حنفية الماء الساخن وترتفع الحرارة الى درجة تجعل القراءة صعبة عاي من جراء البخار الكثيف المتصاعد والحائل بيني وبين الصحف التي اتدبرها فاضطر حينئذ الى فتح الباب .

استقامة طبعه

وكان بونا برت معتدلا في كل شيء متجنبا الافراط والتفريط ولم يفته ما يذيعونه عنه من الاخبار السيئة وكان في بعض الاحيان يميل صبره لمعرفتها .

أو لم يستفرض بين الناس أنه كانت تنقابه نوب صرع تشبه نوب « النقطة » فقي السنين الاحدي عشرة التي قضيتها معه بلا افتراق عنه لم يبد لي أدنى أعراض تدل على هذا المرض فقد كان سليم الجسم متين البنية .

وهب توهم أعداؤه أنهم يحرقون من شأنه باذاعتهم عنه أنه مصاب بهذا

المرض فان أنصاره ومريديه الذين يظنون أن النوم لا يتفق مع العظمة لم يكونوا صادقين في زعمهم بأنه يحبي ليااليه ساهرا فان بوناوت كان يكلف غيره السهر حين بغوص هو في لجة السكرى وكان يريد أن أوقفه في الساعة السابعة صباحا من كل يوم فكنت أسبق غيبي الى دخول غرفته وحينما أوقفه يقول لي في غالب الاحيان وهو متعاس : يا بوريان أرجو منك أن تتركني أنام أيضاً قليلا .

واذا لم يكن شيء مهم كنت أعود اليه في الساعة الثامنة وبالاجمال كان ينام سبع ساعات في كل يوم ويقيل بضع دقائق بعد الظهر . وقد أوعز اليّ بالألا أكثر من الدخول عليه ليلا وألا أوقفه حين يكون عندي خبر سار أبلغه اياه فلا شيء يدعو الى الاسراع في ذلك ولكنه كان يود أن أوقفه في الحال اذا كانت ثمة خبر رديء .

نابوليون في الصباح

وعند استيقاظه يبادر خادمه الخاص الى حلق لحيته وتسوية شعره وبينما الخادم يجري له ذلك أقرأ له الجرائد مبتدئا بمجريدة « المونيطور » ولكنه لم يكن يهم الا بالجرائد الانكليزية والالمانية فيقول لي وأنا أقرأ الجرائد الفرنسية « انتقل الى غيرها فانا أعرف ما فيها فهي لا تكتب الا ما أريده ... » وكثيرا ما كنت أتعجب من نجاحه من الجرح حينما يلتفت بغتة وخادمه يحلق له ذقنه .

وحينما يفرغ من لبس ثيابه — وكان شديد التأني في الملبس مبالغا في النظافة — ينزل الى مكتبه فيوقع العرائض الخطيرة التي أكون قد طالعتها في مساء اليوم السابق وكان في أيام الاستقبالات والاحتفالات يوقعها حينما كنت أذكره بأن أصحابها ينتظرونها أمام مكتبه وفي المواضع التي يمر بها . وكنت أكفيه مؤونة العناية بقولي لأصحابها قبل خروجه ما منحهم اياه وما حبسه عنهم .

ثم يقرأ الكتب المفتوحة على منضدته بعد أن أكون قد رتبتهما بحسب أهميتها فيكمل الي المجاوبة عليها وكان في بعض الاحيان يجاوب عليها بيده ولكن هذا كان نادرا لان المجاوبة على الكتب المرسلة اليه كان مجلبة لضجره . وبأني

خادم المائدة في الساعة العاشرة ويخبره ان طعام الصباح مهياً فنزل . وكان الصبوح دائماً بسيطاً .

وقد يطلب في الصباح لحم دجاج معالجاً بالزيت والبصل ويشرب قليلاً من الخمر وكان يؤثر خمر بوردو ولاسيا خمر برغونيا ويتناول فنجاناً من القهوة القوية بعد الغداء والعشاء .

ولم يكن يتناول شيئاً بين الوجبات ولا ادري لماذا نسب اليه بعضهم شدة الولوع بالقهوة ومن المرجح ان الذين نسبوا اليه هذا الامر يتوهمون انه يارق في الليل وان الاكثار من تناول القهوة يسبب له هذا الارق

وكان اذا اضطر الى اطالة السهر من جراء بعض الشواغل لا يجمع القهوة بل يتناول الشكولاتا ويجعلني أنجرج معه فنجاناً منها ولا يفعل ذلك الا حينما يتماذى بنا السهر الى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل . وقالوا أيضاً أنه كان مفرطاً في التدخين فقولهم مردود لانه كان يتناول التبغ نشوقاً بمقادير قليلة موضوعة في علبة وعنده عدد كبير من العلب .

علو همته وحبه لفرنسا

وكان بونابرت شديد الميل الى أمرين : المجد والحرب ولم يرمش شرق الجبين الا في الحرب أو مقطب الجبين الا في وقت الراحة وكان يروقه اقامة الانصاب ويملا فؤاده نموذج اقامة الابنية الفخمة ولم يفقه ان الانصاب جزء من تاريخ الشعوب وان بقاءها مدة طويلة دليل على مدنية هذه الشعوب بعد انقراضها بمهد طويل وتدل الاجيال المتأخرة على حدوث هذه الفنون المعدودة في بعض الاحيان من الاساطير .

وقد خدع من الطريق الواجب عليه سلوكها للوصول الى الغاية التي يؤمها فعلاماته واعلامه موضوعة على الانصاب المرفوعة في عهده ولكن لماذا ينسبون قصر الاوفر القديم الى عهد ملكه بوضعهم عليه احرفاً كاذبة فان حرف N المحفور في كل مكان لم يكن ليقوى على محو حوادث التاريخ فوضعه بدلاً من الاحرف المحذوفة لا يغير ترتيب الازمنة ولكن لا بأس من ذلك فان نابوليون كان موقناً أن الفنون الجميلة تزين الاعمال العظيمة بشهرة واسعة وتخلد ذكر الملوك الذين احاطوها بعنايتهم وشجعوها

وقال لي بونايرت مرة : « ان الشهرة العظيمة ضجة كبيرة وكلما عمل الناس في سبيلها كثر امتدادها الى مدى بعيد فالشرائع والانظمة والانصاب والامم تسقط ولكن الضجة تبقى ويكون لها دوي في الاجيال الآتية » هكذا كان يفكر في مثل هذه الامور .

وكان يقول لي : « ان قوتي تتعلق بمجدي ومجدي يتعلق بالانتصارات التي اصبحتها وهي تسقط ان لم اجعل قاعدتها المجد والانتصارات الجديدة وقد جعلني الفتح على ما انا عليه والفتح دون سواء يحفظني كما انا »

هذا هو الفكر المتسلط عليه وقد جعله دائم التفكير في حروب جديدة وكان يزعم انه اذا بقي جامدا في مكانه لا يأمن السقوط وهذا ما كان يجعله ميالا الى التقدم الى الامام وعنده ان العمل بلا عظمة ولا قوة لا يعد حملا وهذه الحاجة الشديدة متعلقة بالانظمة التي وضعها وكان يقول : « الحكومة المولودة في السناء محتاجة الى أن تبهر الانظار وتدهش الناس وحالما تفقد اللعنان تسقط . »

ولم يكن في الحقيقة مستظاعا ان تطلب الراحة من شخص كان الحركة بعينها وكانت عواطفه نحو فرنسا تختلف عنها لما كان حدثا فقد بقي مدة طويلة ضيق الصدر عند تذكره فتح كورسيكا التي كان يعتبرها موطنه له دون سواها ولكن ما لبثت هذه الذكرى ان اعمت وصار يحب فرنسا محبة عظيمة وكان جنانه ملتهبا بتشوقه لرؤيتها عظيمة وأولامة في العالم تخضع جميع الامم لشرائعها وكان يرى اسمه مرتبطا باسم فرنسا باربطة لا تنفصم عراها ويجمع الناس يرددونه في الازمنة المتأخرة . وفي جميع اعماله كان الحاضر يمحى أمام المستقبل كما أنه كان في جميع الامكنة التي تقذفه اليها الحرب ينظر مائلالدى فكره الرأي العام الفرنسي .

وكما كان الاسكندر الكبير في اربل يعلق اهمية على استمالة الرأي العام اليه في أثينا أكثر مما يعلقه على قهره دارا لم يكن بونايرت في مارنغويني عن التفكير في ماعساهم أن يقولوا في فرنسا . وكان قبل اضرام المعركة بهم بما يجب عليه أن يفعل في حالة الانكسار أكثر مما يهم بما يفعله في حالة الانتصار



اوجين بوهرنه ولد في سنة ١٧٨١ وتوفي في سنة ١٨٢٤

وكانت مطامعه الشديدة تدفعه نحو السلطة الا أن السلطة التي أصابها زادته طمعا على طمع ولم يفقه احد في الاعتقاد بهذه الحقيقة وهي أن أعظم الحوادث تكون في غالب الاحيان نتيجة لامور تافهة وهذا هو السبب الذي من اجله كان يتوقع تلك الحوادث ولا يستنزلها فيشاهدها تنهياً وتنضح فيثب اليهامفاجئاً ويسيرها على هواه

رأيه في الناس

ولم يكن بونابرت ميالا بطبيعته الى احترام الناس بل كان يحقرهم كلما طال تعرفه بهم ورأيه هذا في الناس ناشىء عن الاختبار ومؤيد عنده ببعض الامثلة الظاهرة وبعد عنفه نتيجة لهذا المبدأ الذي كان يكرره دائماً هو : « غلخان يحركان العالم : الحرف والمصلحة »

وأى احترام يشعر به بونابرت لطالبي الرفد من صندوق الاوبرا فهذا الصندوق الملقى فيه مبلغ كبير من عائدات اللعب ينفق قسم منه لتسديد ما يريد من النفقات على الملعب والقسم الباقي ينفق في طرق سرية فكان بعضهم يقبض مبالغ كبيرة بورقة يوقعها دوروك وكثيرا ما كانوا يبصرون اشخاصا لابسين أزياء مختلفة يدخلون من الباب الصغير من جهة شارع رامو وان صديقة مصر التي كان البريطانيون قد اطلقوا سبيل زوجها المسكين اكرت من التردد على ذلك الصندوق وكم من مرة اجتمع امامه في وقت واحد العالم والممثل والخطيب المصقع والموسيقي المشوه . وفي يوم واحد جاء ذلك الصندوق كاهن ثم محظية فسكردينال (فش) .

وكان من اكبر مصائب بونابرت انه لم يكن يصدق بوجود الصداقة وانه لم يكن يشعر بالحاجة الى الحب وكم من مرة قال لي : « ليس الحب سوى كلمة ... انا لا أحب احدا ... انا لا أحب اخوتي وقد اشعر بشيء من الحب ليوסף وذلك من قبيل العادة لكونه اخي البكر ... احب ايضا دوروك . ولم اذا احبه . لان طباعه تعجبني ... فهو بارد وجاف الخلق وصلب المسكر ... ولا يذرف الدموع ابداً ... ولا يهمني هذا الامر البتة فانا ادري انه ليس لي اصدقاء حقيقيون ... انظر يا بوريان لنندع النساء يمينين فهذا امر يعنين ... اما انا فلا

شيء يجعل قوادى يرق ... فينبغي للانسان ان يكون ثبت الجنان والا فليجنب الحرب والنترس بالحكم»

وكان بونايرت في علاقاته مع الهيئة الاجتماعية بحسب التحرش بالناس لتفتيق بنائى صبرهم على صورة ينفرون منها وحينما كان يفور فائره كان يظهر ذلك بما يفوه به من الكلام فان اهاناته الشديدة ولو اذع كلماته وتحدث غيظه كانت مدبرة بتصميم سابق .

واذا اراد اظهار استيائه من احد كان حضور الشهود يشجعه على ذلك فيوجه اليه كلاما قاسياً حاداً محقراً على انه لم يكن يكتر من سورات الغضب هذه فلا تحدث الا حينما يتحقق جرم الموجه اليهم كلامه .

واذا اراد توبيخ احد على حدة كان يبتغي ان يحضر ذلك المشهد شخص ثالث وقد لاحظت كثيراً انه يجد في ذلك ما يزيد في جرأته على انه كان حينما يخلو بالانسان وحده وهو يعرف طباعه يتأكد انه يتغاب عليه برابطة جأشه وصدقه وقد قال لاحد أصدقائه وهو في جزيرة القديسة هيلانة انه لم يكن يدعو شخصاً ثالثاً الى الحضور الا ليجعل لتلك الضربة صدى بعيداً وعندى ان ذلك لم يكن غرضه لانه لو كان صادقاً في قوله هذا لسهل عليه توجيه توبيخه جهاراً وانما كانت له اغراض اخرى .

وقد لاحظت في اثناء المدة التي قضيتها معه انه لم يكن يحب الاختلاء باحد فكان حينما ينتظر أحداً يقول لي : ابق هنا يا بوريان . وحينما يخبرونه بتقديم شخص ينتظره كوزير او جنرال مثلاً هم بالخروج فيقول لي بصوت منخفض ابق هنا والحق يقال ان بقائي في ناديه لم يقصد به انتشار ما أسمعه من الحديث بين الملأ فليس من طبعي ولا من الواجب عليّ ان اذيع مثل هذه الاخبار . وكان بونايرت ينظر بمقلة الاحتقار الى رجال الثورة المشهورين بسفك الدماء والمطخة أيديهم بدم الملك فيسألم من اضطاراه الى اظهار خلاف ما يبطن في حديثه معهم وكان كلامه عند تحديثه إياي عنهم مقترناً بالقزز .

وقال مرات كثيرة لكيباساريس وهو يعرفك أذنه بلطف : يا عزيزي كيباساريس لا استطيع شيئاً فساً لتلك واضحة كالشمس في رائحة النهار فلو قدر وعاد البوربون لكان الشئ من نصيبك . فكان كيباساريس يتبسم عند سماعه هذا الكلام

تبسما مكرها عليه وقال له ذات مرة : دع عنك مثل هذا الهزل القبيح في حضرتي

بعض عاداته

وكان لبونا بارت عادات غريبة وذوق فريد في بابة فكان يغني كلما لقي مقاومة أو شغل خاطره ففكر مزعج ولسكن صوته كان قبيحا . فكان يجلس إلى مكتبه ويستلقي إلى الوداع حتى يكاد يقع . وقد نهته إلى ذلك مرارا . وحينما يكون في هذا الموقف يفرغ غضبه على ساعد كرسيه ويمزقه بسكين لم يكن يستخدمه لغير هذا الامر . وكنت دائما أهيم له أقلاما صلبة لانه كان مقضيا علي بسبب مهمتي لديه أن أقرأ كتابته فيهمني والحالة هذه أكثر من غيري أن يكتب كتابا تسهل قراءتها . وكانت أصوات الاجراس تؤثر فيه تأثيراً غريباً لأدري سببه فيصغي إليها بلذة وارتياح . وحينما كنا نتنزه في المالميزون في الطريق المؤدي إلى سهل روابل كانت أصوات الاجراس في هذه البلدة تقطع حديثنا فيقف لثلا يجعله وقع اقدامنا يفقد شيئا من هذه الاصوات التي يفهم سماعها فؤاده بهجة . وكثيرا ما كان يستاء مني لانني لم أكن أشعر بمثل ما يشعر به من هذه الجهة . وكانت حواسه تتأثر كل التأثر فيقول لي بصوت متهدج : « ان هذا يذكرك في السنين الاولى التي قضيتها في بريان حينما كنت سعيدا . . . » وحينما تصمت الاجراس يعود إلى تأملاته الكبيرة ولم أشاهد بونا بارت في غير مواقع القتال مسرورا بقدر ما كنت أشاهده مسرورا في حدائق المالميزون .

وكنا نذهب في أوائل عهد القنصلية إلى المالميزون في كل يوم سبت عند المساء فنقضي فيه يوم الاحد ويوم الاثنين في بعض الاحيان . وكان بونا بارت يهمل العمل قليلا في المالميزون لكي يتمكن من التنزه ومراقبة أعمال الإصلاح والتزيين التي يعملها فيه وكان في بدء الامر يزور الاماكن المجاورة إلا أن تقارير رجال الشحنة جعلته يعدل عن هذه الزيارات فان انصار الملكية كانوا يترقبونه ليختطفوه .

وكان في الايام الخمسة الاولى التي قضاه في المالميزون يتسلى في بعض الاحيان بتحرير حساب ربيع أراضيه ولم ينس شيئا من أمر العناية بالحديقة والبقول فبلغ

ربعها ثمانية آلاف فرنك وكان يقول ان هذا لا يستهان به ولكن يجب على الانسان الذي يسكن هذا المكان ألا يقل دخله عن ثلاثين الف جنيه . وكان يبهج فؤاده في خلال مقامه في هذا المكان أن يبصر امرأة مشوقة القوام مرتدية ثوباً أبيض تنزه في ظل الاشجار الملتفة الاغصان السكينة الاوراق ولم يكن يطيق أن يبصر النساء يلبسن ثياباً ملونة وخصوصاً الثياب القائمة اللون . وكانت عينه تقضى برؤية النساء البادئات وتنفر من رؤية النساء الحوامل فيندر أن يدعو أمثالهن الى الحفلات والولائم .

وكان حاصله على كل ما يحتاج اليه الانسان ليدعى في الهيئة الاجتماعية رجلاً لطيف المعاشرة ولكن كانت تنقصه الارادة ليكون كذلك . ولم يكن يتظاهر بالعظمة الا طمعا باستمالة الناس اليه وكان الذين لا يعرفونه يشعرون في حضرته بعاطفة تهيب تفوق ارادتهم .

وكان الانسان يشعر عند جوزفين الفاضلة في أثناء غياب المولى بهجة وغبطة يزيد بها لطف هذه السيدة الممتازة بمكارم أخلاقها ولين جانبها وكان كل شيء يتغير عند وصوله فتتحول الانظار اليه ليتمكنوا من قراءة ما يبدو على صفحته جبينه مما يجول في جنانه ويروا هل هو راغب في الصمت أو ميال الى الكلام وهل هو مسرور أو مكتئب . وكان في غالب الاحيان يكثر من الكلام رايًا الحوادث بشكل يخلب الالباب وقلمًا دارت أحاديثه على أمور بهجة أو تافهة بل على المباحثة والمجادلة وكان عند احتدام الجدال يستدرج الى كشف ما يريد تخبئته في صدره وكان يسر أحياناً بأن يسرد لجلسائه حوادث تدل على اعتقاده بما يقع في المستقبل أو حوادث عن عودة الارواح ويروي ذلك دائماً وقت ما يجن الليل وبهيم الحاضرين لسماع ذلك بإيراده وبعض عبارات رصينة . وكانت جميع أحاديثه مفعمة لطفًا خلافاً وأموراً ونكات مستملحة ويكثر في أسفاره من مثل هذه الاحاديث ومن علامات البهجة عنده ان يصغر باهمامه وسبابته أو يهرك طرف اذن جليسه بلطف وكان يقول في الاحاديث المرفوعة فيها « الكفة » بينه وبين من تعودوا مجالسته : « أنت بليد . أنت مغفل . انت غر . أنت أحمق . أنت أبله » وما شاكل ذلك ولكنه لم يكن يستعمل قط هذه الالفاظ بصورة جدية وكانت لهجته في استعمالها تدل على الغاية المقصودة من رائها .

نابوليون والطب والشعر

ولم يكن نابوليون يعتقد بفعل الطب ولا بتأثير الادوية التي يصفها الاطباء فيمتكلم عنه كما يتكلم عن فن يكترون فيه من الافتراضات والمزاعم ولا يززع شيء اعتقاده من هذه الجهة فقد كان ذا عقل قوي لا يعتقد الا الحقائق المقررة . وهو ذو ذاكرة ضعيفة من جهة الاعلام والالفاظ والتواريخ ولكنه ذو ذاكرة عجيبة من جهة الحوادث والامكنة واذكر أنه ونحن ذاهبون من باريس الى طولون نبه فكري الى عشرة أمكنة تصلح لان تضرم فيها نار القتال ولم ينس ذلك قط .

ولم تكن محاسن الشعر تستهويه ولم تكن أذنه ماعدا ذلك متعوده التمييز بين أوزان الشعر صالحها وفاسدها ولم ينشد شعرا من دون ان يختل الوزن الآن الافكار السامية كانت تبهره وقد اكبر كورنايل كثيرا وقال لي ذات يوم بعد حضوره تمثيل رواية « سنا » : « لو كان رجل ككورنايل يعيش في أيامي هذه لاتخذته وزيري الاول فانا لأعجب بأشعاره فقط بل أعجب بذوقه السليم ومعرفته الواسعة لقلب الانسان وعمق سياسته »

وقال وهو في جزيرة القديسة هيلانة : « لو كان كورنايل في عصري لرقيته الى مرتبة الامراء » ولكنه لم يكن في الحين الذي حدثني عنه يفكر في عمل ملوك وامراء

نابوليون والنساء

أما التأدب مع النساء فلم يكن من طبع بوناپرت وقد ندر أن خاطبهن بكلام سار وكثيرا ما أساء اليهن من حيث لا يريد كقوله لهن مثلا : « ماأشد احمرار ذراعك . ماأقبح تصفيف شعرك . مابالك تلبسين هذا الثوب الوسخ ، أولا تغيرين ثيابك . لقد أبصرتك أكثر من عشرين مرة لابسة هذا الثوب . . . » وكان قليل الشفقة يحب أن يجعل الناس ينفقون أموالهم من دون أن يبالي بذلك وكان يهتم بملابس زوجته وهي من جهتها كانت ذات ذوق ممتاز وهذا

ما جعله ينتقد غيرها من النساء ومن صفاته حب التأني وصار يحب البهرجة والزينة فيما بعد الا أنه لم يحب قط أن تخرج النساء عن دائرة الحشمة وتذمر غير مرة في مفتتح عصر القنصلية من زي الاثواب العارية فيها الاذرع والاعناق والصدور

كرهه للمقامرة

ولم يكن يحب المقامرة وهذا من حسن حظ الاشخاص المدمومين الى نأديه وحينما كان يضطر الى الجلوس على مائدة اللعب كان يبدي التذمر والتأفف وحينما كان يتنزه مع ضيوفه كان يهجههم جميعاً بما يخاطبهم به على أنه كان يؤثر محادثة العلماء ولا سيما الذين رافقوه الى مصر كرونيج وبرتولاي ويسر بمحادثته لشبثال ولا سيبيد وليرسياني .

وأقول بالايجاز ان من يريد أن يحكم حكماً صائباً على بونابرت ويقدره حق قدره يجب عليه أن يبصره في طبيعة جيشه وليس في ردهة من رده قصره . أما لباسه فالعسكري منه يوافقه أكثر من أجمل لباس مدني وقد قيل لي أنه لما ارتدى اللباس المدني للمرة الاولى بقي لا يسا اربة سوداء فلم يظهر ذلك متلائماً مع ثوبه فلما أبدوا له ملاحظة بهذا الشأن قال : « لا بأس من ذلك فاني لا أحب أن أفقد الهيئة العسكرية تماماً » .

وكان القنصل الاول يدفع نفقاته الشخصية الا أنه لم يشأ أن يحملهم يدفعون من الاشياء العامة الناتجة عن مساومات سابقة مع الوزراء لبعض دوائر الحكومة فكان يؤثر هذه المبالغ بالتجائه الى حجيج شتى وأسباب غريبة وهذا مادعاً فيما بعد الى تعيين لجنة للنظر في حساب المبالغ المتأخرة وكان عنده مبدأ ثابت وهو أن جميع ملتزمي تقديم الحاجات للحكومة لصوص .

وكما قلل وزير من دفع ما هو مقرر في موازنته نظر اليه بونابرت بلاحظة الرضاء فديكريس وزير البحرية أصاب حظوة عنده لانه جرى على نهج اقتصاد بحر الخراب في بعض الاحيان على ملتزمي تقديم الحاجات للبحرية .

نابوليون والدين

أما من جهة الدين فقد كانت له افكار مبهجة وقد قال لي في ذات يوم : « ان عقلي يجعلني أنكر بعض الامور الا أن ما بقي لي من تأثيرات حداثتي يلقيني في وهدة الشك . »

وكان يحب الاسهاب في الكلام عن الدين وقد أبصرته مرات كثيرة ونحن في مصر أو على متن السفينة « الشرق » والسفينة « مويرون » يتدخل بعناية في أحاديث دائرة بحدة على هذا الموضوع فيسلم مختاراً بكل ما يبرهنون له عليه ولكنه لا يحب أن يسميهم يتكلمون عن المذهب المادي فاذا ذكر اننا بينا كنا ذات ليلة ونحن على متن السفينة « الشرق » وحولنا أشخاص يتباحثون في هذه العقيدة المنكرة رفع بونايرت عينيه الى السماء ودلهم على الكواكب وقال لهم بسكينة : « تحاولون البحث في هذا الموضوع على غير جدوى يا حضرة السادة فمن صنع جميع هذه الاشياء . » وكان كثير التساهل من جهة الدين فلم يطق أن يرى أحدا مضطهداً بسبب معتقده الديني .

وهاً نذا أذكر عادة من عادات بونايرت الغريبة وهي جلوسه نصف جلسة على المنضدة التي أمامه فكان مثلاً يجلس على هذه الصورة على منضدتي سانداه ذراعه اليسرى الى كتفي اليمنى وهاذا ساقه التي لاتصل الى الارض وبملي علي وهو يهز المنضدة فيزعجني كثيراً في الكتابة .

صلابة عزمه

وكان يأنف من الرجوع عن قرار أصدره مع اعترافه بأنه مخالف للعادلة فلم يكن شيء من الاشياء يجعله يعود الى الوراء سواء كان في الاشياء الصغيرة أو في الاشياء الكبيرة لانه كان يعتبر أن في التقهقر هلكة وقد شهدت حادثاً يدل على تصلبه في حال لا أنساها أبداً وهو حادث الجنرال لاتور فواساك وكان القنصل الاول يظهر أنه متأثر من الضرر الذي سببه له ولكنه أراد أن يترك الزمان يمر قبل اصلاح هذا الضرر وقد قام خلاف بين قلبه وتصرفه فتأثر من ذلك ولكن

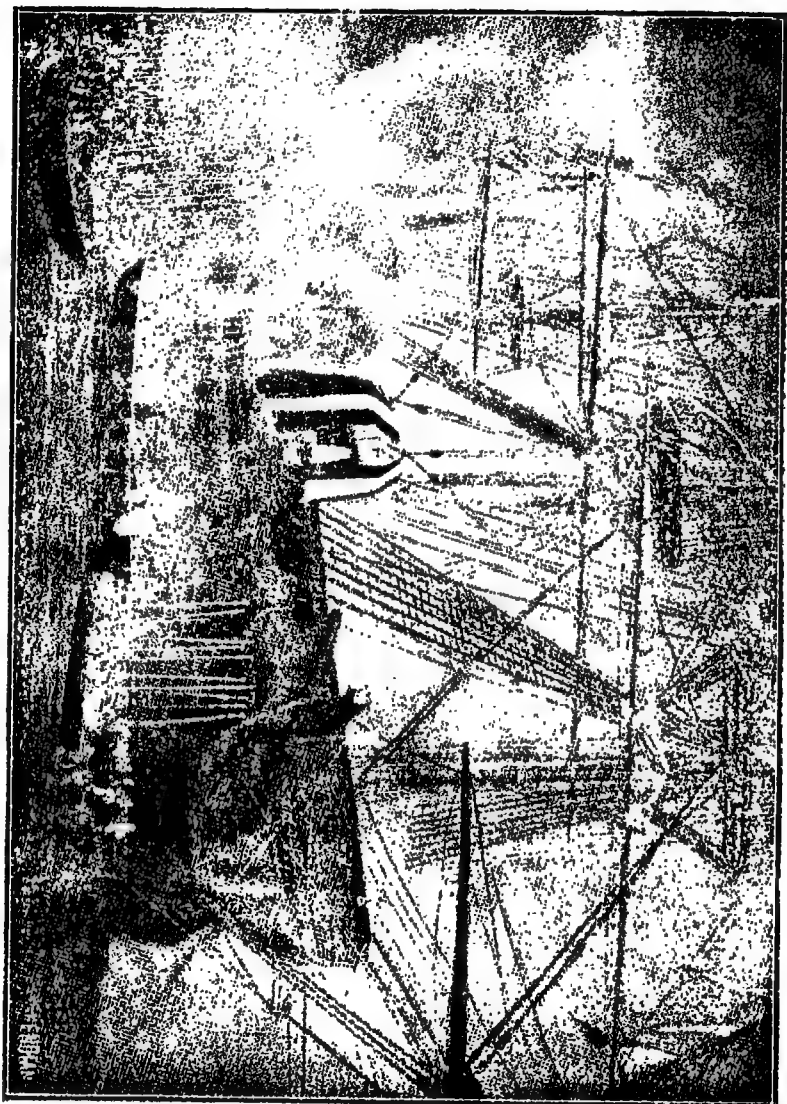
جودة قلبه صممت أمام ما كان بعده من مقتضيات السياسة .
ان بونايرت لم يقل قط «أخطأت» بل كان يقول «ابتدأت أظن أن ثمة شرا»
على أنه مع هذا المبدأ الذي يلائم الفيلسوف أكثر مما يلائم رئيس الحكومة
لم يكن بونايرت بغيضا ولا منتقما ولا ميالا بطبعه الى سفك الدم . أجل اني
لاستطيع أن أدفع عنه معرة جميع الملام الذي جرته اليه شريعة الحرب السائدة
ومقتضياتها القاهرة وانما أقول أنهم تحاملوا عليه كثيرا من هذا القبيل .
وأؤكد أن بونايرت كان بعدني ما عدا دائرة سياسته رقيق الشعور جيد القلب
كبير الشفقة شديد المحبة للاولاد . ويندر أن نجد رجلا شريرا يعيل الى الاولاد .
وكان بونايرت في حياته الشخصية على جانب عظيم من البساطة متساهلا أمام
الضعف البشري لانه يعرفه حق المعرفة ويقدره حق قدره .
انا أعلم أنه ستقوم علي قيامة المعارضين ولكنني أوجه كلامي الى ناشدي
الحقيقة ومحبيها فقد عشت مع بونايرت واطلعت على جميع خفايا حياته ولا القي
الكلام على عواهنه وعلى كل حال أفلا يجب علينا أن نراعي حصة الزمان والاحوال
التي تؤثر جد التأثير في الانسان . أفلا يجب علينا أن نميز بين طالب العلم وقائد
الجيش والقنصل الاول والامبراطور اذا رغبنا في ان يمد الناس الحكم الذي نبرزه
عليه صادرا بنزاهة وبلا تفرض .

رأي اللورد روزبري

في نابوليون بونايرت

كان سائح بريطاني عائداً من رومبة الى بلاده في صيف سنة ١٨٦٣ فخرج
على باريس ليقضي فيها يومين وكان هذا السائح من طلبة مدرسة ايتون وقد
صاحبه احد اساتذة هذه المدرسة في رحلته كدليل يرشده وكان اهم شيء لفت
انظار هذا الشاب ضريح نابوليون وقد كتب استاذة عنه انه كان من اكبر المعجبين
بنابوليون واسرته وكان هذا الاعجاب مبني على التروي لان هذا الشاب نال
قسماً وفيراً من الذكاء والفراصة وكان الشاب الذي نحن في صدد الكلام عنه يدعى
الورد دلمني وهو الذي عرف فيما بعد في العالم كله باسم اللورد روزبري .
وانتقل اللورد دلمني من مدرسة ايتون الى جامعة اكسفورد وقبل ان

السفينة د بل بول ه التي جلبت رفات نابليون من جزيرة القديسة هيلانة الى فرنسا في سنة ١٨٤٠



ينجز دروسه فيها توفي جده فانتقل اليه اسمه واصبح من ذلك اليوم معدوداً من أعيان المملكة ولكنه قضى عشر سنوات لم يسمع احد صوته في اثنائها في مجلس الاعيان . ولما كان في الرابعة عشرة من عمره قال له احد وطنيينه في احدى المآدب انه سيصبح يوماً رئيساً للوزارة ولكن اللورد روزبري الشاب لم يكن شديد التسرع لاصابة ذلك المنصب الرفيع بل سار اليه بطريق طويل . وكان الناس يكثر من الكلام عن حياده المطهمة وتألقه في ملبسه وميله الى الفنون والملاذ العالمية وكان مشهوراً عنه انه لطيف المعاشرة محباً للمجون وانه يستطيع كل شيء حتى الشغل نفسه حين يروقه ذلك وكان اقاربه يأسون بعشرته والذين دونه منزلة يتعشقونه لانه كان يهتم بمحاجاتهم وينفس كربهم ويذلهم ايمانهم .

واقترن اللورد روزبري في سنة ١٨٧٨ باغنى فتاة في بريطانيا المظمى وهي الانسة حنة دي تشيلد كريمة البارون والبارونة ماير دي تشيلد المشهورين باحسانهما في بلادها وقد اثار هذا القران عاصفة انتقاد شديد وحرك عوامل الحسد في قلوب كثيرين من الاعيان ولكن ما لبثت هذه العاصفة ان هذأت وهذه العوامل ان سكنت لما عرف الناس حقيقة خلق الزوجة الكريمة الجريئة المخلصة الامينة التي انتقامها اللورد روزبري وقد كانت لها اليد الطولى في معونته في الانتخابات العامة في سنة ١٨٨٠ واعيد على أثرها فتح ابواب قصر وستمنستر على مصاريحها في وجه داهية السياسة البريطانية الاكبر المستر غلادستون وكان اللورد روزبري العامل الاكبر لفوزه فكان قصر دلمني مركز تلك الحركة السياسية ولا يخفى أن تنظيم المعركة يكون في بعض الاحيان اصعب من نيل النصر وكان اللورد روزبري يستطيع ان يصيب كل شيء بعد ذلك للفوز الباهر وبعد قبض حزب الاحرار على ازمة السلطة ولكنه لم يقبل شيئاً . ولما اسندت اليه وكالة وزارة الداخلية بعد ثمانية عشر شهراً عرف الجميع اي عضد متين نالته الوزارة . ولما تقلد المستر غلادستون وزارته الثالثة عين اللورد روزبري وزيراً للخارجية فاشتهر فيها باقدامه وتيقظه وبراعته ولكن الاحرار المتحدين ناووا الوزارة بقضية الحكم الذاتي في ايرلندا وزعزعوا اركانها . ولما خلا اللورد روزبري الجو ركب مركب الرحيل الى البلدان المؤلفة منها الامبراطورية البريطانية وقد صحبته قرينته في رحلته هذه فطاف حول الارض في سني ١٨٨٢ و ١٨٨٣ وغشي

كمدا واستراليا ودرس بذهنه الناقب وحكمه الصائب ما كان من العلاقات بين بريطانيا العظمى ومستعمراتها البعيدة وذهب في سنة ١٨٨٧ الى الهند وبعد ما قضى فيها حيناً من الزمان عاد الى بلاده وحقيقته مماؤة معلومات خطيرة كانت له عدة عند الحاجة ولم يكن الاستعمار مبدأً انتهجه اللورد روزبري وجعله مسيطرًا على جميع أعماله بل كان يراه امرأ من الامور العادية يقتضيه اتساع نطاق العلم والصناعة على ما كان مشهوراً في اواخر القرن الماضي فالبخار والسكرباء بتقريبهما الابداع وتقصيرهما المسافات اوجدوا مساواة حقيقية في الحقوق والواجبات التي لم تكن في الماضي سوى نظرية وهمية وقد رضعوا حداثاً ثانياً للصلوات القديمة التي كانت البلا. البريطانية مرتبطة بها بمسعمراتها وقد كان اللورد روزبري ومريديه شأن عظيم في تسكين مخاوف اوروبا من مرامي الاستعمار واقناعها بانها لم يكن المراد به الاعتداء والفتيح بل كان ذلك مسألة تنظيم اثتلافي لا يقصد به تهديد أحد أو النيل من كرامته .

ولما عاد اللورد روزبري الى بريطانيا العظمى عين عضواً في مجلس ولاية لندن فترئس له وقد انشئ هذا المجلس بموجب قانون جديد فهذا المنصب أبقى أثرًا خطيراً من آثار حياته السياسية بقطع النظر عن المناصب السامية التي انتدب لها فيما بعد فان تمرسه الشخصي واليومي بالديمقراطية في أكبر مدينة حديثة جعله يفهم ما كان غامضاً عنه وأطلعه على أسرار التصرف بعواطف الناس واستمالتهم وقد كان هذا الامر من مميزات الطبيعة فصائح أشخاصاً كانوا يدعون « المستر روزبري » واستمال اليه على هذا النمط المشغولين بالسياسة من عامة الشعب ولم يغفل ذلك بتملقه اياهم بل بمعاملة اياهم معاملة اللند وبرزانه وجد وكان وهو جالس على منصة رئاسة ذلك المجلس — وكانت زوجته تواقيه اليه في بعض الأحيان — يجعل الجلسات أشبه باجتماعات « عائلية » يسودها الود والاخلاص والاهتمام بالشؤون من وجهة المصلحة والاعمال العملية واستطاع بما أوتيته من سمة الخبرة ورعاية الصدر وشدة الشكيمة من رد تهجم الكائدين لجاسه وكان شديد المحافظة على قانون تعيين مدة الخطابة وقد جعلت ١٥ دقيقة للخطيب بحيث كان يذكر الخطيب بهذا القانون حين ينتضي ربع الساعة ويظل الخطيب ماضياً في الخطابة وكان همه منصرفاً الى حل المسائل حلاً عملياً نابذاً كل ما كان من شأنه اقحام النظريات السياسية في المسائل البلدية الصرفة وقد كان من نتيجة

أعمال هذا المجلس الذي أصبح لسان حال المدينة ان محافظها قصرت يده في كثير من الاعمال واجتزىء بالقليل من الفخفخة التي كانت تحيط بموكبه الرسمي وكانت تحاكي الحفلات التي يقيمونها في « المرافع » ومعظم الفضل في هذا التعديل والاصلاح يرجع الى اللورد روزبري .

ونزلت باللورد روزبري بلمية كبرى في خريف سنة ١٨٩٠ فانه فجع بزوجه الفاضلة وقد اضطر من جراء ذلك الى هجر السياسة والشؤون العامة ولكنه عاد اليها في سنة ١٨٩٢ لما عاد المستر غلادستون الى تقلد الوزارة ولم يكن له في البرلمان الا اقلية ضئيلة ولم يقبل ذلك الزعيم تقلد السلطة الا لمعالجة تحقيق المشروع الذي كان يصرف اليه هامة النفس وهو استقلال ايرلندا الاداري وقد وافق عليه مريدوه « ونفسهم حزينة حتى الموت » واغتنم مجلس الاعيان هذه الفرصة لاستعادة ما فقدته من ميل الامة اليه بقيامه على هذا المشروع وقد لقي اللورد روزبري سبيل الوصول الى تأييد المشروع مفروشة بالاشواك وكاد يكون منفردا في مجلس مخاصم له وقد قضت عليه الحال بأن يتخذ خطة الهجوم في كل يوم ولكنه كان وهو كالفائد الاعزل الذي لم يكن له جيش يعمل عليه لا يلتقى مندوحة عن مناجزة أكثرية هائلة ولم تكن الحال مقصورة على انتقاد الموقف الحالي بل كانت تقتضي مصادمة المبدأ الثابت المبني عليه ذلك المجلس الاعلى والسعي للقضاء على الوراثة وهو المشرع النازل لسلطته بالوراثة وكان يجب عليه أيضاً أن يحمل المجلس على التساهل معه والاصفاء اليه والتصفيق له وقصارى الكلام أن يكون ثوريا بلباقة ووقحاً بحنكة ومهدداً من دون أن تشتم في كلامه رائحة الاهانة . وقد قضى لبانته وكانت خطبة الرنانة في ذلك العهد من آيات البلاغة تدخل الاذان بلا استئذان وتهدم بمول التهم ماشيده خصومه من صروح المعارضة وكان يتعاشى كلام التهم الجاف البارد ويستبدل به كلاماً مقنعاً مؤثراً في العواطف ولذلك لم ينقم عليه خصومه لبذاءة لسانه كما ينقمون على غيره فكان اليوم الذي يحمل فيه اللورد روزبري عليهم سالقا اياهم بلسانه الحاد يوما مشهودا كأنه يوم عيد .

وكان شرف بريطانيا العظمى وسلام العالم يقتضيان توقف الشمس عن مسيرها كما كان الاقدمون يزعمون أو توقف الارض عن دورانها كما نعتقد نحن لامتداد

أسباب عمر المستر غلادستون ولكن لم يتم ذلك . ولم تحدث هذه الاعجوبة فانه لما بلغ المستر غلادستون من العمر عتيا وجعل الضعف يلم بكل عضو من أعضائه وبكل حس من حواسه الواحد تلو الآخر لم يلق مناصبا — وهو في معظم قوته السياسية والعقلية — من القاء اعباء السلطة عن عاتقه والتنازل عنها للورد روزبري وزير الخارجية في وزارته وقد تحققت حينئذ النبوة التي تنبأوا بها له من ثلاثين سنة أي أنه يترجم في دست رئاسة الوزارة .

وكان عبء الميراث الذي ورثه اللورد روزبري من المستر غلادستون ثقيلا نبوء به غيره ولا يرضى بقبوله لان حزب الاحرار كان في ذلك العهد قد هبط الى درجة لم يهبط الى مثلها منذ مئة سنة فانه فقد ما كان يربطه من الصلة ببعضه ببعض وأصبح نظامه اسما لغير مسمى ورق جانبه وبات برنامجا حبرا على ورق وكان اعضاؤه متدابرين ينظر الواحد منهم الى الآخر شزرا ولا يفعلون الا ما تدعوهم المصلحة الخاصة الى فعله لان الانانية كانت متسلطة عليهم بحيث لم يكن زعيمهم يعول عليهم في آونة الشدة وكانت مسألة استقلال ايرلندا الذي كحجر ثقل علق في عنق كل فرد من افراد حزب الاحرار

وهل وفق اللورد روزبري الى اعادة الوحدة والحياة الى حزبه المتفكك الاوصال الموشك القضاء المحتوم أن ينزل به ؟ الجواب على ذلك بالنفي وقد يكون اللورد روزبري الرجل القادر على ذلك الامر ولكن الفرصة لم تكن مؤاتية له فقد يكون حين لا ينبغي لاحد ان يعارض القوة الهادمة عملا بما فاه به أحد معاصري كرومول وهو : «يجب على الامور أن تبلغ غايتها من الفساد لكي يمكن اصلاحها» ولم يكن في استقالة اللورد روزبري ما يجعل الناس ينسونه فان ميلهم اليه ازداد بعد اعتزاله المناصب . وها قد مضت اعوام على زيارته لقصر «الانفاليد» في باريس وقد قال ان ذكرى هذه الزيارة لم تفارق ذهنه قط في جميع ادوار حياته على مثال ظهور ارواح الموتى للاحياء طلبا لصلواتهم لكي ينجوا بها من العذاب وكانت تلك الذكرى تقتضي وضع كتاب تنجلي به الحقائق ولكن وضع مثل هذا الكتاب يلزمه فسحة من الوقت فوجدها اللورد روزبري في سنة ١٨٩٥ لما تفككت اوصال حزب الاحرار وتضعضعت احواله . ولم يكن مندوحة عن عرض تلك الصورة عرضا واضحا بعد ما كان الابهام والغموض يحفان بها وكان بعضهم

يحاول أن يجعل سيرة الامبراطور العظيم من نوع الحكاية أو من باب اساطير الاولين ففي سنة ١٨٩٩ نشر الفيكونت دي غروشي والمسيو غيلوى مذكرات غورغو القيمة فاماطا النقباب عن حقيقة تلك السيرة وحينئذ استطاع اللورد روزبري أن يستند الى هذه المذكرات ليضطلع بمهمة كان يحلم بها من عهد بعيد ، ويستطيع القراء أن يتحققوا صحة هذا الكلام بمطالعته الكتاب الذي وضعه اللورد روزبري في هذا الصدد فيروا فيه ما يحرك ساكنات الالتهاج في قلوبهم ويثير الدهش من مريضه ويبعث على التأثر الشديد ويعلموا في الحال أن المؤلف طالع وفهم جميع الاسانيد البريطانية والفرنسوية التي يستند اليها المؤرخون الذين كتبوا تاريخ نابوليون والامبراطورية الاولى وانه بعد ما حصنها كمؤرخ نظر اليها بعقله السياسي المحنك الخبير باظهار دقائق الامور للعيان بايراده اعتبارات فلسفية يتصيد بها القاريء من سرد حوادث تلك المأساة الالهية الذكر ويذكروا كلمة استاذ مدرسة ايتون وهي ان تلميذه الشاب « كان من اكبر المعجبين بنابوليون واسرته وكان هذا الاعجاب مبنيا على التروي . . . »

ولكتاب اللورد روزبري شأن عظيم في تاريخ نابوليون الكبير ويزعم فريق من المؤرخين انه كان لنابوليون يد في بعض الحوادث والاسانيد الملفقة التي اذاعها لاس كاس فبعد ما اقام النكير على مؤتمر فيينا من جراء قضائه المبرم على نابوليون عاد وايد بلا مسوغ نظرية التأمين العام التي جعلت الحلفاء يحصرن نابوليون حصرا لانهاية له مع انه لم يكن متمردا ولا اسير حرب ولا جانيا حكمت عليه محكمة قانونية . واسترشد اللورد روزبري بفكرة محمودة وهي تبرئة ذمة ابناء وطنه من مقتل نابوليون واستعان بنتيجة تشرريح جثمان الامبراطور على اصابة غرضه فان الرجل العظيم لم يمت في جزيرة القديسة هيلانة بداء الكبد الكثير الانتشار بين سكان تلك الجزيرة وكان الامبراطور يدعي انه مصاب به ولكن أولا يتلخص من سياقة الحوادث ان الاحوال الجوية في تلك الصخرة الصماء عجلت في ظهور السرطان الموروث فيه وقصرت عمره عشر سنوات أو عشرين سنة . انها مسألة طبية من خصائص الاطباء تقرير حقيقةها .

واللورد روزبري من طبقة الكتاب الذين ولدوا وملكه الكتابة فيهم فهو

من امثال لاروشفو كولد وهاملتن وسان سيمون فانه وهويتوخى المجاهرة بالحقيقة يجمع اشياء كثيرة في جملة واحدة يخيل للقارئ ان الموازنة مفقودة منها من جراء ذلك وحين يبلغ منه التأثر او حين يسمح فكره في فضاء الخيال يخرج عن دائرة الانشاء التقليدي ويكتب بلهجة عالية وكلام واسع النطاق يستفز العواطف وينير الازدهان واستقبل البريطانيون كتاب اللورد روزبري بحماسة شديدة لانه اوقفهم على حقائق قاسية بكلام صريح وتلقاه الفرنسيون بارتياح لانه يعبر عن عواطفهم الصادقة ولا يسعهم ان يقرأوا بلا تأثر مثل هذه العبارة « كان وراء نابوليون فرنسا ولها مقدره على بذل جهود تدل على الشجاعة والاقدام وعلى تحمل الشدائد بصبر لا تنقص عراه ولها ايضا مقدره على كل شيء ماعدا المستحيل . »

وسننشر شيئا من كتاب اللورد روزبري لاطلاع القراء على رأيه في نابوليون داهية فرنسا الاكبر .

النفى

قال اللورد روزبري :

كنا نود لو كان بالامكان ان نجعل كل ما كتب في هذا الصدد لان قراءة مثل هذا الامر يتمتع لها البريطاني ولا يسعه الا التأسف على انبراء حكومته خلفارة نابوليون وعلى القيام بهذه المهمة قياما يبعث على تجليها بجلباب الصغارة وعلى اختيارها اشخاصا لاخلق لهم لاجراء اوامرها واذا كانت ذكرى القديسة هيلانة تشير الاشجان في قلوب الفرنسيين فان هذا الاسم يثير ما لا يقل عن ذلك عندنا نحن البريطانيين .

وقد لانكون قادرين اليوم على ابراز الحكم بالنزاهة على موقف الحكومة البريطانية في سنة ١٨١٥ فان هذه الحكومة كانت زعيمة للمحالفة التي اسقطت نابوليون مرتين عن العرش وقد انفتحت بريطانيا العظمى على ذلك اكثر من ثمانى مئة مليون جنيهه لارسال نابوليون الى جزيرة الباما كما جاء في احصاءات تلك الايام وهو مبلغ لا يستهان به وكلف رجوعه بريطانيا العظمى ملايين اخرى علاوة على الرجة التي اصيب بها جهاز اوربا العصبي وليس بالسهل تقدير عدد الرجال الذين اغتالهم الحروب النابوليونية لان عددهم يحصى بالملايين وكان غرض الحلفاء -

اي مايجب عليهم نحو الشعوب التي تكبت بالنكبات الفادحة - ان يحولوا دون فرار نابوليون مرة ثانية من منفاه. ونحن نعتقد انه كيفما كان الامر لا يستطيع نابوليون ان يقهر اوربا بعد ما قهرته في واترلو لان معين عزيمته نضب ونفذت ايضا وسائل قوة فرنسا ولا يرجي نهوضها من عثارها في السنوات الباقية من حياة هاهلها ولكن الحلفاء لم يشاؤوا الوقوف عند هذه الاعتبارات ولو وقفوا عندها لاستهدفوا لنبال الملامة . . . فان نابوليون سواء كان مريضاً او معافى عاملاً او خاملاً يصبح حين يكون طليقاً قطباً تدور عليه جميع القوات الثورية في اوربا ونحن والحالة هذه نوافق على وجوب منع نابوليون عن البقاء متمماً بحرية الحركة والعمل . أجل ان هذا الامر شاق عليه ولكنه كان هو في نوبته شديد الوطأة على العالم ويعتبر ذلك من بعض الوجوه اعظم اكرام نستطاع تأديته له

استسلم نابوليون مختاراً الى بريطانيا العظمى وقد طلب الحلفاء منها ان تتخذ تبعة المحافظة على شخصه ولا ندرى كيف رضيت حكومتنا بالقيام بهذه المهمة وكتب اللورد ليفربول الى اللورد كاسلري وزير الخارجية في ذلك العهد : « ياليت ملك فرنسا يامر باطلاق النار على بوناپرت او بتعليقه على عود المشنقة فذلك افضل حل لهذه المعضلة المعقدة » . واليك المنهاج الذي تحداه للانفصاح عن نظريته وبسطها للورد الدن وزير الحقانية : « يجب علينا ان ننظر الى المسألة من احد وجهيها فاما ان يعود نابوليون الى التابعية الفرنسية كفرد بسيط واما ان يكون عياراً ساق البعوث وهو من الذين ينكر القانون اصمهم وتلفظهم الهيئة الاجتماعية وتبترأ منهم الشريعة » وكان اللورد ليفربول كان يريد ان يقول : يسلم نابوليون الى لويس الثامن عشر بصفة كونه واحداً من رعيته ليعامله معاملة المتمرّد الذي يشق عصا الطاعة او ينبذ من الهيئة الاجتماعية ويعامل معاملة الحيوان المؤذي . وقد كتب الى اللورد كاسلري كلاماً في هذا الصدد تشتم منه رائحة التأسف وخواء « انه اذا لم يأنس ملك فرنسا من نفسه مقدرة على معاملة نابوليون كمتمرّد فنحن نقوم بابقائه معتقلاً . »

ويقول ولتر سكوت ان كثيرين من الناس في بريطانيا كانوا يرون في سنة ١٨١٦ انه يجب ان يدفع نابوليون الى لويس الثامن عشر ليعاقبه معاقبة الشاق

لعصا الطاعة ولحسن حفظ وزرائنا الذين لم يقدموا لنا موضوعات تستوجب الشناء عليهم كنفانا هؤلاء الوزراء مؤونة عاريلصق بنا لو كانوا قد دفعوا نابوليون لملك فرنسا ليقتله رميا بالرصاص كما فعل بالمرشال ناي .

ونرى والحالة هذه ان عمل حكومتنا في تلك الحال لم يكن فيه شيء من الكرامة ولكن نهض احد الاعيان وهو دوق سسكس واتفق مع اللورد هولند على الاحتجاج جهاراً على عمل الوزارة فان نابوليون الذي فكر في ريق الامر في تمسوك كل ثم في حنيبل لم يكن واثقاً بعزة نفس بريطانيا العظمى لما استضافها وقد كان يأمل انه اذا ما اتخذ اسم الكولونل مويرون صديقه القديم وقد صرع في اركول الى جانبه حين دفع عنه سهم الردى بتغطيته اياه بحجسه بأذنون له بان يقيم في انكلترا ويعيش عيشة القرويين فيها ولكن ما كان نابوليون يبتغيه لم يكن من الامور الممكنة الموافقة عليها لان انكلترا لم تكن بعيدة عن فرنسا ولان عرش البوربون كان قد اصبحت لسبب يصعب ادراك كنهه قطبات دور عليه سياستنا ولا يكون هذا العرش وطيد الاركان مادام الشعب الفرنسي يعلم ان كولونيلا بين العمرين يدعى نابوليون يقيم في مكان لا يبعد اكثر من عشرين ميلا عن شواطئ فرنسا ولم تكن قوة من القوات تحول دون وصول التوسل او الشفقة الى قلب ذلك الحمار الشديد الحول والطول لان نابوليون كان في اوربا داهية زعزعة العروش وانظمة الهيئة الاجتماعية ومع بقاء الكولونل مويرون ساكنا في مقره ومتجنباً لاحداث اي قلق لا يستطيع احد ان يححو التقاليد والذكرى وحوادث الماضي وقد كشف نابوليون الغطاء عن الحقيقة من هذا القبيل لحاشيته الصغيرة فانه لما انتهت اليه رسالة تنبئه عن تحول الرأي العام في فرنسا قال : « ياليتنا كنا في انكلترا . . . » وعلاوة على ذلك كان مقامه في انكلترا باعثا على انواع كثيرة من القضايا الحقوقية - من دون ان يكون له شأن فيها - مما يخلق للحكومة مشكلات شتى . ومما جعل الوزراء البريطانيين يمحضون في عزيمتهم خوفهم من عطف الامة البريطانية عليه واعجابهم به لان بريطانيا العظمى مع ما اصابته من الظفر المبين لم تكن مرتاحة اليه وحين نعيد في ذهن ذكرى السنوات الست التي انقضت بين واثرو و وفاة نابوليون يسهل علينا ان نفهم ان وجود ريب الثورة الفرنسية في بريطانيا العظمى لا يكون مؤاتيا بوجه من الوجوه



شارل بونابرت والد نابوليون ولد في سنة ١٧٤٦ وتوفي في سنة ١٧٨٥ ---

لمصلحة حكومة المحافظين ولا يؤيدها ابداً وقد كتب اللورد ليفربول الى اللورد كاسلري في هذا الصدد ما يأتي : « لا تخفى عليك عواطف القوم في هذه البلاد ونخشى من أن يصبح في وقت قصير موضوعاً للتطفل وحب الاستطلاع ومثيراً للعطف في الالفئة » وكان اقبال الناس على بليموث لرؤية الامبراطور مصداقاً لقول اللورد ليفربول وقد كانت العاهل الهاوي عن عرشه متكئاً بهالة من المجد يستطيع بهاؤها ولم يكن هذا الامر يخفى عليه نفسه فقد قال وهو في جزيرة القديسة هيلانة إنه لو عاش في انكلترا لاسئال اليه قلوب الانكليز وكان قد فتن مايتلند الذي ذهب به الى انكلترا كما كان قد فتن قبلاً اوشر الذي سار به الى جزيرة البيا . وبعد ماترك نابوليون السفينة بلروفون تسقط مايتلند بحارتها عن رأيهم في الامبراطور فقالوا له : « دعمهم يغفلون الكلام عنه ماشاؤوا ولكن لو عرفه الشعب البريطاني كما عرفناه نحن لما مسوا شعرة واحدة من شعر رأسه » وهذا رأي بحارة السفينة نيمبرلند فيه ايضا فقد قالوا عنه : « انه رجل شديد الصرامة لا يستوجب ما نزل به من البلاء » وكان بحارة السفينة التي اقلت مونشنو يرون مثل هذا الرأي عنه ولما غادر نابوليون السفينة « اندتند » التي نقلته الى جزيرة البيا خاطبه الربان باسم البحارة متمنيا له « عمراً طويلاً وراحة في أثناء مقامه في الجزيرة وحظاً اسعد في المستقبل » وبعد اجتماع الاميرال هوثام والربان سنهوس بالامبراطور مرتين رأيا ان ماكانا يشعران به من النفور منه زال وقد كتب سنهوس من هذا القبيل : « شعرت انا والاميرال بان بغضاءنا القديمة أمتحت » وكان ثمة خوف اعظم فقد قال اللورد كيث : « ويحاً لهذا الرجل فلو تمكن من مواجهة سمو الامير وصي المملكة لاستطاع بعد نصف ساعة ان يصير صديقاً حميماً له . » وابلغوا نابوليون اخيراً ما يحاذرونه من بقاءه في انكلترا وقد قال له أحد السياح ان الحكومة البريطانية لا يسمها ان تتجاوز عن اقامته في بلادها بخافة أن يهب الناقون عليها ويقلدوه الزعامة عليهم وقال له غيره انه معهم يقولون للورد ليفربول واللورد كاسلري ان الباعث على ارساله الى جزيرة القديسة هيلانة خوفهم من اتحاده مع الحزب المعارض للكيد للقباضين على ازمة السلطة ونجرتىء بما بسطناه في هذا الشأن ونقول ان في اقامة نابوليون في انكلترا خطراً على الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية معاً .

ومن المحتمل انه لا يمكنه أن يقيم في القارة الا في حصن حصين وقد يكون مقامه في بعض البلدان مثيراً للمواطنين اثاراً تحكي ثوران البركان وقد يستهدف في غيرها لنبال الاهانة أو القتل . ولو وافقوا على ارساله الى الولايات المتحدة لكان فيها بعيداً عن رقابة الدول له وقد كان لهن مصلحة خطيرة في تقليل اظافر دهائه وشل حركته وقد قال هو نفسه انه لو فسخ له في النزول في الولايات المتحدة لما اكتفى بما اكتفى به شقيقه يوسف من تشييد المباني وزراعة الارض بل كان قد استنفذ الجهود لإنشاء دولة . وأكد لنا منطولون ان المكسيكيين عرضوا عليه تاج امبراطوريتهم بعد وصوله الى جزيرة القديسة هيلانة ولكن تأكيد منطولون من هذه الجهة يفتقر الى الاثبات ففي مثل الاحوال التي بسطناها لا يستغرب إثارة جزيرة القديسة هيلانة على غيرها لتكون مقراً لنا بوايون وكان مؤثراً فينا قد فكر من سنة ١٨١٤ في اختيار جزيرة القديسة هيلانة معتقلاً للمليك جزيرة الباسجين وقالوا ان تلك الجزيرة بمثابة «فردوس» في الاقاليم الاستوائية وقد قال اللورد ليفربول ان الجزيرة بعيدة وفيها منزل جميل لاقامة نابوليون اجل انه كان يسهل عليه الاقامة فيه براحة ولم يصدر اللورد ليفربول امره بالضيء عليه بذلك المنزل وقال اللورد ولتن نفسه ان حالة الجو في تلك الجزيرة بديعة ولكنه لم يذهب اليها للاقامة فيها وكان ينظر بعين التفاؤل الى حظ نابوليون ويرى أن مبدأ عيشته واعماله لمصاحبة غيره لم يكن شيئاً مذكوراً ولم يكن في جزيرة القديسة هيلانة سوى مرفأ واحد ضيق جداً فكانوا يبصرون عن بعد السفن التي تدنو منها وكان يحق للسلطة فيها الامتناع عن الترخيص للسفن المحايدة بغشيان الجزيرة .

وكانوا يلقون لهم مسوغاً لاختيار الجزيرة وتفضيلها على غيرها للغرض الذي توخوه ومع ذلك كان اختيارها ضربة شديدة على نابوليون ورفاقه وكان قد جرى في وهمهم ان شر شيء يتوقعون وقوعه هو اعتقالهم في قلعة دمبرت أو في برج لندن فالفرنسوي القح لا يطيب له المقام طويلاً في خارج بلاده وقد خيل اليهم ان جزيرة القديسة هيلانة في طرف المعمورة وقال نابوليون لما بلغه أنهم صمموا على ارساله اليها انه لا يصل اليها حياً ولكنه ما علم ان ثابت اليه رباطة جأشه وظهر بمظهر الانفة وعزة النفس وذاق طعم عذاب شديد في بدء

الامر فانهم حظروا عليه اخذ سافاري ولالمان معه ويقول شاهد بريطاني جاسودي الفؤاد ان التفريق بين نابوليون ورفيقه المذكورين أثر فيه تأثيرا عظيما فاخذوها وأخذوا معها فريقا من حاشيته واركبهم سفينة أقلتهم الى جزيرة مالطة وقد اختاروها مستقلا لهم ودفعوه الى كوكبرن فكاد هذا يطير فرحا من المهمة التي انتدبوه لها وصاروا من ذلك الحين يطلقون على نابوليون اسم الجنرال بونايرت ويؤدون له الاكرام الذي يؤدونه الجنرال البريطاني متقاعد أي محال الى المعاش ومالبت ان عرف ان الجنرال البريطاني المتقاعد ليس له منزلة يغبط عليها فاعطوه قرعة في السفينة طولها اثنتا عشرة قدما وعرضها تسع أقدام ولما أراد أن يستعمل القمرة المجاورة لقمرة مكتبا له قالوا له انها مشاع لجميع الضباط « فتلقى ذلك التبليغ باذعان ورحابة صدر » ولما خرج الى متن السفينة حاسر الرأس ظل الضباط البريطانيون لابسين قبعاتهم كأن لسان حالهم يقول : لاحاجة لنا الى الظهور بمظهر التأدب مع قائد متقاعد . وكان من عادة نابوليون ألا يبقى على مائدة الطعام أكثر من عشرين دقيقة فكان يتضايق من طول مكث البريطانيون على هذه المائدة وكان هو بعد ان يتناول القهوة يصعد الى متن السفينة وقد قال عنه الاميرال كوكبرن من هذه الجهة : « انه كان يفعل ذلك خلافا لقواعد الآداب المرعية واطن ان الجنرال لم يقرأ كتاب اللورد تشسترفلد في قانون الآداب » فلم يغمض الفرلسويون رفاق نابوليون العين على ذلك الانتقاد المقرون بالتهكم المرفان احدى السيدات الفرلسويات اجابت على الاثر جوابا في محله باهجة شديدة وكان خوي جوابها ان الاميرال نفسه لم يقرأ كتاب اللورد تشسترفلد كما يجب عليه ان يقرأه لان صاحب هذا الكتاب اسهب في انتقاد الذين يطلبون القعود على المائدة لشرب الخمر . وقال الاميرال بعد ذلك : « لا يخفى علي ان الجنرال بونايرت يميل في بعض الاحيان الى الظهور بمظهر الامبراطور ولكنني لايسعني ان اوافق على ذلك » وصمم على المضي في عمله تنفيذًا للخطة التي اختطها وقد كتب بعد أيام في هذا الصدد ما يأتي : « لم انظر الجنرال بونايرت كثيرا اليوم فاني لما رأيت انه يحاول ان يظهر بمظهر عظمة غير لائقة به اضطررت ان افهمه ان يخلي عنه مثل هذا الامر . » أو لايتوهم القارئ

ان الاميرال كوكبرن يبتغي ان يتصير مروض الاسود فنحن لستنا في عهد «الامير الاسود» حينما كان أحد ملوك فرنسا اسيرنا.

وكان «مشنو» نفسه المندوب الفرنسي يرى انهم يتطرفون في اساءة معاملة أسيرهم مع كون هذا المندوب من الذين يقولون بوجوب التشديد في معاملة نابوليون وقد أورد الكلام الذي فاه به نابوليون ن هذا القبيل وهو: « فليقيدوني بالقيود اذا شأوا ولكن يجب أن يعاملوني بما استحقه من الاكرام»

وكان كوكبرن كرجل من الاعيان البريطانيين الزراعين انهم خبيرون بقانون الآداب يجد ان اخلاق نابوليون ينقصها الكياسة وان ماهو عليه من التأدب محدود بحسب طبيعته وقد تنازل الاميرال في يوم ذكرى مولد نابوليون ان يشرب نخبه وقد قال عن ذلك: « اظهر الجرال بونا بوت انه متأثر من هذه الكياسة » وقال الاميرال فيما بعد وهو يلح بلطف الى ما بينهما من الفرق في الموقف: « اني مستعد دائما للسير اليه نصف الطريق حينما أراه يتصرف بما يجب عليه من رقة الجانب التي تليق به ويعرف حقيقة موقفه الحالي. » واخيرا تصرف نابوليون تصرفا مبنيا على التعقل حتى ان الاميرال نفسه قال عنه: « انه اظهر في اثناء السفر سعة صدر من جهة الريح وحالة الجوا أكثر مما اظهره رفاقه . » وكان له ما لهم من بواعث الشكوى فانهم كانوا في السفينة مزدحمين وكانت الحكومة البريطانية قد اوقفت السفينة نرمبرلند في حال وصولها من الهند لتنتقل اليها نابوليون وترسله فيها الى منفاه ويؤكدون ان ما كان فيها من ماء الشرب أصبح غير صالح وقليلًا وكانوا ينظرون الى المستقبل بعين الخوف والجزع ولو أبدت السيدتان الفرنسيتان شيئًا من الجزع في مثل تلك الحال لاغضي الطرف على تبرمهما ولكنهما تجلدا لئلا تصيبهما قوارص كلام كوكبرن وانتقاده المر.

ولم يكن الاميرال نفسه ساكن الخاطر فان بحارته كانوا يضمرون ثورة عواطف تحت ظاهر هادىء فأبوا في بدء الامر رفع المرساة في بورسموث وقضت الحال بان يجلبوا الى السفينة قوة عسكرية كبيرة لاجبارهم على الاذعان للنظام ويتعذر وصف احاديثهم وموقفهم في اثناء السفر فكانوا يشبعون رؤساءهم

ضرباً ولكما ووضع خفير على باب قرّة الامبراطور ليحول دون اتصاله بالبحارة
ويزعمون ان نابوليون قال لسكوكبرن انه متأكد ان كثيرين من هؤلاء البحارة
ينتصرون له وكان مقضيا على السر جرج كوكبرن ان يقوم بمهمة شاقة وهي
تعويد نابوليون الاذعان لمقتضيات موقفه واكره البحارة على الامتثال
لمقتضيات النظام .

ووصل نابوليون الى جزيرة القديسة هيلانة بعد انقضاء ثلاثة اشهر على
تسليمه لمسايتلند ولكن بقي الاميرال معهوداً اليه في القيام على خفاته رينما
يصل محافظ الجزيرة الجديد لانهم رأوا أن المستر والسكس الذي كان محافظاً لها في
ذلك الحين لم يكن — علاوة على كونه من موظفي شركة الهند — قادراً على
الاضطلاع بالمهمة الجديدة التي شاوروا اسنادها الى محافظ الجزيرة اما ولتن
فكان يرى غير رأيهم ولذلك بقي كوكبرن متولياً خفارة نابوليون الى شهر
ابريل سنة ١٨١٦ وحينئذ خلفه السر هدمن لو

نابوليون والديمقراطية

تنبثق حقيقة ناصعة من الاحاديث التي دارت على اترلو ونتائجها ومع ذلك
قل من اكثرت لهذه الحقيقة فلا بد من جلاء الغامض بشأنها ولما كان نابوليون
يدير رحي الحديث على الحوادث الماضية ويقول انه كان ينوي بمعد معركة
واترلو ان يرأس حركة ثورية فانا نظن انه كان مغروراً او انه كان يبتغي تضليل
افكار السامعين وقد قال في جزيرة القديسة هيلانة « ان ذكرى حداتي تقذف
الذعر على فؤادي » وقد اصاب كبد الحقيقة في قوله هذا فانه شاهد الثورة عن
كثب ووقف على جميع حوادثها وكان صديقا لشقيق روبسيار ولكنه بعد ما
حكم فرنسا واصاب سلطة مطلقة عليها صار يشعر بنفور شديد من كل ما يشبه
الثورة والاضطراب ولم يشعر احد من الذين شهدوا عصر الرعب باكثر مما كان
يشعر به نابوليون من النفور من الثورة فان المشاهد التي وقعت عينه عليها ابقت
في نفسه ذكرى سيئة لتلك الفوضى ورغبة شديدة في المحافظة على النظام وتمنيزه
وقد كان ميسوراً له ان يفوه بمثل الكلمة المأثورة عن خلفه في الامبراطورية اي
« انا ضمن للنظام » ولكنه لم يتسن له القيام بهذا الامر حتى النهاية .

ولم يكن ذلك سرا مكتوماً عن أحد من الذين كانوا يخالطونه ويقفون على عجره ويجره وقد قال شبتال ان نابوليون كان يخاف من الامة فان أقل استياء يبديه الشعب وايسر هياج يشور وابسط فتنة ينفثج بابها تؤثر فيه اكثر مما تؤثر فيه اعظم معركة يندحر فيها ولذلك كان دائم التيقظ من هذه الجهة فكان يدعو اليه وزراءه ويقول لهم انه ليس للشعب عمل يعمل به وانه يخشى من اصغاء ارباب الصناعة لسماع اصوات المحرضين المحرضين وانه يحاذر حدوث ثورة بين العمال من جراء حاجتهم الى الطعام اكثر مما يحاذر نتيجة معركة يقاتل فيها جيشاً مؤلفاً من مئتي الف مقاتل فكان يوصي على مقادير من المنسوجات والرياش ويسلف اصحاب المصانع والمعامل الكبيرة مبالغ من المال وحدث انه اضطر مرة الى اتفاق خمسة وعشرين مليون فرنك لتسكين معضلة صناعية من هذا النوع وقد كتبت عقيلة دي ريموزا في هذا الصدد ما يأتي : حينما اسمع احدهم يقول انه لا اسهل من جعل الناس يحترمون ارادته بالقوة اذكر ما كان يقوله الامبراطور عن المصاعب التي كانت تصدى له ... حينما يضطر الى استعمال القوة مع ابناء بلاده واذكر ايضا انه كان يقول لوزرائه حينما كان مجلس الوزراء يقرر استعمال الشدة في بعض الاحوال : وهل تؤكدون لي أن الشعب لا يشور وقد همموه يصف بارتياح المعارك التي يوقد نيرانها أو يسمع الناس يروونه له ولكنه يمتقع وجهه حينما يسمعونهم يقصون عليه اخبار الحوادث الفظيعة التي يرتكبها الشعب النائر . »

وكانت الثورة قد بصمته بخاتمها بصمة لم ينسها كل حياته فكان يمثلها وقد تجسست فيه ولكنه لم يكن يني عن مكافحتها سراً مع معرفته ان هذه المكافحة عقيمة وكان يقول :

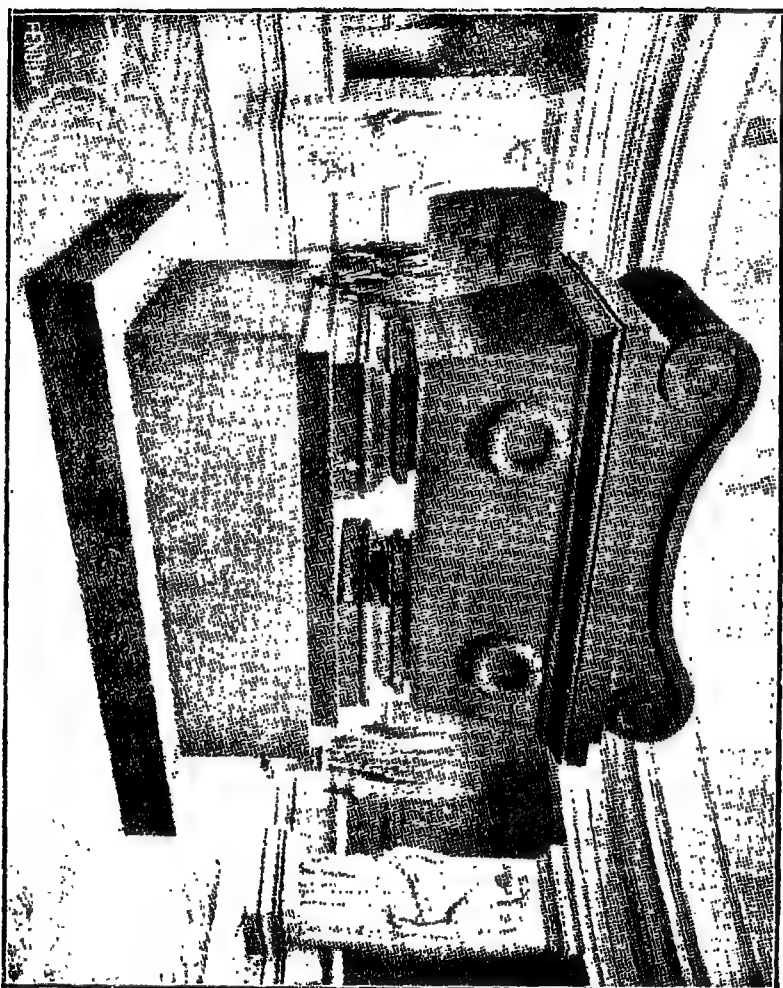
« ليس بين الهيئة الاجتماعية والثورة سواي فانا استطيع الحكم كما اشاء ولكن ابني سيضطر الى انتحال مبادئ الاحرار » وقد اصاب في قوله هذا لان قرن الثورة اخذ يذر في الشهور العشرة التي قضاها في جزيرة البا وكان نابوليون يفكر دائماً في هذا الامر ولم يكن تفكيره به للاسترشاد بل كما يفكر في امر يجب عليه تجنبه أجل انه كان ابن الثورة ولم يكن لهذا الابن من هم الا خلق امه .

وكان يخشى من فكرة اطلاق النار على الشعب وظل يتأسف كل حياته على العمل الذي عمله للضرب على ايدي الثائرين في فنديمياري وكان يخاف من نقمة الشعب عليه من جراء ذلك ولم يكن يحجم عن شيء من شأنه ان يسكن هياج الشعب حينما يكون هذا الهياج ناجماً عن الحاجات المادية فكان ينفق المال عن سعة في هذا السبيل الا ان كرهه للثورة واستيائه من أعمال الثائرين كانا يفوقان المظاهرات الشعبية العظيمة لانه لم يكن يبتغي التمرد بالثورة وكان من وراءها خلاصه وخلّاص عرشه ولم يكن من مزيد على نفوره منها ولو كان قد ابصر باحتقار وتآفف لويس السادس عشر بحبي الجماهير من قصر التويليري وهو لا بس القبة الحمراء على رأسه ولم يكن نابوليون يشاء قط أن يلبس مثل هذه القبة دقيقة واحدة ولو كان في لبسها ضمان حريته وخلّاص أسرته في المستقبل واحتشدت الجماهير (اي الغوغاء كما كان يسميها نابوليون وهو في جزيرة القديسة هيلانة) بعدمعركة واترلو حول قصره وطلبوا منه أن يسير في مقدمتهم للقضاء على أعدائهم كانوا يعتبرونه الحاجز الوحيد في وجه اصحاب الاقطاعات الذين كانوا يبتغون استرداد اموالهم وفي وجه الاجانب الذين كانوا يطعمون في الاستيلاء على فرنسا ولما سمع نابوليون صخبهم قال كلاماً يفصح به عن حقيقة الحال : « ماذا تبتغي مني هذه الجماهير اني وجدتني في حالة الشقاء لما قبضت على ازمة الحكم وهاءنذا اتركها في حالة الشقاء نفسها » وقد حفظ منطولون ذكرى ذلك اليوم الخطير فقال جاء الى الامبراطور « الايان » وجمع غفير من جهة دسكرة سانت انطوان وطلبوا منه ان يقودهم الى مصادمة العدو ولمح احد الخطباء الى ١٨ برومير فاجابه نابوليون « كانت الامة متفقة في ١٨ برومير على احداث تغيير في حالتها في ذلك العهد اما اليوم فالحالة تقضي اجراء غدران من الدم الفرنسي وانا لاسفك قطرة دم ابداً للدفاع عن مصلحتي الخاصة » ولما انصرف الجمع خاطب الامبراطور منطولون بصراحة قائلاً له : « لو استخدمت قوة الغوغاء الوحشية لانتقلت باريس ولا مراة وضمنت بقاء التاج على مفرقي من دون أن ألجأ الى الحرب الاهلية ولكن هذا الامر لا بد من سفك غدران من الدم الفرنسي لاصابته فاي قوة تستطيع التسلط على العواطف والبغضاء والانتقام حينما يتهجر بركانها ولا يسعني ابداً ان انسى انهم جاؤوا بي من « كان » في وسط الهياج والصياح وقول القائلين : « فليسقط

الكلمة فليست الايمان واني اؤثر فقدان التاج على ابقاء آثار التأسف في قلوب الفرنسيين » وبينما كان يزحف الى باريس كانت عودة البوربون الى الحكم تثير عواصف الحنق في أفئدة الشعب ولو شاء نابوليون مجاراة الشعب الناقم على البوربون لخوفه من انتزاع الارض والامتيازات من يده بعد ما كان قد أحرزها في الثورة لرحف معه مليونان من الفلاحين الى العاصمة ولكنه لم يشأ أن يكون « ملك الغوغاء » فان مثل هذه الفكرة كانت تقيم عواطفه وتعمدها .

وحدث في اثناء اقامته في لونوود في جزيرة القديسة هيلانة انه فاه بكلام يشتم منه ما يناقض هذه الفكرة فقال حينئذ : « كنت استطيع مقاتلتهم باليعقوبيين فاليعقوبية بركان يهدد الهيئة الاجتماعية بثوران دائم ويسهل تحريك هذا البركان في روسيا فيتداعى به عرش برلين وقد كان يسهل علي في مثل تلك الحال أن اخطو خطوة واسعة لتعزيز الدولة الفرنسية فان روسيا اصبحت بعد فريدريك ومستصبح في المستقبل اكبر عقبة في سبيل القيام بمشروطاتي الخطيرة في فرنسا . وحينما ترفع القبة الحمراء في برلين تصبح جميع القوة البروسيانة في ايدينا ويتسنى لنا استخدامها لسحق روسيا والنمسا ... ولا يبقى مايجول ... دون اعادة ... حدود الامبراطورية الى مكانها الطبيعي أي نهر الرين وجبال الالب وبعد هذه الخطوة الاولى اشرع في اتمام عمل الامبراطورية الفرنسية العظمى واغنم جميع الفرض والاحوال اما بقوة اليعقوبية واما بقوة جيوشي لانثىء محالفة كبيرة من بلدان القارة الاوربية يكون امبراطور الفرنسيين زعيمها واجعل حدود هذه الامبراطورية في النيمان ولا يبقى الاسكندر الا عاهلا للبلاد الروسية الاسوية وبمحطم التاج الامبراطوري في النمسا وتنشئ المجر مملكة وتصبح بوهيميا مملكة ايضا وتصبح النمسا المملكة الثالثة المؤلفة من تمزيق اوصال امبراطورية ماري تريز . » يروي منطلون هذا الكلام الغريب ويقول ان نابوليون فاه به في ١٠ مارس سنة ١٨١٩ قبل وفاته بنحو سنتين ولا شيء فيه يشبه رأيه في روسيا واليعقوبية وقد يلوح لنا أن هذا الكلام ضرب من الهذيان يراد به السعي لانتحال سياسة اخرى وقد تكون تجربة « الايام المئة » قد جعلته يعتقد انه لا يكون لديه سوى تلك

ضريح نابليون في القاهرة



الوسيلة للبقاء في منزلته اذا عاد الى فرنسا وقد لمح الى ذلك في الحديث الذي دار بينه وبين مترنيخ في درسده وما قاله حينئذ : « قد يتداعى عرشي ولكني اهدم العالم تحت انقاضه . »

وادرك تاليران بقوة ذهنه ورباطة جأشه من ابتداء « الايام المئة » ان النجاح الوحيد الذي كان نابوليون يتوخى اصابته هو جعل تلك الحرب حربا وطنية فلم يكن جيبشه كافيا لذلك الفرض وكانت الحال تقضي عليه بان يعمل على الحزب الذي خرج منه واتخذ انقاضه موطنًا لقدميه ونال من كرامته مدة طويلة ولم يقرب هذا الموقف الخطير عن علم الاسكندر فاشار على اللورد كلانكرتي بالتفريق بين نابوليون واليعقوبيين . أجل ان مثل هذا العمل كان شاقا على امبراطور روسيا ومع ذلك كان بين الملوك المجتمعين في فيينا واحد مطلع جد الاطلاع على حقيقة الامور وعالم بان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع نابوليون التوصل بها لقضاء لباثته هي الرجوع الى ما كان عليه في بدء حياته الجندي أي ربيب الثورة التي تجسمت فيه .

وقد قال لافالت الحقيقة في عبارة فاه بها في هذا الصدد : « ان الاحد عشر شهراً التي قضاه لويس الثامن عشر على العرش عادت بفرنسا القهقري الى سنة ١٧٩٣ » وقد تحول نفور الناس في هذه المدة القصيرة الى شكل مؤامرات ولكن الناس كانوا ينوون ان يجلسوا لويس فيليب على العرش كملك دستوري ولم يكن يهيجس في ضمائرهم ان يعيدوا الى العرش الطاغية الذي أبعد عنه . ولما عاد الامبراطور الى باريس دعر من رؤيته التغير الذي نشأ فيها . فان احترام الناس ومحبتهم له ضعفا ضعفا ظاهرا وقد قال انه لو عرف وهو في جزيرة الباماطراً على فرنسا من التغير لبقى في الجزيرة وكان يدعو اليه لافالت مرتين أو ثلاث مرات في النهار ويبحث معه ساعات طويلة في حالة البلاد الجديدة . وقال لافالت : ولو أصاب الامبراطور النصر وعاد الى عاصمته وهو يجر ذلاله لتصدت له مصاعب داخلية كثيرة لم يكن يسهل عليه تذليلها وقد ظهر فيما بعد ان رغبة البلاد في رجوع الامبراطور كانت أقل من رغبتها في ذهاب البوربون وحالما تقلص ظل هؤلاء عنها سكنت الحماسة في الحال وشعر نابوليون بذلك بما أوتيته من قوة الملاحظة وقال لوزير هناء باتيانه اعجوبة حقيقة في العودة الى الاستيلاء على

فرنسا : « مهلا يا صاح فقد انقضى عهد الاطراء ولا يخفى علي انهم تركوني اجيء كما تركوا غبري يذهب . »

ويكفي أن نورد مثالا واحدا للاستدلال على حرج الموقف فان نابوليون استعاد لقبه القديم « امبراطور بنعمة الله ودستور الامبراطورية » فكان هذا اللقب مشيرا للاستياء عند الكثيرين في البلاد وقد أجاب مجلس الشورى على ذلك باعلان عقيدة « سيادة الشعب » فكان عمله هذا قذى في عين الامبراطور ولكنه اغمض عينه على القذى وتجاوز عن غطرسة مجالسه وبذاءة رجالها وظهر عظمير السكينة التامة وكان يدري ان الانتصار يمهّد في وجهه سبيل الرجوع الى ما كان عليه في الماضي وان الانكسار يبعث اصحاب الافكار الجديدة على قلب عرشه اذا لم يستطع ان يلجأ الى قوة اعظم من قوة المبادئ الحرة أي قوة الثورة ولكن لماذا لم يتخير أمرا من هذين الامرين ولماذا لم يستشر فرنسا الثورية ويتولى زعامتها . ان ادارة هذه الحركة كانت تستفز مطامعه في شببته خيما كان قنصلا أول لم يكن يتردد في مثل هذا الامر ولكنه بعد ماصار امبراطورا أصبح ابعد نظرا وعرف انه اذا فعل ذلك جعل مسألة وراثة العرش هدفا للخطر فتصبح الدكتاتورية « شخصية » وحينئذ يكون موقفه كموقف سيلا او ماريوس وليس كموقف اوغسطس قيصر وشارلمان ومما يلفت النظر من هذا القبيل كلامه لمنطولون وقد تقدم بيانه وهو : « وضمت بقاء التاج على مفرقي » ولم يدر ذكر الخلافة في كلامه لا تلميحا ولا نصريحا فان قبوله مثل ذلك الموقف بعد ما كان صاحب المقام الاعلى في البلاد يعتبر انحذارا عن عرش مجده وعلاوة على ذلك كان كما ذكرنا آنفا ينهر من كل مائشتم منه رائحة الثورة وقد كان مستحيلا ان يصبح نبي ثورة جديدة أو بطلها بعد معركة واترلو ومع ذلك لو أتى له ان يعرف الغيب ويفتح مغالبق المستقبل ويدرك ما كان ينتظره في جزيرة القديسة هيلانة من الشقاء المبرح وغطرسة سيجانيه وشطف تلك المعيشة المحاكية للموت لكان قد نبذ دبر اذنيه جميع الاعتبارات التي بسطناها ولذلك اذعن لتصاريف الاقدار واقام يتوقع ما يأتيه به الغد وحدثته النفس بان معيشة الزراع الاميركي افضل من رئاسة لجنة الامن العام .

ونشأت بين نابوليون ومجلس النواب عداوة لم يكن يسهل ابقاء نارها

مطبوعة تحت رماد السكتان في اليوم الاول بعد رجوعه ومع ما كان من التثوية على الناس في مثل هذه الحال كانت الساطتان تعملان كل منهما من جهته من دون أن تلقي احدهما ستار المواربة على اعمالها ومن دون أن تنخدع الواحدة منهما باعمال الاخرى فكان البرلمان ينوي ان يستخدم نابوليون - بصفة كونه قائداً مجرباً - لدفع غزوات الاجنبي والخيولة دون رجوع البوربون وكان يطمع بان يذله او ان يتملص منه بعد خروجه من الحرب ظافراً وقال فوشه في هذا الصدد : « حالما ينطلق الى ساعة الروع تملك ناصية الموقف وباليته يصيب النصر في معركة أو معركتين ولكنه سيفشل في المعركة الثالثة وحينئذ يأتي دورنا للعمل . » هذه الفكرة كانت تجول في اذهان رجال البرلمان في ذلك العهد ولكنهم كانوا كالأدعي المذكور عنه في حكايات الجن انه يستنجد بالجن لقضاء اغراضه ولكن لا يبقى فيما بعد قادراً على التخلص منهم . امانا بوليون فانه اسلس مقادته للبرلمان وغرضه من ذلك أن يقدم للعالم ضماناً على حسن نيته وان يأمل الحصول بواسطة على الرجال والاموال اللازمة له وكان قد قرر في ذهنه ان يتملص من البرلمان بعد ما يحرز النصر المبين وقد صمم بعد «ليني» على العودة الى باريس واستعادة السلطة المطلقة بعد ما يقهر البريطانيين وكان كل من الخصمين العنيدين مظالمهما على اسرار سياسة الآخر وكان روح النفور من حكومة نابوليون قد ساد البرلمان حتى ان كثيرين من الاعضاء كانوا ميالين الى اندحار الجيوش الفرنسية ولم يكتفوا بتهاجمهم حينما انتهت اليهم اخبار معركة واترلو وحيث ان نابوليون كان واقفاً على حقيقة اميال رجال البرلمان ومجاهرتهم بالعداوة له فقد شعر بضرورة العودة الى باريس بعد النكبة التي حلت به وقد انحنى عليه بعضهم بالوم لانه لم يخيم على الحدود ويسعى لضم فلور جيوشه ولكن لم يكن له فائدة من وراء ذلك لان البرلمان نفسه كان يناوئه ويتعمد خلعه والاعراض عن شد ازره وكان الجميع واقفين على مقاصد البرلمان وما كانوا ينوون عمله لما وصلت اليهم اخبار واترلو ولما رأى نابوليون ان اوربا جمعت قامت عليه وان بلاده تعمدت خذله دلم انه يتعذر عليه العودة الى القتال ولو كان عنده قوات تفوق القوات التي كان يتيسر له حشدتها .

ويفضي بنا هذا الاستطراد الى موضوع آخر فانه مع معرفة الجميع لما كان

بين الامبراطور وبرلمانته من النفور والعداوة يصعب على الانسان ان يفهم كيف أن اسم نابوليون بقي ثلاثين سنة علامة الاتحاد لجميع الاحرار في القارة الاوربية مع ما كان قائما من النضال الشديد بين نابوليون والحزب الدستوري فان نابوليون لم يكن يعيل قط الى الحرية ولا الى الراغبين في توطيد اركانها وكان يتحكم على هؤلاء باطلاقة عليهم اسم «الفكرين» فان هدفه الاممي في حكومته كان قوامه النظام والعدالة والقوة والاستقامة ولم يكن يدخل عليها ما يعدلها الا ما يراه ملائما باستعانتة بدعاة الرجال ولا يفسر معنى حكاية الحرية المأسوبة اليه الا بتواري الذين سنوا دساتير سنة ١٨١٥ بعد رجوع البوربون وقد قابلهم الناس باحتقار وبعد نسيان حادثة «الايام المئة» ولم يذكر الناس الا كون نابوليون ربيب الثورة وانه حقر الاسر المالكات القديمة الاوربية وشوهها من دون ان يرعى حرمة قدميتها او تقاليدها او القابها وكان الشعب يرى فيه ممثل الثورة والجيش يرى فيه المجد ولم يذكر أحد او لم يهتم أحد بان يذكر انه تنازل عن عرشه مختارا وآثر الاستسلام لاعدائه على رأسه ثورة شعبية .

ولو ذكر الشعب هذا الامر لرأوا معاملة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة تكفيرا عنه ولم يجهل نابوليون ما كان لاعتقاله من الفائدة لذكراه وقضيته فان موته في المنفى بعيدا عن الناس محام جميع اغلاله وجميع معانيه وقد نسي الناس استبداده الشديد الوطأة واستنفاد موارد مال فرنسا ودم ابنائها وغزوة الاجانب لها مرتين بما ارتكبه من الخطأ وأصبحت ذكراه موضوعا لحكاية عجيبة بعد ما ظهرت من جميع هذه التذكارات وكان الفلاحون في فرنسا عضدا له بعد الجند لاعتقادهم انه خير واق لهم من عودة اصحاب الاقطاعات الى مظالمهم القديمة وحاجزا حصينا دون عودة شكل الاحكام السابق واستعادة النبلاء ورجال الدين لاموالهم المحجوزة في ابان الثورة ولذلك كانوا شديدي الحرص على مجده وقد عاشت بين ظهرانيهم ذكرى الاعمال العجيبة التي عملها وقد استطاع بيراني ان يحصر الفكرة الشعبية في قصة فلاحه لم تذكر نصرا واحدا من الانتصارات التي اصابها واليك ترجمة ماقاله في هذا الشأن :

« سيتكلمون عن مجده في الاكواخ حينما طوبلا ولا يبحث سكانها بعد خمسين سنة الا في تاريخه . »

هذا ما ذكره هذا الشاعر في قصيدته البديعة وذكر في قصيدة أخرى ما يأتي :
 « يا أولادي إنه مرّ في هذه القرية والملك وراه »

ويتأدى بنا الكلام إذا قلنا أن نابوليون أصاب تكريم الاجيال التي جاءت بعده ولكن مهما كتب الانسان في هذا الموضوع فلا يركب مركب الغلو والشطط فانه أحرز تكريماً عظيماً لم يحرزه أحد من البشر فلم يكن معروفاً في فرنسا بلقب جنرال أو قنصل أو امبراطور أو مشهوراً باسمه العظيم فقط بل كانوا يسمونه « الرجل » وابنه كان معروفاً باسم « ابن الرجل » والحق يقال إنه كان رجل « التصور الشعبي » وأصبح الاحرار لا يحلفون إلا باسمه فان شخصيته الهائلة جعلته ملكاً مطلقاً أكثر من نفوره من القوضى ولكن هذا الرجل المعروف بريب الثورة ومحقر مكانة الملوك كانت هالة من المجد تحديق باسمه وقد أرضى الذين يعتصمون بمبدأ المساواة بانثائه أسرة مالكة رابعة وهو الذي نشأ من العدم واضطر البوربون الى الجلاء عن فرنسا والاقامة في البلدان الاجنبية وقد سحق زعماء تلك « المحالفة المقدسة » التي كانت شديدة الوطأة على أوروبا وحرقهم وحاول أن يخمّد آخر شرارة من الثورة الفرنسية الكبرى وكان يظهر أنه يمثل بغض الحرية ولا بدع إذا كانت صورة نابوليون تصبح كمعبود للاحرار في القارة حينما ينظرون اليها من ذلك الوجه وقد بصمت فيما بعد بمثل هذه البصمة الظاهرة فان الديمقراطية صاحبة السلطة أو الدكتاتورية الديمقراطية التي نشأت عنها في فرنسا فكرة انشاء الامبراطورية الثانية وجدت ارتياحاً اليها في البلدان الاخرى وكانت بمثابة تراث سياسي تركه نابوليون أو وصية نهائية خلفها للاجيال التي جاءت بعده .



أحاديث نابوليون

ليس من الصواب ان تجمع جميع كلمات الرجل العظيم بعد تواريه عن ملمب هذه الدنيا فالذهن المتعود المثابرة على العمل اذا انقطع فجأة حكى قاطرة مسكة حديد لا تدرى الى أين تذهب وحيث لا يكون للكلام غاية مقررة فلا يكون من سيطرة عليه فالرجل العظيم يخطر له ان يتكلم وحده وحينئذ تنفجر في صدره مراحل الشهوات والموجدة والاحتقار ولم يكن هذا الامر يخفى على نابوليون فكان يقول : « اصبتم بوضع حد لكلامي فانا أقول أكثر مما أريد حينما أفيض في الكلام في موضوعات هنيئ كثيرة . » ولكن لم يكن في أحاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة مثل ذلك الاندفاع في الكلام . أجل انه كان في بعض الاحيان يهيج هاجبه على حاكم الجزيرة أو يفور فائره عند رؤيته التضيق الذي كانوا يعاملونه به أو يقذف الجزيرة نفسها بلواذع الالفاظ ولكنه كان على الغالب ساكن الجأش كثير التفكير وكانت افكاره تجري على أسلة لسانه بصوت عال وكثيرا ما كان كلامه ينتهي باستنتاجات متناقضة . وقد لاحظت لافالت ذلك التشتت في فكره عند رجوعه من جزيرة البا وقال في هذا الصدد : « لم أشاهده قط ثبت الجنان كما شاهدته في ذلك الحين فلم يكن يخاطب أحدا بكلام قارس ولم تكن بنائى صبره تتفق بل كان يصغي الى كل شيء ويناقش في كل شيء بذلك النادر وسمو افكاره وكان يعترف بخطأه بصراحة مؤثرة أو يبرهن عن موقفه بفراسة لا يضاهيه فيها أعداؤه . »

وليس في ما جمعه من أحاديث نابوليون ما يشفي الغليل فبعد سنتي القنصلية الاولين ندر ان يبوح بما يكنه ضميره في أحاديثه والذين كانت يبوح لهم بمكتومات صدره في بعض الاحيان — كبرتيه ودوروك وبرتران — حبسوا لسانهم عن الافضاء الى غيرهم بما كانوا يسمعون منه . وما من أحد يمرى في انه كان يحسن الكلام في الجمهور ولكنه حينما كان يتكلم في الجمهور لم يكن يعرب عن حقيقة فكره بل كان يفصح عما يريد هو أن يجعل الناس يتوهمون ان كلامه ترجم عن افكاره . ولنا من امثال ذلك كثير من الاحاديث في جزيرة القديسة هيلانة لانه كان يحيط به رجال يدنون الحوادث يوما فيوما وكان

يعرف ذلك . وحينما كان قابضا بيده على ناصية السلطة كان يفوه بكلام صريح فصيح بليغ في الجمهور ويورد فيلمان امثلة كثيرة من ذلك مما اتصل اليه من نربون . ولا يخلو كلام فيلمان من العمل ، وفي جميع المفكرات المكتوبة عن عهد الامبراطورية أمثلة من أحاديث نابوليون . ولكن اذا أردنا ان نقف على الحقيقة في الاحاديث المنسوبة اليه وجب علينا أن نبحث عنها في غير تلك المفكرات وعندى أن رودرر أصدق من سواه في بيان حقيقة كلام نابوليون فهو يورد لنا أمثلة من الانشاء الاصلي في عهد القنصلية حينما كان نابوليون جمهوريا في الظاهر مع كل ما يحيط به وكان يتدرب على فن الحكم المدني قبل طموحه الى عصب جبينه بالتاج فهي شذرات من خطبه في مجلس الدولة ومن أحاديثه في المالميزون وسان كلود وهي أحاديث مسهبة دارت بعد ذلك ونقلت حرفا بحرفا بالتدقيق . وحسبنا ان تقرأ خلاصة الاحاديث بين رودرر ونابوليون في يناير وفبراير ١٨٠٩ وفي سنة ١٨١١ ولا سيما في سنة ١٨١٣ وهي اظهر ما لنا نابوليون من الحديث فكلامه فيها مختصر وصريح وعنيف في بعض الاحيان ولكنه جم الفائدة فكان له تأثيرا فتانا له سر يجعله يحرك جميع عوامل قواه العقلية ويحصرها في أمر واحد ويحمله بما يورده من الشواهد والمقالات التاريخية مما توحى اليه سعة حيلته الطبيعية ومعرفته بالجنس البشري اجمالا وبالذين يمزس بهم بنوع خاص

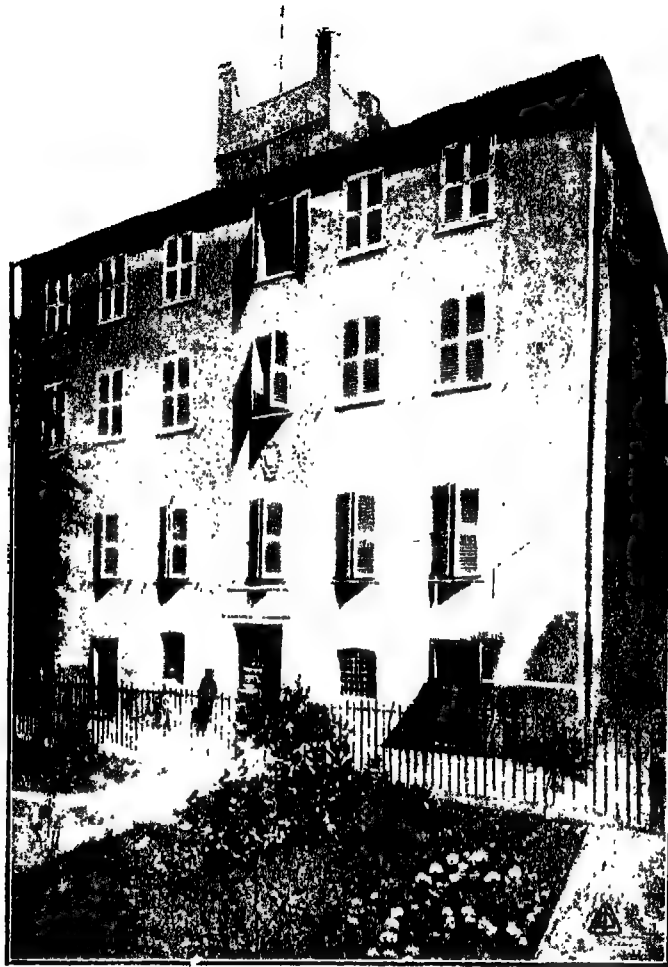
ويتعذر حصر أحاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة فهي موزعة في نحو عشرين كتابا يختلف بعضها عن الآخر في عدم تماثله في الصحة والثقة به . ومعلوم انه لا يسهل فصل الزوان عن القمح فبعض تلك الكتب املاء نابوليون فالكلام الذي املاه له أهمية وقيمة خاصة به ولكنه لا يعد من باب الاحاديث واذا بحثنا عن الرجل كما يظهر من حديثه فيكون ما نقله غورغو اصدق مما نقله غيره فنطولون لا يماثله في الذكاء ولا يبعث كلامه على الاعتقاد به ولا سانس يثقل ويركب واوميرا يترجم الى الانكليزية احاديث بلغة ايطالية وهي أحاديث ممزوجة بالحدة خطيرة الشأن ولكنها ليست موضع الثقة فغورغويروي لنا رواية صحيحة ويصور لنا صورة حقيقية يحو منها ما تحاول عواطف الوجود والحسد الصاقه بها

ان للحوادث التي يرويها اهمية كبيرة ولكن اظهر شيء فيها هو الحقيقة البادية بها بشكل طبيعي خال من التزييق والتنعيق فهي ليست تذكارات عن ادوار حياته في أوج مجده بل هي رسوم وقتية وحينما نجد فرقا بينها وبين الحوادث التي يرويها لاس كاس ومنطولون فلا نتردد طرفة عين في تصديقها فهما يحاولان في الاحوال العصيبة ان يجمللا بطلهما بمطرف فاخر ضاف أما غورغو فيصوره بالشكل الذي يجده فيه سواء كان في حمامه أو في سريره في ثوب الصبغة أو في مبادله في حالة المرور او في سورة الغضب ونذكر حادثين على سبيل التمثيل وهما مصرع ناي ومصرع مورات :

كتب منطولون ان الامبراطور قال في ٢١ فبراير « ان قتل ناي جريمة لا تغفر لان دمه كان مقدسا عند فرنسا ولم يكن لتتقهره بانتظام في روسيا من مثيل وقد كان يجب ان يلقي عمله هذا ستارا على جريمة الخيانة العظمى اذا كان ثمة خيانة عظمى قد ارتكبتها المارشال ناي ولكن ناي لم يكن مليكاً قط . . . » وقد كان الناس يتوقعون مثل هذه العواطف من نابوليون ولكنهم لم يتوقعوها منه في ٢١ فبراير لان خبر مصرع ناي لم ينته اليه الا في واسط مارس .

وتختلف رواية غورغو عن رواية منطولون فانه قال ان نابوليون غير رأيه من هذا القبيل فقد قال ذات يوم انهم « قتلوا » ناي وقال في يوم آخر : « ان المارشال لقي ما يستحقه فيجب على الانسان ألا ينكث بكلامه وانا احتقر الخونة . . . فنأي لطخ بردة كرامته وأنا أتأسف على ذلك لان ناي بطل مجرب في ساحة القتال ولكنه اخفق في مسعاه لجنوحه عن الجادة القويمة . » وقال انه اخطأ بمنحه اياه عصا المارشالية وكان يجب عليه ان يقيه قائدا فرقة لانه كما قال كافارلي كان جريء المقدم عالي الهمة . وقد سلك مسلك الخائن في سنة ١٨١٤ وتصرف تصرف السافل كما لو فادته فاذا قابلنا هذا الكلام بكلام دوقه انغوليم لما قرأت كتاب دي سيغور وجاشرت بما تشعرب به من وخز الضمير حينما قالت : « لو عرفنا في سنة ١٨١٥ ما فعله المارشال في معركة روسيا لما زلت به صرعة المنية »

ونورد ايضا الكلام الذي فاه به نابوليون في روسيا عن ناي لما قال :



بيت بونابرت في اجاكسيو بجزيرة كورسيكا

«ما اعظم هذا الرجل وما اشجع هذا الجندي . عندي في اقية التويلري مئتمليون من الفرنكات وأفضل أن اعطيها فداء عن المرشال ناي »
ونستنتج من كلام نابوليون الدال على تغيير رأيه في ناي انه لم يؤسس اجتماعه به في فنقنبلو في سنة ١٨١٤ ولم يصفح عن تصلفه في سنة ١٨١٥ لما جاهر على رؤوس الاشهاد بانه عاد بالامبراطور في قفص ولم يمتدبه نابوليون الى قيادة جيش الا قبل معركة ليني بيوم واحد وكان ذاك البطلان قد اصبحا عدوين .

ولما وصل نبأ مقتل مورات الى نابوليون وقد جاءه به ثلاثة أشخاص الواحد بعد الآخر . ولما قرأ له لاس كاش نعيه قبض العاهل على ذراعه وقال له : « كان الكالبريون اكثر شفقة من الذين ارسلوني الى هذا المكان واكرم منهم » ثم صمت .

وجعل اليه اميرا ايضا خبر مصرع مورات فتلقاه بسكينة وسأله : هل قتل مورات في ساحة الحرب فتردد في بدء الامر في القول له ان خنته نفذ فيه حكم الاعدام كما ينفذ في المجرم ولما كرر عليه السؤال اوقفه على واقم الحال فاصفى الى كلامه من دون ان تتغير هيئة وجهه .

ونقل اليه غورغو في نوبته خبر مقتل مورات فسمعه من دون أن تبدو عليه علامات التأثر ثم قال : لا بد من أن تكون الحماقة قد دفعت مورات على ركوب مثل ذلك المركب الخشن . ويؤلمني أن اعرف ان اولئك الاجلاف قتلوا شجاعا كمورات واجه الموت مرات كثيرة في ميادين الوغى فقتله أمر فظيع ، ولما انسكروا بعضهم عمل فردينان وقال : لم يكن ينبغي له أن يقتله على تلك الصورة قال الامبراطور : « ان امركم غريب ايها الشبان فقد فاتكم أن مسألة العرش لا تحتمل المزاح فهل كانوا يعتبرونه قائدا فرنسويا بعد ما انقضى وقت طويل على تركه لقيادة الجيش الفرنسوي وهل كانوا يعدونه ماسكا ولم يعترفوا به ماسكا قط فانه أمر بقتله بالرصاص كما أمر بشنق كثيرين غيره » وقال غورغو ان علامات التألم كانت تبدو على محياه حينما كانوا يقرأون له الجرائد المنشور فيها ذلك الخبر ولا ندري في الحقيقة من من الثلاثة كان أول من ابلغه نعي مورات ولكن نشعر أن رواية غورغو منسوجة على منوال الحقيقة وقد قال له نابوليون

فيما بعد : « ان مورثاتي لقي ما يستحقه وانا الخطي » في ذلك فقد كان يجب علي أن ابقيه مرشالا والا اجعله دوق دي برغ وملك نابولي »

ويعلم القاريء لماذا نؤثر الاعتماد على رواية غورغو عند اطلاعه على الاثلة التي سنوردها عن احاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة وفضلا عن ذلك كان نابوليون يكرر الكلام الذي يفوه به ولذلك نرى في كلامه ما يؤيد أقواله السابقة في المفكرات التي كتبت عنه في منفاه .

وكان الدين من أهم الموضوعات التي كانت رحي الحديث تدور عليها في جزيرة القديسة هيلانة وكان نابوليون يسر بان يقرأ التوراة بصوت عال عند اجتماع رفاقه في ناديه ولم تكن قراءته لها في كل حين ناجمة عن روح ديني وقد رأوه في ذات يوم يبعث في سفر صموئيل وسفر الملوك عن النصوص المؤيدة للملكية الشرعية ومع ذلك كان يقرأها في بعض الاحيان لغرض ديني . ويقال أنه كان كثير الاعجاب بالقديس بولس وكان في تلك الايام المدلهمة في حياته يوجه افكاره الى مسائل الايمان من دون أن يكون في عمله هذا ما يبعث على اعطاء القدوة الحسنة . وقد قرأنا أنه كان يشير بيده الى الفلك ويفوه بكلام يشف عن اعتقاده بوجود الله مع انكار الوحي . وذكرنيومان ما كان من اعتقاد نابوليون بالدين وهو في جزيرة القديسة هيلانة فقد كان يقابل مجدي قيصر والاسكندر الباطل بقوة المسيح الحية ويقول : « وهل يمكن ان يكون ادنى من الله » ولكن كلام نابوليون الحقيقي يختلف عن هذه الزعم . وكان غورغو يتكلم عن الكواكب والخالق بكلام يعبر عما كانوا ينسبونه الى نابوليون في ذلك الصدد ولكن الامبراطور أوقفه عن التماذي في الكلام .

ويقال أن نابوليون كان شديد الميل الى الدين الاسلامي وكان ينتقد الدين المسيحي لعدم قدميته ويقول لو كان هذا الدين قد نشأ منذ انشاء العالم لاعتقدت به وان النصرانية لولا صلب المسيح واكليل الشوك لما بقيت الى أيامنا هذه وكان يزعم أنه لا يقبل دينا يشجب افلاطون وسقراط والانكليز وقال ما هو الباعث على القضاء على الانسان بالعذاب الابدي واعترف ايضا بان براهين الائمة المصريين أثرت فيه فهم يزعمون ان الانسان حينما يعبد ثلاثة آلهة يكون ولا مراء من عبدة الاوثان

وقال ان الدين الاسلامي ابسط من الدين المسيحي واسمى منه فقد انتشر في نصف الكرة الارضية في عشر سنوات اما الدين المسيحي فقد انقضت ثلاث مئة سنة لتوطيد اركانه ، وقال مرة اخرى ان الدين الاسلامي هو أجل الاديان وقد تمادى به الكلام ذات مرة الى القول « نحن المسلمين » واذا كان يفضل الاسلامية على النصرانية فقد كان يفضل المذهب الكاثوليكي على المذهب الانكليكاني وعلى ذلك بقوله ان الذين يدينون بالمذهب الكاثوليكي لا يفهمون معنى صلاة الغروب التي يصلونها ويجب الا يزال عن بصيرتهم الستار المضروب عليها . ومن رأيه أن الكهنة يجب أن يتزوجوا ولكنه قال انه يتردد في الاعتراف لكاهن متزوج لثلاث يوح هذا الكاهن بسر الاعتراف لزوجته وتمادى به الغرور الى القول بانه بصفة كونه « ممسوحا بالزيت المقدس » يستطيع ان يسمع اعتراف الناس ولم يكن يجب ساسلة المناصب في الكنيسة ولا الطقوس وكان معارضا للباباوية ومن جملة أقواله ان بريطانيا العظمى وشمال أوروبا حسنا صنعنا بتحررها من نيرها . ومن السخافة الا يكون رئيس الدولة رئيسا روحيا لها أيضا ولذلك تأسف لان الملك فرسيس الاول لم يتحرر ويحرر شعبه بانتحاله مذهب الاصلاح الديني كما كان ينوي أن يفعل . ولما تبرم نابوليون من مناضلة الباباوية ندم على عدم انتحاله لذلك المذهب بدلا من عقد تلك الوثيقة (الكونكوردا) فكانت الامة تحذو حذوه وتتخلص من نير رومية . وكما تقدم في العمر جاهر بمعاداة النصرانية وحسر اللثام في آخر الامر عن فكره من ذلك القبيل فقال : « لقد قر رأيي فلا اعتقد ان يسوع (كاله) وجد فكانوا يشنقونه ككثيرين من المتهمين الذين كانوا ينتحلون النبوة يزعمون أنهم مسحاء وكان كثيرون يزعمون مثل هذا الزعم في كل سنة »

وانتقل في الكلام من العهد الجديد الى العهد القديم فقال : « ان موسى داهية وكان اليهود ساقطين وجبناء وقساسة » وقال أنه ينبغي أن يدون ذلك موسى وكان قليل الايمان بالمخلص .

اما من جهة العواطف الانسانية فكان يجاهر بانه على مذهب الماديين وزعم ان الانسان ولد في حيز تكتنفه حرارة جوية طالية . وزعم مرة اخرى انه صنع من التراب كما كان يقول هيرودس ان طين النيل كان يتحول الى جرذان

في عهده . ولما دبت حرارة الشمس في ذلك التراب خلق منه الانسان بانحاء التيارات الكهربائية : فليقل الناس ماشاؤوا أن يقولوه فكل شيء مصنوع من مادة يختلف شكل تنظيمها . وقال : « أمرت بأن يشقوا الأطباء امامي فوجدت باطنها يحكي باطن الانسان ولكنه كائن اكمل من الكلاب أو الاشجار وهو يعيش عيشة أفضل من عيشتها . فالنبات أول حلقة من السلسلة التي تنتهي بالانسان ولا يخفى علي ان هذا الامر يخالف الدين ولكنه رأي فلسنا جميعنا الا مادة » وكان يقول ايضا : « ماهي الكهرباء والمغناطيسية . هما سران عظيمان من أسرار الطبيعة واطن ان الانسان نتاج تياراتهما ونتاج الجو وان الدماغ يخرج تلك التيارات ويعطي الحياة وان النفس مركبة من التيارات المذكورة وهذه تعود بعد الموت الى الاثير ومنه تنتقل الى ادمغة اخرى »

وقال مرة لغورغو : « يا عزيزي غورغو حينما تموت تنوارى من الوجود فما هي النفس . وحينما ينام الانسان أو حينما يصبح تختل الشعوب اين تكون نفسه . » وقال مرة اخرى : « لو خبرت في اتخاذ دين لعبدت الشمس فانها تحب كل شيء الخصب وهي اله الارض الحقيقي . »

وزعم بعضهم انه كان يخاطب غورغو بمثل ذلك الكلام بقصد المزاح معه لان غورغو كان شديد التدين . ونظن انه كان يفوه بذلك ليجعل النظرية الارثوذكسية تبدو بكل قوتها . ولكنه كان في غالب الاحيان يقول انه لا يؤمن بالله منتقم ومجاز « لان خيار الناس يكونون ناعسي الجذ وشرارهم ميموفي الطالع وسررون ان ناليران وامثاله سيموتون في أسرهم . »

وقال غورغو ان برتران كان يتصور ان الامبراطور « متدين » ونحن نعتقد ان نابوليون كان متدينا بخلاف ما كان يظهر في احاديثه من الاحاد ولكنه كان يجب عليه أن يرجع الى الدين بعد ما كان قد ابتعد عنه كثيرا فهو ريب الثورة التي جحدت الدين ومع ذلك وجد في نفسه قوة كافية لاثيان اعظم عمل في حياته يدل على الشجاعة وهو اعادة الكنائس في فرنسا الى ما كانت مخصصة له وعقد الوثيقة مع البابا واجبار رفاقه في الجندية الى مرافقته الى الكنيسة لسماع القداس مع نفورهم من ذلك واستهزائهم به وكيفما كانت الاسباب التي بعثته على ذلك فلا بد من كونها قوية لحملها اياه

على الخروج على جميع التقاليد في سن الرجولية لان الايمان ومزاولة الدين - وكنا يزاولان في الخفاء بين الشعب المدني في فرنسا - لم يبق لهما أثر بين الجنود وقال لافالت في عرض كلامه عن حملة مصر : « كان الجنود الفرنسيون قد نبذوا كل فكرة دينية . »

وروى لافالت ايضا نكتة غريبة عن ضابط فرنسوي كان معه في سفينة مشرفة على الفرق ان ذلك الضابط تلا الصلاة الربية من أولها إلى آخرها ولما زال الخطر خجل الضابط من نفسه واعتذر قائلاً : « لي من العمر ثمانين وثلاثون سنة ولم اصل من اثنتين وثلاثين سنة ولا اعلم كيف استطعت تذكر تلك الصلاة وأؤكد لكم انه يتمنر علي الآن ان اتذكر منها كلمة ما . » ودام هذا التفود من الدين الى آخر حكم نابوليون رخصا من عقد الوثيقة مع البابا . وقال لافالت انه لما احتفل بالقداس بحضور الامبراطور في « الايام المئمة » ولى جميع الحاضرين المذبح ظهورهم

ولا يخفى ان الزمان الذي قضاه مع الجنود في المعسكرات وعلافته بالثأثرين وخلافه مع البابا أبعده عن الدين الذي ولد فيه وقال تاليران لهري غريفيل ان لويس الثامن عشر لما وصل الى باريس دهش لما رأى ان المكتبة التي كانت الى جانب مكتب الامبراطور كان معظمها مؤلفاً من كتب اللاهوت وكان نابوليون يكثر من تدبر تلك الكتب وسأل غرافيل تاليران هل يظن ان نابوليون كان متديناً فاجابه تاليران : « اظن انه كان متديناً وكان ميالاً الى معالجة الموضوعات اللاهوتية . » وكل ما نقوله في ذلك ان اعتقاد نابوليون الديني لم يكن يقل عن اعتقاد خلفه على العرش ووزيره تاليران

وكل ما يقال في هذا الصدد ان المسائل الدينية كان لها شأن عظيم في احاديث نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة فكان تارة يشك وتارة يردد ويستدل على حالة نفسه الحقيقية من ملاحظة ابداءها بالكلام التالي : « ان الاحق يقول انه يموت بلا اعتراف فهناك اشياء كثيرة نجهلها ولا نجد سبيلاً الى التعبير عنها . » وما قاله عن اسرار الديانة نطبقه على ما كان يشعر به عن تلك الاسرار اي : « هنالك اشياء كثيرة نجهلها ولا نجد سبيلاً الى التعبير عنها . »

والى جانب تلك الموضوعات الكبيرة التي تضيع فيها الافكار موضوعات

كثيرة عاجلها نابوليون معالجة تعرب عن اخلاقه وتهمنا بقطع النظر عن تذكاراته المختلفة وآرائه في المستقبل وهذه الآراء على ما يرونها لاس كاس ومنطولون تشبه برامج سياسية عامة اكثر مما تعبر عن افكاره الخاصة ولم يكنما ما كان يجول في خاطرها من هذا القبيل في بعض الاحيان واخرج منطولون مرة من محفظته ورقة كتب عليها مشروع دستور املاه عليه نابوليون للامبراطورية الفرنسية ليعمل به فيها في عهد نجلة . ولا ندرى هل ذلك الدستور حقيقي ولكن نعلم ان ناشري مؤلفات نابوليون اغفلوا نشره . ونميل الى التصديق ان هذا الدستور وضع في أثناء عزلة «هام» لاعادة حكومة البونابرتيين وقد اعيدت بعد حين قصير . على ان الناشرين الرسميين نشروا «التعليمات التي املاها لابنه» في ١٧ ابريل ١٨٢١ قبل وفاته بايام على ما اشار اليها منطولون ويظهر ان تلك التعليمات حقيقية .

وغني عن البيان أن نقول ان كل ما قاله الامبراطور عن البريطانيين هو في غاية الخطورة فانه في جميع حياته حارب بريطانيا العظمى على اشكال شتى ومع ذلك كان يجهل كل الجهل حقيقة امرها ولما كان في عنفوان مجده كان مترنخ في انسكرتها وقال « ان نابوليون كان يظن عن بريطانيا العظمى كل ما كان يروقه ان يظنه عنها وكانت افكاره عنها تخطيء المرمى وهذا يبعث على العجب لان انتصاراته التي كان يحرزها كانت معظمها يرجع الى تعمقه في معرفة حقيقة احوال خصومه وكان في ابان حكمه يتدبر الصحف الانكليزية ويراقب السياسة البريطانية بعين يقظى . وكان المقرّبون منه يعرفون مقدار ما يؤثر فيه انتقاد الصحف الانكليزية له ولم يكن يكثرث الا لانتقاد تلك الصحف . وكان يحب ان يترجوا له جميع العبارات المتضمنة سبابا وشتما له وكان يفور فائره عند اطلاعه عليها ومع ذلك لم يكن يتكلم عن البريطانيين وهو في جزيرة القديسة هيلانة من دون ان ينم عن جهل لاخلاقهم وعاداتهم ومما قاله عنهم : « لو قيض لي الذهاب الى لندن (سنة ١٨١٥) لاستقبلوني استقبال المنتصر وجاھرت سوقة الناس بموالاتي واستملت الي امثال غراي وغرانفيل . » وكأنه كان يظن انه ولو دخل لندن دخول الفاتح لكانت النتيجة نفسها وقال للاس كاس : « كانت اربعة أيام تكفيني لدخول لندن وما كنت لادخلها دخول الفاتح بل دخول المحرر

وكنت جددت عهد ولیم الثالث وفقته بالكرم والزاهة وكانت جيوشي في غاية النظام تتصرف فيها كما تتصرف في باريس وما كنا نطالب من الانكليز تضحية ولا اتاوة وما كنا نجعلهم يعدوننا فالحين بل اخوانا قدموا عليهم ليعيدوا اليهم الحرية وحقوقهم المساوية وكنت اقول لهم ان يضموا متفرق شملهم وان يعملوا في سبيل نهضتهم وانهم اخواننا الكبار من وجهة التشريع السياسي وانه ليس لنا مطمع الا برؤية هنائهم ويسرهم وكنت صادقا في قولي هذا فلا تنقضي بضعة اشهر حتي تصبح تلك الامتان المتعاديتان متحدتين بمبادئهما ومصالحهما. « والحق يقال انه لم يكن يصدق شيئا مما اعرب عنه في كلامه السابق ولم يفهم به الا لانه كان يحبل كل الجبل اخلاق الشعب الذي كان يزعم انه يستطيع التصرف به على هواه . وكان يسر بان يسمع لاس كاتس يروي له النكات التي سمعها في خلال اقامته في انكلترا وفضائح البلاط البريطاني وكارلتن هوس . فساله الامبراطور : « وماذا كنت تعمل هناك » ولم يكن رفاقه قادرين على تعريفه بالاخلاق البريطانية فكان غورغو مثالا يظن ان « الشعب » الذين كانوا يكتبون من السلام عنه في انكلترا هو فرقة سياسية او كما كان يظن الذين نشروا مفكراته ان « الشعب » كان من طلائع حزب الاحرار .

وماذا كان نابوليون يفتكر عن البريطانيين . إنه مع إغلاظ الكلام عنهم في غالب الاحيان كان يحترمهم وقد قال عنهم ما يأتي : « لو كان عندنا نصف ما عند البريطانيين من الروح الوطنية لقصرت الامة البريطانية عن اللحاق بنا . » وكان في بعض الاحيان يتمثل بقول باولي : « الامة البريطانية أمة تجار » وكان أيضاً يستهزئ بالامة التي قبلت مهمة اعتقاله بعد ما كانت من ألد أعدائه ولكنه كان يؤدي لها في بعض الاحيان ما تستحقه من الاكرام كقوله مثلاً : « إن البريطانيين أشد صرامة منا وهل يتصور فرنسوي إن مثل روميلي وهو زعيم يشار اليه بالبنان لحزب كبير ينتحر وهو في الخمسين من العمر من جراء وفاة زوجته . وهم أشد اعتصاماً منا بأهداف المبادئ العملية في كل شيء فيهجرون وطنهم ويتزوجون وينتخرون بسهولة تفوق السهولة التي نذهب فيها الى الاوبرا وهم أشجع منا ويمكن القول إن نسبتهم اليها في الشجاعة كنسبتنا فيها الى الروس وكنسبة الروس فيها الى الالماني وكنسبة الالماني فيها الى

الايطاليين . ولو كان عنسدي جيش بريطاني لفتحت به العالم ودرت حوله من دون أن تهى عزيمته ولو كنت مختار البريطانيين كما كنت مختار الفرنسيين في سنة ١٨١٥ لا يمكنني أن أنكسر في عشر معارك كمعركة واترلو من دون أن أفقد صوتاً واحداً في المجالس وجندياً واحداً في الجيش . . . ولا تنهى بي الامر الى امتلاك ناصية الحال . « فاذا فكر القارىء في صاحب هذا الكلام وفي الظروف التي فاه به فيها نظم عقود الثناء على أخلاق البريطانيين الوطنية ووفائها حقها من المديح .

ولما كان في أبان سطوته سنحت له فرصتان وفي فيها بريطانيا العظمى حقها من الثناء في أحاديث خاصة فحدث مرة ان أوغست دي ستال قال له إنه لا يستطيع خدمة الحكومة الفرنسية من جراء اضطهادها لوالدته فقال له نابوليون : « بناء عليه ينبغي أن تذهب الى انكلترا إذ لا يخفى عليك إنه ليس في العالم سوى أمتين عظيمتين وهما الامة الفرنسية والامة البريطانية ولا يستحق غيرها أن يقام له وزن . « وحدث مرة أخرى في أثناء حروب اسبانيا ان الجنرال فوى بم باريس واجتمع بالامبراطور ثلاث مرات فقال له نابوليون : « قل لي هل يقاتل جنودي قتال الابطال ؟ » فقال الجنرال : « نعم يا مولاي إنهم يقاتلون كالاسود . » فقال نابوليون : « وهل يخافون من الجنود البريطانيين ؟ » فقال الجنرال : « إنهم يقدرونهم حق قدرهم يا مولاي ولكنهم لا يخافون منهم . » فقال نابوليون : « ولكن البريطانيين غلبهم دائماً . . . كريسي وازنكور ومارلبورو . . . » فقال الجنرال : « ولكن معركة فنتنوى يا مولاي . . . » فقال نابوليون : « إن تلك المعركة فسحت في أجل الملكية أربعين سنة . »

وفي أثناء إقامة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة توهم أن اللادي ملكولم قالت انه يبغض البريطانيين فقال لها بشدة إنها مخطئة فهو لا يبغضهم بل يحترم أخلاقهم ومما قاله لها : « خانوني وأدت تلك الخيانة الى وجودي على هذه الصخرة الصماء في عرض المحيط وأنا معتقد ان في بريطانيا العظمى كراماً أكثر مما في غيرها من البلدان ولكن فيها أيضاً من اللئام طائفة لا يستهان بها فبريطانيا العظمى تجمع النقيضين . والبريطانيون من جنس يختلف عن جنسنا فهم شرسو الاخلاق يميلون الى سفك الدم وخوفهم من الموت أقل من خوفنا منه ولكنهم يعنون بحاضرهم أكثر مما يعنون بمستقبلهم . »

وكان يحكم حكما صائباً على احكام البريطانيين الحصار البحري ولكنه كان ينتقد انتقاداً مراً خطة ساستهم وقال انه لا يفهم — ونحن نشاطره نظريته — كيف انهم لم يستفيدوا فائدة كبرى من حروبهم الطويلة وانتصاراتهم ويظن ان ما اهتموا به بكونهم امة من التجار اثر في شعورهم وساءهم كثيراً وقد شاؤوا ان يظهروا للملا ما طبعوا عليه من الالفة وعزة النفس « وقد ينقضي الف سنة قبلما تسبح لهم فرصة للبلوغ ببلاذهم الى قمة العظمة . وفي الحالة التي صاروا اليها لاسبيل الى الضن عليهم بشيء » وقال ايضا : « انه من خرق الرأي ان ترك باثافيا للهولنديين وبوربون وبند يشيري للفرنسويين . » اما هو فلا يعطي فتراً منها لولا تحليل النفس بطرد البريطانيين من الهند وقال : « كان يجب على وزراء بريطانيا ان يحتكروا التجارة في بحر الهند والصين وألا يسمحوا للفرنسويين او لغيرهم ان يتخطوا حدود رأس الرجاء الصالح والآن يستطيع البريطانيون ان يملوا شرائعهم على العالم طراً ولا سيما اذا اخرجوا جيوشهم من القارة الاوربية وارسلوا ولبن الى اراضيه ليقم فيها واقتصروا على مد لواء سيادتهم على البحار حينئذ يتسنى لبريطانيا العظمى ان تجري كل ما تبغيه . » وقال في ذات يوم « يحتاج البريطانيون ان يكون عندهم وزير اكبر كاللورد تشاتام الشيخ . »

وقال ايضا : « فرض البريطانيون على فرنسا غرامة قدرها سبع مئة مليون وفرضت على بلادهم غرامة تزيد على عشرة مليارات فهم فرضوها بقوة حراهم اما انا ففرضتها بقوة برلمانهم . »

واقبل نابوليون على تعلم اللغة الانكليزية على يد لاس كاس وظل مقبلاً على ذلك من شهر يناير الى شهر ابريل من سنة ١٨١٦ وكان تارة يبدي رغبة شديدة في ذلك وتارة يبدي تبرا منه ثم ترك تعلمها . وكان قبلاً قد حاول درس تلك اللغة في اثناء السفر من انكلترا الى جزيرة القديسة هيلانة ولكنه ضجر من ذلك وقال لاس كاس في هذا الصدد ان تلميذه نجح نجاحاً باهراً في تعلم اللغة الانكليزية حتى صار يفهم ما يقرأ وانه له فيها ولكن لفظه كان رديئاً جداً . وكان يقرأ تاريخ بريطانيا العظمى بامعان ولم يكن قبلاً قد اهتم به منذ خروجه من المدرسة وقال : « ارى في مطالعتي لتاريخ « هيوم » ان الامة البريطانية شرسة فما اكثر الجرائم في تاريخها فان هنري الثامن اقترن باللادي سيمور في غد اليوم الذي قطع فيه رأس

أن بولن فنحن لانفعل مثل هذا الامر ونبرون نفسه لا يرتكب مثل تلك الفظائع والملسكة ماري ... ان قانون العقوبات الذي يسرون بمقتضاه عندهم غريب في بابه . « وكان أهم شيء في مطالعته لذلك التاريخ وضع مقابلة بينه وبين كرومول وقد قال ان بين عهد الملك شارل الاول والثورة الفرنسية تشابها ولكن تتعذر المقابلة بين موقف كرومول وموقفه (اي نابوليون) فالامة الفرنسية انتصبتة ثلاث مرات بملء حريتها ولم تحارب الجيوش الفرنسية الا الاجانب . وكان كرومول متحملا بصفة خطيرة وهي كتمان افكاره وكانت له مواهب سياسية كبيرة ونظر صائب في الامور ولم يأت في حياته عملا يدل على خرق الرأي . أما من جهة كونه قائدا عظيما فلم يكن نابوليون يعرف عنه كثيرا من هذا القبيل ليمبدي رأيه فيه

وابدى ملاحظتين خطيرتين مدهشتين من تاريخ فرنسا فقال : « ان القديس لويس كان مغفلا » وقال للادي ملكولم : « ان هنري الرابع كان ولا مشاحة أعظم ملك جلس على عرش فرنسا . « ولكنه كان يقول هذا الكلام للاجانب وكان يقول خلاف ذلك للمقربين اليه : « لم يعمل هنري الرابع عملا عظيما قط وقد حاول فلتير بملحمته ان يجدله في مكانة عالية وذلك ليحقر منزله لويس الرابع عشر لانه كان يدغمه واضحك حينما اقرأ ان رجلا يدعى ماسون قال لفرديريك ملك بروسيا ان هنري الرابع كان اكبر قائد بين المتقدمين والمتأخرين . لانكر ان هنري الرابع كان رجلا كريما شجاعا يكر على اعدائه والسيوف بيده ولكنه كان احمق . اما لويس الرابع عشر فقد كان أعظم ملك ظهر في فرنسا . . وكان جيشه مؤلفا من اربع مئة الف مقاتل . والملك الذي يستطيع أن يحشد مثل هذا العدد من الجنود لا يكون رجلا عاديا ولم يكن لسواي وسواء مثل هذه الجيوش الجرارة » . ويزعم نابوليون انه لو كان في عهد الملكية القديمة لرقى الى درجة المرشالية لانه لفت اليه الانظار حينما كان ملازما في الجندية ولا يصعب عليه الترقى حتى يصل الى درجة كولونل وحينئذ ينتظم في سلك اركان الحرب تحت امرة مرشال فيعمل أعمالا تمهد في وجهه سبيل التقدم .

وله وجهة نظر في تاريخ فرنسا الحديث لا يسعنا أن ننظر اليها نظرة جديدة فقد قال في مارس سنة ١٨١٥ : « يا ليت الملك والامراء لا يزالون باقين فالجنود

ينحازون الي ويبطشون بالملك والامراء ولا يبقى من وجه لبقاء لويس الثامن عشر على العرش » وكان في بعض الاحيان ثور فيه سورة الغضب فيقرغ كاس سخطة على فرنسا نفسها ويقول « لقد انتهكوا حرمة فرنسا واصبح الشعب الفرنسي مشلوم الشرف ومتجلببا بمجلباب اللؤم والجبن وهو يستوجب ذلك لانه بدلا من ان يلتف حولي ولا في ظهره »

وكان يتكلم عن اسرته من دون ان يزن كلامه بميزان التحذر ومن دون ان يجد غضاضة في بيان خمول أصلها وربما كانت حرية افكاره من هذا القبيل هي التي جعلته متميزا عن العاهل الذي يولد في مهد النعمة ولم يذكر أحد شيئا عن العاهلين معاصريه الاسكندر وفرنسوى بأنهما يتحدثان مع حاشيتيهما عن شؤون اسرتيهما الخاصة ومن هنا تعرف العلامة التي يفرقون بها بين الدعي والاصل وكانت القيصرية كاترين تتكلم عن اصلها وفصلها بمثل الصراحة التي يتكلم بها نابوليون لأنها لم تولد بجوار درجات العرش

وكان نابوليون يقول ان اسرته من الاسر التي يشار اليها بالبنان في كورسيكا وانه لا يزال له عدة انساب في الجزيرة وقد قال في هذا الصدد : « لي نحو ثمانين نسيبا ... وانا موقن ان الذين انضموا الى مورات في سنة ١٨١٥ كانوا من انسابي . » وقد اخطأ نابوليون بقوله هذا لان انسابه لم يكن لهم علاقة بمورات ولم يشتركوا معه في الحملة التي غرر فيها بنفسه وطوح بها الى المهالك ولم يكن بهم نابوليون ان يعدوه كورسيكيا لانه كان يعتبر نفسه فرنسوياً قبل كل شيء وقد قال من هذا القبيل : « ولدت في سنة ١٧٦٩ بعد ما ضمت كورسيكا الى فرنسا . » وبنهه خصومه بأنه استبدل صك ولادته بصك ولادة شقيقه يوسف الذي ولد في سنة ١٧٦٨ قبل ضم الجزيرة الى فرنسا . وحدث أن أحد محافظي ليون كان قد سمع بهذا الامر ، ولم يكن من اصحاب الكياسة والنباهة فقال في خطبة خطبها امام الامبراطور : « وما يقضي بالعجب العجيب يا صاحب الجلالة ان تحب فرنسا محبة عظيمة وتضحي بكل شيء في سبيلها وانت لست فرنسوياً . » فقال الامبراطور : « لما سمعت منه هذا الكلام وليته ظهري ... » وبقطع النظر عن جنسيته الفرنسية كان يفضل انتماءه الى ايطاليا أو تسكانيا على انتمائه الى كورسيكا وكان يقول . « كانت اسرتي في تسكانيا من

نحو مئتي سنة فلي رجل في ايطاليا واخرى في فرنسا . « ولا يشق على القارىء معرفة مقدار فائدة تينك الرجلين له لانه كان صاحب الامر والذهبي في فرنسا وايطاليا كليهما . ولم يكن انتسابه الى اصل كورسيكي يجديه نفعا ولذلك كان يحب أن يتبرأ منه بقدر ما يستطيع .

وكان يبدي ملاحظات غريبة عن نسبه وقد خطر لاحدهم ان يجعل ذلك النسب متصلا بصاحب . « الحكامة الحديدية » فقال ان حاكم بينيارول - وكان السجين المجهول معتقلا في قلعته - كان يدعى بومبار فزف كريمته الى السجين (وكان نابوليون يزعم ان ذلك السجين شقيق للملك لويس الرابع عشر) وساعدهما سرا على الذهاب الى كورسيكا تحت اسم بونابرت . وقد قال نابوليون عن هذه الاشاعة : « كان تصديق هذه الحكاية الملفقة منوطا بكلمة واحدة مني » ولما دارت المفاوضات على اقترانه بالارشيدوقة ماري لويز اهتم والدها الامبراطور فرانسوي بنسب صهره وارسل اليه ملف اوراق يشير الى انه متحدر من دوقات فلورنسه فضحك الامبراطور عند اطلاعه عليها وقال لمرينيخ « اوهل تظن اني اهتم بهذه السخافات وهب كان ذلك صحيحا فما فائدتي منه : ان دوقات فلورنسه كانوا ادنى مقاما من عهال المانيا فلا ارضى بان تكون منزلي ادنى من منزله حي . واظن ان مكاني مساوية لمساكنته وشرفي لا يتجاوز منتهنوت فاليك عني هذه الاوراق . »

وهناك قرابة أخرى رفيعة الشأن قد لا ينبذ الانتساب اليها فانه قال ان بونابرت هو بوناروتي نفسه فهل كان يعتقد انه نسيب لميخائيل أنجلو . وقد تأسف لانه لم يتركهم يذيعون قداسة نسيبه بوناوتورا او بونيافاشيوس بونابرت فكان اخوانه الرهبان يباهون بهذا الشرف ولو انفقوا لنيله مليون فرنك ولما ذهب البابا من رومية الى باريس اقترح عليه ذلك الامر واوشك نابوليون ان يوافق على اقتراحه وقال حينئذ : « ان ذلك يستميل الي جميع الرهبان الكبوشيين » ولكنهم فكروا فيما بعد ان ذلك العمل يبعث على الهزء وهو وخيم المغبة في كل مكان ولا سيما في فرنسا .

ولم يكن نابوليون يكتف عن اصدقائه شيئا من اسرار أسرته فقال ذات يوم عن والده انه توفي في منبلياي في الخامسة والثلاثين من عمره وقال مرة أخرى

انه مات وله تسع وثلاثون سنة من العمر وانه كان منغمساً في الملاذ مسرفاً يتصبر الاعيان وانه لما حضرته الوفاة لم يكن حوله رهبان كثيرون ومع ذلك كانت آخرته صالحة بحيث كان جميع الناس في منبلياي يزعمون انه مات قديساً وخدم الحظ عم والد نابوليون فاعاد الى الاسرة ما فقدته من الثروة ومات غنياً ومما قاله نابوليون حينما تكلم عن وفاته « ان بولين اخذت كيس نقوده من تحت وسادته بينما كان يجود بنفسه . »

وكان الامبراطور يتكلم بسكينة عن الارجيف التي انتشرت عن كون باولي والده وكان يدحضها بادلائه بحجة مقنعة بيد انها لم تكن مما يليق أن تذكر ومع ذلك كان باولي يعتني به اعتناء الاب بابنه ومما كان يقوله له : « انت يا بونابرت من الرجال الذين يذكرهم بلوطرخس المؤرخ اليوناني ولست من المتأخرين . » وكان حينما يتكلم عنه امام الناس يقول : « لهذا الشاب رأس كرأس قيصر على جسم كجسم الاسكندر وفيه عزيمة تعادل عشرة اضعاف عزيمة سيلا . » وكان والدا نابوليون جميلي الصورة . وقال نابوليون : « لما كانت والدتي حبلتي بي كانت رافق والدي في الحرب المتقدمة ناراها في كورسيكا فشقق عليها القواد الفرنسيون ونصحوا لها بان تلد في بيتها واقول انها حبلى بي قبلما ضمت كورسيكا الى فرنسا ولكن لما ولدني امي كانت الجزيرة قد خضعت لفرنسا . » وكانت النقطة الاخيرة تهمة وهم اسرته كثيراً

وهنا مجال لان نذكر ما كان لنا نابوليون من الملاقة بكورسيكا فانه ولد فيها وعاش فيها حتى بلغ التاسعة من عمره وعاد اليها في أول رجوليته . وقضى فيها ثلاث سنوات وشهرين بين أول يناير سنة ١٧٨٦ ويونيو سنة ١٧٩٣ ثم قضت عليه الاحوال بمفادرة الجزيرة ولم يعد اليها فيما بعد الا عند رجوعه من مصر فنه قضى فيها حينئذ مدة قصيرة وابصرها مرة اخرى عن بعد وهو سائر على طريق جزيرة البا ومع ذلك لم تفارقه كورسيكا قط وكان لها في حياته تأثير شديد وكان في السنوات الاولى التي قضاها في الجزيرة انه خاضع بوزو دي بورغو خصاماً شديداً كانت له عواقب وخيمة عايه لانه كانت لبوزو دي بورغو يد في سقوط نابوليون في المرة الاولى .

وبعد ما غادرت والدته نابوليون جزيرة كورسيكا ووصلت الى مرسيليا أصبحت في حالة ضيق شديد فلم يكن معها شيء من المال وكان معها اولادها الصغار اما نابوليون فلم يكن في جيبه الا ورقة قيمتها خمسة فرنكات فصمم على الانتحار وبينما هو واقف على ضفة السين وهو على تلك الحال وافاه صديق له وأمدته بمبلغ من النقود واخرجه به من ذلك المأزق الحرج . وكان يقول : ولدت والدتي ثلاثة عشر ولداً وكنت انا ثالثهم فهي امرأة ولود . وانتهى اليه كتاب من والدته وهو في جزيرة القديسة هيلانة فأثر فيه ذلك الكتاب تأثراً شديداً حتى مزقه فانها مع تقدمها في السن وفقد بصرها كانت تبتغي الذهاب الى جزيرة القديسة هيلانة ومما قالته في كتابها : « انا طاعنة في السن ويشق علي أن اقطع النقي ميل في البحر وقد اموت في اثناء الطريق ولكن لا بأس من ذلك فاني اموت قريية منك . » اما مرضعه فانها عاشت مدة طويلة بعد وفاته وترك لها في وصيته مبلغاً من المال وقد ذهبت الى باريس لتشهد حفلة تتويجه واطهر البابا عظفا شديداً عليها حاج كامن غيرة والدته واصبح نجل تلك المرأة رباناً في إحدى السفن البريطانية

وكان نابوليون يكتر من الكلام عن زوجته ويكشف اسرار حياتهما البيتية ويتساءل هل أحب في حياته حبا حقيقيا ثم يقول ان المرأة التي أحبها . قليلا هي جوزفين ومما قاله عنها : « انها كانت تكذب دائماً على التقريب ولكنها كانت تتفنن في أساليب الكذب وحين كان الكلام يدور على سنها كانت تتلصص وتحاول كتمان الحقيقة والذين كان يهمهم رضاؤها كانوا يمالئونها على زاعمها بحيث كانت نتيجة متابعتهم لها على قولها تبين ان اوجين نجابها ولد وهي في الثانية عشرة من عمرها ... ولم تطلب مني شيئاً لنفسها ولا اولادها رأساً بل كانت تحملني دينا يقدر بالملايين . » وكانت نقيصتها الكبرى غيرها المستمرة ومع ذلك لم تكن تغار من ماري لويز بل هذه كانت تغار منها ولما حاول الامبراطور ان يأخذ زوجته الثانية لزيارة زوجته الاولى اجهشت ماري لويز في البكاء وتذرعت بجميع ذرائع الدهاء للحيلولة دون ذهابها لزيارة جوزفين .

رقال نابوليون : « ان ماري لويز كانت متناهية في بساطة القلب وكانت

نحبنى ولو كان لها مستشارون صادقون ولو لم يكن الى جانبها منتبلوا اللئيم وكورفيزان
الوغد لكنت ولا مرء قد ذهبت معي الى جزيرة الباء وعلاوة على ذلك عين لها
والدها نيرغ السافل ليلازمها في روحاتها وغدواتها . « وهذه هي المرة الوحيدة
التي لمح فيها نابوليون الى خيانة زوجته وقد كان قبلا يحاول ان يلقي السر على
ذلك الامر ومع ذلك كان لا فالت قد اطلعه على كل شيء من هذا القبيل في أثناء
الايام المئة وشاع ذلك عند الجميع في البلاط . وظل الامبراطور يحسن الظن
بماري لويز واليك ما كان يقوله عنها : « انها امرأة صغيرة حبيبة يروعها وجودها
بين الفرنسيين الذين قتلوا عمتها ولم تكن تكذب قط وكانت كثيرة التحفظ
وتبش في وجه الجميع حتى الذين كانت تمقتهم وكانت اذكي من والدها ولم تكن
تطبق زوجة ابها وحينما كانت تحتاج الى المال كانت تطلبه مني وتسرحينا
اعطيها عشرة آلاف فرنك وكان الانسان يستطيع ان يستودعها اسراره . وقال
لها والدها قبل مغادرتها لغينا : حينما تختلين بالامبراطور اظهري له الطاعة في
كل شيء . وكانت فتاة فتانة وجيدة القلب وقد خلصت حياتي ومع ذلك اظن
اني مع حبي لها كنت احب جوزفين اكثر منها فاني اخترت هذه بنفسى وقد
صحبتني في السراء والضراء وارتقيت معها في سلم المجد وكانت معدن اللطف
ولم يكن يثبطها شيء عن مرافقتي الى جزيرة الباء ولو ولدت لي ولدا لما افترقت
عنها قط ولو تم ذلك لكان من بين طالعيها وبين طالعي فرنسا ، فالتسا قضت على
ولولا اقتراني بماري لويز لما حاربت روسيا « ثم قال انه صمم على عدم الزواج
اذا مات ماري لويز وحينما يفكر الانسان في الحالة التي صار اليها في جزيرة
للقديسة هيلانة يرى في كلامه هذا مزيجا من المهزلة والمأساة

وامح تلميحا مؤلما الى نجله لما قدم له غورغو في يوم عيده في ١٥ اغسطس
باقة ازهار زعم انها رسالة من ملك رومية فقال بخشونة : « ان ملك رومية
لا يفكر في ولا فيك » ولكن وصيته واحاديثه كانت تدل على ان فكره كان
دائما مع ولده وكان ينوي لو رزق ولدا ثانيا ان يعطيه ايطاليا كلها مملكة له
وان يجعل رومية عاصمة لها .

وقال نابوليون ان كارولين زوجة مورات كانوا يعدونها بلهاء حينما كانت
صغيرة ولسكنها لما كبرت أصبحت ذكية وحسنة ولم يستطع كظم غيظه لما انتهى

اليه خبر زواجها الثاني ولم يصدق هذا الخبر في بدء الامر فانها بعد ما قضت مع مورات عشرين سنة وبعد مصرعه بخمسة عشر شهرا تزوجت في فينا وكان لها اولاد كبار . وقال نابوليون عنها . « ان هذا الامر لمن اعجب الامور التي مرت علي . . . ما غرب أطوار البشر . . . فالحب كان المحرك لعواطف هذه الحبيثة في جميع ادوار حياتها . »

وبعد ماتلفي نابوليون نبأ زواج كارولين جلس على المائدة لتناول الطعام والغضب يغلي في صدره ولا يستطيع تسكينه فافرغ جام سخطه على الطاهي زاعما انه لم يحسن طبخ الطعام وقال غورغو ومنطولون انهما لم ينظرا الامبراطور قبلا على مثل تلك الحال من الغضب فامر بالطاهي ان يجلد ويطرد . اجل ان ذلك المشهد مؤلم ومضحك معا ولم يصدر الخطأ عن الطاهي بل عن كارولين . ولم يكن زواج شقيقته الباعث الوحيد على فوران غضبه والراجح ان ذلك الخبر اعاد على ذهنه ذكر يوم في سنة ١٨١٤ علم فيه ان مورات خانه وحارب فرنسا مجنوده وقد شعر الامبراطور في ذلك الحين باحتقار لمورات وقد رفعه من حضيض التحول الى ذروة العرش ولكنه وجه غضبه الى كارولين لعلمه انها هي المتسلطة على ارادة زوجها .

ولم يسهب في الكلام عن اخوته فقال عنهم : « ان اخوتي اضروني كثيرا وقد اخطأت باجلاسي يوسف الغر على عرش اسبانيا فقد كان يجب ان اجلس عليه ملكا حزوما عزوما ولم يكن هم يوسف وهو في مدريد الا اصطبياد النساء . . . وهو لا يعرف شيئا من الشؤون العسكرية وان يكن يزعم ان له خبرة واسعة فيها . . . وليس له قلب . » ولما وهنت قوى نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة اصبح شديد الشبه باخيه يوسف .

ولما انتهى اليه ان شقيقه لوسيان ولويس ينظمان الشعر الركيك في مدح البابا قضى العجب من تلك الاطوار الغريبة . وقال نابوليون ان لوسيان كان يرغب في الاقتران بملكة اتروريا بعد ١٨ برومير وقال انه يقرن بامرأة ساقطة اذا حالوا دون اقترانه بالملكة وقد انجز ما هدد به وقال الامبراطور ان لوسيان لم ينفع شيئا في اثناء الايام المئة ولكنه طمعت نفسه الى الدكتاتورية بعد واترلو وقال ان ما كان بينه وبين الحزب الجمهوري من العلاقات من خمس

عشرة سنة يضمن له ميل حزب المعارضة فيتولى الدكتاتورية ويسند قيادة الجيش الى نابوليون ولما سمع الامبراطور ذلك الكلام الغريب التفت الى كارنو فقال له هذا بلا تردد معبرا عن عواطف الجمهوريين : « مامن احد منهم يرضى بان يستبدل دكتاتورية دهائك بدكتاتورية رئيس مجلس الخمس مئة . »
 وكان يتكلم قليلا عن اليزا وهي دون سواها من جميع افراد الاسرة تشبهه بطباعها واخلاقها وسمو مداركها وقد يكون ذلك باعشا له على قلة محبته لها .

ولم يتكلم كثيرا عن بولين الفتاة المحاسن المستعبدة للشهوات وعلاوة على ذلك يظهر ان الناس لم يكثرثوا لتلك الاسرة فقد كانت غريبة في اطوارها وقد نشأت في الفاقة والحرول وترعرعت فيهما فانتحلت الحق الالهي بلباقة عظيمة ولم تفاخر امرة البوربون ولا اسرة هبسبورغ بسمو مكانتهما الملكية بمثل ما فاخر به اولئك الملوك الذين لم تمتد أسباب حكمهم كثيرا فيوسف كان يعتقدانه يستطيع ان يثبت قدمه في اسبانيا لو اخرج نابوليون جنوده منها وكان لويس يعتقد الاعتقاد نفسه وهو في هولندا وهذا ايضا كان اعتقاد كارولين ومورات في نابولي . وماعثم جيروم ان انشأ بلاطا في وستفالي بحاكي بلاط لويس الرابع عشر في العظمة والحفاظة على « الرسمية » وكانوا جميعهم مكابرين ومتصليي الرأي بيد ان ما امتازوا به من المزايا الحسان والنقائص الفاضحة كان عاديا . وكانت شقيقات العاهل يظهرن بمظهر العظمة وقدامتازت كارولين واليزا بمواهبهما النادرة وكان لاختوة نابوليون واخواته ما كان له من صلابة العود وشدة الشكيمة والاعتداد بالنفس وكثيرا ما كانوا يزدرون به ولم يستنكف بعضهم من الجاهرة بعداوته وحاولت شقيقته صاحبتا المقام الملكي ان تصرما بحال العلاقة به وان تفاوضا العدو بصفة كونهما صاحبتى سلطة مستقلة وكان لوسيان يزعم أنه يليق بمنصب اعمى من منصب نابوليون . وقال « باسكيه » ان اليهود المقطوعة وعواطف المودة المقدسة كانت عراها تنقصم في تلك الاسرة العجيبة حالما يلوح لهم تدبير سياسي

ولم يقتصر نابوليون في احاديثه على شؤون أسرته بل كان يتطرق الى الكلام عن عشقه وغرامه وقال انه كان له سبع عشقات في حياته وان هذا العدد

كبير وكان يتكلم بخفة عن عقيلة فالفسكا وقد كان حين اشتد هيامه فيه بهامع اعتقاده بأن البولونيات شديديات الميل الى دس الدسائس وقال ان تاليران سهل له السبيل الى الوصول اليها . وقال ذات يوم لغورغو انه لما كان ناقا عليه اراد قبل سفره الى جزيرة القديسة هيلانة ان يزوجه بها ولكنه لا يفعل ذلك الآن لان عواطفه نحوه تغيرت

وقد سر باقترانها بالمسيو دورنانو وقال : « انها غنية ولا بد من ان تكون قد ادخرت وافي سخوت بالعطاء على ولديها » فقال غورغو : « بقيت جلاتك مدة طويلة تجري عليها رزقا شهريا قدره عشرة آلاف فرنك » فاجر الامبراطور وقال له : « وكيف عرفت ذلك » فقال غورغو : « لم اكن بعيدا عن جلاتك وكان اهل البلاط جميعهم يعرفون ذلك »

وقال نابوليون ذات يوم ان من البواعث على سخطه على مورات هو ان الملك يواكيم حجز في سنة ١٨١٤ اموال عقيلة فالفسكا في مملكة نابولي

وتكلم بصراحة عن علاقته بالأكسة جورج وعقيلة غراسيني وعقيلة دوشاتل وعقيلة غاليانو وعقيلة بلابرا ولمح غورغو الى امرأة اخرى من دون ان يذكر اسمها وهي عقيلة فوراس وقد قال عنها نابوليون « كانت في السابعة عشرة من عمرها وكنت قائد اكبر للجيش » ووقت ما كان جالسا على العرش ظن الناس انه عرض عن معاشره النساء وكان الامر كذلك وقد علل هو ذلك بقوله انه من طابعه شديد الشعور وقد خشي من تسلط النساء عليه وتأثيرهن فيه ولذلك نحاشى عشرتهن ولكنه جاهر فيما بعد بأنه اخطأ من هذا القبيل وقال : « اذا عدت الى العرش فسأخصص ساعتين في كل يوم لمحادثتهن وسأتعلم أشياء جمة منهن . » وحاول في الايام المئة أن يصلح ما ارتكبه من الخطأ بعدم الاكتراث لهن في الماضي وكيفما كان موقفه في فرنسا تجاههن فانه افاض في الكلام في هذا الموضوع في جزيرة القديسة هيلانة فحينما كان الحديث يحره الى ذكريات مؤلمة كان يقول « دعونا من هذا ولنتحدث الآن عن النساء . » وحدث مرة وهم على المائدة لتناول الغداء ان الجدل احتدم بينهم لمعرفة اي النساء اجهل السمينات ام الرقيقات وكان يدلي بالبراهين ليؤيد رأيه في تفضيل المرأة الشقراء على المرأة السمراء وكان يقول لابد من قتل الوقت

وكان من الطبيعي ان يفضل الكلام عن معاركه على جميع الموضوعات ولم تكن تلك المعارك تقل عن ستين فكان يتكلم عنها بصراحة تامة ويقول : « الحرب فن قائم بنفسه واؤكد لكم اني اضرمت نار ستين معركة ومع ذلك لم اعرف عنها اكثر مما عرفتته عن اول معركة وكان قبصريحارب في آخر معركة كما كان يحارب في اول معركة من معاركه »

واخذ على طائفة تبعة معركة روسيا فقال : « كنت صاحب السلطة وعلى وقع الخطأ (ولم يشأ ان يعترف بمثل هذا الاعتراف بعد معركة واترلو) ولما عرفت وانا في درس ان اسوج وتركيا لانتجاران بمناصري كان يجب علي الا اظل ماضيا في حملي . . . أجل اني مع كل ذلك ظفرت بالروس في موسكو . . . وقد ارتكبت خطأ كبيراً باطالة مكثي في تلك المدينة ولولا ذلك لكان مشروعني بالنجاح وكان ينبغي لي ألا اقيم فيها سوى خمسة عشر يوماً وان اقضي بعد دخولها على فلور جيش كوتوزوف والذهاب الى مالوجاروسلافتر والرحف الى تولا وكالوغا والاقتراح على الروس ان اجلو عن بلادهم من دون ان ادمر فيها شيئاً » ولم يكن يني عن القول : « ان زواجي بالارشيدوقة بعثني على محاربة روسيا . » والحق يقال انه توهم انه يستطيع الاعتماد على النساء وقال أيضاً : « ان روسيا تطمع بتوسيع نطاقها » ولذلك ظن ان تينك الدولتين تشايغانه على التنكيل بروسيا وانه يستغني بهما عن سواهما وقال بعد ذلك : « لقد تسرعت فكان يقضي علي بان اقضي سنة على ضفاف النيمان وفي بروسيا لكي يتسنى لي القضاء عليها » ومما لا بد من الاشارة اليه هو انه كان يبغض بروسيا بغضاً شديداً فكان حذسه كان ينبئه بما تدبره له بروسيا من المعاطب .

وقال مرة أخرى : « كان اكبر خطأ ارتكبه في تلست فقد كنت استطيع خلع ملك بروسيا عن العرش ولكنني ترددت في ذلك حينما من الزمان وانا موثق ان الاسكندر لم يكن ليقم التنكيل علي ذلك بشرط ألا استولي على مملكة بروسيا وجاءني امير شاب من اسرة هوهنزولرن كان في جملة الضباط في اركان حرب برتية وطلب مني ان اجلسه على عرش بروسيا ولو كان متحدرا من فريدريك لبادرت الى اجابة سؤله ولكن الفرع الذي كان ينتمي اليه كان قد انفصل من نحو ثلاث مئة سنة عن الارومة وصدقت ما كان ملك بروسيا لما لني به من تأكيد ولائله لي »

واعترف بأنه ارتكب خطأ مشؤوماً بعد تدهوره في روسيا بعدم ارجاعه اسبانيا الى فردينان ولو فعل ذلك لكان جيشه قد زاد مئة وثمانين الفا وذلك من الجنود الذين يخلون اسبانيا وكان هوره في اسبانيا قد ابتدأ حينما اشتد الخلاف بين ملك اسبانيا ونجله وحينما قال هو : « لنطردها فلا يبقى البوربون على العرش » وكانه نسي بوربون نابولي .

ويزعم نابوليون ان النمسا كانت سبب سقوطه وقد قال : « لولا معركة اسلنغ لتفوضت اركان امبراطورية النمسا ولكنني خسرت خسارة كبيرة في اسلنغ ولذلك عدلت عن ذلك الامر فالنمسا عدوة فرنسا الحقيقية . » وقد ندم على ابقائه عليها وخطر له مرة ان يثير فيها الثورة من ريشتها وفكر مرة أخرى في تقسيمها الى الى ثلاث ممالك : النمسا والمجر وبوهيميا .

واي معركة بعدها اعظم معاركه . هل هي استرلنز . لجوابه على ذلك : « ربما كانت كذلك » ولكنه يميل الى تفضيل معركة بورودينو على جميع معاركه فقد كانت معركة عظيمة بعيدة عن أرض الوطن وقال عن معركة استرلنز : « ان الجيش الذي توليت قيادته فيها كان أقوى جيش سقته الى ساحة القتال . ومن ذلك الحين صارت جيوشني تفقد شيئاً فشيئاً مما امتازت به من المزايا الحربية . » وكان جيشه في معركة وغرام اكثر عدداً من الجيوش التي حارب بها وكان ينوه دائماً بالخطأ الحربية التي رسمها في معركة اكهل وبياهي بها قائلاً : « ان الخطأ التي رسمتها فيها كانت أحسن خطة رسمتها فاني قاتلت بخمسين الف مقاتل مئة وعشرين الفا وانتصرت عليهم . » ولو غاص في لجة الكرى في الليلة السابقة للمعركة لما استطاع قهر اعدائه فيها وقد قال في سياق الكلام عنها : « ايقظت لان برفسه برجلي لانه كان مستغرقاً في النوم : « فلا ينبغي لقائد الجيش ان ينام في الليل لان الليل وقت عمله ولذلك كان يركب مركبة في النهار لئلا يلم به التعب على غير جدوي وقد انكسر يوسف في معركة فيتوريا لان النعاس استهواه .

وكان نابوليون يقول : « ليس القائد الكبير رجلاً طادياً ولم اعرف من قواد الثورة من يستطيع التفوق سوى ديزه وهوش وكانت المعركة التي اذكي دموريه سعيها في شمبانيا من أشد المعارك هولاً وصعوبة وكان دموريه الرجل الوحيد المشهور في القتال بين الرجال الذين تمجدوا من

الاعيان . « وابدى نابوليون ملاحظة غريبة عن كليبر فقال عنه : « انه كان محرزا لمعايب الرجال الطوال النجاد ومزاياهم العالية . « وقال عن تورين : « هو اعظم قائد فرنسوي وكان يزداد جرأة واقداما كلما تقدم في السن وذلك خلافا للمألوف بين الناس ... وقد فعل ما كنت افعله لو كنت في موقفه ... وهو رجل لو كان معي في وغرام لادرك في الحال مرمى الخطة التي رسمتها وكان كنده يدركها ايضا اما قيصر وحنيبعل فلا ... ولو وفقت برجل كتورين يعينني في معاركي لمسكت العالم ولكن لم يكن معي أحد وحيث لم أكن كان قواذي ينهمزون . ان كنده قائد بطبيعته وتورين قائد بخبرته واعتبره قائدا يفضل فريدريك البروسي ولو كان في موقفه لفاقه في اعماله ولما ارتكب ما ارتكبه فريدريك من الهفوات فان ذلك الملك مع كونه رجلا عظيما لم يدرك حقيقة منافع المدفعية »

وقال في حديث له : « كنت في المعارك التي انتصر بها انسب لنفسى نصف الفضل وابقى النصف الآخر للقواد الذين يمتازون فيها باطلائهم البلاء الحسن والحق يقال ان الجيش هو الذي ينتصر . « وكان ينصف القواد بقوله : « الجيش المتوافر فيه شروط التنظيم هو الذي يعرف كل قائد فيه ما يجب عليه ان يعمل به طبقا لمقتضيات الاحوال فافضل جيش هو الذي يقرب اكثر من غيره من هذا الغرض الاسمى . «

أما رأيه في قواد جيوش اعدائه فقد كان محتفظا به في ابان حروبه معهم . وقال أحد رفاقه المقربين اليه في عهد حروبه ان نابوليون كان يعد الفيزي افضل قائد ناهضه في ايطاليا ولذلك لم يذكّر اسمه في نشراته الرسمية بيد انه كان يكيل المديح جزافا لبوليو وورمسر والارشيدوق شارل الذين لم يكن يرهّب جانبهم . والراجح انه صار فيما بعد يرى غير هذا الرأي من جهة الارشيدوق . وابتى فيما بعد أن يبرح لواردن برأيه في دوق ولتن . ولم يكن من وجه - وهو في جزيرة القديسة هيلانة - لظهور رأيه فيه من دون ميل مع الهوى ولسكنه لما كان جالسا على العرش قرن اسم ولتن الى اسمه بشكل غريب لما اكتسح ولتن بلاد البرتغال في اثناء تهمره الى ليشبونة فقال : « لا يعمل مثل هذا العمل إلا ولتن وانا . « ثم عقب على ذلك بقوله : « ان اكتساح اقليم البلاتينا اعظم عمل اضطلع به لوفوى . «

وكان يأسف على جزيرة البافقال بكآبة : كنت من سنة في جزيرة الباف...
وكان مستظاعاً لي ان أرتع في بمبوحة الرغد والهناء في تلك الجزيرة مع ما كان
معي من المال الوافر ومع ما كانوا يظهرونه لي من مجالي الاكرام ومع مقامي
بين ظهري علماء اوربا وتأليني منهم نواة لا يستهان بها... وكان ميسوراً لي
أن اشيد صرحا شاهقاً استقبل فيه على الرحب والسعة جميع الذين يزوروني.
وكان يتسنى له ايضا ان يفتح ثغور الجزيرة في وجه التجارة . وكان لوسيان -
وقد كان يجهل حقيقة شقيقه - يبتغي ان يمنحوه استخراج المعادن من
الجزيرة بجانا

وقال برتران لغورغو أن جزيرة القديسة هيلانة افضل من جزيرة الباف لانهم
كانوا في هذه الاخيرة يلقون ضروبا شتى من نكد العيش . وما من احد يمري
في أنه من اكبر نكبات الدهران ينحدر الانسان عن اعظم عرش في الدنيا
لينزوي في جزيرة صغيرة من دون أن يتحقق انهم يكرمون وفادته فيها ولذلك
كانوا يشعرون بانهم يصرح عزائمهم في خلال الاشهر الاربعة الاولى في ابان
اقامتهم فيها . اما في جزيرة القديسة هيلانة فلا يشعرون شعوراً شديداً بذلك
السقوط لانهم ألفوه . وكان نابوليون يبدي آراء متناقضة من هذا القبيل فكان
تارة يتأسف على جزيرة الباف وتارة يلعن جزيرة القديسة هيلانة ولكنه أخذ
ذات يوم يمتدح منها من جهة راحة حاشيته فيها ومما قاله عنها : « نعيش فيها
عيشة راضية فنستطيع ركوب الخيل فيها وقد توفرت لنا ألوان الطعام والشراب
على المائدة ونستطيع التجويل فيها ايان وأنى شئنا وهم يكرمونا ويحجون مقامنا. »
هذا الكلام رواه غورغو عن نابوليون .

وكان الامبراطور يسهب في الكلام بالتفصيل حينما يتكلم عن جزيرة الباف ،
فانه لما فصل عن فنتنبلو في سنة ١٨١٤ لم يكن له كبير مطعم في العودة الى
فرنسا . واول فرصة سنحت له واعادت اليه شيئاً من ذاهب أماله كانت لما
انتهى اليه انهم دعوا نساء الاعيان الى المأدبة التي ادبت في دار البلدية .
ومن الموضوعات التي كان يحب الخوض في مجال البحث فيها - وكانت
طريقة البحث فيها تعرب من دهائه العملي - موضوع نفقاته البيتية فكان
يناقش الحجاب عليها ويقول في بعض الاحيان : لنفرض أن لدينا ميزانية منزل

هولندي يبلغ دخله السنوي مئتي ألف فرنك . . . ولكنه كان يعني بكلامه هذا ميزانية فرنسوي لان الهولندي لا ينفق من ذلك الدخل الا ثلاثين ألف فرنك . وكان يوماً آخر يبحث في نفقة رجل ارصد لنفقته خمس مئة ألف فرنك في السنة ويقول انه يؤثر على كل شيء حالة ذلك الرجل بشرط أن يعيش في الارياف ويكون له منزل صغير في باريس على مثال المنزل الذي كان له في شارع شنترين . وأكده لرفاقه انه « يستطيع أن يعيش عيشة حسنة جداً في فرنسا باثني عشر فرنكا في اليوم فيكفيه فرنك ونصف فرنك للعشاء ويمكنه انتياب المعاهد الادبية والمسكاتب العامة وملاعب التمثيل ودفع جنيته واحد اجرة لغرفته في الشهر . » وانتبه بعد ذلك الى حاجته الى خادم لأنه لم يكن يحسن لبس ملائمه وحده فاضاف مبلغاً آخر الى ميزانيته وقال « يستطيع الانسان ان يقضي عيشة سعيدة اذا خصص جنيها لنفقته اليومية بشرط أن يقدر على كبح جماح رغائبه بشكيمة ارادته ويتمتع بضروب الملاهي بمعاشره اترابه ونظرائه . »

* *

من مفكرات الدكتور أنطومرخي

لما اضطر الدكتور اوميرا الى مغادرة جزيرة القديسة هيلانة من جراء ما كان هداماً لو يتعمده من التضيق عليه رضيت الحكومة البريطانية بارسال طبيب الى الجزيرة يعني بصحة نابوليون ووافقت على ارسال الدكتور انطومرخي الكورسيكي الاصل وقد طلبت والدته نابوليون وشقيقها الكوردينال فحس من حكومة لندن الترخيص لذلك الطبيب بالاسراع في السفر .

واليك ما استهل به الدكتور انطومرخي مفكراته :

« تلقيت وانا في رومية تقرير الدكتور اوميرا عن مرض الامبراطور وهذه خلاصته :

« ظهرت في أواخر سبتمبر اعراض تنبئ عن خلل في وظيفة الكبد وكان نابوليون قبل ذلك الحين يصاب بنزلات ويشكو من الصداع ونوب الرئبة وقد اشتدت تلك الاعراض يوماً فيوماً وظهر انتفاخ في الساقين والقدمين واتخذت اللثة شكلاً اسفنجياً مقروناً بحفر الاسنان ومصحوباً بأعراض التخممة .

اول اكتوبر سنة ١٨١٧ — اشتد الألم وارتفعت درجة الحرارة وصار
الامبراطور يشعر بثقل في خاصرته اليمنى وبعسر الهضم

ولم يقف المرض من ذلك الحين بل كان يتقدم تقدما بطيئا مستمرا وكان الألم
خفيفا في بدء الامر ولكنه أخذ في الازدياد حتى صرنا نخشى من حدوث نوب
كبدية حادة وكان اشتداد المرض ناجما عن الزلات الشديدة المتوالية

ونحرت ثلاث اضراس من اضراسه فاعتقدت انه كان لها شأن في التهاب عضلات
فيه واغشيتها وخيل الي ايضا ان الزلات ناشئة عنها فقلعناها في فترات ملائمة
ومن ذلك الحين قلت النوب . ووصفت له لشفاء الحفر الذي كانت اللثة تم عليه
الاكثر من اكل البقول وتناول الحوامض فأصبحت بغيتي بذلك وشفي الحفر
بالوسائل التي توسلت بها

وعادت ساقاه الى حالهما الطبيعية باستعمال المسهلات والتغميز على انه شعر
بالم فيهما بعد حين من الزمان ولكنه كان خفيفا وكانت المسهلات والحمامات الحارة
والعرق الغزير يخفف آلام الحاصرة من دون ان تزيد لها تماما وازدادت في
خلال شهري ابريل ومايو واصبحت غير منتظمة ونشأ عنها امساك البطن
فلاسهال فاستفراغ مقدار كبير من المواد الصفراوية والمخاطية وصار يشعر بنوب
مفص ورياح باطنية وفقد الشهوة للطعام واصبح يشعر بثقل وقلق وضيق صدر
وشحوب وجهه واصفر وصار بوله حامضا وملونا وبات يشكو من وهن الفكرك
والصداع ولم يبق قادرا على النوم على جنبه الايسر وصار يشعر بحرارة في خاصرته
اليمنى وغثيان وقيء في بعض الاحيان تصحبه عفراء حامضة ولزجة . وكان ذلك
يزداد مع اشتداد الألم وهجره النوم او كاد وصار يشعر بتعب وضعف .

وعاد الألم الى سابقه ولكنه كان اخف مما كان عليه قبلا وعاد ايضا الصداع
والقلق والاضطراب والثقل في الشراسيف والى جانب القلب من الامام وكانت
الحرارة ترتفع عند دخول الليل وتلهب البشرة وكان يشعر بعطش وألم في القلب
ويسرع النبض في الحركة ثم تعود اليه السكينة ويعرق عند تباشير الصباح وكانت
تلك الحالة ثابتة عند المريض . ومن خصائص العرق الغزير عنده اخداد حرارة
الحمى وكان في جهة الحاصرة اليمنى خراج يشعر به من الخارج حينما يضغط عليه
وكان لسانه ابيض دائما على اريب وصار نبضه ينبض ٨٨ نبضة في الدقيقة

وكان قبل مرضه ينبض ٥٤ نبضة الى ٦٠ نبضة وصار يشكو من الألم فوق عظم الكتف ووصف له مسهلان لتحريك الكبد والبطن واعداد افراز الصفراء ف شعر براحة وقتية وكانت تأثير ذلك يسيرا ووقتيا في أواخر مايو وأوائل يونيو واقترح اعطاؤه الزئبق ولكنه انى استعماله باي صورة كانت واشير عليه بركوب الخيل للتنزه وبفرك الخاصرة بشعيرة كل يوم ولبس الفلانلا وبلاستحمام بالماء السخنان وباستعمال الادوية وبترويج الخاطر وملاحظة الحمية في الطعام والشراب وتجنب التعرض للتقلبات الجوية . وكان قد أهمل أمرين خطيرين الرياضة البدنية والسلاوي واستطعنا التغلب على عناده في ١١ يونيو فاقنعتنه باستعمال الزئبق فاخذ حبواً زئبقية وظل يستعملها حتى ١٦ منه وكنت اعطيه تلك الحبوب في المساء والصباح واعطيه مسهلات من حين الى آخر لمقاومة الامساك وغيرت الوصفة بعد ستة أيام واستبدلت الزئبق بالكالومل او الزئبق الحلو ولكن نشأ عنه ألم في القلب وقيء ومغص واضطراب عام في جسمه فعدلت عن اعطائه اياه ولكن عدت الى وصفه له في ١٩ منه فنجم عنه الاعراض نفسها فرجعت الى العلاج الزئبقي الاول واعطيته اياه ثلاث مرات في النهار ووقفت العلاج في ٢٧ منه . والمنزل الذي يقيم فيه شديد الرطوبة وكان نابوليون قد اصيب بنزلة شديدة واشتدت عليه الحمى فعاد الى استعمال العلاج نفسه في ٢ يوليو حتى ٩ منه ولكن لم يأت بالفائدة المطلوبة وكانت الغدد اللعابية على حالها وازداد الارق والتهيج وتوالت نوب الدوار وقد تألبت عليه الاحوال الجوية القاتلة في الجزيرة والجمود مدة سنتين وسوء تهوية المنزل الواطي المقيم فيه وسوء المعاملة والافراد والاهمال وكل ما يهيج ساكنات العواطف . وهل من عجب بعد ذلك اذا ألم الاضطراب بالكبد فلم تقم بوظيفتها واذا كان ثمة من وجه للعجب فهو بطء تقدم المرض وما ذلك الا لصلاية نفس المريض ومثانة بنيته فانها لم تستهدف قط للافراط ،

(التوقيع) باري اوميرا

جراح وطبيب الخ

ان هذا التقرير جعلني اصمم ع.ا. السفر الى جزيرة القديسة هيلانة فركبت البحر في دبتفور طبقا لاوامر الوزارة البريطانية في ٩ يوليو في سفينة تجارية مشحونة دقيقة ولما وصلنا الى رأس بالم دنونا من الشاطئ فاسرعت اليينا

الزوارق وجاءونا بألوان الطعام الكثيرة وسألنا أحدهم الى أين تذهبون فقلت الى جزيرة القديسة هيلانة . ولما سمع ذلك لبث جامدا ثم قال بصوت متهدج : انتم ذاهبون الى جزيرة القديسة هيلانة ولكن هل ما يقال عن وجوده فيها صحيح فسأله الربان ومن تعني بكلامك هذا فنظر اليه ذلك الافريقي نظرة احتقار ودنا منا والتي علينا السؤال نفسه فاجبناه بأنه لا يزال فيها . فرنا البنا وهو صامت ثم هز رأسه وقال : ان هذا من المستحيل . فصار الواحد منا يتطام في الآخر ولم نعرف ذلك الهمجي الذي كان يتكلم بالانكليزية والفرنسوية وكان شديد الاعجاب بالامبراطور فقلنا له : وهل تعرفه . — من عهد بعيد . وهل ابصرته — في عنفوان مجده . — واين ابصرته . في القاهرة وفي الصحراء وفي ساحة القتال . — وهل انت مراتب في المصاب الذي نزل به . — ان ذراعه قوية ولسانه عذب ولا شيء يقوى على الوقوف في وجهه . — وقد بقي ردحا من الدهر يتصرف بمقدرات اوربا . — لا تستطيع اوربا ولا العالم قهر هذا الرجل العظيم فالممالك والباشاوات كانوا يفرون امامه وهم لا يملكون على شيء فهو رب الحرب . — واين عرفته . — قلت لكم اني عرفته في مصر . — وهل انتظمت في سلك جيشه . — كنت في الفصيطة الحادية والعشرين وقضينا مدة في سمود والقصر وغيرها من الاماكن وماذا جرى للجنرال بليار . — لا يزال حيا يرزق وقد اشهر باعماله الحربية في اكثر من عشرين معركة فهل تعرفه ؟ — كان قائدا للفصيطة الحادية والعشرين وكان يضرب في اجواز القلاة كأنه من سكان البادية ولم يكن يصده حاجز ما عن التقدم . — وهل تتذكر الجنرال ديزه . — لا ينسأه أحد من الذين كانوا في حملة الوجه القبلي فانه كان شجاعا وجريئا وكرما وقد خدمته مدة طويلة . — وهل كنت جنديا . — لم أكن جنديا في بدء الامر بل كنت عبدا لاحد انجال ملك دارفور فارسلوني الى مصر واساؤوا معاملتي ثم باعوني وساقني الحظ الى خدمة حاجب من حجاب ديزه العادل فالبسوني الملابس الاوربية وعهدوا الي في القيام ببعض الاعمال البيتية فنهضت بها خير نهوض وقد سر السلطان (الاسم الذي كانوا يطلقونه على الجنرال بونا بورت) مني وامر بان اتقيد بخدمته وكنت اتهج بك آخر قطرة من دمي في سبيل خدمته ولكن يستحيل ان يكون بونا بورت في جزيرة القديسة هيلانة . — ان نكبتة حقيقة فالحيانة والمثامرة ان كل

شيء كان يذل ويخضع له وكانت كلمة لطيفة منه تقيل عثارنا وتزيلنا سؤلنا ولم نكن نرهب شيئاً حينما كانت طلعت تشرق علينا . - وهل حاربت تحت رايته . - جرحت في احدى المعارك فارسلت الى الوجه البحري وكنت في القاهرة لما ظهر مصطفى فتحرك الجيش وسرت معه ووصلنا الى ابي قير فما كان أشد سداد رأيي بونا برب وما كان اجراءه في الهيجاء ومن المستحيل ان يظفر به أحد ولا اصدق انه في جزيرة القديسة هيلانة .

واصر على انكاره وجود نابوليون في الجزيرة فلم نشأ ان نحمو من ذهنه ذلك الوهم العزيز عنده واشترينا منه تبغا وبارودا وملابس واشياء أخرى تافهة ثم غادرنا راضيا ومسهبا في الكلام عن القصيلة الحادية والعشرين وقواده واستحالة وجود رجل عظيم كـ نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة واقلعت السفينة بنا وقاسينا احوالا في البحر ووصلنا أخيرا الى جزيرة القديسة هيلانة في ١٨ سبتمبر ولما ابصرنا الجزيرة عن بعد في وسط تلك اللجة بدت لنا صخرة صماء موحشة فناجيت النفس قائلا : على هذه الصخرة القوا الامبراطور وقد تألبت الملوك عليه للانتقام منه ونسوا مكارمه حينما كان يظفر بهم في الحروب . وكنا موشكين ان نطأ تربة تلك الجزيرة ونستنشق الهواء نفسه الذي يستنشفه الامبراطور ونشاطر سيد العالم مصيره . ولم يركونا نزل الى الجزيرة حين وصول السفينة اليها بل أخرنا وزلنا الى غد ذلك اليوم فسألت مندوبي الحاكم عن صحة نابوليون فقالوا لي : « ان صحته جيدة جدا وهي افضل من صحتنا . »

وبعد ما اخصوا امتعتنا وبحنوا في جيوبنا اخذونا الى مقر الحاكم هـ دصن لو فأحسن استقبالنا ودطانا الى الغداء على مائدته وكان يكثر من الكلام عن كورسيكا ويسألنا عن امور شتى عنها وقال انه قضى مدة في اجا كسيو . واطنب الحاكم في حسن الاحوال الجوية في جزيرة القديسة هيلانة وجودة هوائها واعتداله .

ثم اننا توجهنا الى لونود مقر الامبراطور ولما وصلنا اليه ذهبنا توا الى الجنرال برتران وهو يقوم بتصرف الامور ويكفي نابوليون مؤونة الاهتمام بها وكان جلالته قد تلقى جرائد لندن وأخذ يقرأ في جريدة « المورننغ كرونيكل » ما كتبه تلك الجريدة عني فانها اسهبت في الثناء علي بصفة كوني عالما نباتيا

مشهورا ولم تذكر كلمة ما عني كطبيب . فقام في ذهنه اني لم اكن بارعا في الطب ولذلك لم يثق بي وتنكر مني . ولما اخبروه بوصولي كان يفكر عني بمثل ما تقدم بيانه فقال للرشال الاكبر : « اذهب والنظر وقل لي من هو هذا الرجل الذي ارسلوه الي وتحقق قبل كل شيء عن مقدرة الطببة . »

ودعاني الجنرال برتران مع الاب فينيالي الى الغرفة المجاورة ولما جالسنا سألني عن الوقت الذي تركت فيه رومية وهل اعرف أسرة الامبراطور وكيف حال والدة جلالاته والكردينال فش ولوسيان وبولين وغيرهم . وكيف اختاروني للسفر الى جزيرة القديسة هيلانة وبأي صفة قدمت اليها واين زاولت الطب وهل كان معي رسالة لنا بوليون من ذويه توصية بي واي سبب حملني على ترك ايطاليا للمجيء الى تلك الجزيرة الفقراء ومن رأيت في أثناء سفري من رومية الى لندن ومن الذين خالطتهم في لندن وماذا قالوا لي فيها . فجاوبته على جميع الاسئلة التي القاها علي ثم قدمي الى قرينته الكونتة فاحسنت استقبالي وسألني بعض اسئلة عن البلدان التي مررنا بها وبعد ما طرخوا اسئلة من نوع اسئلتي على الاب فينيالي دعونا الى العشاء ودلونا على الغرف التي اعدوها لنا وبينما انا اخلع ثيابي دخل علي الجنرال برتران وطلب مني ان اذهب معه الى الجنرال منطولون فانه يعني التحدث معي فسرت معه اليه وانا لا أدري سبب تلك الحركة وقلت له : ان الاتفة دون سواها حملتني على انتجاع جزيرة القديسة هيلانة ولم يكن لي مطعم الا في خدمة اعظم رجل في عصرنا ولم أدخر وسعا للقيام بتلك المهمة حالما علمت انها تتعلق بالامبراطور واني مستعد لتضحية جديدة اذا نبذت خدمتي فاعود في الحال الى اوربا . ثم عدت الى غرفتي وطار الغوم من عيني ولم اشعر بشيء من التعب الذي كنت اشعر به قبلا وعرفت من الطباخ شندليه الذي رافقنا الى الجزيرة اهم القوا عليه اسئلة كثيرة عن سفرنا والاشخاص الذين خالطناهم وما سمعناه من الاخبار وان الامبراطور دعاه اليه وسأله عما قالوه في رومية عن اختيار الطبيب والكاهنين وعن اشياء أخرى كثيرة ففهمت من ذلك ان الامبراطور كان شديد التحفظ مني ولم ادر سبب ذلك .

ولما طلع الفجر انتظرت بصبر جل تلك العقدة وجلاء الغامض فدخل علي النكونت برتران وطلب مني ان اقدم تقريرا مكتوبا بالتفصيل عن عمل ولادتي

وسني واسرتي والمدة التي درست فيها وسألني عن المكان الذي زاولت فيه الطب وعن المدة التي قضيتها في مزاولته وأي فرع من الطب تخصصت له فاخبرته بالايجاز في الحال عما طلب معرفته مني واريت شهاداتي واوراقتي وكتاب الكردينال ودعي الابوان فينيالي وبونافيتا الى بيان حقيقة حالهما وتقديم البراهين المؤيدة ذلك .

ولم تسكرم وفادتنا في لونود وكان الباعث على ذلك انه لم يكن معنا مكتوب توصية فالكردينال فش لم يتيسر له ان يكتب ذلك المكتوب من جراء وفرة اشغاله للامبراطور او للمرشال الاكبر ولم ينتبه احد من أفراد الاسرة الى سد ذلك النقص فارسلتنا الحكومة البريطانية ومعنا توصية من الوزارة فرحب بنا حاكم الجزيرة وكان ذلك كافيا لتحذر الفرنسيين منا . وبعد اخذ ورد قبلونا لاننا فرنسيون وكورسيكيون فثلت في حضرة الامبراطور في غرفته الصغيرة ولم يكن النور الكثير يدخلها وكان في سريره فدنوت منه باحترام وخشوع ولما رأي على تلك الحال خاطبني بلطف وقال لي بالايطالية ادن مني أنت الذي من رأس كورسيكا وكان يخاطبني فيما بعد باللغة الايطالية في جميع احادته معي . ادن مني لكي استطيع رؤيتك وسماعك لان اذني ثقلنا على هذه الصخرة الصماء فاقتربت منه ورماني بنظرة عطف وقال : كنت قريباً من بلادك في حدائتي الاولى ونزلت الى البر قراب مورسيايا في ميناء ماسيناياو وذهبت من هناك الى روليانو وقد ابصرت فيها منزلا جميلا ثم واصلت السير الى تومينو فبورتيسيولو ومن هناك شخصت الى باستيا ووجدت مشقة كبرى لوجود جواد ورجل يرافقي وقد وفقت الى ذلك اخيرا . وكان الجواد عاري الاشاجم كأنه هيكل عظام ولكنه كان متعودا السير في تلك الطرق الوعرة ووصلت الى باستيا وقد سررت من دليبي وسر هو ايضا مني .

ولكن حسبنا ما تكلمناه عن تلك البلاد التي لامطمع لي برؤيتها مرة أخرى ففصل لي الآن كم من الزمان اتقضى عليك بعد ذهابك الى كورسيكا للمرة الاخيرة . - سنتان يا صاحب الجلالة . - كم لك من العمر . - نحو ثلاثين سنة . - لو لك من العمر . - نحو سبعين سنة . - تقول انه كاتب عدل ولكن هل

يخذو حذو زملائه في تزوير الصكوك في بعض الاحيان . - ان والدي محترم عند وطنيه وقد احرز ثقة الجميع . - بناء عليه لاسيبل الى الشكوى منه وهل تذكر فتحي لايطاليا في المرة الاولى . - احفظ لذلك ذكرى مهمة . - كان الجميع متحمسين وكانوا يهتفون هتافا يطبق الفضااء ويزدحمون محتشدين في الاماكن التي أمر بها ويكرموني اكرامهم لمعبودهم . وظلوا مقيمين على عهد الامانة والاخلاص لي وانت لاتستطيع تذكر ذلك لانك كنت حدثا في ذلك الحين وبعد عودتي من مصر نزلت في اجاكسيو ثم في فريجوس وكانوا يبالغون في تكريمي واکرام وفادتي . - اذكر يامولاي ظهورك غير المنتظر وقد غير وجه اوربا وكنت الصمم باعجاب ما كانوا يروونه عن اعمال الجنرال بونا بارت الخطيرة وكان الناس يشربون نخبك يا صاحب الجلالة ويتمنون لك التوفيق . - وكم كان لك من العمر لما فصلت عن كورسيكا . - نحو خمس عشرة سنة : - في ليفورنو كثيرون من وطنيك الاغنياء . - نعم يامولاي وقد اصبح كثيرون منهم معدودين من الاعيان وهم يلقون رعاية لدى الفرندوق . - وهل درست في بيزا . - ابتدأت بدروسي في ليفورنو واكملت في بيزا وفلورنسة ثم اتخذت فلورنسة محلا لاقامي ولبثت فيها ازاول التطبيب حتى سافرت الى هنا . - وهل كان اهل تسكانيا يحبون الفرندوقه البزا . - كانوا يحبونها ويخافون منها في وقت واحد . - وهل كانت تعمل شيئا لاستماله رعيثها اليها . - كانت تعزز الفنون وتظلل العلوم بكنفها وتتولى الحكم لخدمة مصلحة الجميع . - انها انشأت في لوك معاهد فخمة ومفيدة واظن انها غنية . - اولا تظن ان التسكانيين سروا برؤية حاكمهم السابق . . .

ثم قال له نابوليون : ما هو الباعث على قبولك المجيء الي لمشاطرتي المنفي - اؤكد لجلاتك اني لا اطمع بالذهب ولا بجزء من مافهم ما ولم أساوم في الشروط لمحيثي فقد اقترحوا علي أن أقدم عليك وحسبي ذلك نفرا ومجدا وليس لي مطمع في سوى ذلك . - ولماذا لم تقرر مرتبا بالاتفاق مع اسرتي قبل تلبية دعوة صديقك كولونا . - ليس في المنافع المادية ما يعادل التضحية ولم يحلمني على تقرير القدوم عليك الا حب المجد وحده . - المجد حسن ولكن لو كانوا قد اجبروك على الرجوع من حيث اتيت فاذا كنت تصنع وماذا كان مصيرك . -

إن الاستقبال الذي استقبلوني به كسف بالي ومما زادني المأ هو الارتياح في ..
 أنت كورسيكي وهذا الأمر شفع فيك ولا بد من أن يكون الغرندوق مسرورا
 من رؤيته أحد رجاله يأتيني بمعونته الطبية على هذه الصحرة الصماء .. اظن
 ذلك يا حضرة صاحب الجلالة فقد كنت شديد العطف عليه .. عرفته معرفة حقيقية
 وكانت ماري لويز تحبه وكان مفتونا بحاسن ملكة نابولي وكنت أعده أميرا
 كريم الاخلاق .. وهل اطلت اقامتك في رومية .. نحو شهرين .. لقد سئلت لك
 الفرصة لزيارة أم معاهدها ويسوئي ألا اكون قد شاهدتها وقد صممت على
 إعادة عظيمها القديمة اليها وجعلها عاصمة إيطاليا ولكن الاقدار لم تشأ ذلك ...
 وبقية الآن فيها فريق من أسرتي فالبابا باشيخ جليل وقد رعت حرمة مقامه
 السامي في كل حين ... والآف ... كلني بصراحة وقل لي ما تعرفه من
 أسرتي وابتدئ بالسيدة الوالدة لانيسيا .. لم تقو النكبات على هدم صرح
 عزيزتها فهي تناهض الخطوب بما أوتيته من الشجاعة وهي راموز الاذعان وعلو
 الهمة .. وهل تستقبل الناس وهل تخالط الناس في الهيئة الاجتماعية وما هو نوع
 معيشتها .. اعزلت معاشر الناس ولا تستقبل إلا أفرادا تمنحهم من ذات نفسها
 واولادها الذين في رومية يلتفون حولها ولكن جميع افكارها وأمانها موجهة
 الى جزيرة القديسة هيلانة وهي تنتظر كلمة واحدة لترك البحر غير مبالية باللجة
 لتضمك الى صدرها .. لقد كانت امرأة فاضلة في جميع أدوار حياتها وأما فائدة
 النظر واحببني في كل حين أو لم تغادرها في حالة أسى شديد .. كانت في بدء
 الأمر تحاول اخفاء تأثيرها ولكنها ما لبثت أن ثابت الى نفسها وأبدت شجاعة
 أدبية تفوق طوق الانسان .. انا متحقق أنها لا تنحجم عن اقتحام المخاطر التي
 اقترحتها ولكنها هل تخالط الناس .. تزور في بعض الاحيان اولادها ونيافة
 الكردينال .. وهل يشاهدها الكردينال كثيرا .. عدة مرات في اليوم ..
 وأولادها .. كل يوم على التقريب .. وبولين .. أقل منهم لان توعلك صحتها
 يحول دون ذلك .. ومارأيك في مرضها .. لا أعرف حقيقة .. وهل تعرف
 جميع أفراد أسرتي المقيمين في رومية فكيف خالهم وماذا يقولون عني ..
 جميع افكارهم متجهة الى جزيرة القديسة هيلانة ولا مطمع لهم الا في خلاصك
 من الأسر .. قل لي بالتدقيق كل ما قاله لك كل منهم بأن تبليغنيه فإذا قالت

لك والدتي . - هي واولادها يقفون جميع أموالهم في سبيل خلاصك وراحتك
وعند أول اشارة تتعري من كل شيء ولو اضطرت الى المعيشة في الشقاء والفقر
المدقع . - وماذا قال البرنس دي كانيغو . - قال انه اتفق مع يوسف على أن يأتي
كل منهما في نوبته لقضاء ثلاث سنوات عند جلالتك اذا لم ترفض ذلك . - وماذا
قالت بولين . - قالت انها تلتظر أوامرك لتسرع في المجيء الى جلالتك . -
سننظر في ذلك . ثم ابتسم وقال بعد ماصمت هنيهة : لا أطيق أبدا أن يأتي أحد
من أفراد أسرتي الى هذه الجزيرة ويتجرع كؤوس الإهانة من الانكليز
ولا أريد أن يشهد أحد منهم ذلك خفي أن أجمعها وحدي . ثم انتقل الى
موضوع آخر وقال : أو لا تزال السيدة لا تيسيا متمتعة بنضارتها . - انها لا تزال
على ما كانت عليه من حسن الصحة . - أو لا تزال بولين فتنة للناظرين . - لا تزال
كما تعهدا . - انها لم تمن بغير التأنق في ملابسها وارتشاف كؤوس الملاذ
والمسرات وهل يجتمع لويس بلوسيان . - انهما يجتمعان مرات كثيرة عند السيدة
الوالدة . - وهل يستقبلان الناس في بيتها . - ان البرنس دي كانيغو يستقبل بعض
الكبراء الذين يركن اليهم أما لويس فيعيش في عزلة . - أو هل تظن انه يقضي
وقته في التبعذ لله . - كذا يقولون ويزعم بعضهم أنه شديد التبعذ . فضحك
الامبراطور وقال : وماذا تعرف عن صحته . - انها في حالة يرثى لها ولم يبق
للادوية من تأثير فيه . - ما كان أجمل شبيبته لما أخذته معي في جماتي الاولى على
ايطاليا ولكن خجله كان وخيم المغبة عليه ومن نكد طالعه اني لم أقف على
ذلك في الحين الملام ولو اطلعت على حقيقة حاله لكان الآن سليم الجسم
ولا اضطلع بما اسند اليه من المهام خبر اضطلاع ولما قضى عليه السقم ببذ المجذ
والفخار ولكان شاطرنا عظمتنا . وكم للبرنس كانيغو من الاولاد . فقلت لم أر
غنده إلا بنات . - ومن رأيت لما كنت في رومية ، فسميت له الاشخاص الذين
كنت اجتمع بهم . فقال : أو لا يزال الكردينال من هواة التحف الفنية وهل
يعنى دائما بالصور . - يأتونه بمركبات مشحونة ضورا في كل يوم فيفحصها في
مكتبه ويشترى منها ما يروقه ويرجع ما لا يروقه منها وهو ينفق على شرائها مبالغ
طائلة من المال . - متى غادرت رومية . - في ٢٥ فبراير . - وهل دفعت لك السيدة
لا تيسيا مبلغا كبيرا من المال . - مثني ذهب ونحويلا بأثني عشر ألف فرنك على

مدير مصرف في لندن لها عنده نقود . - اظن انها اغنى فرد في الامرة وقد كنت الومها على الاقتصاد في نفقاتها وهل شاهدت ماري لويز عند مرورك ببارم . - كانت غائبة عنها وكان الامر قد صدر لي بالأدع احداً يدري حقيقة مهمي . - هل عرفت ان لها صلة بوالدتي او بغيرها من اسرتي . - كتبت السيدة الوالدة لها مرتين من دون ان تتلقى جواباً منها . - اظن انهم لا يرخصون لها بالكتابة اليها ومن هم الذين لقيتهم في اثناء سفرك .

فذكرت له اسماءهم واخبرته بكل ماقلوه لي ثم انه قال لي: وهل رأيت الاميرة جوليا في فرانكفور . - استقبلتني بما امتازت به من مكارم الاخلاق . - وكيف حال كريمتها . - انهما كبرتتا وبدتا للانظار فتاتي المحاسن وناضرتين كأنهما وردتان . - اظن ان احدهما ستقترن باحد انجال لوسيان او لم تسمع شيئاً عن ذلك . - التقت علي الاميرة طائفة من الاسئلة عن البكر فشعرت بانها ميالة اليه . - ان قرانها يسرتي ولكن هل اكرموا مثواك . - نعم يا صاحب الجلالة . - انها ارق امرأة عرفتها ولها قلب كريم ينذر أن يكون لغيرها مثله . وهل ابصرت لاس كاس . - نعم يا صاحب الجلالة . - وكيف حاله . - انه مصاب بعلّة ناهكة . - وهل رأيت نجله عما نوئيل . - كان في ستراسبورغ . - اظن ان الابوين رفيقك قالا لي انكم لم تلقوا اذني مشقة في سفركم من رومية الى لندن . - كان سفرنا ميسراً يا صاحب الجلالة . - متى وصلتم الى لندن . - في ١٩ ابريل . - وكم من الوقت قضيت فيها . - فصلنا عنها في ٩ يوليو . - من هم الذين خالطتهم اكثر من غيرهم . - الاطباء ورجال الفن ولا سيما الذين زاولوا التطبيب في البلدان الحارة . - ومتى مثلتم في حضرة اللورد بانرست . - في غد اليوم الذي وصلنا فيه . - وماهي الاسئلة التي القاها عليك . - سألنا عن رومية وعن الكردينال والسيدة الوالدة والبرنس دي كانيو وسألنا هل يعتقدون انك مريض . - وماذا اجبته . - انهم لا يشكون في ذلك وان تقارير امبرواستوكو لا تبقي لهم مجالاً للريب . - وماذا قال لك بعد ذلك . - قال ان تلك التقارير غير صحيحة وانه تلقى اخباراً رسمية فخواها انك متمتع بصحة تامة واننا نستطيع ان نكتب الى رومية ونخبرهم بذلك . - وكم مرة اجتمعت به . - ثلاث مرات أو اربع مرات . - وهل قابلت اللورد هولند . - اعطاني البرنس دي كانيو كتاباً الى سعاداته يوصيه بي

.. وهل اكرم وفادتك وهل رحبت بك اللادي هولند .. لم تدخر شيئا من اللطف في استقبالي . - وهل يقيم اللورد هولند في لندن أو في الارياف . - يقيم في مكان يبعد عن العاصمة . - او لم تشاهد اوميرا مرات كثيرة . - كنت اجتمع به في كل يوم . - وماذا قال لك عي وعن مرضي .

فسردت له بالايجاز ما تضمنه تقرير الدكتور اوميرا فقال لي : وهل هو مسرور مني . - انه مسرور جدا منك يا صاحب الجلالة - اخبرني بالتفصيل عما شاهدته في لندن وعما كنت تعمله في ابان اقامتك فيها .

فقصصت عليه كل ما كان يبتغي معرفته ثم عاد الي القاء الاسئلة علي فقال ان لندن مدينة كبيرة فكيف وجدها . - انها واسعة وكثيرة السكان . - وهل ذهبت الى باريس . - لم اشاهد فرنسا قط . - والآن اذهب لرؤية الجرال منطولون وادع الطبيب الذي يطببه وباحثه في الامراض التي تصيب الناس في هذه الجزيرة فلا بد لك من استشارة الذين درسوها .

ودعاني الامبراطور اليه بعد ساعات وكان في الردهة ولم يكن فيها سوى شمعة ضئيلة تنيرها فطرح علي عدة اسئلة لها صلة بالموضوعات التي دارت عليها رحي الحديث بيننا قبل ان اأخذ يتكلم في علم التشريح والفيزيولوجيا وظواهرات الجنس وكان يبحث فيها بحثا يدل على معارف دقيقة فيها وعلى سداد رأي واصابة نظر واطلاع على الحالة التي صار اليها العلم في ذلك المهدوقد جعلني اقدم امتحانا بشكل حديث دار بيننا من دون أن يظهر انه يفعل ذلك عمدا وامتدت اسباب الحديث بيننا نحو من ساعة في تلك الموضوعات العلمية واسعدني الحظ بان اجابته اجوبة مرضية فصرفني بعد ما جاملني في الحديث بمجاملة حسنة بكلام رقيق عذب وكان الكونت برتران حاضرا المقابلة .

ودخلت على الامبراطور في ٢٣ منه فوجدته مستلقيا على سريره وكانت الغرفة منارة جيدا فاستطعت هذه المرة أن ابصر تأثير الداء فيه وبينما انا اخصه والاحظ الاعراض فيه كان يوالي القاء الاسئلة علي في موضوعات شتى فقال لي : ماذا تري يا حضرة الدكتور هل أظل وقتا طويلا سببا لتخمة الملوك .. ستميش بعدهم يا مولاي . - أظن ذلك فاهم لا يمكنهم أن يبعدوا عن اوربا اخبار

انتصاراتنا فستجتاز الفصور وتحدث عن الغالين والمغلويين وعن كرام القوم
ولثامهم وستبرز الاجيال الآتية احكامها لكنني لا اخشاها . - ان هذه الحياة ملك
لك ... ولكنك لم تنته بعد الى غايتها فلديك مجال واسع تجري فيه . - كلا
يا حضرة الدكتور ان البريطانيين قضوا لبائهم مني ولا يستطيع ان اعيش عمرا
طويلا في هذا الاقليم الوبيل الهواء . - ان بنيتك القوية تقوي على جميع المحن
- ولكنها لا تقوى على قوة النفس التي جادت بها علي الطبيعة فالانتقال من حياة
شبيطة الى حياة الخمول التام قضت على كل شيء في فقدت عزيمتي ووهنت
قواي .

فلم احاول ان اقنعه بخلاف ما كان يرثي فغيرت مجرى الحديث فاخبرني عن
نوع معيشته وقال لي : في اثناء حروبنا في ايطاليا كنت اضم وراثي على السرج خمرأ
وخبزا ودجاجة مقلية وكان ذلك يكفي سحابة نهاري وكثيرا ما كنت ادعو
رفاقي الى مشاطرتي طعامي وشرابي ... ثم اتي اسرع في الاكل فلا اضيع الوقت
على المائدة وانا مصاب بالتهاب مزمن في الكبد وهو مرض البلدان الحارة ولا بد
لي من تحمل عواقبه الوخيمة ومن التكبر على هذه الصخرة الصماء عن المجد
الذي جللت فرنسا به والضربات التي ضربت بريطانيا العظمى بها وأنت قد ابصرت
بعينيك طرق معاملتهم لي ...

.....

ونظم نابوليون وصيته و اضاف اليها الذيل الآتي نصه :-

« ١ - ارغب بان يشوي رفاثي على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسي
الذي احببته كثيرا

٢ - اترك للكونت برتران والسكونت منطولون ومرشان المال والجواهر
والآنية الفضية والخزفية والرياش والكتب والسلاح وبالاجمال كل مالي
في جزيرة القديسة هيلانة .

وهذا الذيل كتبته كله بيدي ووقعته وبصمته بشعاري .

نابوليون»

ولما توفي نابوليون اطلع الذين عينهم لتنفيذ وصيته حاكم الجزيرة عليها
فانكرها عليهم وقال انه لا يسلم البتة بنقل الجثة وانه يجب ان تدفن في الجزيرة

وبعد الالتيا والتي لم يتمكنوا من اقناعه بتركهم ينقلون الجثة الى فرنسا فلم يروا بدا من الاذعان .

وطلبت ان يأتوني بجيس لكي اصنع به قالبا لآخذ صورة الامبراطور فلم يجدوا جيسا ولكن الدكتور برتون هدام الى مكان فيه معدن من الجيس فجاءوا به وصنعت منه القالب الذي اردت صنعه وبعد ما اخذت به صورة وجه الميت اشترت تشريح الجثة .

وحضر التشريح الجنرال برتران والجنرال منطولون ومرشان منفذا وصية العاهل وحضر ايضا السر توماس ريد وضباط من هيئة اركان الحرب وثمانية اطباء .

وكان الامبراطور قد اوصى بشعر رأسه لاعضاء أسرته واليك ملاحظاتي على الجثة :

١ — هزل الامبراطور هزالا شديداً بعد وصولي الى جزيرة القديسة هيلانة واصبح وزن ربع ما كان عليه قبلا

٢ — كان الاصفرار قد علا وجهه وجسمه من دون ان يغير شكلهما ومن دون ان يجهلها بشكل جثث الموتى وبقيت طلعتة جميلة وكانت عيناه مطبقتين فكانه لم يمت بل كأنه مستغرق في النوم وكان على ثغره شيء من الابتسامة وقد انقبضت الجهة اليسرى كأنه يضحك ضحك التهم

٣ — كان اثر كي على ذراعه اليسرى وعدة ندوب منها ندب في رأسه وثلاثة في ساقه اليسرى وواحد في كعبه للجهة الوحشية وآخر على طرف بنصر اليد اليسرى وكثير غيرها على الفخذ اليسرى

٤ — كان مجموع الطول من ام رأسه الى اخمص قدميه خمس اقدام وبوصتين واربعة خطوط

٥ — وكانت المسافة من طرف الاصبع الوسطى في احدى يديه الى طرف الاصبع الوسطى في اليد الثانية خمس اقدام وبوصتين

٦ — وكانت المسافة من عظم العانة الى قمة الرأس قدمين وسبع بوصات واربعة خطوط

٧ — ومن العانة الى العقب قدمين وسبع بوصات

- ٨ — ومن قبة الرأس الى الذقن سبع بوصات وستة خطوط
- ٩ — وكان محيط الرأس عشرين بوصة وعشرة خطوط وكانت الجبهة مرتفعة والصدغان هابطين قليلا وجهة الأفوخ قوية ومنبسطة
- ١٠ — وكان شعره خفيفا ذا لون كستنائي فاتح
- ١١ — والرقبة قصيرة قليلا بيد انها عادية .
- ١٢ — والصدر واسعا حسن التركيب
- ١٣ — والبطن منتفخا وكبير الحجم
- ١٤ — ويداه وقدماه صغيرة قليلا ولكنها جميلة حسنة التركيب
- ١٥ — والاعضاء ممتدة ومشددة
- ١٦ — وكانت جميع اجزاء الجسم الاخرى على التقريب متناسبة تناسباً طائفاً واليك اظهر علامات رأيها في حجمته .
- ١ — عضو الكتان
- ٢ — عضو الفتوح
- ٣ — عضو العطف والجودة
- ٤ — عضو التصور
- ٥ — عضو المطامع وحب المجد
- ووجدت العلامات التالية من جهة القوى العقلية :
- ١ — عضو الذاتية أو الفردية أو معرفة الافراد والاشياء
- ٢ — عضو وضع الشيء في محله والعلاقات بين الجنسين
- ٣ — عضو التدقيق في الحساب
- ٤ — عضو التشبيه
- ٥ — عضو السببية وروح الاستدلال والرأس الفلسفي
- وكان قد انقضى عشرون ساعة وثلاثون دقيقة على مفارقة الروح للجسد فأخذت في التشريح مبتدئاً بفتح الصدر واليك أهم ما وجدته :
- كان الجانب الاكبر من غضاريف الخاضرتين متحجرا كالعظام
- وكان في السكيس المؤلف من البليورا الى جهة الخاضرة اليسرى نحو ملء قذح من ماء بلون عصير الليمون

وكانت طبقة خفيفة من الليمفا القابل للتجمد تغطي جانباً من وجه البليورا الجنبية والرئوية المقابلة للجهة نفسها وكانت الرئة اليسرى مضغوطة بالانصباب وتجمع الاخلات وقد التصقت بربطة كثيرة بالاجزاء الخلفية والجنبية من الصدر والتامور فشرحها بعناية وتديق فوجدت في القسم الاعلى منها درنا وحفرا تدرنية صغيرة وكانت طبقة خفيفة من الليمفا القابل للتجمد تغطي جانباً من وجه البليورا الجنبية والرئوية المقابلة للجهة نفسها.

وكان كيس البليورا الجنبية الى جهة الخاصرة اليمنى يحتوي على نحو قدحين من ماء بلون عصير الليمون .

وكانت الرئة اليمنى مضغوطة بالانصباب وتجمع الاخلات ولكن نسيجها كان في حالة عادية وكانت تقرقان ولوهما طبيعي وكان الغشاء المخاطي في قصبة الخنجر والشعب الرئوية شديد الاحمرار وقد لصق به مقدار كبير من البلغم الكثيف اللزج

وكانت عدة غدد في الشعب الرئوية والحجاب المنصف قد تضخمت قليلا وكاد الفساد يبعث بها وتكون فيها الصديد .

وكان التامور عاديا وفيه نحو اوقية من الماء الذي يشبه لونه لون عصير الليمون وكان القلب ضغما ومع أنه سليم كان عند اسفله مقدار من الشحم لا يستهان به . وكانت البطينتان الوريديتان والرئويتان والاذينتان المقابلتان لهما في حالة طبيعية ولكنها كانت مصفرة وخالية من الدم ولم يظهر على الفتحيتين علامات تدل على مرض خطير وكانت الاوردة والشرين القريبة من القلب خالية من الدم وفي حالة طبيعية .

أما البطن فكان فيه ما يأتي .

تمدد الصفاق (البريتون) من جراء وفرة مقدار الغاز فيه .

رشح رخو شفاف لين يمتد الى الجزئين الملاصقين عادة لوجه الصفاق الداخلي وكان الثرب (الشحم الرقيق الذي يغشي الكرش والامعاء) الكبير في حالة طبيعية وكان الطحال والكبد متحجرين ومتضخمين ومملوئين دما ولم يكن يظهر على نسيج الكبد الاحمر الضارب الى السمرة ادنى تغير مهم في تركيبه

وكانت حوصلة الصفراء مملوءة من الصفراء الغليظة على شكل جلطات ومعددة من جرائها وكانت السكبد المصابة بالتهاب مزمن ملتصقة التصاقا شديدا بالحجاب من جهة وجهها المجذب وكان الوجه المقعر من الفص الايسر ملتصقا بالقسم المقابل له في المعدة ولا سيما على طول الانحناء اليسير فيها والثرّب الاصغر وكان الفص شميكا ومتنفخا ومتحجرا في جميع المواضع الملتصق فيها .

وظهرت المعدة في حالة سليمة في بدء الامر وخالية من اثار التهييج والورم وظهر ايضا غشاء الصفاق سليما ولكن لما دقت في فحصه اكتشفت على وجهه الامامي عند الانحناء اليسير وعلى بعد ثلاث اصابع عن البليورا احتقاناً خفيفاً كانه ورم سرطاني محصور في مكان ضيق وكانت المعدة مثقوبة في وسط ذلك الموضع الصغير المتصلب وكان التصاق هذا القسم بالفص الايسر في الكبد يسد فتحته . وكان حجم المعدة اصغر بما هو عليه عادة .

ولما فتحت المعدة على طول انحنائها الكبير وجدت جانبا كبيرا منها مملؤا مقدارا كبيرا من مواد متجمدة قليلا وتمرّجة بكثير من مادة مخاطية كثيفة يشبه لون فلون نفل القهوة وانبعث عنها رائحة لاذعة ننتة ولما استخرجت تلك المادة منها ظهر غشاء المعدة المخاطي في حالته الطبيعية من اصغر عطفة مسدودة الى اكبر عطفة مسدودة فيها باتباع اتجاه الانحناء الكبير وكانت قرحة سرطانية تغطي السطح الداخلي لسائر المعدة وكان مركز القرحة في القسم الاعلى على طول انحناء المعدة الصغير اما اطرافها غير المتساوية وهي على شكل الاصابع واللسان فكانت تمتد امام ذلك السطح الداخلي ووراءه من فتحة المعدة المرئية الى مسافة اصبع عن البليورا وكان قطر الفتحة المستديرة والمنحرفة الى جانبها نحو اربعة خطوط الى خمسة خطوط من جهة الداخل ونحو خطين ونصف خط من جهة الخارج وكان طرفها الدائري متناهي في الرقة وقليل التضريس وضاربا الى الاسوداد ومؤلفا من غشاء صفاق المعدة فقط وكان سطح مقروح رمادي اللون امس يؤلف جدران تلك القناة التي كانت لتصل بين تجويف المعدة وتجويف البطن ولم يحل دون ذلك التصاقها بالسكبد . وكان طرف المعدة الايمن على بعد قيراط عن البواب محاطا بورم أو تصلب سرطاني على شكل دوائر بمرض بعض خطوط وكانت فتحة البواب عادية وظهر حول القرحة انتفاخ فطري باد للعيان

وكانت قاعدته الجاسية والكثيفة والمتصلبة تصلبها سرطانيا تمتد على كل السطح المصاب بذلك المرض الخبيث .

وكان الثرب متقلصا ومنتفخا وشديد الصلابة وقد ألم به الفساد وكانت الغدد الليمفاوية في طية الصفاق وهي التي على طول انحناء المعدة والغدد المجاورة اقواس الحجاب قد تورم جانب منها وتصلب تصلبها سرطانيا وكان في بعضها صديد .

وكانت القناة الهضمية متمددة من كثرة الغازات فيها وابصرت على ظاهر الصفاق وطياته بقعا صغيرة حمراء يختلف حجمها وقد تفرقت وبعدت الواحدة منها عن الاخرى . وظهر غشاء تلك القناة في حالة طبيعية وكانت مادة ضاربة الى السواد لوجة تلتصق بجدران المني الغليظ

وكانت الكلية اليمنى في حالة طبيعية اما الكلية اليسرى فكانت في غير موضعها ومقلوبة على العمود الفقري واطول من الاولى واضيق منها ومع ذلك كانت سليمة . وكانت المثانة الفارغة والمتقلصة تحتوي على مقدار من الحصى وكانت بقع حمراء كثيرة تظهر على غشائها المخاطي متفرقة فيه وكانت جدران المثانة في حالة طبيعية .

وأردت فحص الدماغ لان معرفة حالته في رجل كالامبراطور من أهم الامور ولكنهم منعوني عن ذلك بمدة فاضطرت الى الاذعان .

وفرغت من تشريح الجثة واخذت القلب والمعدة ووضعتهما في اناء من الفضة ملىء كحلأثم جمعت الاجزاء المتفرقة وخطتها وغسلت الجثمان وافسحت مجالا للخادم ليلبسه ثيابه كما كان يلبسه ايها في حياته وهي : الكاسون وسراويل من الجوخ الابيض وصدرى ابيض واربة بيضاء فوقها اربة سوداء مربوطة الى الوراء وبذلة كولونل صيادي الحرس والوشاح الاكبر من نشان جوقة الشرف ونشان التاج الحديدي وحذاء طويل فيه مهامير صغيرة وقبعة مثلثة الزوايا . وبعد ذلك نقل نابوليون الى ردهة اخرى فدخلها الجمهور .

ولم تخطط الجثة لانهم لم يجدوا المواد اللازمة لذلك فغطوها بالرداء الازرق الذي كان نابوليون يلبسه في معركة مارتنو ووضعوا سيفه الى جنبه اليسر ومصلوبا على صدره . ووضع الاناء الذي فيه قلبه ومعدته الى جانب السرير

المسجى عليه . ونصب مذبح خلف رأسه ليقف السكاهن عليه ويتلو صلاة الموني ووقف الى اليسار جميع أفراد حاشية نابوليون بملابس الحداد وأقام الدكتور ارنولت على حراسة الجثة بمقتضى الاوامر التي تلقاها .

وفتحت الغرفة التي عرضت فيها جثة الامبراطور فدخلت الجماهير الصغيرة المحتشدة في لونود بخشوع واحترام لرؤية الميت وازداد تقاطر الناس في غد ذلك اليوم ليشاهدوا جثمان الامبراطور للمرة الاخيرة ولم يكتفوا للاوامر التي اصدرها الحاكم بمنعهم عن غشيان لونود .

ولما جازوا بالتابوت اضطرتت الى ان اضاع فيه القلب والمعدة وكنت قد عملت النفس بأخذها معي الى اوربا ولكن الحاكم منعني عن ذلك منعاً باتاً فلم ألق بدا من النزول على ارادته التي لم يكن مرد لها فابقيت القلب في الاناء الذي وضعته فيه وقلت المعدة الى اناء آخر من الفضة اسطواناني الشكل كان نابوليون يضع فيه اسفنجته وملأت الاناثين كحلا ولحمتها ووضعتهما في زاوية التابوت ثم وسد الامبراطور فيه على فراش ووسادة وكفن بفسيج من الحرير الابيض وحيث انهم لم يستطيعوا وضع قبعته على رأسه لضيق التابوت وضعوها على رجله ووضعوا الى جانبها اعلاماً مرسوماً عليها النسر وقطعا من جميع النقود التي سكنت في عهده ونقشت عليها صورته وادوات مائدته وسلاحه الخ ثم اقل التابوت ووضع في صندوق من الصفيح ولحمت جميع اطرافه ووضع في ضمن صندوق آخر من الرصاص وهذا وضع في صندوق رابع من خشب الكابلي فأقل وختم وهمر ووضع في الموضع الذي كان الجثمان معروضافيه وغطى بالرداء الرمادي المشهور.

وجاء هدمين لو لتعزيتنا وقال انه يشاركنا في مصابنا وان حكومته ابلغته ان يفهم الجنرال بونا بارت ان الوقت دنا لاخلأ سبيله وان جلالة ملك بريطانيا العظمى لا يكون آخر من يوافق على ذلك وحيث أن الجنرال بونا بارت قضى نخبه فقد انتضى كل شيء، وعنتقوم غدا بما يجب علينا نحوه وقد أمر الجنود بأن يلبسوا ملابس الحداد غدا ويؤدوا له التهمة العسكرية .

وقام الجنود في اليوم التالي بالمهمة التي فوضت اليهم وحضر الحاكم والاميرال وجميع اصحاب المناصب المدنية والعسكرية الى لونود للاشتراك في المناحة

وكانت الجماهير تزدحم في الطرقات والموسيقى تصدح بالالحان الحزنة . وبعد الظهر بنصف ساعة حمل الجنود التابوت الى المركبة وسادت الجنازة وفقاً للبرنامج الذي وضعه الحاكم وكان الاب فينيالي يسير في المقدمة وهو لابس ملابسه الكهنوتية والى جانبه هنري برتران الحدث حامل اناء الماء المقدس . وكنت اسير وراءها والى جانبي الدكتور ارنولت . وكان يسير الى كل جانب من جانبي المركبة اثنا عشر جندياً بلا سلاح وقد عهد اليهم في أن يحملوا التابوت على مناكبهم حينما يجهدون أن وعورة الطريق تحول دون سير المركبة .

وجاء بعدهم نابوليون برتران الصغير ومرشان ماشين وكان السكونت برتران والسكونت منطولون يسيران وراء المركبة راكبين جواديهما ووراءهما فريق من حاشية الامبراطور

وكانت السكونتة برتران وكريمتها هرتنس في مركبة يجرها جوادان يقودهما خدام السكونتة .

وتلاها جواد الامبراطور يقوده خادمه ارشيبو

وجاء بعده ضباط البحرية مشاة وفرسانا فضباط اركان الحرب فرسانا فاعضاء مجلس الجزيرة فرسانا فالجنرال كوفين والمركيز دي منشنو فارسين فالاميرال والحاكم فارسين فسكان الجزيرة

وخرجت الجنازة من لونود على الشكل الذي تقدم بيانه ومرت امام الخفر حيث كانت حامية الجزيرة وعددها نحو الفين وخمسمئة جندي وقد اصطفوا على يسار الطريق وكانت اجواق من الموسيقيين تصدح بالالحان الحزن وقد وقف الواحد منها بعيداً عن الآخر ولما مرت الجنازة سارت الجنود وراءها الى المكان المعين لدفن الجثة ولما دنوا من ذلك المكان وقفت المركبة فدنا الجنود منها وحملوا النعش على اكتافهم وساروا به الى المدفن فترجل حينئذ جميع الفرسان وانحدرت السيدات من المركبات وسار الجميع وراء الجنازة وكان السكونت برتران والسكونت منطولون ومرشان ونابوليون برتران الصغير يحملون بساط الرحمة ولما وصلوا الى القبر انزل الجنود النعش عن مناكبهم ووضعوه على حافته وقد اثار مشهد الخفر الحزن من رقدته فانتفضت الصدور ووكفت

المبرات وفتح التابوت فصلى الاب فينيا الي الصلوات المألوفة ثم اقل التابوت وأنزل الى اللحد وكانت رجلا الميت متجهتين الى الشرق ورأسه الى الغرب وحينئذ اطلقت المدافع ثلاث دفعات متوالية وفي كل دفعة خمس عشرة طلقة وكانت سفينة الاميرال تطلق في أثناء سير الجنازة مدافعها فاطلقت خمسا وعشرين طلقة بين الطلقة وأختها دقيقة .

ولما انتهت الحفلة الدينية وضعوا حجراً كبيراً فوق النعش من دون أن يمسه وهالوا التراب عليه . واندفع الجمهور في أثناء ذلك على أشجار الصفصاف التي كانت الى جانب القبر وتنازعوا اوراقها وغصونها واخذوها ليحفظوها ذخائر عندهم وذكري لتلك الحفلة المؤثرة التي شهدوها وحاول الحاكم والاميرال أن يمنعاهم عن ذلك ولكنهما لم يقلعا فانتقم الحاكم منهم بمنعهم فيما بعد عن الدنو من القبر فاحاطه بحاجز واقام خفيرين الى جانبه ونقطة عسكرية فيها اثنا عشر جندياً وضابط .

ويبعد مدفن الامبراطور ميلا عن لونود وهو مربع الزوايا وعمقه نحو اثني عشرة قدماً وفيه وضع التابوت على خشبتين كبيرتين متينتين ولم يكن بمسه شيء حوله ولم يرص الحاكم بأن نضع عليه بلاطة نكتب عليها شيئاً كأن تينك البلاطة والكتابة تعرفان الناس بأكثر مما يعرفونه عن الامبراطور .

ولما انزل هدمصن لونا بوليون الى القبر انتهت مهمته فلم يبق عليه الا أن يحرز شيئاً مما خلفه الامبراطور فدخل منزل لونود وبحث فيه عن كل شيء وفتح رزماً كان الامبراطور قد ختمها بيده قبل وفاته ولكن ذهب بحثه سدي ولم يجد الغرض الذي كان يريد ولم يزد ذلك الا اصراراً ورغبة في الاستقصاء في البحث ولم يبرح المنزل الا بعد ما فرغ رجاله من تنظيم بيان بالاثاث ورزم الكتب . وكنا نبتغي أن نحرز شيئاً مما تركه الامبراطور تذكاراً نفيساً ففطن علينا الحاكم بذلك وبادر الى ابلاغنا ان نهيء الالهة للسفر بركب من مراكب الحكومة وعلى نفقتها

وقبلما غادرنا جزيرة القديسة هيلانة ذهبنا لزيارة ضريح الامبراطور ورؤيته للمرة الاخيرة فروينا بدموعنا ونرنا عليه الازهار وودعناه وداعاً اخيراً .

ولمّا وصلنا الى جيمس تون كان الحاكم وزوجته ينتظراننا ودعوانا الى مأدبة انيقة اديها لانا وبالغا في اكرامنا .

ولما ركبنا المركب المعد لنا في ٢٧ مايو سنة ١٨٢١ وجدناه قدرا وضيقا فقد كانوا ينقلون فيه البقر والغنم والخنازير وكل ما يحتاج اليه الجزيرة من المؤونة وقاسينا اشكالا والوانا من العذاب والشقاء في اثناء سفرنا وطالت مدة السفر وكاد ما في المركب من الطعام والشراب ينفد واصيب الركاب بالحرارة والمرض فمنا مئتا جندي من البريطانيين ارسلوا من الجزيرة الى انكلترا فتوفي بعضهم في خلال السفر .

ووصلنا الى انكلترا فاخذت جوازا من سفارة فرنسا للسفر الى رومية وسافرت في الحال الى دوفر ومنها سرت الى باريس مارا بكله فذهبت الى سفارة النمسا وطلبت « التأشير » على جوازي فابت علي ذلك ولكنني لم اعبأ برفضها فواصلت سفري الا انني لقيت مشقة كبرى في الطريق فكان الموظفون النمساويون يشددون في مراقبتي وتفطيش امتاعي واهمت بالتأمر على الحكومة ووصلت اخيرا الى بارم وكان لي فيها صديق يدعى الكافاليار روسي فقدمني الى الكونت نيرغ فاحسن الكونت استقبالي والقي علي طائفة من الاسئلة عن مرض الامبراطور ووفاته وكنت ابتهني ان اقصي بمثل تلك الاخبار المفصلة الى الامبراطورة ماري لويز واسلمها كتابا خطه اليها الكونت برتران والكونت منطولون وطلبت من الكونت نيرغ ان يرجو من جلالة الامبراطورة ان تأذن بمثولي امامها فقال لي لا استطيع ذلك لان خبر وصولك اثار اشجان الارشيدوقه فهي تندب بسوء حظها وتنتحب ولا تستطيع ان تستقبلك ولكنني اعرض عليك ان اكون وسيطا بينك وبينها فابلغها ماتقوله لي واسلمها الكتاب اذا لم تحاذر ان تسلمني . فلم يسعني ان ارفض تسليمه الكتاب فدفعته اليه فتركني وبعد هنيهة عاد الي وقال لي : ان جلالته اطلمت عليه وهي تأمل على عدم تمكنها من استقبالك وهي توافق على ارادة نابوليون الاخيرة فيما يتعلق بك ولكنها لاتلقى مندوحة قبل تنفيذها عن عرض الامر لجلالة والدها .

واليك صورة الكتاب الذي ارسله الكونت برتران والكونت منطولون الى الامبراطورة ماري لويز :

لندن في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٢١

يا صاحبة الجلالة

ان الدكتور انطومرخي الذي يتشرف بتقديم هذا الكتاب الى جلالتك اعطى بزواجك العظيم في اثناء مرضه الذي قضى فيه نحيبه

وقد عهد الينا الامبراطور في اواخر حياته في ان نبليج جلالتك ان تخصصي للدكتور انطومرخي مرتبا سنويا مدي حياته قدره ستة الآف فرنك مكافاة له على ما قام به من الخدم في جزيرة القديسة هيلانة وقد رغب في ان تتخذيه طبيبا وجراحا في قصرك وان تتخذي ايضا الاب فينياتي مرشدا ريثما يبلغ نجلك سن الرشد حينئذ ينتقل الى خدمته .

ونحن يا صاحبة الجلالة نقوم بما يجب علينا نحو الامبراطور بابلغ جلالتك ارادته الاخيرة التي كررها علينا مرارا .

خادما جلالتك المطيعان

الكونت برتران والكونت منطولون

وابلغي الكونت نيبيرغ عطف الامبراطورة علي وارتياحها الى ماقت به نحو زوجها ثم اعطاني خاتما ارسلته الي جلالها .

وكان الجميع في القصر يلبسون ملابس الحداد على الامبراطور فقال لي الكونت نيبيرغ ان الارشيدوقة لما تلقت نعي زوجها من البرنس مترنيخ شعرت كأن صاعقة انقضت عليها وقد شاءت ان يشترك معها جميع البلاط في حزنها والاسف على الراحل الذي تبكيه وقررت ان يلبسوا الحداد عليه ثلاثة اشهر وان تقام حفلة دينية كبرى للصلاة عن نفسه وقد شهدت الحفلة بنفسها وارادت ان تؤدي لنا بوليون في وفاته الاكرام الذي كانت تؤديه له في حياته . وسألته عن الامير نجلها فاجابني انه بصحة جيدة وانه متوقد الدهن وقد فوض امر العناية به الى اشخاص من ذوي الكفاءة وبعد ما دار الحديث بيننا على موضوعات شتى ودعته وانصرفت .

وعرجت على فلورنسة في اثناء سفري الى رومية فخطيت بمقابلة الفرندوق فالقي علي اسئلة كثيرة عن جزيرة القديسة هيلانة وبعد ذلك سافرت الى رومية

وسرت توءا لمواجهة الكردينال فش ثم ذهبت لمواجهة الاميرة بولين وقد ارادت ان تعرف كل شيء فتأثرت كل التأثير مما سمعته مني عما قاساه شقيقها نابوليون من الاهانة والعذاب . وكان تأثر السيدة الوالدة شديدا لما استقبلتني فتحفظت في الكلام معها ولم تطلعها الا على جزء يسير من الامور التي شاهدتها ولما عدت الى مواجهتها مرة ثانية وجدت انها ملكت ناصية حزنها وقد اضطرت الى سرد بعض حوادث بالتفصيل فنكا ذلك كلوم فؤادها وسالت مدامها وعلت زفرتها فوقفت عن الكلام ولكنها مسخت دموعها وعادت الى القاء الاسئلة علي وقد نشب كفاح بين شجاعتهما وحزنهما . وحظيت بالمثل بين يديها امرأة ثالثة قابدت لي علامات العطف والرضاء وانعمت علي بالماساة احتفظ بها احتفاظا شديدا وشخصت الى فلورنسة وكان البرنس كانيانو (لوسيان بونايرت) يقيم في بيت بضواحيها فاكرم وفادتي وانهاالت علي الاسئلة منه وكان لمصرع شقيقه نابوليون تأثير شديد فيه .

وعدت الى بارم وواجهت السكونت نيبزغ فكرر علي ان الامبراطورية ترممني بلاحظة العطف وسلمني كتابا منها الى سفير النمسا في فرنسا اعربت فيه عن رضاها عن طبيب زوجها وقالت انها مستعدة لتنفيذ ارادته الاخيرة

ولكن قامت اعتراضات شتى علي وصية نابوليون وعينت لجنة للنظر فيها ولما رأى السكونت منطولون ان تنفيذ الوصية سيكون موضوعا للأخذ والرد وباعثا على القيل والقال كتب الى اللجنة وقال لها انه يتنازل عن حقوقه المبينة في الوصية وحذا حذوه رفاقه وعدت الى عيادتي الطبية فذلك خير من رفع القضايا في المحاكم .



وصية الامبراطور نابوليون الاول

في دار خزائن الاوراق بباريس خزانة حديدية وضعت فيها الوصية التي نظمها الامبراطور نابوليون الاول في شهر ابريل سنة ١٨٢١ بمجزرة القديسة هيلانة وقد صنعت هذه الخزانة في سنة ١٧٩١ لحفظ قرارات الجمعية الوطنية ويشاهد زائر هذه الدار الوصية المشتملة على ارادة نابوليون الاخيرة والمكتوبة بيده والمذيلة بتوقيعه . وهذا الصك المنظم في المنفى جاء به الى اوربا الاشخاص الثلاثة المعهود اليهم في وضع وصية الامبراطور موضع الاجراء وهم السكونت برتران والسكونت منطولون ومرشان خادم الامبراطور الخاص وقد اودع منطولون الوصية في انكبترا زيادة للحفاظ وأخذت عنها نسخة أرسلت الى فرنسا لاجراء المعاملات القانونية بشأنها

وفي سنة ١٨٥٣ طلبت الحكومة الفرنسية الوصية من الحكومة البريطانية طلباً رسمياً وكانت مودعة في خزانة بلاط كنتربري فدفعها اللورد كلارندن مستشار جلالة الملكة فكتوريا الخاص الى السكونت كولونا فالنسي سفير الامبراطور نابوليون الثالث في ١٦ مارس من تلك السنة . وقد ذكر ذلك في احدى صفحات الوصية وقد صادق المسيو دبليم رئيس محكمة السين الحقوقية عليها وعلى خمسة ذبول وثلاثة جداول تحتوي على بيان الاشياء التي خلفها الامبراطور الكبير . وذكر أن عدد صفحات الوصية ٤٠ ولكنها لا تشتمل في الحقيقة الا على ٣٨ صفحة . ووضعت الوصية المنظمة بموجب الاصول القانونية في مكتب كاتب عدل في باريس يدعى نويل وأخذت الوصية بعد ذلك من هذا المكتب بموجب أمر امبراطوري وأودعت في دار خزائن الاوراق الوطنية . وهناك علاوة على الصفحات التي تقدم بيانها والتي ذيلت بتوقيع رئيس محكمة السين وهي تتضمن وصية الامبراطور ذيل منفصل عنها بتاريخ ١٦ ابريل فصل فيه توزيع امتهة الامبراطور والمال الذي كان معه في جزيرة القديسة هيلانة وقد كتب على غلاف الذيل انه لايفض الا بعد وفاة الامبراطور وهو كالذيل الآخر الذي نظم في اليوم عينه وذكرت فيه كيفية الدفن . وكان مع الوصية كتابان املاهما الامبراطور

— ٣٣٦ —

ووقعهما بتاريخ ٢٥ ابريل وقد وجه احدهما الى الصيرفي لافيت والآخر الى البارون دي لا بويليري مدير الاملاك الخاصة وملاحظات لمنفذي الوصية املاها على مرشان في ٢٦ ابريل وكتب الامبراطور بيده في آخر صفحة منها : « هذه ملاحظات لمنطولون ورتران ومرشان منفذي وصيتي . وقد نظمت الوصية والذبول المودعة عند مرشان في ٢٧ ابريل . نابوليون »

ولا يخفى أن متصفح الوصية والذبول لا يجد الا خمسة ذبول في المائتين المكتوب في الصفحات المزعوم انها اربعون وذيل في غير هذه الصفحات ومع ذلك يذكر الامبراطور سبعة ذبول ومن المحتمل انه كان يعتبر القسم المختتم به الوصية بخصوص الاملاك الخاصة والملاحظات التي املاها ووقعها ذيلين . ويقولون أن الامبراطور حاول في ٢٤ ابريل أي قبل وفاته بعشرة ايام نسخ اربعة ذبول مكتوبة في ثلاث عشرة صفحة كبيرة وكان آخر ما كتبه ووقعه مؤرخا في ٢٧ منه . وقد قال لمنطولون في ذلك اليوم : « أولا يكون من بواعث الاسف يا ابني ألا يموت الانسان بعد أن يكون قد نظم أحواله . »

ولما قرب الامبراطور من النهاية اراد أن يملي على مرشان تدابير جديدة ويوصي لابنه بمقارات في اجا كسيو بجزيرة كورسيكا يبلغ ريعها السنوي خمسين الف فرنك ولكن هذه المقارات لم يكن لها من وجود في الحقيقة فان دماغ الامبراطور كان قد ابتداءً يلم به الخبل .
واليك وصية الامبراطور :

— ١ —

الصفحة الأولى

هذه وصيتي اوصك ارادتي الاخيرة نظمها في لونود بجزيرة القديسة هيلانة في هذا اليوم الخامس عشر من شهر ابريل سنة ١٨٢١ :
أولا — أموت على الديانة الكاثوليكية التي ولدت فيها من اكثر من خمسين سنة .

ثانيا — ارغب في أن يدفن رفاقي على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسي الذي أحببته كثيراً :

ثالثا — كنت اني دائما على زوجتي العزيزة ماري لويز فانا أدخر لها ارق العواطف حتى آخر نسمة من حياتي وارجو منها ان ترعى ابني بمقلة العناية وتدفع عنه المكاييد المكددة بمحادثته .

رابعا — أوصي ابني بالألأ ينسى أبدا أنه ولد اميرا فرنسويا وبألأ يرضى بان يكون آلأ بأيدي الحكام الثلاثة الذين يرهقون شعوب أوربا . فلا ينبغي له ان يحارب فرنسا أو يسوق اليها المضرة ويجب عليه أن يضع نصب عينيه مبدأي هذا : « كل شيء للشعب الفرنسي » .

خامسا — اموت قبل يومي مقتولا بيد حكومة الاعيان البريطانية وسفاحها المأجور ولكن لا يلبث الشعب البريطاني ان ينتقم لي .

سادسا — ان ما وصلت اليه فرنسا من النتائج الوخيمة في الغزوتين الموجهتين اليها وقد كان لا يزال عندها موارد كثيرة يرجع الى خيانة مرمون واوجيرو وتاليران ولافايات فانا اصنف عنهم وبالميت الاجيال الآتية في فرنسا تمحذو حذوي من هذا القبيل .

سابعا — اسدي الشكر لوالدي الفاضلة الكريمة والكردينال واخوتي يوسف ولوسيان وجيروم وشقيقي بولين وكارولين وجوليا وهورتنس وكاترين

الصفحة الثانية

واوجين عما أدخروه لي من الاهتمام بشأني واصفح عن لويس الذي اذاع في سنة ١٨٢٠ نشرة مفعمة حججا مختلفة ومستندات ملفقة .

ثامنا — اشدد النكير على مخطوط القديسة هيلانة وغيره من المؤلفات الصادرة تحت عنوان « مبادئ وحكم » وقد راق بعضهم ان ينشرها في خلال السنوات الست الاخيرة . فلم تكن القواعد دستورا سرت عليه في اثناء حياتي أجل اني القيت القبض على الدوق دنغان وأمرت بحاكمته لان سلامة الدولة ومصلحة الشعب الفرنسي وكرامته كانت تقتضي ذلك حين كان الكونت درتوي يتولى المفاوضات — بحسب اقراره — مع ستين سفاحا في باريس واني لو قدر لي وعدت الى سرير الامبراطورية لما ترددت في عمل ماعملته في مثل الحال التي مرت علي .

— ٣٣٨ —

— ٢ —

١ - اترك لابني العلب والاوامر وغير ذلك من الاشياء كالاتية الفضية
دسيري وسلاحه وسروجي ومهاميزي واواني كنيسة وكتبي وملابسي التي
كنت استعملها وذلك بموجب الذيل (١) وارغب في أن تكون هذه التركة اليسيرة
عزيزة عنده فتذكره بوالده الذي تحدثه الدنيا عنه .

٢ - اترك للادي هولاند الايقونة القديمة التي اهداها البابا بيوس السادس
في طوانطينو

٣ - اترك للكونت منطولون مليوني فرنك دلالة على رضائي عما ابداه
نحوي من الاعتناء البنوي من ست سنوات وتمويضا له عما اصابه من الخسارة
في ابان مقامه بحزيرة القديسة هيلانة .

٤ - اترك خمس مئة الف فرنك للكونت برتران .

٥ - اترك اربع مئة الف فرنك لمرشان خادمي الخاص الاول

٦ - اترك مئة الف فرنك لسان ديني

٧ - اترك مئة الف فرنك لنوفار

٨ - اترك مئة الف فرنك لبيارون .

٩ - اترك خمسين الف فرنك لارشمبو

١٠ - اترك خمسة وعشرين الف فرنك لكورسو

١١ - اترك خمسة وعشرين الف فرنك لشاندلياي

١٢ - اترك مئة الف فرنك للاب فينيالي وارغب في أن يبني بيته قرب
بني نوفودي روستينو .

الصفحة الثالثة

١٣ - اترك مئة الف فرنك للكونت دي لاس كاس

١٤ - اترك مئة الف فرنك للكونت دي لافالت

١٥ - اترك مئة الف فرنك للاربي رئيس الجراحين وهذا افضل رجل عرفته

١٦ - اترك مئة الف فرنك للجبرال براياي .

١٧ - اترك مئة الف فرنك للجبرال ليفيفر دينوات

١٨ - اترك مئة الف فرنك للجبرال دروو .

— ٣٣٩ —

- ١٩ - أترك مئة ألف فرنك للجنرال كمبرون
 ٢٠ - أترك مئة ألف فرنك لاولاد الجنرال موتون دوفرناي
 ٢١ - أترك مئة ألف فرنك لاولاد لايبديوار الشجاع
 ٢٢ - أترك مئة ألف فرنك لاولاد الجنرال جيرار الصريح في لينى
 ٢٣ - أترك مئة ألف فرنك لاولاد الجنرال شرتران
 ٢٤ - أترك مئة ألف فرنك لاولاد الجنرال ترافو الفضيل
 ٢٥ - أترك مئة ألف فرنك للجنرال لالمان الاكبر
 ٢٦ - أترك مئة ألف فرنك للكونت ريال
 ٢٧ - أترك مئة ألف فرنك لكوستا دي بستليكا في كورسيكا
 ٢٨ - أترك مئة ألف فرنك للجنرال كلوزل
 ٢٩ - أترك مئة ألف فرنك للبارون دي منيفال
 ٣٠ - أترك مئة ألف فرنك لارنول مؤلف ماريوس.
 ٣١ - أترك مئة ألف فرنك للسكولونل بو واطلب منه أن يوالي كتاباته
 في سبيل الدفاع عن مجد الجيوش الفرنسية طخزي الوشاة والهامين .
 ٣٢ - أترك مئة ألف فرنك للبارون بينيون واطلب منه أن يكتب تاريخ
 السياسة الفرنسية من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٨١٥
 الصفحة الرابعة
 ٣٣ - أترك مئة ألف فرنك لبودجي دي تالافو
 ٣٤ - أترك مئة ألف فرنك للجنرال اميري
 ٣٥ - هذه المبالغ تؤخذ من الملايين الستة التي وضعتها في المصرف حين غادرت
 باريس في سنة ١٨١٥ ومن الفائدة الناجمة عنها بمعدل ٥ في المئة من شهر
 يوليو سنة ١٨١٥ فما بعد وهذا الحساب يرصده الكونت مونطولون
 والسكونت برتران ومرشان مع الصيرفي .
 ٣٦ - وكل ما ينتج عن المال الموضوع في المصرف المذكور ويزيد على خمسة
 ملايين وست مئة ألف فرنك المبينة أعلاه يوزع كهيئة على جرحى واترو
 وضباط وجنود فرقة جزيرة البا بموجب قرار يصدره منطولون وبرتران
 ، درو و كمبرون والجراح لاري .

— ٣٤٠ —

٣٧ - وبعد الموت تدفع هذه الهبات الى الالامى واليتامى وعند عدم وجود هؤلاء تعود الى الامة .

— ٣ —

١ - لما كان ملكي الخاص يخصصي ولا تستطيع أي شريعة فرنسوية أن تنتزعه مني فيطلب من البارون دي لا بويليري ناظر الخزينة الخاصة أن يؤدي الحساب عن ذلك ولا بد من أن يكون قد بلغ مالي من الاموال ٢٠٠ مليون فرنك موزعة كما يلي :

أولاً - ما اقتصدته من المال في أثناء أربع عشرة سنة وذلك من المرتب المخصص لي وهو يزيد على ١٢ مليوناً في السنة على ما أذكر .

ثانياً - نتاج هذا المال ،

ثالثاً - ريش قصوري على ما كانت عليه في سنة ١٩١٤ وهذه القصور في رومية وفلورنسة وطورينو وقد اشترت جميع هذا الرياش بمالي الخاص .

رابعاً - تصفية بيوتي في مملكة إيطاليا كالنقود والالوان الفضية والمجوهرات والاثاث والكتب ويؤدي الحساب عنها البرنس أوجين وكبانيوني قيم التاج .

الصفحة الخامسة

٢ - اترك نصف ملكي الخاص للضباط والجنود الباقين من الجيش الفرنسي وقد حاربوا من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٨١٥ في سبيل مجد الامة واستقلالها ويكون التوزيع بنسبة المرتبات التي يتقاضونها في أثناء الخدمة . و اترك النصف الآخر للمدن والقرى التي في الازراس والاورين وفرانش كوتاي وبرغونية وجزيرة فرنسا وشامبانيه وفورست ودوفينه التي نالها خسارة من جراء الغزوات ويخصص مليون فرنك من هذا المبلغ لمدينة بريان ومليون لمدينة ميري .

واقم السكونت منطولون والكونت برتران ومرشان منفذين لوصيتي .
وهذه الوصية كتبها كلها بيدي ووقعتها باسمي وبصمتها بشعاري
نابوليون»

— ٣٤١ —

نظرت للمصادقة في باريس في المكتب الثاني في اليوم السادس والعشرين من شهر مارس ١٨٥٣ رقم ٣٩ وقد قبض رسم قدره فرنك وخمسون سنتيما وسجل في اليوم عينه في السجل الثلاثين الخ وقبض خمسة فرنكات وخمسون سنتيما
سوراي

وقعته باسمي انا رئيس المحكمة بموجب قرار صادر في هذا اليوم . باريس
في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣
دبليم

ضم الى مسودة صك مودع عندي انا كاتب عدل باريس ووقع في ٢٦
مارس سنة ١٨٥٣
نويل

أما الصفحات من ٦ الى ١٣ فانه يتخللها بضع صفحات بيضاء وهي تحتوي على بيان بالموجودات . وقد كتب الامبراطور بيده في الصفحة الرابعة عشرة مايلي : « هذه وصيتي كتبها كلها بيدي . نابوليون »

وثمة كتابة تدل على دفع هذه الوصية رسميا الى فرنسا وكتابان وخمسة ذبول : « ان الوصية والذبول الخمسة والكتابين المنضمة اليها والتي كانت موضوعة حتى اليوم في خزائن اوراق بلاط كتريبي دفعها حضرة اللورد كلارندن المستشار الخاص لجلالتها البريطانية الى حضرة الكونت كولونا فالفسكي سفير جلالة الامبراطور نابوليون الثالث لدى جلالة الملكة فكتوريا في هذا اليوم السادس عشر من شهر مارس سنة ١٨٥٣

واشعارا بذلك وقعت كما يلي
ا . فالفسكي

نظم في لندن في ١٦ مارس سنة ١٨٥٣

ويالي ذلك عبارة التسجيل في فرنسا في سنة ١٨٥٣

سجل في باريس في الدائرة الثانية في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣ الخ وقبض رسم
عن ذلك قدره فرنكان وخمسة وعشرون سنتيما .
سوراي

وكتب في الصفحة الخامسة عشرة التذييل الاول المطلوب اجراؤه بالحاح ومفاده تكرار رغبة الامبراطور بان يدفن في فرنسا :

« لونود في ١٦ ابريل سنة ١٨٢١

هذا ذيل لوصيتي :

١ - ارجب بان يشوي رفاقي على ضفاف نهر السين بين الشعب الفرنسي الذي احببته كثيرا

٢ - اترك للكونت برتران والكونت منطولون ومرشان المال والجواهر والآنية الفضية والخزفية والرياش والكتب والسلاح وبالأجمال كل مالي في جزيرة القديسة هيلانة وهذا الذيل كتبته كله بيدي ووقعته وبصمته بشعاري . نابوليون .
ضم الى مسودة صك استيداع دفع الى انا كاتب العدل في باريس ووقعته في هذا اليوم السادس والعشرين من شهر مارس من سنة ١٨٥٣ . نويل وقعنائه وختمناه نحن رئيس المحكمة بموجب قرار هذا النهار

باريس في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣ ديلم
نظر المصادقة في باريس في الدائرة الثانية في ٢٦ مارس سنة ١٨٥٣ رقم ٣٩
وعقب الرسم وقدره فرنك وخمسون سنتيا سوراى
اما الصفحتان السادسة عشرة والسابعة عشرة فلم يكن فيهما كتابة ما
ولم يكتب في الصفحة الثامنة عشرة إلا هذا السطر :
« هذا ذيل لوصيتي كتبته بيدي - نابوليون »

ولدان طميمعيان لنابوليون الاول

يقال انه كان لنابوليون الاول اولاد طميمعيون غير تجل الكونتته فالفسكا والفلام لاون وقد ذكره العاهل في جزيرة القديسة هيلانة في الاحاديث التي كانت تدور بينه وبين المرشال الاكبر برتران فقد نشرت جريدة الطان في ٥ فبراير سنة ١٩٢٩ رسالة ارسلها الاب مس خوري الرعية في قرية بمقاطعة اللوار العليا في سنة ١٨٣٣ الى والدته الامبراطور في رومية وقد اصابته الجمعية النمساوية السوداء في فلورنسة نسخة عنها وهذه النسخة محفوظة في دار «مخطوطات» الحكومة في فينا . واليك نص هذه الرسالة :

« باريس في ٢٥ يناير سنة ١٨٣٣ »

اصححي لكاهن بسيط من كهنة الارياف بان يقضي مايجب عليه ويذكرك بامور عزيزة قد تكون غيب من ذهنك فانا راع للنفوس في قرية البوشه في مقاطعة اللوار العليا في ناحية كابر . وقد طلبت مني زوجة فلاح غني في القرية .

(توفي زوجها وهي ستقضي نحبها قريباً) ان ابلغك المعلومات التالية واستحلفتني بفروض ديني أن ابلغك ذلك وقد استودعتني جميع ما يمكنه ضميرها من الاسرار وبما قالته لي ما يأتي :

« ولدت ولدين من الرجل العظيم (وهي تعني بالرجل العظيم نابوليون نجلتك) احدهما ابني فكتور (هذا الشاب مملوء فطنة وهيئته تماثل هيئة ابنك) والاخر هنرييت صغيرى بناتي . وقد اسعد الحظ ابني فكتور كما اسعدني انا ايضاً بان يشاهد الرجل العظيم فانه لما كان حدثاً ناعم الظفر ذهبوا به الى باريس وقد ابصر فيها والدة الرجل العظيم وكانت تبتغي على ما قيل لي أن تعني بامر الغلام ولولا زوجة العاهل الثانية لبقى الغلام في باريس مع الرجل العظيم ويجهل الولدان والدمما الحقيقية فابنتي لم تدر شيئاً من واقع الحال وابني نسي ما قالوه له حينما كان غلاماً حديث السن ومع ذلك لا اشاء أن أموت من دون أن أبوح لكليهما بسرري العظيم وعلاوة على ذلك ترك لي الرجل العظيم ورة يعترف فيها بان ابني فكتور هو ابنه ولكن لم تبق هذه الورقة في حيازتي وقد يستخدمها بعض العيادين المحتالين لا بتزاز المال من اسرة الرجل العظيم »

هذا كلام المرأة الكريمة الاخلاق وهي منزهة عن المطامع والمصالح في ما قالته لي (وربما لا تطول أسباب حياتها اكثر من شهرين) وقد افضت الي بهذا الامر لكي ابلغك اياه

وقالت لي ايضاً : ولكن أفراد اسرة باسكيه خانوا الرجل العظيم (لا ادري ممن تعني بقولها افراد اسرة باسكيه) فانهم بعد ما جلس لويس الثامن عشر على العرش جاؤوني وهددوني بهدم البيت وقتل ابني اذا ابيت أن ادفع اليهما كل ما كنت احفظه من الرجل العظيم فرأيت أن ادفع الفوائيل عن ابني (ولم يكونوا يعلمون ان ابنتي كانت ايضاً ابنة ذلك البطل العظيم) بتسليمهم الورقة الآتية الذكر

ولا مندوحة لي عن القول لك بانها تلعب افراد اسرة باسكيه لرضعها انهم حرموها عشرين مليون فرنك وهبها اياها الرجل العظيم لتكون ارثاً للولدين . وقد استحلفتني هذه المرأة بأن اطلعك على امرين الاول ألا تعتريني لا انت ولا احد من أسرتك الورقة التي كتبها الرجل العظيم واخذوها منها بالا كراه فلم تبق

هذه الورقة في اليد التي كان يجب أن تبقى فيها فليس الذي يحرزها الآن سوى لص منافق . والثاني ترجو منك ان تخبرها هل تتذكرين انك ابصرت ابنها في التويلري وقد كان سنه في ذلك العهد يتفاوت بين ٤ سنوات و ٧ سنوات وكان يرتدي ملابس اولاد الفلاحين وكان كثير الشبه بنابوليون حينما كان حدثا نظيره فان تصرحك من هذا القميل يجرها على البوح لنجلها بما يجب عليها ان تبوح له به .

يا حضرة السيدة انا كاهن فاذا كان تأ كيد نفس دينية يكفي لان يجعلك تعتقدين صحة ما اكتبه اليك الآن فصديقي بائي لا اقول الا الحقيقة واعلمي انك لا تخطئين موقع الصواب في تصديق كلامي .

انك لا تعرفيني والتروي يقضي عليك بالاثرفيني بجواب مسهب ولكنني ارجو منك — لاجل راحة ضمير تلك المرأة الثابتة — ان تقتصري على كتابة هاتين الكلمتين : « اذكر اني شاهدت هذا الغلام في التويلري او لا اذكر اني شاهدته فيه » وحينما يقف هذا الشاب على سر ولادته يرى بعد الاطلاع على جوابك هل يذهب اليك او لا يذهب . واظن أنه في كل حال يبتغي أن يشاهد جدته قبل أن يموت وقد جاء المرشال سولت من نحو عشر سنوات الى القرية لرؤية الغلام ولم استطع حينئذ أن أعرف الباعث الذي حمله على المجيء أما وقد اطلمتني هذه المرأة على ما بسطته لك فاني حلت هذا الطلسم وقد قال لها المرشال ان الرجل العظيم كتب اليه من جزيرة القديسة هيلانة يوصيه خيرا بالغلام ولكنه منع ذلك لايزال وحيدا لا يكثر له أحد .

فتكرمي يا حضرة السيدة بان تشرفيني باقرب ما يمكن بجوابك الموجز الذي التمس منك فانا باق في باريس مدة قصيرة واحب أن أتمكن حين رجوعي من اعطاء جواب مرض للمرأة المحترمة التي اخبرتك عنها .

وسواء اسرعت في ارسال جوابك الموجز او تأخرت فارجو ان ترسله على العنوان الآتي :

الى حضرة الاب مسرقم ٩ بشارع سانت كروي دنطان

ففي هذا الشارع أخ للولدين من امهما وهو يدفع الي كتابك

وكتبت عقيلة دي سارتر وفيل قارئة «السيدة الوالدة» جوابا للاب مس في

٩ فبراير قالت له فيه : « ان حضرة «السيدة الوالدة» عهدت الي في ان اكتب اليك واؤكد لك انها لاتعرف شيئاً مما كتبته اليها وعليه ترجو منك الا تعود الى الكتابة اليها في هذا الصدد . »

وارسلت نسخة عن هذا الجواب الى فينا بعناية « الجمعية المنسوية السوداء » في فلورانس فضمت الى رسالة الاب مس المحفوظة في دار « المحفوظات » . ولا يمكن الجزم بصحة ما تقدم بيانه ولا نعلم هل قصد أحد العيارين بانتحاله اسم الاب مس ان يمثل دورا سياسيا أو ان يبرز شيئاً من المال من والدة الامبراطور وقد يحدث مثل هذا الامر في الاسر المالكة واسر عظماء الرجال .

كلمات مأثورة لنابوليون الأول

مشيرو الفن — لا يحسن التساهل مع مثيري الفن ولا التعامل معهم .
المحالفات — ان الحلفاء الذين نصيبهم بموالاته الاقدار لنا ونيل الانتصار
يسلبنا ايهم مجافاة النصر لنا ويجعلهم ينقلبون علينا
أما المصاهرة بين الملوك فلا قبل لها بمقاومة المصالح السياسية .
المطامع — المطامع الكبيرة خلة من خلال الاخلاق الكريمة فالمتحلي بها اما ان يعمل اعمالا جميلة واما أن يأتي امورا سيئة فذلك منوط بمقدار الشرف الذي يسيره .

الصدقة — الصدقة كلمة فارغة من المعنى

الحب — شر الحب يفوق خيره . والفرار هو الوسيلة الوحيدة للانتصار على الحب . فالدقيقة التي تفرق فيها عن الحبيب هائلة فهي تفصلنا عن كل شيء في العالم ولا يشعر الانسان شعورا شديدا بأنه يحب الا حين الاجتماع بمحبوبه او حين الابتعاد عنه وان المرأة التي يحبها الانسان تكون في نظره أجمل امرأة انكثرا — اذا اتفقت دولتان كفرنسا وانكلترا حكمتا العالم .

الارسطقراطية — الديمقراطية ترفع السلطة والارسطقراطية تؤيدها وتحفظها وتمتاز الارسطقراطية بمحصر اعمال الحكومة في ايدي يقل الخطر منها عن ايدي

جمهور غفير جاهل يكون أقل درجة . ونلقى الارسطقراطية عند جميع الشعوب وفي جميع الثورات فاذا نزعنا من الاعيان انتقلت في الحال الى الاغنياء واصحاب الكلمة المسموعة من عامة الشعب واذا نزعنا من هؤلاء لجأت الى أصحاب المصانع والمعامل ولاذت بكنف الشعب . وفي كل مكان يحرك اصحاب المطاعم الشعب يقضى على هذا الشعب بان يعود الى الوقوع في قبضة الارسطقراطية الجيش - حين تدفع الامة عادية أمة أخرى عليها لا تقدم ابدا رجالا بل تفقد جنودا في غالب الاحيان .

تدل التجارب على ان الجيوش لا تكفي دائما خلاص الامة وان الامة التي يدافع عنها الشعب لا تقهر .

التجنيد أصل الامة ونحها ومطهر أدبياتها ومواضع الاساس الحقيقي لجميع عاداتها . ويكرن التجنيد مؤسسة وطنية حين يصبح نقطة من نقط الشرف بحسدها الجميع فينتد تصبح الامة عظيمة ومجيدة وقوية وتستطيع أن تهزأ بالنكبات والغزوات والعصر .

ويركن الامبراطور الى جنود وطنيين ولا يعول على جنود مأجورين وليس اكبر من الوطنيين الا الشجعان الذين شوهوا في خدمة الوطن . وحيث تكون الحكومة ضعيفة يقبض الجيش على أزمة السلطة وحينما تتناقش النصال تفلت السلطة من أيدي الحكام للفنون والعلوم - ان العلوم التي تشرف العقل البشري والفنون التي تجمل الحياة وتنقل الاعمال الكبيرة الى الاجيال الآتية يجب ان تكون مكرمة تكرمها خاصا في الحكومات الحرة .

وللفنون في كل عصر ميراث وهو الكذب فهي زهر في هذا الوسط وتشتهر الجمعيات الدستورية - تتألف الجمعيات الدستورية من أصحاب دسائس أو من اشخاص غير متساوين في الكياسة والمعرفة وهؤلاء الاخرون ينخدعون دائما على التقريب ويصبغون آلات للاولين وشركاء لهم .

السلطة والقيادة - حينما ينكرون على صاحب الامر والنهي سلطته يقضى على كل شيء أصدر الامر او اصمت .

الانسان المخلوق للامال والسلطة لا ينظر أبدا الى الاشخاص بل الى الاشياء واهميتها ونتائجها .

يحتاج الانسان الى كثير من التحفظ والى أخلاق مجربة شديدة ليتولى قيادة من يكبرونه صمراً

ينشأ عن الانتصارات والانكسارات اربطة لا تفصم عراها بين الجيوش وقوادها
المستقبل - يعجز الناس عن تأمين المستقبل ولا يعين خطأ الأمم الا الانظمة
لا ينبغي الملك ان يقوم بعمله كأنه ليومه بل يجب عليه ان ينظر فيه الى المستقبل
السعادة - ليس في المطامع واحراز المناصب السامية سعادة الانسان العظيم
واصابة امانيه فهو يدع ذلك الى حكم غيره والى احترام الاجيال الآتية .
والسعادة الحقيقية في الهيئة الاجتماعية هي في تساوق لذات كل فرد ومزاواتها
وليس الوجود سعادة بل لعنة .

الجودة والرحمة - يجب على الانسان ان يصم اذنيه عن هماع صوت جودة
القلب حينما يكون ذلك مجلبة للسوء على الشعب
تشبه مرحلة الملوك مبلغا من المال يدفع في اليانصيب فالكسب يأتي عن
طريق الصدفة والحظ

وان حق العفو وهو أجل صفة من صفات السيادة وانبلها لا ينبغي أن يمنع
إلا حينما لا تكون المرحلة الملكية باعنا على تحقير عمل العدالة
والعفو العام يمنع للذين ضلوا عن سواء السبيل .
ويجب على الانسان ان يدري كيف يصنع وألا يبقى في حالة عدائية تجرح
عواطف القريب وتجرحه نفسه ولا بد من معرفة الضعف البشري والأذعان له
بدلاً من مقاومته .

الوشاية - لو كانت الوشايات السياسية معدودة جريمة في نظر الخالق لما وجد
الملوك نعمة في عيني الحق سبحانه وتعالى .

الأخلاق - الأخلاق الحقيقية تظهر دائماً في الحوادث الكبيرة
يجب على الانسان أن يكون صاحب اخلاق في مزاولة ادارة الشؤون
ومزاولة الحرب ليدرك ضالة النجاح .

غير العمر وتعود مزاولة الشؤون والاختبار أخلاق الناس .
السقوط - الحظ يعين سقوط الأمم

المدني والعسكري — من خصائص العسكري انه يريد الحصول على كل شيء بطريق الاستبداد ومن خصائص المدني انه يريد أن يخضع كل شيء للمناقشة والعقل والحقيقة .

والمدني الافضلية الاجتماعية على العسكري
يجب أن يصمت صوت مجد الوطني وسعادته وقت ماتدعوه مصلحة الدولة
والخير العام .

، الغضب — يخطيء الملك حينما يتكلم وهو محندم غضبا .
ويجب على الانسان ان يترك الليل ينقضي على الاهانة التي تجرّع غصصها
في امسه

وينبغي للانسان ان يعرف كيف يسكن فائر غضبه
المؤامرات — تعرقل المؤامرة المادية حالما تغل اليد التي تقبض على المدينة
أما المؤامرة الادبية فليس لها حد تقف عنده فهي تنفجر كالبارود .
ولا يعرف الفرنسيون كيف يتأملون .

الدستور — ليس من دستور في العالم يسرون طبقا لمعناه وهبناء . ويجب
أن يسن الدستور على نمط لا يعرقل الحكومة في عملها ولا يضطرها الى خرق حرمة
لا ينبغي ان يتقيد الانسان بانظمة الحكومة بالتفصيل فالانظمة يضعها
الزمان وقد لايسم الانسان ان يترك مجالا واسعا للتعديل .

حينما تهب العواصف يكون دستور الامة نجمها القطبي الذي تهدي به
التناقض — لا استاء ممن يناقضي بل أطلب جلاء الغامض
قلب الحكومة — الاستيلاء على الحكومة بعمل خجائي يخالف
حقوق الانسان

البلاط — من الخطأ الفاضح للانسان ألا يستطيع التصرف في البلاط
الشجاعة — ليس للشجاعة العسكرية علاقة بالشجاعة المدنية
الاجرام — يضطر الملك الى ارتكاب الاجرام في بعض الاحيان ولسكنها
اجرام تلازم مركزه

القساوة — لا ينبغي ان يظهر الانسان القساوة والشدة بالامسوخ

الاحطار — لاشيء يحرك الشجاعة والهمة في شعب عظيم الا استهدافه للخطر للمحافظة على استقلال بلاده المقدس .

القرارات — لا ينبغي للانسان أن يكابر في السعي وراء تذليل الاحوال العارضة فالاولى به ان يخضع لها فللانسان في الحياة مشروعات كثيرة وقرارات قليلة تعرف الحكمة الحقيقية بالاجمال من الجزم بحزم في الامور وفي الاحوال غير العادية يجب أن يكون للانسان عزيمة غير عادية وللصدفة شأن كبير في تقرير عزائمنا

التدابير غير الكاملة — تكون التدابير غير الكاملة مضرّة دائماً ولا تستميل العدو اليها .

يفقد الانسان كثيراً في مزاولة نصف العمل فيجب الا يبصر أو اذا شاء ان يبصر ان يعرف كيف يبدي رأيه

العار — التاج المحفوف بالعار حمل ثقيل على صاحبه

يسهل على الامة أن تلقى رجالاً أكثر مما يسهل عليها أن تستعيد شرفها الاستبداد — لا يكون الاستبداد مطلقاً بل يكون نسبياً

الاستبداد العسكري يناوئ انعواطف الكريمة واستبداد رجال الدين يخنقها ان تحويل الطاغية الى مستبد اسهل من خلع نير جميع الشعوب المتحدة لاشيء أشد ظلماً من حكومة تزعم انها بمثابة الاب للرعية

التفصيل — ان الاشخاص الملقاة على عواتقهم اعباء التبعية الادبية والسياسية هم غير الذين يوافق ان تسند اليهم ادارة حساب بالتفصيل .

الله — كل شيء في العالم بذيوع وجوده تعالى

حينما يبدي حكمه ذلك الذي يقيس مقدار الحياة لان تكون عنده جميع المعارف البشرية الا تجارب لافائدة من ورائها .

السياسة — الحرف يقتل الروح في السياسة ويصيب حسن الذوق والكياسة فحاحاً لا تصيبه الحيلة .

اذا استطاع الانسان التكلم بصراحة وبصوت عال فما هي الفائدة من احتياله

الكهانة — جميع انواع الكهانة كذب ونتيجة للاحتيال والحقارة أو التمعصب . ان مهنة المتكهن عند المتأخرين لاتزال كما كانت عليه عند المتقدمين . بضاعة الساحر الحقيقي الوقاحة والثروة والجسارة وتوقد الذهن توقدا يسهل له ابراز الحكم من أول وهلة على الذين يؤمنونه للاستشارة

الطلاق — الطلاق قانون يلام مصلحة الزوجين

الاسرة المالكة — ان سياسة الملك ومصلحة شعبه وحاجته وما يجب ان يكون هادياً له في كل حين في اعماله تقتضي ان يخلف اولاداً يرثون محبته الشعبية الاسرة المالكة التي تنشأ للمحافظة على جميع الحقوق وجميع الاموال تعتبر وحدها بالطبع شرعية وتحجز الثقة والقوة :

تصيب الامة على أثر الثورات مصالح جديدة . والنظمة جديدة ومجدداً جديداً ولا يضمن لها ذلك إلا أسرة نشأت في أحوال جديدة

اخفاق المسعى — حينما أخفق سعياً يكون ذلك ناجماً عن خطأي وهذا شيء عادل .

الهرجة — في الجيش تكون البساطة في محلها اما في المدينة الكبيرة وفي القصر الفخم فيجب أن يلفت رئيس الحكومة الانظار اليه بجميع الوسائل الممكنة ولكن يجب السبر على مهل

تحتاج الحكومة الحديثة النشأة الى بهر العميون وتحريك ساكنات العجب وهي تسقط حالما يبطل انبعاث الهرجة منها

مخاطبة العميون تؤثر في الشعوب

التهذيب — يجب على الحكومة ان تنظم شؤون التهذيب تنظيمًا يسني لها مراقبة الرأي العام السياسي والادبي .

المساواة — يجب أن تكون المساواة الركن الاول لتهذيب الناشئة .

الامبراطور — لقب امبراطور لفظة كغيرها من الالفاظ فيجب على حامله ان تكون له حقوق ليست لغيره ليكنه المثل امام الاجيال الآتية .

لقب الامبراطور لا يفقد

العدو — حينما يقبض الانسان على ناصية عدوه يجب عليه ان يصيره طاجراً عن ايذاءه

يجب على الانسان ان يتقدم للقاء اعدائه بقدوم ثابتة وعزيمة شديدة لئلا يتوهموا انه يخاف منهم فيتجروأوا عليه .

مدح العدو مشتبه فيه فهو لا يتملق رجلا كريما الا حين يبذل هذا التملق بعد زوال العداوة

خير للانسان ان يكون له عدو معروف من أن يكون له صديق مكره على الصداقة أوروبا - تكون طريقة التحالف الاوربي السكبير افضل من سواها لتقدم المدن لم تنشأ ممالك عظيمة وثورات كبيرة الا في الفرق المأهول بست مئة مليون من البشر وليست أوروبا بالنسبة اليه شيئا مذكورا .

الضعف - لا ينبغي للانسان أن يكون شديد السرعة وضعيفا في وقت واحد اذا كانت الحكومة القوية معرضة للمحاذير كانت الحكومة الضعيفة أكثر تعرضا لها فانها تضطر في كل يوم الى خرق حرمة الشرائع الموضوعة والا تعذر عليها السير .

ليس احتقار الشرائع وتزعزع النظام الاجتماعي إلا نتيجة ضعف الملوكة وترددهم

الملك الضعيف مصيبة على شعبه فاذا هو جعل الاشرار والخونة يظنون أنه لا يستطيع المعاقبة فقدت الدولة والملك الامن الجوع - لا استكانة ولا خوف للمعد الفارغة

الاسرة - لا يشتق نظام الاسرة من الحق الطبيعي بل يتخذ شكله من الاخلاق والادوات والدين في كل شعب

حب الرجل لاولاده ولزوجته طائفة ودية حلوة تستعبد النفس بطريق القلب والمواطن بطريق الحنان

القضاء والقدر - ليس القضاء والقدر مذهبا يسهل تأييده فما هو إلا كلمة ظاهرا أن يسلم بحرية الفكر وإما أن ينبذها فاذا سلم بها فما هي النتيجة التي يمكن تقريرها سلفا ويستطيع أقل شيء أن يغيرها . واذا نبذ حرية الفكر كان ذلك أقبح وأشر وعليه اذا جئت الى هذا العالم فلا يكون لك إلا أن تضطجع على سريرك من دون أن تعنى بأمرك واذا قدر أن تعيش فلا حاجة لك الى التغذية فانك تعيش في كل حال

— ٣٥٢ —

الخطأ — الموت يكفر عن الخطأ ولكن لا يصلحه
النساء — يجب على رجال السياسة ألا يدعوا امرأة تدنو من مكائهم
أفضل مرب للفتاة أمها والتهذيب العام لا يلائمها
المرأة مصنوعة للزوج والزوج للوطن والاسرة والمجد
ان كثيرين من الرجال لا يرتكبون جرماً الا من جراء ضعفهم مع نسائهم
الويل لمن يدع زوجته تتسلط عليه فلا يبقى حينئذ هو نفسه ولا يصير هو
زوجته بل يصبح لاشيء .
عند اشتداد الخطوب يكون من مهمة المرأة تخفيف شوائدنا .
في الحسنيين من العمر تمت الشهوات أو تكاد ويتنظم حد الرغبات ويكثر
الغرور وحينئذ لا يبقى للرجل من ملجأ الا حنان زوجة طاهرة ومتساهلة فهي
بمثابة قوس قزح بعد العاصفة
لا ينبغي أن تخاطب المرأة بلغة لا تفهمها
يجب على المرأة أن تشتغل بالتطريز
الحوادث المفجعة مأساة المرأة
خطف المرأة من زوجها والولد من والده عمل ممقوت لا يليق بشعب متمدين
الثبات - يجب على الانسان ان يكون ثابت العزيمة وذالقب جريء والا وجب
عليه الايتدخل في الحرب ولا في شؤون الحكومة .
الموظف - يجب ان يعطي موظفو الدولة مثالا كبيرا في بعض الاحيان
القوة - الاقوياء لا يفاوضون بل يملون الشروط فيذعن لها غيرهم
على الانسان أن يستعمل القوة حينما لا يكون له سبيل لاستعمال سواها
وحينما يكون الانسان صاحب السلطة تكون العدالة أفضل .
في الناس طائفة لاندحة عن استعمال القوة لتسييرها
يكون الانسان قويا حينما يعقد عروة العزم على الموت
القوة مبنية على الرأي
الحصن — يكون حفظ الامة في بعض الاحيان منوطاً بموقع الحصن
الذي يحميها
الثروة - كانت الثروة في كل حين أول وسيلة الاحترام

الثروة كالمراة اذا فقدتها اليوم فلا تطمع باصابتها غداً
الثروة متقلبة فكمن اناس هادنهم وكانت باعثا على اضافة بعض سنين
الى عمرهم

السخاء — يجب على الانسان أن يعرف كيف يعطي لكي يأخذ
الدهاء — الصناعة الحقيقية لا تقوم بالعمل بجميع ما للانسان من الوسائل
المروفة والمعطاة فالغن والدهاء يقومان بعمل الشيء رغما من المصاعب وبوجود
اشياء مستحيلة أو بعدم وجودها

ان الذين غيروا وجه العالم لم يفعلوا ما فعلوه باستمالة الزعماء اليهم ولكن
بتحريك عامة الناس فالشق الاول من هذه المسألة يبنى على الدسائس ولا يكون
له الا نتائج ثانوية والشق الثاني هو سير الدهاء وفيه تغيير وجه العالم

المجد — خير للانسان الا يعيش من أن يعيش بلا مجد
الشهرة العظيمة دوي شديد فكما اكثر الانسان منها زاد امتدادها . ان
الشرائع والانظمة والانصاب والاعمال تزول جميعها ولكن المجد يبقى له دوي
في الاجيال الآتية .

يشبه حب المجد الجمر الذي مده الشيطان فوق وهدة العدم ليجتاز عليه
من الجحيم الى الفردوس والمجد يضم الماضي الى المستقبل وبينهما وهدة عميقة .
ان الانظمة التي يسنها الملك وما يجود به من الاحسان والانتصارات التي
يصيها تعد اسبابا حقيقية للمجد

لا يدري أحد الغاية التي يصل اليها الانسان الملتهب رغبة في نيل الشهرة
الحكومة — يجب على الانسان أن يسمى للتوفيق بين اعلى مستوي
للحرية السياسية والامن الشخصي والقوة وما يلزم من حصر السلطات في
الحكومة لحل الناس على احترام استقلال الامة وكرامة صاحب التاج .

تقتضي مزاولة الشؤون العامة والادارية والعسكرية فكرا حادا وتحليلا
عميقا ومقدرة على تثبيت الامور مدة طويلة من غير ما تعب .

يجب على ولي الحكومة أن يكون عازما بلا تعصب وذا مبادئ لا تثير
افكار الشعب وان يكون قوي العزيمة بلا قساة ولا ينبغي له أن يكون ضعيفا
رعديدا أو ان يخجل من القيام بما يجب عليه .

يجب أن يكون للحكومة اعضاء ووسطاء والا لم يكن لها منزلة عند الامة ولا وسيلة لمخاطبة الشعب أو معرفة رغائبه .
الحكومة الجديدة تلتقط الحظ كما يبدو لها وتسخره لخدمتها
الامة العظيمة تحتاج الى حكومة ثابتة لا يزعمها تخرم القابض بيده على ازمته .

الحكومة المتفيدة في ظل حماية الاجنبي لا ترضى بها أمة حرة
الرجال العظام — الرجال العظام يعرفون كيف يتسلطون على السعادة والحظ
يندر أن نرى الرجال العظام يخفقون في أشد المشروعات خطرا .
يكفي ان يكون في الامة طائفة من الرجال العظام لتدبير حظها الادبي
في الازمنة العصيبة يظهر الرجال العظام والامم الكبيرة شدة الصريمة
ويصبحون موضوعا لاجباب الاجيال الآتية .
مكافأة الرجال العظام في ذمة الاجيال الآتية ورأيها
العظام في الخير والشر يتشابهون اولا يكون من باب السفسة ان نقول
ان نفس خرطوش (رئيس عصاة من اللصوص) تشبه نفس « كوندو » الكبير
من بعض الوجوه .

لا يكون الملك عظيما الا في طليعة جيشه .
الحرب — الحرب شديدة الوطأة على الشعوب وهائلة على المغلوبين
ان منظر ساحة القتال بعد نشوب المعركة يجعل الملوك يحبون السلم ويستقنعون الحرب
ما فظع منظر تقاتل الشعوب عند الذي يحملهم على التقاتل
حينما تنقاتل في أي بلاد كانت نضرم نار الحرب الاهلية
حينما يتجاوز الملوك حدود الحقوق التي تخولهم اياها ثقة شعوبهم بهم
ويجلبون عليهم ويلات الحرب يحق للشعوب ان تنزع هذه الثقة منهم .
في مصانع الوطن يدبرون حرباً منظمة ومأمونة العواقب يشهرونها على العدو
وهي على الاقل لا تكلف قطرة واحدة من الدم .

ان شؤن الحرب وحظ المعارك ومصير الممالك معلقة بخيط كخيط العنكبوت .
في الحرب كما في الحب يجب ان ينظر الناس بعضهم الى بعض عن كذب ليمكنهم أن
يقرروا نتيجة .

البغض - الرجل كل الرجل لا يبغض ابداً
لا ينفع ابداً أن تضرم البغضاء أو أن يصبح الانسان ممقوتاً بسببها
تحذر من البغضاء وأصخ الى كل شيء ولا تبرز الحكم قبل التروي التام .
اخذ الثأر امر محزن

الصدفة - الصدفة عناية العيارين

التاريخ والمؤرخون - الحقيقة ارث التاريخ الموروث وهو من هذا القبيل
معتبر مكرما وجديرا بأن يكون عبرة خالدة للبشر في التعليم
يجب على من يصنف التاريخ ان يكون فوق درجة البشر لان الكاتب الذي
يحمل القلم لكتابة هذا الكتاب الذي توزن فيه اعمال البشر بميزان العدالة
السامية يجب أن يتجرد من أي اهتمام بالمصلحة أو بالعجب .
يلقى الانسان عبرة في الحوادث المعاصرة كما يلتقى في الحوادث التاريخية
ولكن لا يلتقى فيها أبداً مثالا ينسج على منواله
الصفحات التي لا تمحى في تاريخ الممالك العظيمة هي الممارك والاعمال الكبيرة
وفيها يبحث المؤرخون عن مآلهم
حين يبلى الملوك ببلىة افعال مدارة عواطف المؤرخين أو مجرحها يعضون
بنانهم ندما .

الرجال - لا يكون الرجل بمنجاة من الخطر سواء كان على طرف صخرة
شاهقة او تحت سقف قصر نفخ فهو هو في كل مكان .

من الامور الحقيقية انه تصعب معرفة كنه الانسان ولكي يأمن المرء
الأنخداع يجب عليه ان يقصر ابراز حكمه على اعمال الانسان في الوقت الحاضر

لان نضحك من البشر خير من ان نبكي عليهم

ليس الرجال في الغالب الا أولادا كبارا

لا يحكم على الانسان بمجرد النظر الى وجهه فهو لا يعرف الا بالتجربة

إن أعمال الناس تسيرها الوشاية والحسد وجميع عواطف البغض .

حياة الانسان مرآة ينعكس عليها ما يقرأونه فيها ويستعيدون منه .

الرجال نادر وجودهم .

المعالي - انشاء الرتب والنياشين يؤثر في الشعب

يسرون البشر بالعباب صبيانية
لكل دور من أدوار الحياة ألعاب
لا يمنح الجميع الشعور بقيمة المعالي وإن قليلا من المال لا يفسد شيئا
الجهل - الذين يعتمدون خداع الناس ويتولون الاحكام لفائدتهم وحدهم
يريدون أن يبقوا الناس متسكعين في ظلام الجهل لانه كلما تنور الناس زاد عدد
الذين يقتنعون من بينهم بضرورة وجود الشرائع .
فساد الاخلاق - فساد الاخلاق أشأم خلة في صاحب السلطان فهو يجعله
أمراً مألوفاً ويبالغ الناس في إطرائه ليهيجوه وهو يقوي جميع الرذائل ويفسد
جميع الفضائل وهو آفة تنزل بالامة .
الصناعة والتجارة والزراعة - الزراعة روح المملكة وأساسها الاول
والصناعة منشأ الغنى والهناء في الامة والتجارة الخارجية راموز زيادة اليسر
وحسن استعمال الصناعة والزراعة .
المالية المؤسسة على الزراعة المثقنة لا تنضب مواردها أبداً
التجارة الحرة تفيد جميع طبقات الامة وتحرك جميع الافكار وتثير الامة
كلها وهي مماثلة للمساواة وممهدة السبيل للاستقلال .
نكران الجميل - ليس الناس ناكرين الجميل كما يتهمونهم واذا شكوا منهم
في بعض الاحيان فما ذلك إلا لان المحسن يطلب منهم في الغالب اكثر مما يعطيهم .
التعليم العام - يعد التعليم العام أول اداة من أدوات الحكومة .
اذا كان النور يؤذي الجمهور فلا يكون ذلك إلا حينما تعارض الحكومة
مصالح الامة وتحصره في حيز محدود وتجعل آخر طبقة من الامة حليفا للشقاء
وحينئذ يكثر عدد أصحاب الافكار التي تدافع عن ذمارها أو تأتي الجرائم .
الاحكام - تصدر الاحكام في الدرجة الاخيرة بمقابلتها بامثالها .
العدالة - لا تكون قوة بلا عدالة .
اذا فقدت العدالة اشتد ساعد الاحزاب والطفافة وكثر عدد الضحايا
من الظلم والاستفزاز وفقدان الادب معاقبة الابن بجريرة والده وتجريده
من ميراثه .
الحرية - الحرية والمساواة لفظتان خلافتان .

— ٣٥٧ —

الوجدان ملجأ لا يستباح ذماره تلجأ اليه حرية الانسان .
الحرية الحقيقية المدنية تأمين للتملك .
الملك ينزع الحرية حين تعرقل سيره .
علم الادب والكتاب - الادباء أشخاص نافعون يستوجبون أن يميزوا
عن غيرهم لانهم يشرفون وطنهم
اذا برز الفكر الجميل الصحيح بحلة الشعر البديع وصل الى مستقر النفس
باسرع مما يصل اليه اذا برز بحلة النثر المنمق ،
المأساة تجعل الحرارة تدب في النفس وترفع القلب وتبتدع الابطال وتقضي
بهذا الابداع
ان أفضل وسيلة لتشجيع علم الادب هو اسناد منصب الى الشاعر في خطط الحكومة
يجب على الشعر والتصوير والنحت ان تكذب ولكن يجب ان يكون
هذا الكذب ساميا فائنا وعظيما .
الشرائع - الاشتراع ترس تحمله الحكومة في كل مكان يتجهجون فيه على
ثروة الجمهور .
الشرائع التي تكون من الوجهة النظرية مثالا للصراحة تصبح في غالب
الاحيان باعثا على الابهام حين توضع موضع الاجراء فالفساد يتسرب الى كل ما
يمسه الناس وتتمرس به الشهوات
للناس قلوب تؤثر فيها الشفقة أما الشرائع فلا قلب لها .
وجودنا يرتكز على الشريعة فالذي يبتغي تقلد الامر والنهي واختلاس
مناصب لا تحوله اياها لا يكون صديقا لشعبه
سر المشتري معرفته الاستفادة من مخالفات الدين يزعم انه متسلط عليهم .
تقضي مصلحة الامة بالايجلوا الهيئة الاشتراعية سلسلة المقادة واذا كانت
هذه الهيئة ذات قوة للتسلط علينا اخنت عليها الحكومة أو اخنت هي
على الحكومة .
القضاة — من الحماقة ان يكون القاضي في وقت واحد قاضيا في الفعل وفي الحق
الجنود الجبناء والضعفاء يفقدون استقلال الامم أما القضاة الجبناء فيهدمون
قوة الشرائع وحقوق العرش والنظام الاجتماعي .

الوراثة غير منطقية على العقل في القضاء لأنها تجعل القضاء ملكا لصاحبه وهي غير منطقية أيضا على سيادة الامة .
المولى — خير للامة ان تجاذف لاصابة مولى واحد من ان يكون لها ألف مولى .

النكبات — ان حظ استيانا كس اسير اليونانيين ظهر لي دائما انه اشأم حظ عرف في التاريخ .
للنكبات بطولة ومجد

الشعوب التي تعودت نيل الانتصارات الكبيرة لانستطيع في غالب الاحيان ان نطيق يوماً من الايام التي تنزل فيها النكبات
الزواج — الزواج حالة من حالات الكمال الادبي

ان شكل زهرة المديسيس لا يعد في الزواج الا من الصفات الاضافية
يجب أن نقرر فكرنا على الزواج بامرأة متخذين قاعدة لعملنا صفاتها الادبية كاللطف والاقتصاد وحسن الادارة مما يجيء به الى بيت زوجها .
الموت وحده يفصم عرى الزواج التي عقدت بالميل الودي والعواطف والحب .
يجب على الانسان ان يكون شديد الحزم لكي يكون بعد زواجه صاحب الامر والنهي في بيته

لا تزوج الذي يخصص نفسه للتعليم الا بعد قطع الدرجات الاولى من مهنته
لا فائدة من الزواج للمنتظمين في سلك الجندية
الوزراء — يجب ان يكون فكر الوزير أسرع من يده فليس له وقت الا لوضع الرسوم فلا بد له من أن يصوغ الكلمات في حروفه والمبارات في كلامه اذا سقط الوزراء بقيت الامم واقفة

الاعتدال — الاعتدال يطبع الحكومات بطابع محمود كما يطبع الشعوب وهو رفيق القوة وكيان الانظمة الاجتماعية

الانصاب — ان فكرة اقامة الانصاب للذين افادوا الشعوب مكرمة في الامم ولكن يترك للقرون الآتية امر الاهتمام بتشيدتها بعد ان يتأيد الرأي الذي يبرزونه عن الابطال .

الموت — نحن جميعنا مقضي علينا بالموت ولكن هل تساوي بضعة ايام
نعيشها لذة الموت في سبيل بلادنا
أفضل أنواع الموت موت الجندي في ساحة الشرف هذا اذا لم يكن افضل
منه موت القاضي في سبيل الدفاع عن مليكه والعرش والشرائع .
الموت يفاجئ النذل ولكنه لا يفاجئ الشجاع وهذا لا يموت إلا حينما
تأتي ساعته .

في الحياة مصاعب شتى تكون سببا لشرو وعظيمة بحيث لا يعتبر الموت اعظمها .
الامم — استطاع قتل شعب عظيم ولكن لا استطاع تصديره جباناً
أيها الشعوب انك تستحقين العبودية والعار
احترموا الشعوب التي تنقذونها
الرأي العام — الذي لا يعلق أهمية على الرأي العام يدل على أنه غير جدير
بالاصوات في الاقتراع .

الرأي العام في قبضة الذي يعرف كيف يتصرف به
الرأي العام يمنح القوى حقاً والقضية التي تفوز تعتبر قضيته
ماهي الحكومة ؟ لا شيء اذا لم يكن الرأي العام من وراءها .
المعارضة — الفرق عظيم بين المناظرة في بلاد مضى عهد طويل على تنظيمها
والمعارضة في بلاد حديثة العهد بالتنظيم
التنظيم — خير للشعب أن يكون له تنظيم شيء من أن يكون بلا تنظيم
الكبرياء — لا شيء من الكبرياء يعادل الضعف الذي يشعر المرء به بتحرره من زبر القوة
السلام — السلام هو أول حاجة للانسان وأول مجد له
لا ينبغي أن يعقد الصلح بلا ضمان لان مكارم الاخلاق تخدع السياسة
السلام المبني على استقلال جميع الشعوب محدود من الخيالات التي يتخيلها
الاغرار ويؤيد ذلك الاختبار .

الكلام — الكلام يزول والاعمال تبقى
الوطن — الوطنية كلمة تعبر عن فكرة سامية
ليس للملوك والقضاة والجنود والوطنيين في حياتهم سوى غرض واحد وهو
- مصلحة الوطن .

حينما يزول الوطن يجب على الوطني الحقيقي ان يموت
الفساد - يكون الفساد دائماً فردياً ولا يكون على التقريب أبداً فاحوة
يوسف لم يقر رأيهم على قتله أما يهوذا الاسخريوطي فانه أسلم سيده الى العذاب
بهرودة وخبت وحسباق دنيء .

الشعب والغوغاء - إن سيادة الشعب لا يجوز المجازفة بها
إن أول واجب على الملك هو ولا مراة أن يفعل ما يريده الشعب ولكن
الشعب لا يعرف على التقريب ما يريد فان مشيئته وحاجته في قلب الملك أكثر
مما هي في فيه .

في الامة العظيمة تكون الاكثرية عاجزة عن إبراز الاحكام الصائبة
على الاشياء
يجب أن يخدم الشعب بكرامة وأن يعرض عن إبهاجه فأفضل وسيلة لاستمالته
هو الاحسان اليه .

يقتضي ثبات الحكومة أن يكون للشعب ضلع كبير في الانتخابات
لا ينبغي أن يعول على الشعب فالشعب يصبح على السواء . « فليمش الملك »
« فليمش الاعتصاب » بل يجب ان يختط منهج له وأن يكون لذلك أدوات .
الجمهور الذي ينظر الي باعجاب ينظر الي بالعين نفسها وانا صاعد الى النطع .
الشعوب والملوك أعداء الداء .

ليس مجموع الهيئة الاجتماعية شريرا لانه لو كانت الاكثرية الساحقة تريد
أن تعبت بالشرائع البشرية فمن يجرؤ على صد تيارها أو تحويله .
لا تتمرس الغوغاء بأخذ حين تبصر أمامها حراب الجند
يحتقر اللثام بقدر الامكان وحين لا يبقى هذا الاحتقار ممكنا يجب الضرب
على ايديهم بيد من حديد

النهب - من حسن الحظ أن تكون السياسة متفقة مع المبدأ الادبي
لمعارضة النهب

المناصب - حينما يطمع الانسان باحراز منصب يكون مبيعا الغيرة قبل احراز منتهبه
المحافظة على النظام - لكي يحسن الانسان المحافظة على النظام لا بد له من
أن يكون خاليا من المواطنين

تقتضي المحافظة على النظام الثبات ولا سيما السرعة .
 في المحافظة على النظام ابتداءً بفوق ما فيها من الاكتشاف .
 السياسة — أفضل سياسة هي البساطة والحقيقة
 لا يستطيع الانسان أن يوفق بين السياسة والعواطف
 الاعتبارات العائلية أمر بليد في السياسة
 الاسباب السياسية تفوق جميع الاسباب الاخرى :
 يجب على الانسان أن يخضع منهاجه السياسي لمقتضيات الحوادث ولا يخضع
 الحوادث لمنهاجه السياسي
 في السياسة كل ما هو ضار — ولو كان في القواعد — لا يعذر أحد عليه لانه
 من الضرورات اللازمة وكل ما تجاوز ذلك عد جريمة .
 النصب الذي له علاقة بالسياسة يجب أن يسرعوا في اقامته
 في السياسة بون شاسع بين الوعود وتتبعها
 تتسلط السياسة على الحوادث ولا تتسلط الحوادث على السياسة
 لا يستطيع أحد أن يعرف نتائج المفاوضات السياسية الخاضعة لتأثير
 الحوادث العسكرية
 ليس من حوادث صغيرة للامم والملوك فهم متسلطون على حظههم
 الكهنة — لا تبقى مؤسسة مدة طويلة من دون أن تكون مؤيدة بهيئة
 قسوس أو هيئة مدنية
 يجب على الكهنة أن يمحضروا اعمالهم في ادارة شؤون الديانة
 لا ينبغي للكهنة أن ينزع ثوبه ابداً ويجب عليه ألا ينحيز اخلاقه دقيقة
 واحدة .
 ابتداءً الانحطاط في ايطاليا منذ الحين الذي اراد الكهنة فيه ان يدبروا
 شؤون المالية والمحافظة على النظام والجيش .
 الملوك — ان الملوك هم أول الوطنيين في الدول
 يقرن الملك حظه بحظ وطنه ليتمثل به
 يجب على الملك أن يكون راجح الحصاة على عرشه
 الذي يبتغي التأثير في الملوك ومقاصدهم بجرح عواطفهم

كل امة مهما صغر شأنها يحق لها أن تنفض عنها غبار الصغارة بخضوعها
لملك يجلسه على عرشها عدو ينتصر عليها انتصارا وقتيا
حينما يظهر الملك الثقة في احماله يجعل للناس ثقة به
تفنى ارادة الملوك في بعض الاحيان فالحوادث تسلط عليهم ويتوقعون كل
شيء من نتيجهتها

الاحتمال والترجيح — حينما يكون الانسان في حالة الاحتمال أو الترجيح
لا يستطيع تقرير فكره على شيء
التقدم — يسرع الانسان حينما يسير وحده .

التملك — الحرية المدنية الحقيقية منوطه بسلامة التملك .
البيسيكولوجيا — ليست البيسيكولوجيا من خصائص قواد الجيش البري ولا من
خصائص قواد الجيش البحري فليس لهؤلاء القواد سلطة الا على الجسم الانساني
أما ما ينطوي عليه هذا الجسم فهو من خصائص الفلاسفة .

التجديد — من يجرؤ على التفكير بتجديد شعب بين عشية وضحاها يعد احمق .
الملكات — يجب على الملكة أن تتسلط على نفسها وان تكون ذات
كياسة في الحب .

يجب أن يظل كيس الملكة مفتوحا لتغمر بموارفها النساء والاولاد .
الدين — لاغنى للحكومة عن الدين في جميع البلدان ولا بد من التمويل عليه
في التسلط على الناس .

أرى في الدين سر النظام الاجتماعي
الاديان جميعها وليدة البشر وهي العضد الحقيقي للآداب الحقة والمبادئ
المصادقة والاخلاق النبيلة

يجب على رجال الدين أن يقتصروا على خدمة السماء .
لا شيء كالاستبداد الديني يحقر من مقام الامة
العواطف الدينية تعزي قلب الانسان فمن يحرزها ينل نعمة من السماء
كل شيء في الدين يجب أن يكون مجانيا للشعب ولا ينبغي أن يحرم المساكين
ما يميزهم في فافتهم وذلك لكونهم مساكين .
تصوروا عذاب الآخرة متما للاشياء الجذابة الناقصة التي يعرضونها علينا .

— ٣٦٣ —

لا أحب أصحاب الافكار القوية فالحمي وخدم لا يكثر ثون للمجهول
يجب على كل انسان ان يبقى في الدين الذي ولد فيه
ان تغيير الدين - وقد لا يعذر الانسان عليه - لمصالح خاصة يستطاع فهمه من
وراء غظم نتائجها السياسية
يجب أن يكون الدين كله في الدولة في قبضة صاحب السلطة كما تكون قوة
الشحنة في يده

النتائج - تنهني الاشياء البشرية بسفك الدم والخير والقيام باعمال عظيمة
كثيرة وبانتصارات واعمال ومواظبة

كل شجرة تأتي بشمرها ولا يحصد الانسان الا ما زرعه
يقضي الانسان بالحكم على أشياء حمة لانه لا يدرك نتائجها
التردد والفوضى في المحركات يفضيان الى الضعف والفوضى في النتائج
أصغر الاسباب ينتج أعظم الحوادث
لا تنم الامور إلا حين توضع في محلها .
لا يكون شيء قد تم مادامت اشياء باقية بغير اتمام
الثورات - الثورة ضربة سوط قوية تضرب بها الامة .
الثورات كالسماد القدر تساعد على نمو الخضر النبات .
الثورات المبنية على قاعدة تتلف كل شيء في الحال ولا تستبدل به الا في المستقبل
ان زمان الثورات هو زمان الاجرام والدهاء فكلاهما يلقيان مادة يمتازان بها
لا ينبغي للجندي أن يقنط من شيء في آونة الثورة فعليه أن يتدبر
بالثبات والشجاعة .

في الثورات لا يلتقي النقيضان
الثورة ضربة شديدة تنزلها السماء بالارض فهي تفني الفقير من دون أن
ترضيه وتفقّر الغني من دون أن ينساها وهي تقلب كل شيء ظهرا لبطن وتجير
البلاء على الجميع ولا تمنح أحدا هناء العيش .
الشك - الشك فضيلة في التاريخ والفلسفة
العواطف - يجب أن لا يكون قلب رجل الدولة إلا في رأسه
معظم العواطف متسلسل عن التقليد ولذلك نشعر بها لانها تقدمتنا

تعظم الانسان بقلبه يوليه مجدا وقوة حقيقية
الشدة - تتلاقى الشدة الهفوات أكثر مما تمنع وقوعها

حينما يعزم الملك على الضرب يجب عليه أن يضرب كثيرين في وقت واحد
فتستتب الامور بعد ذلك فيقلل حينئذ من العقوبة ويكثر من نيل نتيجة من
دون أن يجروىلا

حينما يعرف الملك الاشخاص الذين يبتغون التخلص منه يجب عليه أن
يبادر الى التخلص منهم
يجب على الانسان أن يضرب أو أن يضرب
العذاب - الحياة عذاب والرجل الكريم لا يني عن الجهاد ليظل مالمسكا
ناصية نفسه .

قد يتمزق القواد وتبقى النفس غير منزعة .
للام حدود لا ينبغي أن يتخطوها .

الملوك - ليست سيادة الملوك في لقبهم ولا العرش في مظهره الخارجي .
لقد تقرر في كل مكان أن الملوك لا يوجدون إلا للشعوب

ان وجود العرش وما يحيط بالملوك من البهاء والقوة واستمرار السلطة والوراثة
أنظمة وضعت لخدمة الشعوب وتنظيمها .
لا تكون الثقة التي يصيبها الملك متينة الاركان إلا حينما يقرها انتخاب
الشعب الذي قلده السلطة العليا

ليس في العالم ملوك عراة فالملوك متشعرون بالاردية وليس الملوك في الطبيعة
بل في التمدن .

الملك يجعل شعوبه سعيدة بسيرته المستقيمة الصادقة البسيطة وهو نفسه
يتمتع بهذا الهناء .

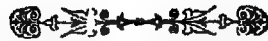
لا يكون الملوك بلا أموال ولا وسائل لحشد العساكر وهيئة الاساطيل .
لا ينبغي للملك أن يضع يده إلا على أشخاص يصلحون لأن يعملوا عملا ؛
حينما يكون عند الملك أشخاص ممتازون لا ينبغي له أن يكل الاعمال الى
المغفلين وأصحاب الدسائس

يجب على الملك أن يضحي بأعذب عواطف قلبه في سبيل الدولة ولا ينبغي أن تكون ضحيته مافوق شجاعته
لا ينبغي أن يكون شرف الملك معارضا لهناء بلاده .
لا يكون الملوك الشرعيون بين الجيوش الأجنبية
انقضى عهد الملوك الكسالى
يجب على الملك أن يفتح طريقا واسعا في وجه شعبه وان يحمي الذي يسير في الصراط المستقيم وبماقب الذي يحيد عنه بمنة أو يسرة
أول فكرة للملوك يجب أن تكون موجهة الى الاذعان لاماني جميع الشعوب وحاجاتها والبحث في آفة السلم عن علاج للمصائب التي تثقل في آونة الحرب كاهل جميع الأمم.
يندر أن يكون في حياة الدين ينتدبون لتولي شؤون البشر اوقات هناء
يجب على الملك ان يرغب في الموت اذا قضى عليه بان يصبح موضوعا لشفقة الناس عليه .
قليل عدد الملوك الذين لم يستحقوا الخلع عن العرش
العروش مصدرها الله واكبر جريمة في عينه تعالى هو زهزعة دمام الاحترام والحب الواجب على الانسان اظهارهما نحو الملوك .
الملك الذي تختاره الامة يكون في نظر الشعوب ملكا شرعيا
في المملكة لا ينفصل شخص الملك عن العرش .
اذا نزع من الملكية اقدامها على العمل نزع منها قوتها الادبية
يجب أن تميز افعال الملك الذي يتصرف بمعونة غيره عن افعال الفرد الذي لا يبطئه شيء عن اظهار عواطفه فالسياسة توافق وتأمرا ايضا على حمل الواحد ما يكون بلا مسوغ في عمل الآخر
ليس الملوك ملائكة بل هم اناس ويكونون في بعض الاحيان معرضين اكثر من غيرهم للخطأ والغضب
حينما يمدح الخادم مليكه ولا يكون هذا الملك مستحقا للمدح لا يحسن خدمته .

— ٣٦٦ —

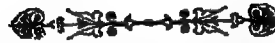
خير للانسان أن يعيش ملكاً من أن يعيش اميراً .
 الاحصاء — الاحصاء «ميزانية» الاشياء
 النجاح — يتعلق نجاح الوسائل بوجود العمل
 يتعلق نجاح المسمى بلا شيء ككلب أو جرد مثلاً
 الانتحار — الاستسلام الى الحزن بلا مقاومة والانتحار للتخلص من
 ذلك هما مفادرة ساحة القتال قبل الانتصار
 هل يستطيع الانسان ان ينتحر وهل يجب عليه أن يفعل ذلك . يجاب
 بعضهم على ذلك بقوله « نعم » وهذا حينما يقنط ولكن من يقنط ومي يقنط
 وكيف يقنط في معترك هذه الحياة حيث يكون موت رجل موتاً طبيعياً او
 عنيفاً باعنا في الحال على تغيير حالة الامور ووجوهها
 لاشيء اعظم لصرم جمال الحياة من عمل الانسان الذي يفقد كل ثروته في
 اللعب فلديه مجال واسع للشجاعة للتغلب على مصيبتة التي لم يستحقها
 المائدة — يكون للمائدة قسم كبير في اصابة السيادة
 الزمان — كل ساعة من الزمان تفقد تدني من الشقاء في المستقبل .
 المعاهدات — المعاهدات اعمال مقدسة يعد اجراءها اول ضمان تعول
 عليه الامم .
 المعاهدة التي لا تبرم في الوقت الممين لا تعتبر معاهدة حقيقية .
 ان ابرام معاهدة الصلح يجب أن يكون دائماً خاصاً وبسيطاً من دون تنقيح
 ولا تعديل .
 يجب أن يكون الكلام في المعاهدة واضحاً وخالياً من المواربة
 لا يحسن أن تعرض المعاهدة المعقودة بين حكومتين على اهواء وآراء
 مجلس اشتراعي .
 العمل — العمل يضمن راحة الهيئة الاجتماعية وهناء الفرد معا
 العرش — العرش قطعة من خشب تغشيه القטיפه
 الوحدة — قوة الائتلاف والوحدة تؤثر في آخر شخص حادي
 الحقيقة — ان اختراع الطباعة وانتشار النور في ايماننا هذه يقلل من مضار
 الوشاية التاريخية وتظهر الحقيقة في آخر الامر ولكن ما باطاً ظهورها

لا تحتاج السلطة المطلقة الى الكذب فهي تصمت أما الحكومة المسؤولة
 المضطرة الى الكلام فانها تستر الحقيقة وتكذب بوقاحة
 الفضيلة — خسر للذين لا يؤمنون بالحقيقة
 في احترام الجمهور مكافأة لاهل الصلاح .
 يفعل احدهم فعلا منكرا ويكون هذا الرجل كريما وذلك لان الانسان
 لا يفعل ما يفعله وهو مسير بخلفه بل بعاطفة وقتية سرية مكتوبة في طيات فؤاده
 من خصائص كرام القوم ارشاد السلطة الى الحقيقة
 الرذائل — يوجد رذائل وفضائل وقتية
 الشجاعة والفضائل تحفظان الدول والرذائل تدمرها
 الانتصارات — لا ينبغي أن يتقلدوا السلاح لاجل مشروعات العظمة الباطلة
 ولا للانقياد لمطامع الفتوح
 الفتوح الوحيدة التي لا تبقي تأسفا بعدها هي فتوح قلعة الجهل
 يحتاج الملوك في بعض الاحيان أن يصيبوا انتصارا لكي يباشروا مشروعا جديدا
 انتهاك العرض — الذي ينتهك العرض يعد وحشا في جميع البلدان
 خرق حرمة القوانين — ان فضح أسرار الرسائل قد يفضي الى فقد الملك
 افضل اصدقائه .



خاتمة الكتاب

قذفت بنا الاقدار الى جزيرة كورسيكا في أواخر صيف سنة ١٩٢٠ — ولا مجال الآن لبيان الاسباب التي أوصلتنا الى تلك الجزيرة — وقد قضينا ستة أشهر في مدينة اجاكسيو مسقط رأس نابوليون الكبير فكانت تلك الفرصة من أحسن الفرص لدرس حياة ذلك الرجل العظيم في عقر بيته ولذلك سننشر خلاصة ما وفقنا الى جمعه عن كورسيكا وسكانها ويرى المطالع ان لجميع هذه الامور علاقة باخلاق نابوليون وعاداته وقد بقي اثرها فيه كل حياته ونكتفي بهذا التمهيد الموجز ففي سياقة الاخبار ما يغنينا الآف عن زيادة الاسهاب :



جزيرة كورسيكا

وصلت الباخرة « كورسيكا » التي افلتنا من مرسيليا الى مرفأ اجا كسيو في الساعة التاسعة من صباح الجمعة في ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٠ والمسافة بين مرسيليا واجا كسيو ٣٣٠ كيلومترا تقطعها الباخرة في اثني عشرة ساعة وخمس واربعين دقيقة . وحاملا تمجناز السفينة جزائر سنغينار تقع العين على خليج اجا كسيو وهو مشهد بديع يروق الناظر اليه فالى الغرب ترى بساين بريكايا وجبانة اجا كسيو وكنيسة الاغريقين والى الشرق بيانا ورأس ستي نافي ورأس بورتيكيو وعند آخر الخليج برج كابيتلو وسهول كمبودل اورو وقم جبل أورو المكالة بالثلج .

وصعدنا الى البر واجتازنا الرصيف المسمى رصيف نابوليون حتى انتهينا الى ساحة النخل المنسوب في وسطها تمثال يمثل نابوليون حينما كان قنصلا اول ثم مرنا في شارع غراتال حتى وصلنا الى نزل اجا كسيو الكبير اونزل الكنتيننتال فوضعنا امتعتنا فيه وبعد الغداء نزلنا الى المدينة لتتفرج عليها وزرنا البيت الذي ولد فيه نابوليون الكبير وسنعود الى وصفه عند الكلام عن اجا كسيو ولما كان من الغد نهضنا باكرا وركبنا القطار المنطلق الى مدينة كورفي وقبل الكلام عن هذه المدينة يحسن بنا أن ننشر لمحة عامة عن جزيرة كورسيكا وقد قل من عرف شيئا عنها من الناس في بلادنا غير مولداهية فرنسا نابوليون الاول فيها وبزر القز المعروف باسمها :

كورسيكا جزيرة جميلة في البحر الرومي كان يسميها الاغارقة سرنوس والرومان كورسيكا والفرنسيون كورس وهي اكبر جزائر البحر المذكور بعد جزيرتي صقلية ومردينيا وموقعها بين الدرجتين ٤١ و ٤٣ من العرض الشمالي والدرجتين ٨٠ و ٨١ من الطول الشرقي وهي ذات شكل بيضي غير متناسق يمر بحوره الاكبر وطوله ١٨٣ كيلومترا من الشمال الى الجنوب ويبلغ طول المحور الاصغر الممتد من الشرق الى الغرب ٨٤ كيلومترا ويبلغ محيط الجزيرة ٤٩٠ كيلومترا فتكون مساحتها ٨٧٧٨ كيلومترا مربعا ويبلغ عدد سكانها نحو ثلاث مئة الف

نفس واقرب مكان اليها في فرنسا يبعد عنها ١٧٠ كيلومترا وفي ايطاليا ٨٥ كيلومترا ويفصلها عن سردينيا بوغاز بونيفاسيو وعرضه ١٢ كيلو مترا .

وتقطع الجزيرة من الشمال الى الجنوب سلسلة جبال طويلة تقسمها الى منحدرين يكادان يكونان متساويين ويتفرع من هذه السلسلة سلاسل جبال أخرى بحيث أن ارض الجزيرة تعد جبلية واعلى تلك الجبال جبل شينتو ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٢٧١٠ امتار لجبل روتندو وعلوه ٢٦٢٥ مترا لجبل باليوربا وعلوه ٢٥٢٥ مترا لجبل بادرو وارتفاعه ٢٣٩٣ مترا لجبل اورو وارتفاعه ٢٣٩١ مترا لجبل رينوزو وعلوه ٢٣٥٧ مترا وغير ذلك من الجبال التي يزيد ارتفاعها على ألفي متر . ويتخلل تلك الجبال اودية عميقة يتصل بعضها ببعض بمعابر ضيقة ناشئة عن انخفاض طاريء على السلسلة الاصلية ومتفرعاتها ومن تلك المعابر ما يبلغ ارتفاعه ٣٦١ مترا كمعبر السيرا ومنها ما يبلغ ١٤٦٤ مترا كمعبر فرجيو .

والشواطئ الغربية في الجزيرة تتخللها خلجان واخوار كثيرة والشواطئ الشرقية يتصل بعضها ببعض الا في بعض الجهات .

وفي كورسيكا تنحدر الجداول والانهار من مرتفعات عالية جدا وتقطع مسافة قصيرة قبل ان تدفع ماءها الى البحر فهي والحالة هذه اشبه بالغدران منها بالانهر واهمها نهر غولو في المنحدر الشرقي فطوله اربعة وثمانون كيلو مترا ويتلوه نهر تافينيانو وطوله ثمانون كيلو مترا . وفي المنحدر الغربي نهر لياموفي وطوله اربعون كيلو مترا ونهر غرافونا ونهر طارافو .

وفيهما بحيرات اهمها بحيرة جبل روتندو ومساحتها سبعة هكتارات وبحيرة نينو ومساحتها ستة هكتارات ونصف هكتار أما المستنقعات فتكثر في السواحل الشرقية واهمها مستنقع بيغوليا فان مساحته الف هكتار وخمس مئة هكتار ومستنقع ديانا ومساحته خمس مئة هكتار وسبعون هكتارا .

وفيهما احراج مساحتها مئة وتسعة واربعون الف هكتار منها خمسة واربعون ألفا للحكومة وسبعة وسبعون ألفا للبلديات وسبعة وعشرون ألفا للأفراد وفيها مياه معدنية خفيفة تشمل في معالجة فقر الدم (الانيميا) ويكثر فيها الحديد والغازات وهي تسمى انباء التي من نوعها في فرنسا وفي سبا بلجيكا وفيها ايضا المياه الكبريتية السوداوية الجزيرة المنفعة .

وقسم فولتي كورسيكا الى ثلاث مناطق باعتبار احوالها الجوية : الاولى من ارتفاع متر واحد الى ٥٨٥ مترا عن مستوى البحر وهذه المنطقة تحاكي درجة حرارتها درجة الحرارة في سواحل إيطاليا واسبانيا ، والثانية من علو ٥٨٥ مترا الى ١٨٠٠ متر وهي تماثل الانحاء البالغ علوها مثل هذا العلو في مقاطعة البروفانس بفرنسا من جهة احوالها الجوية . والثالثة من ارتفاع ١٨٠٠ متر فما فوق وهي باردة كالبلاد النروجية .

ويقال بالاجمال ان الاحوال الجوية في كورسيكا تلائم الصحة إلا في بعض الانحاء في السواحل حيث تنتشر الوبالة (الملاريا) في الصيف . وحيث ان كورسيكا مجاورة للبروفانس وبلاد الجزائر فكان يجب أن يكون هواؤها حارا الا ان وفرة الجبال فيها واتساعها وارتفاعها تجعل الهواء باردا في هضابها في معظم ايام السنة وهناك ايضا منطقة متوسطة تتميز فيها فصول السنة ويكون الشتاء والصيف فيها معتدلي درجة الحرارة وهذه المنطقة تفضل غيرها في اعتدال احوالها الجوية ويكثر فيها عدد السكان وزراعة اراضيها متقنة .

وفي كورسيكا ثلاث مناطق زراعية المنطقة السهلية وهي شديدة الحر في الصيف ومعتدلة الهواء في الشتاء وهي ملائمة لزراعة الكباد والليمون واللوز والحنطة والكرمة . والمنطقة المتوسطة وهي معتدلة الهواء وصحية تنمو فيها الاشجار المثمرة والكستناء والجوز . والمنطقة الجبلية وفيها يشتد البرد في فصل الشتاء وتلطف درجة الحرارة في الصيف وتكثر فيها الاحراج والنباتات العطرية الارج والمراعي الممرعة .

أما التجارة والصناعة في تلك الجزيرة فنخصص لها فصلا مستقلا نضمنه كل ما يحسن الاطلاع عليه . ولا يزال تاريخ كورسيكا في المصور المتوغل في القدم محفوقا بالغموض فيزعم بعض المؤرخين ان تيرانيبي ليديا هم أول من استوطن الجزيرة واختلط مع سكانها الاصليين الجيهولي الاصل والفصل وفيما بعد انشأ فيها الفينيقيون عدة مدن واطلقوا عليها اسم سرنوس ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى يومنا هذا . ويزعم علماء أصول اللغة اشتقاقها أن اسم سرنوس او كرنوس مشتق من « كبر » وهي لفظة فينيقية معناها قرن أو رأس وهو يدل على شكل الجزيرة . ولظفة كورس مشتقة من كورسايي وهي لفظة صورية

معناها مكان تغطيه الاحراج . ومن هذه اللفظة المحولة الى اللغة اللاتينية اشتقت كلمة كورسيكا أو كورس كما يسميها الفرنسيون .

وفر القوسيون من وجه الفرس حوالي سنة ٥٥٦ قبل المسيح فغادروا بلادهم ونزلوا في سواحل كورسيكا الشرقية وأنشأوا فيها مدينة ألاليا (البريا) ولكنهم ما عتموا ان هربوا من الاتروسكيين والقرطاجيين المتألبين فاستولوا هؤلاء على الجزيرة ولبثوا اصحاب الامر والنهي فيها الى سنة ٢٣٨ قبل المسيح حينما احتلها الرومانيون .

ولم يكن احتلال الرومانيين لكورسيكا بالامر السهل فقد اقتضى فتحها عدة بعثات متوالية وانكسر فيها قناصل مشهورون ككرنيليوس سيديون وفاروس وغيرهما وهلكت فيها كتائب برمتها ولم يتم للرومانيين تدوينها الا في سنة ١٦٢ قبل المسيح على يد سيون نازيكا .

وذخل الجزيرة مع الرومانيين عهد رخاء واقبال فانشئت المدن العظيمة وازهرت المدن القديمة ورسم سيلامدينة البريا وأسس ماريوس مدينة ماريانا في سنة ١٠٤ قبل المسيح وزعم بطولماوس ان عدد سكان الجزيرة في ذلك العهد زاد على مليون نفس واستمرت سيادة رومية على كورسيكا الى سنة ٤٥٨ بعد المسيح أي الى عهد غزوات البربر فكان الفندال والغوطيون والمبارديون والبيزنطيون يتعاقبون على الولاية عليها . وحوالي سنة ١٧١٣ بعد المسيح طرد مسلمو اسبانيا البيزنطيين منها وحلوا محلهم وكان بعد ذلك ان العاهل الكبير شارلمان ارسل لمقاتلتهم الكونت ادهارثم ابنه شارل فانهمز المسلمون واضطروا الى مغادرة الجزيرة ولم يعودوا اليها الا بعد وفاة ذلك العاهل المصور فحينئذ عهد لوليس الحليم الى الكونت بونيفاس التسكاني في اخراجهم منها فصعد هذا الى البر من الجهة الجنوبية وأسس مدينة بونيفاسيو وتسلط على الجزيرة كلها الا ان خلفاءه لم يحسنوا السيرة مع الرعية فكان من وراء تصلفهم ومظالمهم قيام الناس عليهم وكان في ذلك الحين رجل هام من سكان الجزيرة يدعى سامبو كوسيو والندو برأس تلك الحركة في سنة ١٠٠٢ وظفر بالاعيان المتألبين وسن نظاما جمهوريا لنصف الجزيرة الشمالي ولكن لما حضرته الوفاة في سنة ١٠١٢ تارث الفتنة من مريضا واعترف الكورسيكيون بالكونت مالا سبينو التسكاني زعيما للاقليم

الذي حرره سامبيوكوسيو فاعاد هذا الكونت النظام الى نصابه وأحسن تدبير بلاده الصغيرة ولما تخرمته المنية في سنة ١٠٧٠ خلف الحكم لاسرته .

وبسط البابا غريغوريوس السابع لواء سيادته على جزيرة كورسيكا في سنة ١٠٧٧ فاقطعها لندلف مطران ييزا ثم انتقلت السيادة عليها من يد المطارنة الى يد جمهورية ييزا ودامت نحو قرن من الزمان تجدد في اثناؤه عهد الرخاء والاقبال الذي مر عليها لما كانت خاضعة للدولة الرومانية فانشتت الطرق وبنيت المدن واقامت آثار كثيرة لا يزال بعضها قائما الى اليوم ككنيسة مار ميخائيل في موراتو وكنيسة القديسة كاترين في سرفيوني . واحتل الجنويون خصوم البيزويين مدينة بونيفاسيو في أواخر القرن الثاني عشر وحصنوها ونقلوا اليها أسرا كثيرة من جنوى وكانت بين ييزا وجنوى حرب عوان فقامت ييزا قائدا على جنودها رجلا شجاعا من أهل الجزيرة يدعى جوديشي دلا روكا إلا أن ابنه الطبيب سالفيني غدر به واسلمه الى الجنويين فمات في السجن في سنة ١٢١٢ . ومحطم في ملوريا بايطاليا في سنة ١٢٨٤ اسطول ييزا وكان بقية الكونت فازيو فسقطت جميع المدن الساحلية في حيازة الجنويين واستولوا بمعونة فريق من اعيان الجزيرة على جميع انحاءها . وأتى الجنويون من ضروب الارهاق والاعتساف ما اطلق الفتنة من عقاها وأسأل غدران الدماء في خلال اربعة قرون متوالية وكان في مقدمة الزعماء الذين اوقدوا لظى الفتن اريغو دلا روكا في سنة ١٣٧٠ وفنشتلو دسربا في سنة ١٤١٤ .

وخيم الفونس الخامس الاراغوني في الجزيرة في سنة ١٤٢٠ وحاصر بونيفاسيو ولكنه اضطر الى الرجوع الى نابولي للاستيلاء على ميراث الملكة حنة وأصار الى فنشتلو دستريا استئناف الحصار ومنحه لقب نائب ملك . وحدث ان فنشتلو قتل فقام بولودلا روكا وريثو تشيودي ليكا بانحاز مهمته ولكن كان من نصيبهما الانحزال . وبعد سنوات طلب انطون دلا روكا من الفونس الاراغوني ملك نابولي أن يؤيد حقوقه على الجزيرة فأرسل الملك حاكما على الجزيرة رجلا يقال له جاك امبيزورا فأساء التصرف وحرك موجدة القوم عليه فنفروا منه ودفعتهم الجباله على الاستغلال بكنف مصرف القديس جرجس الجنوبي في سنة ١٤٥٣ . وارهق مصرف القديس جرجس جزيرة كورسيكا بما فرضه عليها من الضرائب

الفادحة وانزل شديد العقوبة بالمعارضين المتمردين ففتحت أبواب القنن واضطر
المصرف الى اقفالها بالالتجاء الى ضروب من العنف لم يسبق لها نظير .
وظل رينوتشيرو دلا روكا زعيم الثائرين يجاهد جهادا متواصلا اثني عشرة
سنة ولكنه خانه الجدد فشب في اجمولة نصبت له فائر الموت على الوقوع في
قبضة اعدائه ولقي حمامه في سنة ١٥١١ بقذفه نفسه من اعلى قصر روكا بينا .

وحدث بعد ذلك أن سمبيارو من بستليكا وقد لقب فيما بعد بسمبيارو
الكورسيكي كان قائدا في فرقة حرس الملك هيري الثاني الفرنسي فاقنع
الملك بأن يسير الى كورسيكا جيشا لطرد الطغاة منها فسقطت الجزيرة في يده
ماعدا مدينة كلفي فانها فضلت البقاء خاضعة لجنوى . وعلى باب من أبواب كلفي
كتابة باحرف ذهبية تدل على ماتم عليه سكان المدينة من أسرار الشجاعة في
أثناء حصارها . ودامت نيران القتال مضطربة وظفر سمبيارو مرتين بالجنرال
سبينولا وفكر في ضم الجزيرة الى فرنسا ولكن حالت دون ابراز ذلك الفكر
الى حين العمل معاهدة كاتوكبريس المعقودة سنة ١٥٥٩ وقد نصت على إعادة
الجزيرة الى جنوى على ان سمبيارو مع فقد الاعضاء والانصار لم يبلغ منه القنوط
بل ثابر على الجهاد وكانت وطنيته وهمة وشجاعته خير محرك لبسالة اصحابه
وجراتهم ولما أعيت الحيل جنوى وقنطت من تقليم اظفار عزمته استمالت اليه
حاجبه فقتله في سنة ١٥٦٧ .

وكان لسمبيارو ولد اسمه القونل درنانو فخارب جنوى سنتين ولكن كان
قد فقد صبر كورسيكا فعاد نفسه سميدا لعقده معها صلحا مؤانبا لمصلحته
وغادر الجزيرة ميمما فرنسا وهناك انعم عليه برتبة المارشالية .

وتولى اندره دوريا الجنوي الحكم في الجزيرة فادار الشؤون بحكمة ودهاء
ولكنهم استقدموه الى جنوى فعاد الاضطراب الى كورسيكا وتفاقت فيها
الخطوب . وانقسمت البلاد الى حزبين حزب الجنوبيين وكان افرادهم يتمتعون
بجميع الامتيازات فكانوا يذهبون ويقتلون وهم آمنون من وصول يد العقاب
الهم وحزب الوطنيين وكان افرادهم يرزحون تحت اعماء الضرائب الباهظة
يدفون لنبال العقوبات الشديدة عند ادني هفوة باتونها وهذا هو أصل
التمرد (فندتا) الذي اشتهر به الكورسيكيون فيما بعد .

واضطربت الثورة في قرية بوستانيكو في سنة ١٧٢٩ وما لبثت أن عمت الجزيرة كلها واستولى الكورسيكيون على سان فلوران وعمونة جافيري وسيكالدي. ولما وجدت جنوى نفسها مغلوبة على امرها استنجدت بعاهل المانيا فانجدت بثمانية آلاف محارب وتقوى الجنويون بالالمانيين وزحفوا بقيادة كاميل دوريا واجبروا الكورسيكيين على رفع الحصار عن باستيا ولكنهم غلبوا في كالتزانا وقتل ثلاثة آلاف من المقاتلين المأجورين الذين كانوا معهم وكان ذلك في سنة ١٧٣٢ واتلف جافيري الجيش الالمانى في اثناء ذلك في سارتين .

ولما نصب معين قوى الكورسيكيين في سنة ١٧٣٦ ساقط اليهم الاقدار عيارا وستفاليا يدعى البارون تيودور دي نوهوف فلكوه عليهم باسم تيودور الاول فنظم مناهج الدفاع وقهر الجنويين في بورتوفكيو وسارتين ولكنه انطلق لجلب المدد ولم يعد بعد ذلك .

وكان فيما بعد ان غافوري وهياسنت باولي اضربا نار الحماسة في قلوب الوطنيين فاضطرت جنوى الى الاستنجاد بفرنسا فسبرت هذه خمس كتائب بقيادة الكونت دي بواسيو في ١٧٣٨ لنجدها فانهزم هذا الكونت من وجهه الثائرين عدة مرات فاديل بالكونت دي مايلبوى وهذا عامل الكورسيكيين بالعدالة والحسن وعرف كيف يعيد الامن والسكينة الى الجزيرة . ولما برحها في سنة ١٧٤٢ عادت اليها الفوضى فعادت جنوى الى الاستنجاد بفرنسا فاتخذت هذه جنودا جددا اليها بقيادة المركيز دي كورساي في سنة ١٧٤٢ وعاد الامن الى نصابه الا ان دي كورساي كان قد اغلظ الكلام عن الجنويين في احدى رسائله فأرأوا ان يطلبوا مزايلته للجزيرة فهب غافوري الى امتشاق الحسام واستولى على مدينة كورني . ولما رأته جنوى أن غافوري يعيد تمثيل دور سيميارو أغرت احد السفاحين بقتله فبطش به غدرا في سنة ١٧٥٥

وعاد بسكال باولي نجح هياسنت باولي من نابولي في هذه السنة عندها وكانت اسرته قد التجأت اليها فسن للبلاد دستورا بناء على قواعد الحكمة والحزم وخدم مصلحة الزراعة والصناعة وانشأ المدارس وبنى اسطولا وعبأ جيشا رغبة في الوصول الى مناهضة الجنويين ومكافئهم . ولجأت جنوى الى فرنسا في هذه

المرّة أيضا وباعت منها ما لها من الحقوق المزعومة على الجزيرة بوثيقة أبرمت أسبابها في فرساي في سنة ١٧٦٨ .

وكان الكورسيكيون شديدي التحذر فلم يشاءوا اللقاء حريتهم بين يدي ملك مطلق اليد في التصرف برعيته على هواه . وكان ان المريكز دي شوفلان والكونت دي مريوف والكونت دي فوخدلو في بورغو ونبوي في سنة ١٧٦٨ ودحر بسكال باولي في بني نوفو في ٩ مايو سنة ١٧٦٩ واضطر على أثر ذلك الى مغادرة الجزيرة والشخص الى انكلترا وكان ذلك خاتمة الجهاد الوطني .

وأعلن ضم كورسيكا الى فرنسا في ١٥ اغسطس من السنة عينها ولكن لم يعترف رسميا بسيادة فرنسا عليها إلا في سنة ١٧٧٤ وولد نابوليون بوناپرت في اليوم نفسه الذي أعلن فيه ذلك الضم . وتولى الجنرال الكونت دي مريوف الحكم في الجزيرة من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٧٨٦ وهي السنة التي حضرته فيها الوفاة .

ولما انتهى خبر الثورة الفرنسية الكبرى الى كورسيكا في سنة ١٧٨٩ كبر له القوم وهلّلوا وعاد باولي اليها ومعي نائباً عاما في الجزيرة في سنة ١٧٩٠ بعد ما جعلت كورسيكا مقاطعة على اثر تقسيم البلاد الفرنسية الى مقاطعات وانتدب باولي لتنظيم حملة للزحف بها الى سردينيا وكان في حملة أعضاء تلك الحملة بوناپرت الحدث ضابط المدفعية فخطبت تلك الحملة في سنة ١٧٩٣ وآتهم باولي بالخيانة ودعي الى المنول امام مجلس الكنفسيون في ٢ ابريل سنة ١٧٩٣ ولكنه آثر دفع الجزيرة الى بريطانيا العظمى على تلبية الدعوة فحكم السير جورج اليوت جزيرة كورسيكا بصفة كونه نائب ملك سنتين . وبعد ما نال الجنرال بوناپرت ما ناله من النصر في ايطاليا طرد البريطانيين من الجزيرة في سنة ١٧٩٦ وارسل الجنرال ميو الى كورسيكا مندوبا من لدن السلطة الاجرائية لتعزيز الشرائع الفرنسية فيها . وكان بعد ذلك ان ضمت الجزيرة ضمّا نهائيا الى فرنسا بعد فتنة ١٨ برومير (٩ نوفمبر ١٧٩٩) عند ارتقاء الجنرال بوناپرت الى رتبة قنصل أول .

وأرسل القنصل الاول الجنرال ميو الى كورسيكا مرة ثانية بلقب حاكم اداري عام . وحفظ الكورسيكيون ذكرا هبيلا لميوفانه عزز الزراعة والتجارة

والصناعة في الجزيرة وطال توسيع نطاق العلوم والآداب فيها (١٨٠٢-١٨٠٠) وشكت كورسيكا في عهدي القنصلية والامبراطورية من عنف الحكام العسكريين كالجنرال موران (١٨٠٢ - ١٨١١) خلف ميو والجنرال قيصر برتية (١٨١١ - ١٨١٤) مما بعث فريقا من اهالي باستيا على فتح ابواب قلعة باستيا في وجه الجنود البريطانيين لما بلغهم خبر تنازل نابوليون عن العرش في فنتنبلو في سنة ١٨١٤ ولما جلس الملك لويس الثامن عشر على العرش رفعت الراية البيضاء على قلعة اجا كسيو

ولم يبق لكورسيكا تاريخ خاص تمتاز به بعد حركة القائد باولي في فيو مورو وقيامه على المركز دي ريفيار قائد الجند في الجزيرة (١٨١٥ - ١٨١٦) بل اصبح تاريخها من ذلك العهد مندغما بتاريخ فرنسا . وقد كان قبل ذلك سلسلة حروب متواصلة . ومن وقف على خصب تربتها وعجائبها الطبيعية ولا سيما اهمية موقعها الحربي سهل عليه ادراك السبب الذي من اجله طمعت اليها ابصار الشعوب التي كانت تطمح بنيل السيادة في البحر الرومي .

وأخطأ كثيرون من الفرنسيين وغيرهم باتهام الكورسيكيين بتمهم كثيرة هم براء منها فهم يصمونهم بوصمة الكسل والنزق وحب الاثار ويتوهمون ان هذه الصفات الثلاث لاصقة بهم وملزمة لهم اجل ان ارضهم الموصوفة بخصب عجيب لم تحسن حراستها ولا يزال في الجزيرة اراض واسعة تغطيها الاحراج ولكن لابد من القول ان الكورسيكي قنوع يكفيه اليسير من العيش وعلاوة على ذلك لا تكفي الطرق والمناقل لنقل المحصولات الزراعية وسد الحاجة ثم أن الافتقار الى رؤوس الاموال يحول دون استثمار اراض كثيرة . ومما هو شر من هذا كله هو ان الاراضي مقسمة الى قطع صغيرة تجري كل قطعة منها على ملك شخص معلوم وكثيرون هم الاشخاص الذين يملك الواحد منهم مثلاً عشر قطع من الارض تبعد الواحدة منها عن الاخرى عدة كيلومترات . وهناك كثيرون من الفلاحين يضطرون الى تحصيل رزقهم بشق النفس لجهلهم فن الزراعة وتقصان الادوات الزراعية عندهم وهذا ما جعل الناس يهتمون الكورسيكيين بالليل الى تقلد مناصب الحكومة والانصراف الى السعي وراء احرازها . ومن طبعهم الكورسيكي شدة النزق والحدة ولا يمكن تعليل ذلك بالبعرفة

طباعه الشخصية الموروثة عن آباءه والمؤثرة فيها احوال الجزيرة الجوية وتاريخها فقد ظل الكورسيكيون قرونا طويلة مشهورين بما يأتونه من ضروب الانتقام أو اخذ الثأر وذلك بقتل من يكون قد نالهم منه اساءة أو بقتل واحد من ذوي قرباه ويمكن القول بالاجمال ان اسباب أخذ الثأر مرجعها الاهانة التي تحدث جهارا كترك فتاة مغتصبة أو خطيبة وحوادث انتهاك العرض مع ندورة وقوع مثل تلك الحوادث وشهادة الزور ودين الدم . فإخلاف الوعد وشهادة الزور المسبب عنها الحكم بالموت على بريء يعاقب عليهما بفير شفقة من تنشأ تلك المساوئ بسببه وان تلك العداوات الشديدة وقد انقضت عليها عدة اجيال متعاقبة وكان من عواقبها انقراض الاسر المتعددية لم يكن لها في غالب الاحيان الا اسباب تافهة .

والشعب الكورسيكي شعب قديم فهو يواصل في القرن العشرين التقاليد التي كان يجري عليها في العصر الاغريقي اللاتيني ففي جزيرته يأوي رجع المدنية السائدة اقليم البحر الرومي : وقد حلت النصرانية بين ظهرانيه وتسربت مبادئها الى اخلاقه الا أن تلك الاخلاق لا تزال حافظة انعكاس انظمته القديمة .

ويرجعون ان الشعب الكورسيكي الاصل ينتمي الى الايريين ولكن تعاقبت في الجزيرة نحل أمتها من بلاد فينيقية وقرطاجة وليغوريا واليونان ورومية على ان السكان مع مداخل عروقهم من الدم الايطالي لا يزالون محافظين على طباعهم القديمة فالكورسيكي بهي الطلعة وهو على مثال ابطل هومروس ورعاة اركاديا وجنود زركسيس وانصار قيصر وهو ايضا على مثال الآباء ذوي الاحى المحترمة والسكلام القاطع والهيئات الجليلة والخطى المتناقلة والنظر الحاد وهو موصوف بالحنكة والعفاف والقناعة وهو لا يسرف في الضحك والمزاح ولا يتكلم الا في الامور الجدية ولا يفوه بالهراء وليس هو شاعرا ولكنه فيلسوف وهو لا يحلم بل يتروى . واكبر مدح يوجه الى الكورسيكي يحصر بهذه العبارة « يظل قاعداً يفكر وهو قليل الكلام »

وكل شيء فيه شريف : من انفته المتوحشة الى كبرياته الشديدة الى طموحه المتناهي لنيل التسلط الى تحفظه المقرون بالاحتقار . وهو يحترم نفسه احتراماً شديداً ويحتقر غيره احتقاراً ماوراءه من مزيد . وليس فيه شيء مبتذل فيداه

ناصمتان ورجلاه صغيرتان وحركاته لطيفة وهو لا يدع الخفة تسهويه ولا الاعجاب يتسلط عليه . وهو حر الضمير ثابت على الصداقة وهو سيد كريم الاخلاق ابي النفس له ثقة كبرى بتفوق شخصه على سواه فبرى ادنى راع مثلاً في كورسيكا يعتبر نفسه مساوياً لاي كان من كرام الناس ووارثاً لمعصور الحرية والاستقلال ولا يخفى أن الشعب الكورسيكي نجماً في المعصور الغابرة ولا سيما في القرون المتوسطة من معرفة الاستعباد ونير أصحاب الاقطاعات . ومن ثم وصل الشعب الكورسيكي الى عصر الحرية الفردية مع محافظته على العادات الحرة المتصلة اليه من الحضارة الاغريقية اللاتينية .

والمرأة في عين الكورسيكي كائن حقير فهو يكل اليها الاعمال البيتية ولا يجالسها على المائدة ولا يفاوضها في شؤون البيت ولا يرافقها في الحفلات العامة في أيام الاعياد وهو يمدحها أمة له . وقبل أن يصيبها بكر من مجاملتها وكثيراً ما تكون تلك المجاملة سرية وهو يخجل ان وقف أحد على سر غرامه ولكن يأتي يوم يحتطفها ويمضي بها الى مسكنه فيتمتع بها والداء في بدء الامر لجملهما ما كان نجاهما يدبره من هذا القبيل ولكنهما لا يلبثان ان يكرما وفادة القادمة عليهما وكل ما يعلنانه انهما يعطيان العروسين فراشا وفي الغد يعلم الناس في القرية انه عقد فيها زواج حينما يرون في الاسرة امرأة جديدة تشاطرها الاشغال البيتية فلا العروسان ولا الوالدان يخبرون أحداً عن ذلك القران . أما المعاملات القانونية عند عمدة القرية وفي الكنيسة فتتم فيما بعد عند سنوح الفرصة فليست هي الشيء المهم في الزواج عندهم ولكنهم لا يهتمون بها لان العادة تقضي عليهم بمراعاتها فالزواج عندهم يتم على العادة القديمة البسيطة بلا رتبة ولا طقس .

ولا ينبغي لنا أن نبحث من وراء العادات الكورسيكية عن آثار النصرانية أو صدى الانظمة التي كانوا يسرون عليها في القرون المتوسطة فالاولى بنا أن نعود الى ما قبل ذلك أي الى عهد الرومانيين او الى عهد اليونانيين الاقدمين فالكورسيكي يحتمل الحياة البشرية احتقاراً شديداً ولا فرق عنده من هذا القبيل بين حياته وحياة غيره من الناس . وقد نصت النصرانية على أن القتل جريمة وكان المسيحيون يتمتعون عنه ولكن الاعيان كانوا قد احتفظوا به لانفسهم

ولذلك أصبح من امتيازاتهم وكان سوقه الناس ينهون خصوماتهم بضرب العصي وكانت تلك السوق تؤلف الشعب وما لبثت أن انتحلت مبادئ النصرانية الديمقراطية بسهولة على أن الاعيان المباهين بمحافضة جدودهم على الانظمة القديمة حافظوا في القرون المتوسطة على تقاليد المدن القديم فيقتاتلون في كورسيكا لان القتل عندهم من عداد امتيازات الارسطقراطية وكل كورسيكي في بلاده حر وسيد . والمبارزة غير مألوفة بين ظهرانيهم لانها من نوع القتل الموضوع له قانون ولكن عندهم اخذ الثأر وهو من بقايا الخصومات الدموية القديمة . ولعمر الحق أن حرب طروادة المشهورة في التاريخ ليست سوى ضرب من ضروب اخذ الثأر فثمة امرأة مختطفة ينهض ذووها باجمعهم ويتلذذون السلاح ويحشدون رجال قبيلتهم واحلافهم لاستخلاصها والانتقام من مختطفها ومن أمثال هذا الحوادث حوادث كثيرة حدثت في الديار المكسيكية وعند العرب أيضا حوادث كثيرة من هذا النوع وليست الحرب التي دامت اربعين سنة بين بني تغلب وبني بكر إلا لاخذ الثأر لمقتل كليب .

وحينما تقع عندهم جريمة قتل تقتضي الحال أخذ الثأر وهذا الثأر يأخذه نسيب للقتيل من القاتل نفسه اذا امكن والا فمن أحد ذوي قرابته ولا يبعد هذا الامر انتقاما بسيطا وانما هو حرب حقيقية بين قبيلة وأخرى وكانت هذه العادة جارية عند الاسلنديين في القرون المتوسطة وقد كان الاسلنديون من أشرف قبائل البلدان الاسكندنافية فاضطرتهم مظالم الملك هارولد النرويجي الى الانزاج عن وطنهم وكانوا احرارا يدينون بالنصرانية واسكنهم كانوا محافظين على ذكرى الهتهم القديمة .

هذه هي اخلاق عامة للشعب الكورسيكي ولكن يحسن بنا ان نبين ما يمتاز به سكان كل اقليم من اقليم تلك الجزيرة فالكورسيكي المقيم ما وراء الجبال والمدعو بومنتنكو موصوف بالانفة والدعوى والاستبداد والحركة ولا يذبحني أن نذهل عن ان نابوليون بوناپرت الذي ولد في اجا كسيو كان بومنتنكو وكان أيضا من هذا الاقليم أولئك الزعماء الاقدمون الذين كانوا قبل ضم كورسيكا الى فرنسا يقلبونها رأسا على عقب وظهرها على بطن كشتاركا ودستريا ودلا روكاودي ليكا ودرنانو وبوتزو دي بورغو وابا توشي وعمنوئيل آرين .

ومن المشهور أيضا أن البومنتنكو ينفر من الزراعة والتجارة والفاسفة ولا يطمح إلا إلى السيادة والسلطة وهو من أصحاب الانانية المتطرفة وقد اشتهر عنه أنه رجل جد واقدام وأنه يؤثر قبل كل شيء الاشتغال بالسياسة والميل إلى الحرية ومزاولة الامر والنهي ، وحينما يتقلد الحكم يعامل خصومه بمنتهى العنف ويكون شديد الوطأة عليهم ويجود بالموارف على اصدقائه ومريديه . وإذا قيض له الاندفاع في الحياة الحديثة في القارة الاوربية جاهد جهادا حسنا للمحافظة على كيانه واستطاع الانتهاء الى الغاية التي يؤمها . فهو لا تثبطه العقبات المتصدية له وهو بما أوتي من مضاء العزيمة وعلو الهمة لا يثنيه شيء عن ادراك ضلته المنشودة فالمعالي تليق به وإذا أصاب البومنتنكو منصبا صح أن يقال عنه أنه ابن بجدته وأنه نازل في المكان الملائم له ولا سيما حينما يكون ذلك المكان من الدرجة الاولى فالمنصب يتجسم فيه وكأن الواحد منهما خلق للآخر . ولا يخفى أن البومنتنكو الذي ادهش كورسيكا في ما غر من العصور ادهش في دوره العالم برمته وقد رحمت مآثره بحروف خالدة على صفحات تاريخ الانسانية .

أما الكورسيكي النازل في ما قبل الجبال والمدعو كاستا نيشياجوف وهو ارضن من البومنتنكو وارجح حصاة وهو يزاول الزراعة والصناعة وقد أكثر من غرس أشجار الكستناء في الهضاب والبطاح وبطون الاودية وعالج زراعة السهول المنبسطة عند السواحل الشرقية والنشأ مصانع لصب الحديد أخذت عليها الايام ودمرتها واستعمل الطريقة الكورسيكية المشهورة في السكيميا وهي تحويل حديد جزيرة البا الى فولاذ (صلب) وهو اغنى جميع الكورسيكيين وقد انتحل مذهب الديمقراطية في السياسة وغالى فيه وهو الذي تحرر في القرن الرابع عشر من نير سلطة التشيناركيذين ووضع أساس الحكومة الشعبية . وقد اصبحت من ذلك الحين الارض التي يأوي اليها تدعى أرض العموم وهو من طبعه ميل الى الطريقة الجمهورية الاشتراكية ففي ماضي الحين قام واحد من الكاستانيشياجو يدعى بيوبتاو رفع عن وطنيه ضريبة جائرة فرضها عليهم ارسو المانو صاحب قصر منتالتو . وقام أيضا في ذلك الاقليم في القرن الرابع عشر أفراد من أسرة جوفانالي واتفقوا على اعلان الشيوعية بينهم في الاموال والنساء ولا تزال طائفة منهم الى

يومنا هذا في مزرعة سوربلو بوادي الزانو تحذو حذوهم . ومن سكان ذلك الاقليم عمد القرى الذين كان أهلها ينتخبونهم في القرن الخامس عشر ومن مشاهير الرجال الذين نبغوا فيهم ماترا وغافوري وباولي الحكيم .

واما كورسيكي البالانيي المسمى بالانينو فارق طباعاً من الكاستانيشاجو وهو يعنى بامر الزراعة ويحني - حتى في ايامنا هذه - كثير آمن المال من احراجه الواسعة المفروسة زيتوناً وهو مستقل في بلاده وقد تعود البالانيون من أزمان متوغلة في القدم ان يطوف البلاد يبعاله الموقرة زيتاً وهو ينادي الناس لا بتبائع زيتيه بلهجة أصبحت مشهورة عند الجميع ولا يخفى ان سكان البالانيي وسكان نيولو (وادي غولو العليا) هم التجار الوحيدون في كورسيكا فالنيوليي يتنقلون من مزرعة الى مزرعة لبيع جبنهم . وسكان البالانيي حذاق ودهاة ولينو العريكة وهم يفوقون جميع الكورسيكيين في مزاولة الاعمال وتعاطي الاشغال ولم يكن للحروب الاهلية شأن كبير بين ظهرانيهم كما كان لها عند غيرهم من سكان الجزيرة ومعلوم أن لسكينة البلاد انعكاساً على اخلاق أهلها . ولا ينزع البالانيو الى المهاجرة لان مطامعه محدودة فهو لا يطمع بتسّم ذرى المناصب العالية او المنازل الرفيعة بين قومه ولكنه معروف ببعده نظره وطول اناته وصبره على المكارة وقد طاف الجزيرة عدة مرات فهو والنيوليينو يعرفانها قرية فقيرة واسرة فأسرة . ولا يذهب عنه ما ينجم من المضار عن الخصومات والعداوات والانتقامات . وكانت له الحوادث التي شاهدها والملاحظات التي اصابها خير مذهب لا خلاقه وافضل مقوم لما تأود من طباعه . وقد تحقق بذاته ان بلاده تفضل جميع البلدان التي جول فيها فذشاً فيه الاحتقار لسائر انحاء الجزيرة وآثر المقام بعيداً عن معاشر البشر في حقوله المفروسة زيتوناً .

واما كورسيكي الرأس المدعو كاب . كورسينو فيقرب بطباعه من البالانيو ولكنه يقيم في اقليم هو دون البالانيي في الخصب وغزارة الموارد وهو ميال الى الاسفار وبحار جريء وخاضع لسلطان الطمع المتسلط عليه وحيث انه لاشيء عنده يبيعه في بلاده فانه يفصل عنها ليجوب البلدان ساعياً وراء احراز المال . وحيث أن النفوذ الجنوبي استفحل امره مدة طويلة في ذلك الصقع فقد نشأ عنه

وعن تمرس سكان رأس كورسيكا بالجنوبيين ميل شديد الى التجارة مما اقصى عن الناس هناك ما يشعر به غيرهم من ابناء الجزيرة من العجب الفارغ والمباهاة بالمجد التليد وبالتالي يسهل عليهم تصير ابناء الهبة الاجتماعية الحديثة ومن طبع الكاب كورسينو التحيل والمخادعة وعدم الاعتداد بشخصيته فلا يأنف من مزاوله اي عمل كان وهذا ما جعله يطمح ببصره الى العالم الجديد ليتخذ ميداناً تجري فيه جياذ نشاطه وجردهمته العالية وقد أثر الارتحال الى قارة اميركا الجنوبية وهو يلقي فيها الاسبانين الذين يتكلمون بلغة يسهل عليه فهمها ولا يلبث أن يتفوق على سكان تلك البلاد الذين نفت في عضدهم اللعب والكسل فيحتل مكانة رفيعة بين ظهرازيهم ويحوز ثروة طائلة . فكم من فتى كورسيكي لم يكن في بلاده يملك شروى فقير وكان يسير في قريته حافي القدمين اصبغ في مهجره رب غنى واسع وصاحب قصر شاهق . وكثيرون من الكورسيكيين هاجروا الى العالم الجديد في حداثم وبعد ما قضوا فيه ربحاً من الدهر بزاولون جميع المهن والحرف مع بقائهم محافظين على سنن الآداب ومكارم الاخلاق عادوا الى مسقط رأسهم حاملين مئات الألوف من الدنانير التي كسبوها بمجدهم واجتهادهم . والكاب كورسينو داهية يتبين المنهاج الواجب عليه السير عليه لينتهي الى الغاية التي يسعى اليها اي اصابة الثروة حينما يقرن ما اتصل اليه من الاخلاق الكورسيكية الى رقة الجانب التي اقتبسها من الجنوبيين وهو اقرب من جميع الكورسيكيين الى انتحال الافكار العصرية

ويقال بالاجمال أن البومنتنكو حينما يبسم له ثغر الدهر ويقبل عليه الاقبال يصبح سيدا كريما ولا يبقى له هم الا ترميم مائدة من صرح سؤدده والكاستانياتشياجو حينما تقبل عليه الدنيا يشعر بان الحظ رد له ما كان جدوده قد زرعه والباليانيانو حينما توارثه الاقدار يعتقد أن ما أصابه هو ثمرة توفير الاموال . ويزعم كلا هذين الرجلين أن الغنى الذي أصاباه أمر متعخم لهما فلا ياتيان شيئاً يجعل الناس يقضون العجب من يسارهما ولا يدهشان من الحالة التي صار اليها والكاب كورسينو يختلف عنهما من هذه الجهة فتبطره النعمة لأن ماضيه لم يمهده الى المعالي فيهر بصره حينما يحتل بفتة ذري المقامات العالية في هيئة اجتماعية يرتكز الاكرام فيها على المال ويشبه من هذا القبيل كثيرون من أصحاب الملايين في عصرنا الحاضر فانهم مع كونهم أولياء لتلك الملايين لا يعتبرهم

الناس إلا أوصياء عليها فلا بد من أن تنقضي عدة أجيال متعاقبة حتى تصبح
البروة لائقة بهم .

إذا سكت كلاب الحمي يوما فهل تلقى لها لهما شبيها
وان يسكب بكأس التبر خل فهل تلقى له طعم الحميا

وأما كورسيكي بونيفاسيو المدعو بونيفاتزينو فلا يسهل له مقامه في طرف
الجزيرة الجنوبي مخالطة باقي اخوانه المقيمين بعيدا عنه في سائر انحاء الجزيرة
وسكان تلك الناحية قليلو العدد اياه النفوس محبو الاحتشام ويمكن القول عنهم
بالاجال أنهم يحبون المقام في كسر بيوتهم . والمرأة عندهم أشد استعبادا منها عند
غيرهم فلا تبرز للانظار إلا نادراً ولا سيما لانظار الغريب وقد انقضت عليها ازمان
طويلة لم تكن تخرج فيها إلا مقنعة على مثال المغريات . ولا يزال البونيفاتزينو
يشعر بما كان للاراغوني من السيادة عليه فبينه وبين الاسباني شيء من النسابة .

ويتكلمون في كورسيكا باللغة الايطالية ولا يند عن أحد أن لهذه اللغة
لهجات كثيرة ولكن لم يسد منها في علم الادب إلا اللغة التسكانية وقد لطفها
اللفظ الروماني . وبعد ما تألفت المملكة الايطالية من اشتات المقاطعات المختلفة
واندغمت العناصر المتألفة منها بعضها ببعض نشأت لغة وطنية عامة قاعدتها
اللهجة التسكانية الرومانية واستعانت باللهجات الاخرى أيضا وعليه فتكون
اللغة الايطالية من هذا القبيل في دور التحول واللغة الكورسيكية لهجة
إيطالية مذبذبة لسكنها تختلف باختلاف اقاليم الجزيرة وكانت الاسر الكورسيكية
الكريمة تستعمل اللغة الايطالية الفصحى من نحو سبعين سنة أما الفلاحون
فكانوا يتكلمون باللغة العامية وكانوا يلقون الدروس في المدارس بالايطالية
ولكنهم صاروا الآن يلقونها بالفرنسوية وبالتالي أصبحت اللهجة العامية
عينها آخذة بالانحطاط وتدل قرائن الاحوال على أنها سيخلفها لهجة جديدة
مشتركة بين الفرنسوية والكورسيكية واذا القى الكهنة المواعظ باللغة الايطالية
فكثيرون من الكورسيكيين لا يفهمونها وان انحطاط تلك اللهجة دليل على
قرب انقراضها . ومعلوم أنه حينما تفقد البلاد لغتها لاتلبث أن تفقد أخلاقها
وطبائعها وحينما تفسد لغة شعب من الشعوب فأندره بقرب زوال تقاليده التي
يفاخر بها . فالفتيان والفتيات في كورسيكا ولا سيما في المدن يعتبرون أن التسكام

بالفرنسوية دليل على الرقي غندهم ويندران يسمع في المجتمعات العامة أحدهم يتكلم بغير الفرنسية .

والديانة الكاثوليكية هي الديانة الوحيدة في كورسيكا إلا أنه تقيم في كرجيزي نخلة صغيرة من الروم الارثوذكس ولذلك ليس في الجزيرة مسألة دينية تشغل خواطر القوم . والكورسيكي يزاول فروض دينه على طريقة خاصة به أي أن الدين عند كثيرين من سكان تلك البلاد هو من نوع العادة وليس من نوع العبادة وهذا ما نراه جاريا في بعض أنحاء لبنان

وينقسم الكورسيكيون بالنظر الى حالتهم الاجتماعية الى أربعة اقسام : أهل المدن وأصحاب الاملاك والفلاحون والرعاة . فاهل المدن يقطنون المدينتين الكبيرتين اجا كسيو وباستيا وغيرها من المدن . فاهل اجا كسيو موصوفون بالذكاء والبطالة فهم يعيشون في اقليم مخلب مناظره الالباب ولاهم لهم الا الاجتماعات في الاندية لتجاذب أطراف الاحاديث من الصباح الى المساء وبعضهم من المساء الى الصباح في الميدان المعروف بميدان الالماس وسنقيض في الكلام عن هذا الموضوع عند الكلام على اجا كسيو بالتفصيل .

وأهل باستيا منهمكون في الاعمال فباستيا مدينة تجارية والجميع يعملون فيها وهم لا يتزهون في ميدان القديس نقولا إلا في يوم الاحد . وباستيا دون اجا كسيو في حسن الموقع واعتدال الهواء فدرجة الحرارة فيها ملطفة في الشتاء ولكنها ترتفع في الصيف ارتفاعا شديدا يضيق معه الصدر وتهب فيها الرياح العاصفة في ايام من السنة . والمدينة مبنية على شاطئ البحر تتخللها أزقة ضيقة بين انحدار وصعود تتكنفها بيوت عالية ليس عليها شيء من الهندسة ولا يبدو على الافق شيء من الجمال الخالب الالباب وتحيط بالمدينة هضاب وعرة المرتقي . ولا يذهب الانسان الى باستيا إلا لقضاء اشغاله ولا يقيم فيها إلا لمزاولة تجارته والباستيون لينو العريكة لطفاء وهم يكثرون من العلاقات بعضهم مع بعض ويتزاوون ويزاولون جميع انواع الملاهي وهم لمجاورتهم لايطالوا متخلقون باخلاق الايطاليين : وباستيا غنية انيقة شديدة الاعجاب بكل جديد وهي وان لم تكن مثابة للعلماء وأصحاب الادمغة المفكرة والاحلام الراجحة عليها مسحة من القنون الجميلة . واذا كانت اجا كسيو لموقعها في البومني محافظة على الكورسيكية الحقيقية ومتخلقة باخلاق عامة لاختلاط

أهلها بالغرباء فباستيا أقرب منها تخلقاً باخلاق سكان القارة ولولا امتداد جرائيم النفوذ الايطالي الموروث فيها لكانت أشد تفرساً من غيرها في الجزيرة . وعلاوة على ذلك اذا كانت اجا كسيو قد نشرت اسم كورسيكا في جميع انحاء المعمورة فباستيا أصابت ثروة طائلة لأن الواحد من سكان باستيا يؤثر المال على المجد وكل يدري أن الواحد منهما يعادل الآخر في هذا العصر .

أما سكان المدن الصغيرة فهم اتعس حظاً من سواهم لأن تلك المدن ليست سوى قرى كبيرة رديئة الهواء حقيرة المنازل تنحصر الحركة كلها فيها حول ميدان عام أو في شارع ويكون سكان تلك المدن في غالب الاحيان من صغار الملاكين وبعض صغار التجار المختلطين بالفلاحين الحقيقيين وهم يقضون حياتهم في الخصومات السياسية ولا يفسكرون إلا في المهاجرة فجميعهم يرشحون انفسهم لمناصب الحكومة وهم يلقون مشقة لتحصيل رزقهم ولا أموال لهم يستثمرونها بل لهم اراض لا يدرون كيف يستغلونها فالبيع اليسير الذي يجنونه من تلك الاراضي يقتضي استيفاء اهتماماً عظيماً ولهم منزلة يعنون بالحفاظه عليها . على أن رؤيتهم أصحاب المناصب يقبضون مرتباتهم من دون أن يعملوا شيئاً مذكورا حاج فيهم حب المناصب على ما هي عليه الحال في بلاد الشام ولبنان والقطر المصري وهذا الميل الى المناصب خلة موروثه فيهم فقد كان السكورسيكي في عهد دولة الجنويين يسمى وراء المنصب كبيراً كان أم صغيراً وهو ينتهي من احرازه أن يكون بئامن من المظالم التي يحاذر نزولها به وقد كان الاعيان في لبنان في عهد حكومة المتصرفية يسمعون وراء المناصب كمنصب مديراً أو قائماً مثلاً لينجوا من انتقام زيد أو غطرسه عمرو .

قلنا ان سكان المدن الصغيرة اتعس حظاً من غيرهم في تلك الجزيرة فليس لهم الجرأة الادبية الكافية لمزاولة الزراعة ولا يدرون كيف يتعاطون التجارة فهم اما ان يعيشوا في الخمول او يهاجروا وكثيراً ما يقضون معظم وقتهم في اللعب او انتياب الملاهي وليس عندهم ملاعب او مراقص او منتديات طامية وكل ما عندهم من الملاهي هي القهوة القذرة المنبعثة منها الروائح الكريهة وهم يجتمعون فيها للتحدث في الشؤون السياسية العقيمة . وفي غالب الاحيان تكون المدينة الصغيرة منقسمة بين اسرتين او ثلاث اسر تتنازع فيها النفوذ . وجميعهم يعلمون ان الواحد

منهم اذا لم ترفعه منزلة الى المقام الاول في مدينته فلا يستطيع ان يكون فيها شخصاً يشار اليه بالبنان وان علمه لا يجديه نفعاً مع أن السواد الاعظم منهم يكونون قد درسوا وحذقوا في الحقوق او الطب او غير ذلك من العلوم والفنون وان لم يكن للواحد منهم أنصار يعضدونه فلا يدرك ما تطمح اليه نفسه فالانصار لامندوحة عنهم في كورسيكا لنيل الفوز في الانتخابات . والانسان وان يكن داهية في تلك البلاد لا ينبغي دهاؤه شيئاً ومن كان اقل منه دهاء وكان له حزب يسانده يصيب ولا مرء ضالته المنشودة . وللاصول على انصار شروط لا يستغنى عنها فاما أن يكون من أصحاب المجد التليد أو من أصحاب المجد الطارف وفي كلتا الحالتين لا بد له من انفاق المال عن سخاء . وفضلا عن ذلك له في دهائه ومقدرته السياسية خير واسطة للنجاح وهو يداري الحزب الكثير العدد المسموع الكلمة .

وأصحاب الاملاك هم الذين يكون للواحد منهم ارض يزيد دخلها على حاجته أما الذين لا يكون للواحد منهم ارض يكفي دخلها حاجته فيقال لهم الفلاحين ولا ينبغي ان كل انسان في كورسيكا يملك شيئاً فليس فيها فقير معوز أي لا بد من أن يكون للواحد بيت أو بستان أو حظيرة أو حقل مغروس كستناء أو زيتونا أو غير ذلك من الارض . والمسافة غير معروفة عندهم ولكن لا ينبغي أن نظن أن البيت أو الارض المرادين بهذا التعبير هما كاليبيوت والاراضي التي يعينها الجبأة فيكون البيت في غالب الاحيان مؤلفاً من غرفة واحدة أو من قسم من غرفة لان حب المشاركة في كورسيكا لا يقف عند قسمة البيت الواحد بين عدة أشخاص بل يكون بقسمة الغرفة الواحدة بين أشخاص كثيرين . ففي اجا كسيو وباستيا والمدن الصغيرة يشترى الواحد دوراً من بيت على مثال ما يشترى الواحد بيتاً كاملاً في مكان آخر . وفي القرى يملك الواحد غرفة أو نصف غرفة أو ربعها أو خمسها ولكن لا يتوهم أحد ان في هذا الامر ما يبعث على الاختلافات المتواصلة فهم يسوون الخلافات بينهم واذا كان اثنان يملكان غرفة واحدة مثلاً فهما يتفقان على أن يشغلاها واحد منهما فقط من دون أن يتقاضا الأخر أجراً ما وهذا يقيم في منزل آخر أو يشخص الى القارة وهذا من جملة الاسباب التي تحمل الكورسيكيين على المهاجرة ويدوم هذه الاتفاق

بين المالكين حتى يطرأ بينهما خلاف على أمر من الامور فحينئذ تفتتح بينهما أبواب القضايا في المحاكم ويستنفد فيها رجال القانون كل ما عندهم من البراعة وحينما يصدر الحكم في تلك القضايا يصدر بحسب مقتضيات السياسة لا بحسب نص القانون وروح العدالة .

وقد تصير الكورسيكيون الجنوبيين في بناء منازلهم أي انهم جعلوها مؤلفة من عدة ادوار ولكن الجنوبيين لهم عذرهم في بناء مساكنهم من عدة ادوار لان موقع مدينتهم لا يمكنهم من التبسط والامتداد خلافا للكورسيكيين فان ارضهم منبسطة متسعة وحيث أن الكورسيكي ليس من أهل اليسار لينفق غير الضروري فلم يفكر قط في زين بيته بالاشياء الثمينة والتحف الفنية لجميع البيوت في كورسيكا تشبه البيوت المعدة للايجار فلا يهتمون بأسباب الزينة والراحة فيها فالنوافذ فيها صغيرة والابواب ضيقة والادراج مظلمة وليس فيها من الاثاث الكثير القيمة الا ما كان باقيا من عهد الامبراطوريتين الاولى والثانية مما جاء به الضباط أو الموظفون في ذلك العهد .

ويمكن القول بالاجمال أن المستراحات لا وجود لها في دور كبار القوم واغنيائهم وهي والحق يقال مسألة خطيرة دقيقة ولكن الكورسيكيين لا يكتفون لها وهم يأثفون من وجود تلك المستراحات في ضمن مساكنهم واضطروا في المدة الاخيرة في اجاكسيو وباستيا وغيرها الى انشاء شرفات جديدة خارج المنازل القديمة لبناء المستراحات فيها . أما البيوت الجديدة فيبنونها على الهندسة الجديدة ويجعلون فيها جميع أسباب الراحة الحديثة .

ويعتبر الملاك الكورسيكي زعيم القبيلة الحقيقي فيلتنف حوله حزبه المؤلف من ذوي قرابته ثم من فريق من الفلاحين ولا يكون هؤلاء مخلصين له الا بقدر ما يستفيدون من عوارفه واياديه وهو والحالة هذه يبيع لهم التصرف في اراضيهم على أهوائهم فالراة يطلقون مواشيهم فيها والفلاحون يستعملون حظائره والخطابون يقطعون أشجاره والفلمان الرعاع ينهبون ثماره . ونقول بالايجاز ان جيشا من الطفيليين يزدهم حوله ويعيش من خيراته وهو مقضي عليه بان يعيش ويزني أولاده ويهذبهم ويدفع الضرائب وبعد القيام بهذه الامور معجزة من المعجزات اذ انه يجب عليه الا يفكر بأن يعقد القروض لتعذر هذا الامر عليه

فمثل اراضي كورسيكا لا يرضى الدائن بأن يسلف عليها مالا ولكن انصاره يؤلفون القوة التي يستند اليها وتقاس اهميته بقدر عدد رجاله في الانتخابات ففي كورسيكا يساوي الرجل مثلاً عدد كذا من الاصوات كما يساوي الرجل في اميركا عدد كذا من الدولارات .

وجميع اصحاب الاراضي في كورسيكا يشغلون في السياسة فهي ضرورة لجميعهم بلا استثناء وان هم انقوا من التدخل في المناظرات والتحزبات السياسية شاهدوا اموراً كثيرة يسوؤهم حدوثها من دون أن يتمكنوا من دفعها عنهم فيكثر ارهاقهم بالضرائب لان موزعها يسرون بأن يشغلوا كواهل الذين لا يكونون من حزبهم بتلك الضرائب الباهظة فالسواد الاعظم من اصحاب المناصب في كورسيكا كورسيكيون ولشكل منهم حزب وهم يبذلون مافي الوسع لمداواة حزبهم وحزب اصدقائهم فالملك السياسي الذي ينفذ بده من السياسة يجري الى خرابه التام وكأنه لا يكفيه أن ينهب الفلاحون امواله على الصورة التي بسطناها فيضطر في يوم الانتخاب الى ان يدور على ابواب اصحاب الاصوات لالتماس اصواتهم وان الفلاح وان يكن من رجاله ويعيش من خبره لا ينتخبه مالم يتذلل له ويستنتج مما تقدم بيانه ان اصحاب الاراضي في كورسيكا ارقاء مساكين تعبت بهم اهواء الفلاحين ويرهقهم جباة الضرائب وتستذلهم السياسة وبناء عليه تنقضي الحياة في تلك البلاد في الصغارة واذا حدث مثلاً ان فرساً قضم الكلاب اطراف اسنانه في مرج كان ذلك الامر فاتحة قضية طويلة عريضة اذا كان ذلك الفرس لغير رجل من انصار صاحب المرج .

أما قضية الصلح في كورسيكا - وجميعهم كورسيكيون - فلا يحرون الشرائع إلا والسياسة محرك عوامل عواطفهم فلا يصح أن يطلق عليهم اسم قضية صلح بل قضية حرب ومن هذا القبيل يعتبرون أن كورسيكا الحالية لا تزال على ما كانت عليه في القرن السابع عشر وقت ما كانت تحت سيادة الجنوبيين أي حينما كان الكورسيكي يؤثر حمل بندقيته لاخذ النار على رفع أمره الى القاضي والآن يترافع الكورسيكيون الى القضاء إلا أن أنظمة الجمهورية الثالثة تسوغ لكل منهم أن يندفع وراء سياسة لا أحد لها . ففي الجزيرة اثنان وستون قاضيان قضية الصلح وهذا العدد يساوي ضعف عدد القضاء في أي مقاطعة من المقاطعات الفرنسية أي ان متوسط قضية الصلح واحد لكل أربعة آلاف نفس وفي المقاطعات

الفرنسوية واحد لكل ثلاثة عشر ألف نسمة أو أربعة عشر ألف نسمة ويمكن القول بالاجاز أن هنالك اثنين وستين موظفا للانتخاب يتصرفون بالعدالة على ما توحى به اليهم. الاهواء السياسية وما يزيد في الطين بلة ويسهل على الناس اقامة القضايا هو ان المرافعات معفاة من الرسوم التي تنقاضها المحاكم، فحيث تكون في فرنسا الفا قضية مثالا في السنة يقابلها في كورسيكا خمسة عشر الف قضية لقطة من الارض فيها مثل ما في تلك من السكان . وفي كورسيكا وحدها عمل لرجال الشحنة بمقدار ما لهم من العمل في جميع المقاطعات الفرنسية الخمس والثمانين وما قلناه عن المحاكم الصلاحية من جهة تدخل السياسة فيها نقوله عن المحكمة البدائية والمحكمة الاستئنافية في باستيا ففي كليهما قضاة كورسيكيون يجعلون من وكدهم الاشتغال في السياسة . وفي هذا المعترك السياسي لا يلقى المالك ندحة عن نزوله اليه فيسعى لاصابة مركز عمدة بلدة أو مستشار ناحية أو عضو في مجلس عمومي وحينئذ يعتمد الى استمالة أصوات الناخبين للذي لا يراه هو أفضل من سواء لخدمة آرائه أو مذهبه السياسي بل لكونه ذا كلمة مسموعة في الادارة العامة . ويرى القارئ مما تقدم بيانه ان العدالة في تلك الجزيرة لا تجري على السنن المرسوم لها بل على ما تقتضيه اهواء السياسة .

هذه حالة المالك الكورسيكي فهو لا يقوى وحده على مقاومة التيار بل تضطره الاحوال الى تأليف حزب يقوم بنصره عند الحاجة . ولقائل أن يقول وما باله لا يشترك مع غيره من أصحاب الاراضي ويؤلف عصبة فالساكن يتحدان يؤلفان قوة وثلاثة يؤلفون جمعية فنقول له انك يا هذا تذهل عن طبيعة البلاد ففيها تقوم العقبات في وجه أصحاب الارادة الحسنة وتذهل أيضا عن تاريخ كورسيكا فيمتبين منه أن الكورسيكي شديد التحسك بالشخصيات ولم يسبق أن تألفت شركة في الجزيرة بين الاهلين وخدم وكل ماسعوا اليه من هذا القميل اخفق فاذا التفت من الكورسيكيين جمعية فلا تلبث تلك الجمعية أن ينتثر عقدها وقد نظم الميسو كليمينصو تقريرا في سنة ١٩٠٨ حينما كان رئيس الوزارة ووزير الداخلية ادار رضى الكلام فيه على الحالة الحاضرة في كورسيكا فنكتطف منه ما يلي مما يتعلق بالموضوع الذي نحن في صدد الكلام عنه :

« ليس للكورسيكي ما لاهل القارة من روح الاجتماع فهو يظل منفردا

مع شعوره بضعة في معترك الالفة الاجتماعية ولا يتوسل بماله من الوسائل لضم متفرق شمله واصلاح مافسد من شؤونه وتأليف النقابات فالجمعيات على اختلاف انواعها تكاد تكون مفقودة من الجزيرة ولا نقابة للعمال في غير باستيا ولكن ثمة نقابات زراعية في جميع انحاء الجزيرة .

أما الفلاح فيستطيع تذليل ما يتصدى له من المصاعب فحياته لا تسكنها المشكلات المتكيفة لحياة المالك فهو يقنع بالقليل ويكتفي بقطعة من شحم الخنزير ورغيف من الخبز أو من الكستناء ويلبس ثوبا من الخمل المرفوف ولا تتأني زوجته في الملبس واولاده يكفيهم قميص وسراويل لان درجة الحرارة في الجزيرة تكفيهم مؤونة لبس القبعات والاحذية . وليس للفلاح مطامع لانه ليس له حرفة يحترفها فهو يحصر عمله في حراثة الارض ولا يعالج إلا الارض الجارية على ملكه فيستغل منها الملفوف والبطاطس واللوبياء وهي البقول التي لا يفتكر غيرها وهو يصنع منها ما يبلد له من الحساء ويسمن خنزيرا بفضلات الطعام أو بقايا البقول اذا لم يكن عنده كستناء وينجره في عيد الميلاد ويملحه ويأكل منه على مدار السنة .

واذا اشتغل عند المالك في حراثة الارض أو غرس الكرمة أخذ في مقابل عمله شيئا من الحنطة أو الحمر وبذلك يصيب ما يحتاج اليه من الخبز والحمر وكان المالك في غابر الحين يدفعون للعملة عينا ولكن جرت شيئا فشيئا عادة دفع اجورهم نقدا إلا أن المال نادر عند المالك ويكون عنده نقود حينما يكون نسبيا لموظف عامل أو لموظف متقاعد أو حينما يبيع غاب الكستناء .

ويكون الفلاح ايضا اسكافا أو نجارا أو بناء فهذه ثلاث مهن ضرورية ولكنها لا تعود على مزاولها بكسب كثير لان حاجات القوم من هذه الجهة محدودة في تلك الديار فالاسكاف دون سواء يلقي عملا يستغرق وقته كله لان الطرق كلها صخرية تلتف الاحذية بيد أن ذلك الصانع المسكين لا يقبض دائما ثمن الاحذية التي يصنعها فله ديون عند جميع الامر وكثيرا ما تذهب ديونه ضايعا لان من ليس عنده شيء لا يستطيع أن يعطي شيئا . والاسكاف ينتظر بنافذ العبر زمان الانتخاب لان زبائنه يكسبون المال من وراء الانتخابات حينئذ يدور على زبائنه ويطلب منهم ما له عندهم ولا يعود الا بعد أن يعدوه بالدفع

وليس النجار أسعد حظاً من الاسكاف ولكنه لا يشتغل الا عند المسالك وهذا يدفع له أجرته نقداً أو عينا ولكنه لا يشتغل الا الضروري وهو شيء يسير تدعو اليه الضرورة القصوى .

والبناء يقوم بجميع الاشغال التي يقتضيها بناء البيت فهو المهندس والبناء والمبطل وليس البناء عندهم بالامر الصعب فجميعهم يسرون على خطة واحدة مبتدلة ويبني البناء جدراناً سميكة كأنها جدران قلعة ويصنع روافد من الخشب غليظة ثقيلة وينطيطها بقطع من الواح الحجر ثقيلة وغير منحوتة تحتاً محكماً . ويأتي بعده النجار لصنع السلم والابواب والنوافذ ووضع الاقبال ويكون البناء عارفاً انه حينما يشتغل يكسب شيئاً من المال لانهم لا يباشرون البناء عادة في تلك البلاد الا حينما يكون عندهم مال ولكن يندران ان يكون عندهم مال في كورسيكا ويقضي البناؤون معظم وقتهم على الغالب في البطالة . وهم لا يمهّدون سبل الوصول الى بيوتهم فلا يخطر لهم ابداً انهم يتميد الارض أمام بيوتهم يسهلون دخول مساكنهم ولا يهمهم اتقان معيشتهم فيصرفون جل همهم في الخصومات السياسية بحيث لا يبقى عندهم شيء من الجهد ينفقونه في سبيل تنظيم معاشهم وما الاهمال المشهور في الشؤون الادارية سوى صدى الاهمال عندهم في الشؤون البيتية .

ويعيشون في القرى الكورسيكية بلا ترتيب فتترك الحيوانات هائمة على وجهها في الميادين العامة وأمام المنازل الملاصق بعضها لبعض مع اتساع فسحة الارض عندهم وتقعّد النساء في كورسيكا على الشرطات المتداعية للخياطة أو التوشية ويلعب الرجال بالورق أو يدخنون أو يرقدون على أخشاب تشبه المقاعد وتكون الدجاج في أثناء ذلك تنق والخنازير تصيء والحمير تنهق والكلاب تنبح والققط تموء فهذا مشهد من مشاهد المعيشة في القرى الكورسيكية .

وتبين علامات التعس والكسل على أولئك السكان فلا يتغذون بالغذاء الكافي ولذلك لا حول لهم ولا طول وقد عبث بهم الامراض الفتاكة كاللترن الرئوي والوبالة وفقر الدم والفالج اما الاحداث فتفتك بهم الامراض القتالة كالحصبة والحمى القرمزية والجذري والتيفوئيد فتسك ذريعا ولم تنظم الحكومة احصاء للوفيات بينهم ولكن المسيو كليمنصو جاء على ذكر هذا الامر في

تقريره الآنف الذكروا ان الامراض الوبائية تنتشر في القرى الكورسيكية
بجهد القوم ونبتهم اتخاذ اسباب الوقاية والعناية بالمصابين وعدم تجنب مخالطتهم
وتطهير منازلهم وامتعتهم . ويكاد الاطباء في كورسيكا يكونون غير موجودين او
هم قليلون جداً . وقد اجمع الاطباء هنالك فكانوا ستة وستين طبيباً قانونياً
وواحد وخمسين موظفاً صحياً فيكون مجموعهم مئة وسبعة عشر طبيباً منهم تسعون
يزاولون الطبابة وعليه يكون المعدل طبيباً واحداً لكل ثلاثة آلاف نفس على
التقريب . ومتى علمنا ان في اجا كسيو وباستيا واحد وثلاثين طبيباً وجدنا أنه
يبقي نحو ستين طبيباً لخدمة شعب يبلغ عدده نحو مئتين وتسعين ألف نسمة في
أقليم تبلغ مساحته نحو ثمان مئة وسبعين ألف هكتار على أن الاطباء الستين
الذين تقدم بيانهم يقيمون في المدن الاخرى الصغيرة ككورتي وسرتين وكلفي
وايل روس وغيرها بحيث يندر وجود طبيب في الانحاء الجبلية التي بأوي
اليها الفقراء وفي فرنسا شريعة سنت في سنة ١٩٠٢ تقضي بانشاء مستوصفات
طبية مجانية الا أن السياسة تدخلت في مسألة التطبيب في كورسيكا وجعلتها
اداة للانتخاب فنظمت جداول باعطاء اصحاب الكلمة المسموعة ودفعت الى
اماكن الاطانات العامة ليتمكن اولئك الانصار من التطبيب مجاناً

وانه ليسهل ان ينسب الكسل الى الفلاح الكورسيكي ولكن يصعب ايجاد
شغل له اما اصحاب المهن كالاساكفة والتجارين والبنائين فلا يجدونهم في كل
قرية لقلة الحاجة اليهم . واصحاب الاملاك يهملون امر الزراعة وليس هنالك
من صناعة فكيف يكون العمل والحالة هذه .

ان الشبان يهاجرون فبعد اتمام الخدمة الجندية ينظمون في سلك العسكرية
ويصبحون جنوداً اشداء وضباطاً اباذل وقد اشترى بالحرص على النظام العسكري
والاخلاص لدولتهم وكثيراً ما يجدون عند خروجهم من سلك الجندية مركزاً
بسيطاً في الدوائر الخاصة أو العامة فمنهم من يدخل الدوائر المالية أو تسند اليه
المحافظة على السجون ومنهم من يدخل دوائر الشعنة او غير ذلك من الخطط
التي يقدر على تولي شؤونها ويكونون في أي مركز يشغلونه كرام الاخلاق
ذوي جد وعمل وصبر على الشدائد فن الكورسيكيين مثقال نفس منتشرون
في جهات فرنسا الرابع وفي جملتهم نحو عشرين ألفاً في باريس ونحو هذا العدد

في مرسيليا ومثله ايضا في طولون ونحو ثلاثين ألفا في الانطيل ونحو خمسين ألفا في فنزويلا والبرازيل والجمهورية الفضية وكثيرون من المتقلدين لمنصب الحكومة وخططها يعودون الى قرام حينما يحالون الى المعاش وهم يحملون ما امكنهم توفيره للاستعانة به على معيشتهم حينما لا يبقى لهم مقدرة على مزاولة العمل ولكنهم لا يعتمدون ان تهب عليهم نكباتاوات السياسة أو نكباتها فيندفعوا مع تيارها وبعد أن يكون كثيرون منهم قد قضوا حياة ماشائتها شائبة يلطخون برد فضيلتهم بما تضطرهم الى اتيانه مقتضيات السياسة الخرقاء السائدة في تلك الجزيرة المنكودة الطالع .

ويكون الكورسيكي في خارج بلاده على جانب عظيم من الشمم والاثقة وعلو الهمة ولكنه يعود عند عودته اليها الى نهج منهج وطنيه على ما هو مشهور عنهم من الاشتغال بالسياسة التي تفسد كل غاية شريفة والمهاجرة والحالة هذه بدلا من أن تجلب على الجزيرة مع ابنائها العائدين اليها تحولا في الاخلاق ونجاحا في التجارة والصناعة والزراعة تفقرها بحرمانها اياها نشاطا وللك الانباء فكورسيكا والحالة هذه باقية على ما كانت عليه من الجود والحمول وجميع البلدان المجاورة لها تجد بخطى واسعة سريعة في جادة المدنية والحضارة .

والراعي الكورسيكي يعيش ناعم اليال قرير العين وقد ادرك دون سواه كيف يعيش في بلاد تداعت فيها صروح الانظمة والثروات وهو يقتني أقل ما يمكن اقتناؤه وهو بين الملاك يعد اغنى من جميعهم وهو متناه في الذكاء ويكون في غالب الاحيان أميا وهذا ما يجعله قوي المنكب شديد الصرامة لان التعليم لم يفسد اخلاقه فهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة ولكنه بحسن الحسابة العقلية فك من الرعاة الكورسيكيين يستطيعون أن يعملوا في إضع ثوان عملية قسمة عقلية تتألف من خمسة أرقام في كل من المقسومين مثلا أو عملية نسبة أو عملية كسر وكثيرون منهم يهجون في أثناء قيامهم على مواشهم في عزلتهم نهج بسكال حينما كان حدث وهم لا يعرفون شيئا من مبادئ الهندسة أي أنهم يبحثون عن خواص الخطوط وما للصور الهندسية من العلاقة بعضها ببعض ويعجز طلبة المدارس عن حل المسائل التي بها الجرن حلها بطريقتهم العقلية البسيطة . والراعي الكورسيكي ورث مهنته أبا عن جد ولم يتعلم تعليما غير التأمل في الصمت على

قم الجبال في الشتاء وفي الادغال والآجام في الصيف ولا يسند ما أوتيه من
الدهاء الى وراثة هذيتها التعليم وليس استعداده موروثا عن اسلافه ولكنه
مكتسب بما طرأ عليه من التحول وهو في اطواره يشبه البشر الاولين فيعيش
وحده مع حيواناته ويستلهم تصور عن العالم بما يبدو له من الخط والعدد
ومن يبحث في اخلاقه واطواره عن كذب يعلم كيف كانت الشعوب في الازمنة
القديمة تدرك بعض المبادئ العامة مع جهلها لكل شيء ومن ثم نرى الراعي
الكورسيكي يحتقر المالك ويزدري بالفلاح وهو عارف كل المعرفة بموقف
كليهما الخوف بالاضطراب والعراقل فيتخذ لنفسه عبرة زاجرة . وقد حل مسألة
اقتصادية معقدة تفوق في الغموض جميع المسائل الرياضية وهي أنه ارتأى ألا يملك
شيئا وان يصيب كل شيء فالراعي يقيم على حراسة قطيع من الغنم أو الماعز ففي
الاصل يخص هذا القطيع المالك ويظل مبدئيا ملكه ولا يحتاج الراعي الى دفع
رأس مال ما وينمو القطيع ويكثر عدده وبحسب الاصول التي يجرون عليها من
جهة الانعام يجب أن يظل العدد المسلم الى الراعي كاملا وانما يقسم النتاج بين
المالك والراعي والى هنا يظهر كل شيء موافقا للقانون والعدالة ولكن ثمة تصفية
الحساب حينئذ يظهر دهاء الراعي الرياضي بكل مظهره فكما كان مقدار اللبن
المحلوب من النعاج يقول الراعي ان اللبن المحلوب يكاد لا يذكر لان السنة كانت عاتلة
جدا . وكما كان مقدار الصوف المجزوز منها ؟ لم يكن شيئا مذكورا والكلام في
هذا الشأن يعد من باب العبث . وكما هل انتجت ؟ ان عدد الحملان قليل جدا وان نعاج
المالك كانت جميعها على التقريب طاقرا . ولقائل أن يقول أو ليست جميع النعاج
للمالك ؟ فنقول له انك مخطيء يا هذا فالمالك دفع عددا معلوما من النعاج الى الراعي
فعمدت بها الامراض وتلف جانب كبير منها وبات الجانب الآخر فريسة للشعالب
وتفق غيره بالحوادث بحيث انه لم تمض اشهر حتى كاد القطيع يفنى عن آخره
وقد حصل الراعي على نعاج اخرى (ولا يعني احدا أن يعرف كيف حصل عليها
وقد شاءت الاقدار أن تنتج هذه النعاج وحدها فالقطيع الذي كان مؤلفا في
الاصل من خمس وعشرين نعجة مثلا ونقص عدده الآن حتى اصبح خمسة عشر
لم يحسن منه بحسب زعم الراعي الا ثلاث جينات وكيلو غرام واحد من الصوف
واربعة حملان — ولكن هذه سرقة فكل ما يزعمه الراعي كذب محض ولكن

عفوا فان علم الرياضيات يقيم عليه الدليل فالراعي مصيب رياضياً ولكن كيف العمل ؟ ان تصديق حسابه يعد من باب البساطة والبلاهة وان اقامة قضية عليه يكون مدرجة الى مرافعات ومماحكات لانهاية لها ومن اراد الحصول على حقه وجب عليه ان يحرك عوامل التفوق السياسي وهب اصاب وطره من القضية المقامة فيبقى الحكم الصادر على الراعي حبراً على ورق لان الراعي يبقى حراً كالهواء ولا سبيل الى القبض عليه ولا يستطيع صاحب القضية ان يحجز مقتنياته لانه لا يملك شيئاً فالنعايج التي يزعم الممالك انها له لاندبت أن تتوارى ولا يبقى لها أثر ولا تتمكن الحكومة من اعتقاله لانه يقيم على قمم الجبال وفي صدوع الارض وكوفها وبطون الاودية أو في الادغال التي لا يهتدي أحد الى مساكنها وليس للمالك سوى وسيلة واحدة يستطيع أن يتوصل بها ليتخلص من شر الرعاة واستبدادهم ومكرهم وهي أن يغيرهم من حين الى آخر قبل ان يستوسق لهم الامر ويستأثروا بجميع المنافع الناجمة عن القطيع المسلم اليهم ولكن لا يتوهم أحد ان ذلك التعبير من شأنه أن يجعل المالك حاصلًا على المنفعة التي يتوخاها من مواشيه فجميع الرعاة مقدودون من أديم واحد ومفرغون في قالب واحد ويكونون في غالب الاحيان أقوى من الملاك .

ولهم علاوة على ذلك حق الانتخاب واصواتهم يقام لها وزن وان المالك الذي يهجمه أن يكون له انصار كثيرون لا يلقي له منتدحاً عن مداراتهم فيظهر الراعي في ذلك الحين بمظهر السيد المطاع لانه حامل ما يعين موعد الانتخاب يتوارى الرعاة ويكونون اما في الادغال في السهول واما على ذرى الهضاب والجبال فيضطرون الى البحث عنهم والحقاق بهم والرجاء منهم أن يحضروا الى دائرة الانتخاب للاقتراع وحينئذ يبدو دهاؤهم فيعالنون المالك بالاعتصام بقرحزبه ويخاطبونه بلهجة عذبة مزوقة وكلام يسحر الالباب مؤكدين له انهم لا يميلون إلا الى فوزه ولا هم لهم سواه ولكن يكون برقمهم خلبا ومواعيدهم عرقوبية فهم يفوهون بهذا الكلام ويبقون في اما كنهم ولا يجعلهم يزايلونها الى الاماكن المعينة للانتخاب الابريق الاصفر الرنان فالراعي الكورسيكي والحالة هذه لا يدع فرصة تمر من دون أن يحرز ما يستطيع احرازه فيها من المنافع فهو السيد في كورسيكا ويستنتج مما بسطناه أن الشعب الكورسيكي يتألف من أمة متحدة في

بمجموعها مختلفة بطبيعة أقاليمها الجغرافية وتنقسم الى فئات اجتماعية تتميز الواحدة منها عن الاخرى . فهذا الشعب يتألم الآن من حالة التدهور الباقي هوفيهما ويطلب مد يد المساعدة اليه وهو يكفر الآن عن الخصومات الداخلية التي كانت باعثاً على تطاحنه في غابر الايام وعن المنازعات السياسية التي تفت في عضده في أيامنا هذه ولما ضم الى فرنسا خيل اليه انه ينجو من غوائل التحول الجنوبي ولكنه اخطأ ظنه المرمى فلم يكن حظه في عهد الفرنسيين افضل منه في عهد الجنوبيين وقد أصبحت كورسيكا فرنسية حينما كانت الافكار في فرنسا تستعد لتلك الثورة الهائلة فنشأت هيئة اجتماعية جديدة كان من وكدها هدم الانظمة الارسطقراطية القديمة واقامة انظمة ديمقراطية جديدة على انقاضها ففرنسا الكامنة فيها قوى عجيبة غريبة وهمة لا يثلم حدها وحياة لا يدنو منها الوهن نهضت مما اصابها من العثار في تلك الثورة الكبرى وفي حروب الامبراطورية الطاحنة فاستقامت امورها واتسع نطاق اليسر فيها وتمكنت من الخروج من الحرب السبعينية الويلة غير مهينة الجناح او مثلومة الحد . وبعد الحرب العالمية الكبرى هبت وحركت عوامل نشاطها وعملت على ما فسدته يد الالمان في بلادها واصبح لها المقام الاول في القارة الاوربية وباتت لها الكلمة المسموعة في المؤتمرات الدولية التي توالى عقدها وحسبها أن يكون فيها داهية كالمسيورايون بوانكاره يعرف من أين تؤكل الكتف حتى يعزز مركزها في العالم وبعد ما كان الناس يتوهمون ان احوالها الاقتصادية والمالية تضععت نشطت الى اصلاح شؤونها الصناعية والتجارية وتوطيد اركان نقدها فانهاال عليها الذهب من جميع الانحاء حتى اصبح لها المسكنة الاولى في اوربا من جهة خزن الذهب وقد ساد القلق الدول الاخرى من جراء ذلك الامر فاخذن ينظرن في تلك المسألة نظرة جديدة تلافياً لما قد يحجر عليهن ذلك من الخراب .

والكورسيكيون يأملون أن فرنسا لاتظل في المستقبل مهملة لامورهم كما كانت الحال في الماضي بل تنظر اليهم بمقلة العناية والاهتمام ولم يخف عليهم أن جميع الحكومات التي تعاقبت على الحكم في فرنسا من الثورة الفرنسية الكبرى الى عهدنا الحاضر لم تكثر لحالة بلادهم ولم تعمل على ترقية شؤونهم وتحسين احوال وطنهم ولم تساعدها في حالة التحول التي مرت عليها وخيل للفرنسيين انه يكفهم

أن ينشروا في كورسيكا الشرائع الجديدة والقوانين الحديثة وقد ذهلوا عن حقيقة تاريخها الخاص وأخلاق أهلها المتفردين بها فعاملوها معاملة لهم للمقاطعات الفرنسية الأخرى ودغموها بالأقاليم التي كانت خاضعة من أجيال متوالية وقرون كثيرة للحكومة الملكية المطلقة وجرى في وهمهم أن تلك الجزيرة غنية وأن خيراتها لا تسكفي فقط للقيام بأودها بل يستطيع تخصيص قسم منها لنفقات الدولة العامة وظنوا أن الشعب يزاول الاقتراع العام مع احترامه لأنظمة الارسطقراطية الادبية والتجارية على ما كانت عليه الحال في فرنسا إلا أن كورسيكا الفنية بطبيعتها تربتها لم تعرف من القرن السابع عشر ما هو اليسر الحقيقي فقد كانت محتاجة إلى أن يمدوها بالمساعدة ولا أن يطلبوا منها مساعدة ولا يخفى أن الأمة الكورسيكية التي نشأت في مهد الحرية من عهد بعيد لم يكن فيها اثر للارسطقراطية فكل فرد من أبنائها يعتبر نفسه حراً من ولادته وكان بالتالي يعتبر أن له الحق بأن يصير صاحب الامر والنهي في بلاده وهذا هو السبب الذي من أجله كانت الاقتراع العام باعثاً على الخصومات الدموية بين الكورسيكيين ويمكن القول بالإيجاز أن نتيجة تلك الحركات افضت إلى حصر السياسة في الجزيرة في أيدي معروفة فعادوا إلى تمثيل الدور الذي كان يمثل في القرون المتوسطة أمثال تشينارشيزي وأوبرتنغي وفريغوزي وبقيت المظالم تعبت بالقوم على أوجه مختلفة وصور شتى فالأحوال لا تزال عندهم على ما كانت عليه في القرن الثاني عشر.

وتنحصر المصائب الحالة بكورسيكا في الآونة الحاضرة في ثلاثة أمور .
 الفقر وخلل الإدارة والسياسة فتمقر الشعب ينجم عنه العذاب والاضطراب .
 وخلل الإدارة يغفل الأيدي ويخلق الضعف وينشئ اضطراب حبلى الأمن .
 والسياسة العامة تبلبل الأفسكار وتفسد الضمائر وتخني على نشاط الأمة وتكون من أقوى العوامل لانتشار الفقر وازدياد الخلل في الإدارة .

فمصيبة كورسيكا شديدة ومزمنة : شديدة لأنها تعم البلاد في جميع قواها وتفسد جميع أنظمتها وقوانينها وعناصرها . ومزمنة لأنها مذ وجدت لم يتقلص ظلها دقيقة واحدة فهي تعمل على مهل جارة تلك الديار إلى مهاوي الدمار . وبما يساعد على استفحال أمرها هو الأخلاق الموروثة عند تلك الأقوام

وطبيعة البلاد المقيمين فيها فأفضل الاخلاق المتصف بها الشعب الكورسيكي يصبح من أشد الذرائع لجلب الشر فالانانية تحول دون تأليف الجمعيات والاتفة تجمل الواحد منهم يتخلق باخلاق بالية والمحافظة على التقاليد القديمة تقف حاجزا في وجه المعاداة الحديثة والروح الديمقراطية تزيد في طين الغليان السياسي بلة. ويتسلسل عن ذلك أمور اقتصادية تجعل محاسن تلك البلاد عقيمة فوعورة الجبال تصير انشاء طرق المواصلات صعبا . وخصب التربة يساعد النباتات الطفيلية على النمو ويضطر الزارع الى جهاد متواصل لأن الاحوال الجوية في تلك البلاد تختلف باختلاف موقع مناطقها فهي كثيرة الرطوبة في المرتفعات وشديدة الجفاف في السهول وأفضل الاراضي الملائمة للزراعة وبيلة الهواء ونقول أخيرا أن موقع الجزيرة الجغرافي يقضي باعتزالها فكان كل شيء يعمل على معاكستها من اخلاق القوم الى موقع بلادهم الجغرافي فكورسيكا لا تزال بعيدة عن المدنية العصرية ولم تحسن ادارتها ولا استخراج دقات خيراتها وهي دريعة لسهام المنازعات السياسية .

ومن أشد النكبات وقعا على الكورسيكيين الوبالة فهي تهدم بالانقراض وهذا المرض هو غير خطير بمحد نفسه فالمعالجة تقضي عليه واذا أخذت الكينا بمجرات قوية استأصلت شأفته . ولكن هل يشفى المصاب به شفاء تاما . يقولون أن من تفتابه الوبالة تترك فيه جراثيمها مادام حيا فعند أقل تعب يلم به وعند ادنى حركة عنيفة تنوب الجسم تهب الوبالة من مريضها وان هم لم يقطعوا دابرها من البدن تمكنت وشا نجحها في الجسم بسرعة غريبة واشتد ساعدها . فالوبالة منتشرة في كورسيكا انتشارا يوصف بأنه آفة وخيمة المغبة عليها ومن نتائجها السيئة ان سكانها يتناقص عددهم يوما فيوما من جراء ذلك الداء الويل فهو يقصر الآجال ويسوق العقم الى المتزوجين ويدفع معظم القوم الى المهاجرة ويقال بالاجمال أن سكان الجزيرة بحملتهم مصابون بالوبالة على التقريب والاطباء في كورسيكا يصفون للوطنيين الناقمين من أي مرض كان ان يستعملوا املاح الكينا لان كل مرض عند الكورسيكيين ينتهي في غالب الاحيان بالاشتراك مع الوبالة .

واذا نظرنا الى علاقة الوبالة بكورسيكا وجدنا ثلاثة أقاليم في تلك البلاد : الاقليم الذي تصيب فيه الوبالة الناس والاقليم الذي يتداون فيه منها والاقليم الذي لاوجود لها فيه .

فنشأ الوبالة في السواحل ولاسيما السواحل المنخفضة المتصلة بسهول تمتد الى سفوح الجبال كسهول بينغوليا ومارانا وكامبو يورو وبرافوني والبريا وفيو موديو وسولنزارا أي من ابواب باستيا الى مصب نهر سولنزارا وهناك مصاب الانهر الكبيرة والصغيرة وتنتشر مياه هذه الانهر في مستنقعات كبيرة قريبة الغور يكثر فيها القصب والبردي ويتولد فيها البعوض من نوع « انوفيل » وهي تنقل جراثيم ذلك الداء الوبيل .

وهناك ماعداء هذا الاقليم الشرقي اقالم أخرى أصغر منه تمتد عند مصاب مجاري المياه في الجزيرة وتتصل بها سهول فسيحة رديئة الهواء وحينما يكون الانسان في تلك السهول يصاب بالوبالة فيعود الى قريته للتداوي فيها . ومن عادة الكورسيكيين أن يقضوا أشهر الصيف من يوليو الى نوفمبر في القرى المبنية على قم الجبال ويأخذوا في اجتناء ثمار الكستناء في نوفمبر ثم يهبطوا الى السهول فيحرقوا ويزرعوا ويعزقوا الكرمة ويعنوا بامر الاشجار المثمرة في الشتاء والربيع ومحصدوا محصولاتهم في أواخر يونيو ثم يصعدوا الى قراهم قبل ظهور الوبالة وكثيرا ما يحدث ان الحال تقضي عليهم بالبقاء في السهول الى أواسط شهر يوليو ويضطرم رش الكرمة بالكبريت الى الرجوع الى السهول عدة مرات في خلال الصيف ويعودون في شهري سبتمبر واکتوبر الى السهول لقطاف العنب ولكن الوبالة لا تشد وطأتها الا من نصف يونيو الى اواخر اكتوبر ومن أهم لوسائل لمناهضة الوبالة ائلاف المعوض ولا يتم هذا إلا بتجفيف المستنقعات وقد ارمعت الحكومة اجراءه ولكن هل يتسنى لها ذلك ومشروع يقتضي اتفاق عشرة ملايين على الاقل وهي تشكو من المعجز في موازنها والجزيرة معروفة بفقرها وقلة مواردها .

أما التجارة فسكاسدة في الجزيرة وليس في البلاد مصارف إلا في اجا كسيو وباستيا ولا تقام فيها أسواق ولا معارض عامة وليس في باستيا سوق للخنطة والعلف . ولا يعقل أن يهتم الملاك في السواحل الشرقية بمحصولات الخنطة اذا لم يجحدوا لها اما كن يبيعونها فيها . وهم الآن يهملون أمر الخنطة التي كانوا يستغلونها من ارضهم ويحملون الدقيق من القارة . ومن أهم الاسباب لتقهقر التجارة وكسادها افتقار البلاد الى طرق المواصلات .

وزعم الحكومة الفرنسية أنها عملت كل شيء للجزيرة كورسيكا بتعيينها معلمين للزراعة وأساتذة لالقاء الدروس ورجالا للجندي وجيابة للضرائب وموظفين لإدارة خطط الإدارة على اختلاف أنواعها وبإنشائها طرقا وسكة حديد . ومثلها في ذلك مثل رجل يدعوك الى تناول الغداء عنده فيعملك لماذا تأكل وكيف يجب أن تأكل ويجلسك على الخوان ولا يضع أمامك إلا ملعقة فللكورسيكي الملعقة ولكن ليس له شيء من الطعام فعنده سكة حديد وطرق وإن تكن قليلة ولكن ليس عنده نجارة .

ولا يطبق الفلاح الكورسيكي سكة الحديد فهو يكرهها كرها شديدا لأنه لم يجن منها فائدة ما فهي لا تؤدي الى أي سوق كانت أو الى أي بلد تجاري وهو يعتقد أنها سبب لتقهقر بلاده والحق يقال إنه بعد إنشاء سكة الحديد أقفلت الخانات التي كانت على الطرق العامة وبطلت تربية الخيل والبغال والحمير فالكورسيكي ينام في ظل شجرة وينشد ما ألفه أصحاب الخانات في هذا الصدد واليك تعريبه :

« إن مخترع سكة الحديد وغد لثيم فليصب رأسه بالقرعة ولتحل به الفيلوكسيرا كما حلت بكرومنا . فالاسبوع ينقضي ولا نبيع كأسا واحدة من الخمر . يا انجلو خطر لي خاطر وهو أن نقذف ببطارياتنا القطار عند مروره . »

ولا يخفى أن بناء سكة الحديد في كورسيكا استغرق مبالغ طائلة من المال فالكيلومتر الواحد من السكة بين اجا كسيو وباستيا كلف ٣٤٦ ألف فرنك ومن سكة بالانبي أكثر من مئة ألف فرنك ومن سكة السواحل الشرقية نحو ١٥٥ ألف فرنك . أجل ان البلاد وعرة المسالك وقد اقتضى بناء سكة الحديد فيها عناء شديدا واشغالا فنية خطيرة الا ان الجانب الاكبر من المبالغ الكبيرة التي انفقت عليها انفقت على شراء الارض التي يمر فيها الخط الحديدي وكان من وراء شراء تلك الارض قيل وقال في ذلك العهد ان السياسة لعبت دورا خطيرا في شرائها وقد استفرغ كل واحد منهم ما عنده من الدهاء لبيع ارضه من لجة الاستملاك بثمن غال مع ضيق مساحتها فاهلكثار الواحد من الارض المصغرة بيع بخمسة وسبعين ألف فرنك مع أن قيمته الحقيقية لا تساوي عشرين سنتيا ولا بد من القول ايضا أن الذين كسبوا من وراء بيع أراضهم بتلك

الاثمان الفاحشة كانوا من ذوي الكلمة المسموعة ومن المشتغلين في السياسة . ولما كثر تحدث الناس في هذا الموضوع لم تلق الحكومة بدا من تعيين لجنة جديدة لاعادة تخمين تلك الارض باثمان معقولة مقبولة ولكن لم يتغير شيء في الحقيقة فاللجنة الثانية تسلمت عليها عوائل السياسة كما تسلمت على اللجنة الاولى من قبل وكان كل ما عملته انها خفضت اثمان اراض جارية على ملك اشخاص لم تكن كفة النفوذ السياسي راجحة نحوهم في ذلك الحين ورفعت اثمان اراض تخص اصحاب مقامات مالية وكلمة مسموعة وما قلناه عن بناء سكة الحديد يمكننا أن نقوله ايضا عن بناء الطرق الاخرى فحينما يلتزم الكورسيكي انشاء طريق مثلا يقوم على مراقبة اعماله موظفون كورسيكيون فتتدبرهم وزارة الاشغال العامة للاشراف عليها ومع انه مقضي عليه بان يتم تلك الاعمال طبقا لوثيقة منظمة بينه وبين مصلحة الاشغال العامة فلا شيء يثبطه عن تضيق ذل الطريق وجدران الدعم وعضائد الجسور ولا يستعمل من مواد البناء لتلك الاعمال الا ما كان منها رخيص الثمن رديء الجنس فلا ينقضي ثلاثة اشهر على انشاء تلك الطريق حتى يصبح المرور عليها متسرا فالالتزام للالتزم كسب سياسي لا يسهل حرمانهم اياه ثم انه اذا نهض أحدهم وشكا من سوء حال الطريق كان كلامه كصرخة في واد أو كنقضة في رماذ لان الملزم يكون مظللا بكشف أحد المتنفذين السياسيين ولما انشئ الخط الحديدي بين اجا كسيو وباستيا انهار التراب في مكان بين كورتي وفيقاريو ويقال أن ذلك الانهيار كان مدبرا بالاتفاق مع مفتشي الطرق والجسور وكان من نتيجته وضع خمس مئة الف فرنك في جيوب المقاولين من باب النفقات غير المقررة . وبقي الآن تحت العمل نحو ١٤٨ كيلومترا من سكة الحديد يقتضي بناؤها ثلاثين مليوناً ذهباً على ما جاء في تخمين نحن قبل الحرب

ولنذكر الآن بالابحاز ما أجراه نابوليون الاول في كورسيكا وما كان ينوي اجراءه فيها من الاصلاح وما تقلب عليها من الحوادث بعد سقوطه عن عرش الامبراطورية الفرنسية :

لم يكن نابوليون يني عن الافتكار بمنبت شعبته . وفي رسائله ما يدل على شدة اهتمامه بتلك الجزيرة فقد وجه عنايته الى جميع الخطط الادارية فيها كالمديلة

والمالية والجندية برا وبحرا والتجارة والنافعة والزراعة وتنظيم الشحنة وكان مزعماً أن يضع على رأس تلك الخطط أشخاصا خبيرين بشؤون البلاد وعارفين بلغتها وسعى لينشئ في اجا كسيو مصنعا للآجر والفخار يشتغل فيه صغار العملة ليتمكن الناس فيها من الاستغناء عن جنوى في جلب الآجر والفخار منها . وصرف هامة النفس ايضا الى توسيع دوائر الاقتصاديات في الجزيرة وكان يفكر في هذه الامور وهو في باريس وفنتبلو وكيمانيه وسان كلود وفي طريقه عند زحفه الى ستراسبورغ وبتسدام وشنبرن ودرسند وشجيم الكورسيكيين على زراعة القطن وعني بالانشاء المسابك لمعالجة حديد جزيرة البا وصرف جل اهتمامه من سنة ١٨١٠ الى تنظيم احوال الجزيرة مالياً واستثمار احرارها الا أن الوقت لم يفسح له لانجاز ما كان يفكر في عمله في جزيرة كورسيكا من تلك الاعمال الكبيرة وكثيرا ما كانت تعوزه مناصرة رؤساء الخطط مناصرة مقرونة بالنزاهة والنشاط فكثيرون منهم كانوا يلقون في جيوبهم الاموال المخصصة لتحسين احوال الجزيرة وتنمية اقتصادياتها أو ينفقونها في غير وجوها .

وعلاوة على ذلك لم يكن الشعب الكورسيكي مخلصا له فوقت ما انتهى الى كورسيكا نبأ تنازله عن العرش في فنتبلو لم يخطر لاحد أن يهب للانتصار له وانحاز اريغي والي لياموني الى البوربون في ٢٨ ابريل سنة ١٨١٤ ورفع فرنسوى ليفي عمدة البلدة راية زهرة الزنبق الملكية فوق قبة الكنيسة وزينت دار البلدية احتفاء بعودة « الملكية الشرعية » وتجمهر الشعب حول تمثال نصفي للامبراطور قدمه الكردينال فش لمدينة اجا كسيو في سنة ١٨٠٦ وألقوه في البحر وهم يقذفون صاحبه بالكلام البذيء ويوسمونه سبابا وتحقيرا ويجهرون بوجوب نسخ ذكره من الازهان واطلقوا على الشوارع اسماء ملكية وفتحت باستيا أبوابها في وجه البريطانيين ولكنهم لم يطيلوا مكثهم في الجزيرة لان معاهدة باريس قضت عليهم بمغادرتها وارجاعها الى فرنسا

واذا نظرنا الى حالة جزيرة كورسيكا في القرن التاسع عشر واستقصينا في البحث عنها أمكننا ان نعبّر عن حقيقة تلك الحالة بالكلمات التالية :

« حالة سياسية مضطربة وعميقة وتقهقر في الاقتصاديات وإهمال الحكومة الفرنسية لتلك الجزيرة وخمول الكورسيكيين »

ولما توارى نابوليون عن ملعب السياسة تألف حزب البونابرتيين إلا أن المركب دي ريفيار نائب الملك في كورسيكا ادخل الخوف على السكان بما أجراه بين ظهرانيهم من ضروب الارهاب فنشبت حينئذ حرب فيوموريو المشهورة وقد استطاع في اثناها القائد بولي صهر مرضع نابوليون ورفيقه في جزيرة البا ان يواقع جنود الملك عدة أشهر وكان قد اتخذ الادغال والآجام ملجأ له واشتركت نساء كورسيكا مع بولي منتصرات له ومع ذلك رسخت أقدام الملكية في الجزيرة وأعلن فيها العفو العام .

وتفاهم الخلاف بين سكان الجزيرة وتألف عندهم حزبان : الاول انضمت اليه جميع الاسر القديمة الموالية للبوربون والثاني انتظمت في سلكه الاسر الحديثة العهد التي اصابته سؤددتها ومكانتها في عهدي الثورة والامبراطورية ولم يكن التوفيق بين ذينك الحزبين مستطاعاً وذهبت سدى مساعي عقلاء الجزيرة لاصلاح ذات البين بينهما . اما الحكام الفرنسيون ففكروا من البدء في الجري على منهاج سياسة واحدة وهي مناصرة حزب لكبت الحزب الآخر وبالتالي تمديد أجل القوضى والنسيج على منوال الجنوبيين الذين كانوا يمحنون عن الطريقة المثل .

ومن أهم الامور في كورسيكا الانتخابات ولم يكن لها قبلاً ممثلون في البرلمان الفرنسي ولكن صدر مرسوم ملكي في ١٣ يوليو سنة ١٨١٥ يخول كورسيكا انتخاب أربعة نواب فتدخلت الحكومة في الانتخاب تدخل غير قانوني وانتخبت اشخاصا من غير الاكثرية . ومما يجعل الكورسيكيين شديدي الميل الى احرار عضوية البرلمان هو اعتقادهم انه يكفي أن يغشى ذلك العضو مدينة باريس حتى يتمكن من نيل أفضل المناصب وأسمائها لدوي قرياه

وعني بعد ذلك والي الجزيرة بتحسين حالتها من الوجهتين الادبية والمادية فرأى أن الشرائع الفرنسية لا تلائم الا الاغنياء فيها اما عامة القوم فيلزمهم انظمة أهلية مبنية على أساس الاستبداد المقرون بالعطف واللين وشاء أن ينشئ

بجالس صلحية مجانية في اجا كسيو وباستيا وأن يرسل الجناة الى القارة ليحاكموا فيها من دون أن يكون للسياسة تأثير ما في وجدان القضاة وكانت حالة رجال الدين في كورسيكا مما يرثى لها فكان عددهم فيها ١٨٤٤ قسا ومعظمهم موصوفون بشكاسة الاخلاق والعنف في تصرفهم وبكاد السواد الاعظم منهم لا يحسنون الكتابة ولذلك اقتضت الحالة انشاء مدارس اكاديمية واستقدام رهبان من رهبنة اخوة المدارس المسيحية . وكانت حالة التعليم متهمجرة في الجزيرة فكانت الفوضى منتشرة في مدارس اجا كسيو وباستيا ولم يكن المعلمون يقبضون مرتباتهم في مواقيتها ولم تكن تلك المرتبات المدفوعة من مبادئ البلديات تصل الى اصحابها لان جباة الضرائب كانوا يسرقون الامه والحكومة معاً .

ولفتت الحالة الزراعية أنظاره فطلب من الحكومة أن تساعد على تعزيز زراعة البطاطس والكستناء والقوة وإنشاء المشاتل لشجر التوت ونههم الى المضار الناجمة عن إرسال المواشي في الحقول وتركها تعيث فيها فساداً وطلب إنشاء الاهراء لادخار الحنطة التي تزيد على حاجات القوم في سني الخصب واستغلال الاحراج وتحسين حالة الطرق ولكنه لم يكن متفقاً مع الميسودي فيو الحاكم العسكري فاضطر الى الاستقالة في سنة ١٨١٨ . فعادت الاحزاب الى التطاحن والتضامن وأصبحت أسرة بوتزو دي بورغو ذات كلمة مسموعة في البلاد إلا أن فتنة سنة ١٨٣٠ التي كانت مدرجة لتسود الحزب الحر جعلت أسرة سباستيا في تفوق على أسرة بوتزو دي بورغو وتصيب المقام الاول بين الكورسيكيين وقد تقلب الكونت هوراس دي سباستيا في عدة مناصب عالية فكان مرشالا فوزيراً فمسيراً فمميناً من الاعيان في فرنسا وجعل أخوه الفيكونت تيبوردس حاكماً عسكرياً لباريس وأصبحت كورسيكا بمثابة اقطاع لهم فكانوا يوزعون فيها الرتب والنياشين على من يشاؤون .

ونال الكورسيكيون من حكومة لويس فيليب ما لم تكن حكومة سلفيه تجرؤ على منحهم إياه فنظم القضاء في بلادهم على الطراز الحديث واهتم الملك بإنشاء الطرق الكثيرة عندهم وتكثير غلاقات الجزيرة بالقارة وقد وصلت أول باخرة الى اجا كسيو في ١٨ يونيو سنة ١٨٣٠ ووسع مرفأى اجا كسيو وباستيا

وبنى في اجا كسيو دار البلدية ودار المحافظة والمسرح ويمكن القول بالإنجاز انه عني بتحسين حالة الجزيرة من جميع الوجوه على ان كورسيكا - وكان الموظفون المرسلون اليها من القارة يعتبرون ان مقامهم فيها بمثابة التخرج في مدرسة المناصب أو بمثابة منى - لم تصل الى الغاية التي كان يجب أن تصل اليها . ونظم بلانكي تقريراً في سنة ١٨٤٠ وقدمه الى ندوة العلوم الادبية والسياسية واليك ملخص ذلك التقرير .

« ما هو السبب الذي من أجله لا تشبه كورسيكا البلدان المجاورة لها مع أنها جيدة الهواء خصيبة التربة غزيرة الماء وهي في وسط البحر الرومي على مسافات متقاربة من فرنسا وايطاليا واسبانيا . ولماذا لا يفتش السياح أوديتها البديعة المناظر ولا ترسو السفن في موانئها الجميلة . ولماذا يذهب البناؤون الى كندا وروسيا لجلب أخشاب البناء منها وفي كورسيكا كثير من شجر السنداد المختلف الانواع وشجر الصنوبر وغيره . ولماذا قل عدد سكان الجزيرة واصبح غير كاف لمعالجة تربتها وفي وسعها أن تأتي بغلال تكفي مليوناً من البشر . »

وقال وزير المالية الفرنسية في سنة ١٨٣٩ أن في كورسيكا مئة ألف هكتار من الاحراج إلا أن افتقار تلك البلاد الى الطرق ووسائل النقل حالاً دون ارتفاع الحكومة منها . وقال مالت برون في كتابه « الجغرافية العامة » : حينما ينال الحكومات الاوربية الثبرم من الاهتمام بشؤون طوارمها - وقد كان ماجنته من الخزايا فيها اكثر مما جنته منها من القوائد - تلقي فرنسا مورد غني لا ينضب في كورسيكا المشهورة بجودة هواها الملائم لاستغلال المحصولات المجوبة من الطواريء على شريطة أن تصرف عنايتها الى زراعة الاصناف المستقلة منها تلك المحصولات وتبليدها في الجزيرة .

وكتب الدكتور دوناي مقالة في جريدة الديبا في سنة ١٨٥٢ خصصها لمسقط رأسه وقال فيها ما يأتي : بتأثر وطنيتي حينما اري الجهل أو العادة يدفعان فرنسا على انتجاع غير كورسيكا لاصابة ما يجده فيها وارتياح البلدان الاجنبية في طلب اشياء تجد ما يماثلها أو ما يفضلها في اقاليمها . . . فأني بلاد تفضل كورسيكا في احوالها الجوية ولا سيما الاحوال الجوية في اجا كسيو .

وانتخب الامير لويس نابوليون رئيساً لنواب كورسيكا في الجمعية الدستورية

في سنة ١٨٤٨ واستطاع بدهائه أن يستعيد تاج فرنسا الى الاسرة البونابرتية ولكن هل استطاع أن يؤدي الى وطنه الاصلي ما كان يبتغي تأديته اليه من الخدم . وهل تسنى له أن يعنى بشؤون الجزيرة على ما كان يبتغي اجراءه . أجل أنهم جففوا مستنقعات كفي وسان فلوران وباستيا ووسموا مرفأى اجا كسيو وباستيا ولكن لم تكن تلك الاعمال كافية لزيادة موارد البلاد وإسعادها حينما كانت فرنسا تسير سيرا حثيثا في طريق الرقي والعمران ويزعمون أن تاريخ اهل الشؤون الادارية في كورسيكا يرتقي الى عهد الامبراطورية الثانية ولهذا الاهمال أسباب شتى روحية واجتماعية يعزي معظمها الى الاحوال الداخلية فقد كانت الاسر ذات الشأن في الجزيرة تتسابق على نيل الزلفى لدى الامبراطور وكان من وراء تلك المناظرات والانقياد الى المطامع واستفحال أمر الخصومات بين الاحزاب أن المصلحة الوطنية العامة كانت يضحى بها على مذبح الانانية والاغراض الشخصية .

وشخص نابوليون الثالث الى اجا كسيو في سنة ١٨٦٠ لفتح المعبد الذي بناه لدفن اعضاء أسرته وارسل اليها ابن عمه البرنس نابوليون جيروم في سنة ١٨٦٥ لازاحة الستار عن التماثيل المنصوبة في ساحة الالماس وزارت الامبراطورة وولي العهد الجزيرة في نوبتهما في سنة ١٨٦٩ وكان الكورسيكيون في المرات الثلاث ينمون على دخائل اخلاصهم وموالئهم للأسرة الامبراطورية وقد تجسم هذا الاخلاص في مدينة بوردو في الجمعية الوطنية التي عقدت في أول مارس سنة ١٨٧١ لاعلان سقوط نابوليون الثالث عن العرش فان نائبين رسيكيين وهما كونتي وغافيني تسما منبر الخطابة ودافعا بلهجة شديدة عن أسرة البونابرتية .

ولا يخفى أن اخلاص الكورسيكيين لفرنسا أمر مشهور فان ثلاثين ألفاً منهم خفوا الى الذود عن حياض فرنسا حينما كانت المتالف ادنى من قاب قوسين منها وانكر الكورسيكيون شكل الحكم الجمهوري في بدء الامر ولكنهم ما لبثوا ان ألقوه وامتثلوا لاوامره ونواهيته لان زعماء الاحزاب غرمتهم حكومة العاصمة بنعمها في مقابل أصواتهم واصوات الذين يلقون لفهم في الانتخابات فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت في الجزيرة اخلاق سياسية تحاكي الاخلاق

السياسية البالية وهذه حقوة ارتكبتها الحكومة الفرنسية فما عدا بوتزو دي بورغو الذي لم يدخر شيئاً لظهار ما يمكنه فؤاده من القلى للبونا برتين بتشيميده على ربوة فوق اجا كسيو قصر البونتا بمواد مجلوبة من انقاض قصر التويلري (وقد زرت ذلك القصر وهو الآن متحف معروضة فيه تحف فاخرة وجميع ماله علاقة بامرة بوتزو دي بورغو) هناك ممنوئيل آرين وقد جر على بلاده نكبات وويلات فادحة لان الكورسيكيين فقدوا في عهده غيرتهم على المصلحة الوطنية العامة .

وقبل أن نختم هذا الفصل بحسن بنا أن نذكر شيئاً عن عادات الكورسيكيين من جهة الضيافة فانه اذا دخل الليل وكان مسافر سائر في الطريق في مكان مجهل دخل أول بيت يصل اليه فيكرم صاحب البيت مثواه ويرحب به ويبالغ في الاحتفاء به واذا شاء المسافر ان يظل مكرماً عنده فليتنجب عرض المال عليه لئلا يسوق اليه الاهانة بذلك الامر وكل ما يمكنه ان يفعله لظهار عرفان الجميل هو أن يرسل هدية صغيرة تذكارا الى مضيفه من أقرب مدينة يصل اليها فتكون خير صلة تربطه بمضيفه الى ما شاء الله .

وعند الكورسيكيين عادة تشبه العادة المألوفة عند العرب في المناحات اي النذب على الميت فالنساء يحطن بالجثة وهن محمولات الشعور ويذرفن الدمع ويرتلن النذب بين الشهيقة والعويل على أن هذه العادة بطلت في أكبر انحاء الجزيرة وقد تكون متبيلة اليهم من العرب الذين احتلوا بعض الجهات فيها وخالطوا سكانها هذا ما رأيت أن اكتبه بالاختصار عن تلك الجزيرة الجميلة ولو شئت اشباع الكلام في كل موضوع من الموضوعات التي طرقتها لاقتضى ذلك مجلدات ضخمة ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله . والفت انظار ابناء وطني الكرام الى عادات الشعب الكورسيكي وأخلاقه السياسية والادبية واطلب منهم أن يقابلوها بعادات شعبنا اللبناني وأخلاقه فكأنما تحن وإياهم مقدودون من اديم واحد وهناك فضلا عن ذلك تشابه شديد في السحنة بينهم وبيننا وكثيرا ما كنت ابصر شخصا كورسيكيا اظنه شقيقا لشخص لبناني اعرفه .

وحيث أننا قضينا المدة التي قضيناها في جزيرة كورسيكا في مدينتي كورتني

واجاكسيو وقد خالطنا سكانهما وتعرفنا على كثيرين منهم فرأينا أن نفرّد لسكل منها فصلا خاصاً نذكر فيه أهم ما نعرفه عنهما فان ذلك لا يخلو من التفكّمة والفائدة

كورتي

ركبنا القطار من اجاكسيو الى كورتي في الساعة ٣٠ : ٦ من صباح السبت في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٠ وكان النهار جميلا والمسافة بين تينك المدينتين تقطع بسكة الحديد باربعة ساعات وتقع العين في اثناء الطريق على مناظر بديعة متنوعة . والطريق كثير التعاريج وفيه اكثر من اربعين نفقا بين كبير وصغير واكبرها نفق فنزافونا فان طوله يبلغ اربعة كيلومترات ويقطعه القطار بعشر دقائق . وتبعد فنزافونا ٥١ كيلو مترا عن اجاكسيو وترتفع عن سطح البحر ١١٦٢ مترا أما موقف سكة الحديد في فنزافونا فارتفاعه ٩٠٦ أمتار عن سطح البحر واتخذ المرسون في الجزيرة فنزافونا مصيفا لهم فهي كصوفر في لبنان وفيها فنادق كبيرة كثيرة ومحيط بها متنزهات جميلة .

ويأخذ الطريق في الانحدار من فنزافونا حتى ينتهي الى كورتي على علو ٤١٠ أمتار عن سطح البحر والى جانبي الطريق آجام وادغال يكثُر فيها شجر السكستناء وقلمها تقع العين على جبال جرداء كجبال لبنان وتبعد كورتي عن اجاكسيو اربعة وعشرين كيلو مترا .

وكورتي حاضرة الناحية ويبلغ عدد سكانها خمسة آلاف وخمس مئة وكانت في خالي الحين موقعا حصينا في وسط الجزيرة على التقريب بين اجاكسيو وباستيا وتقسّم مدينة كورتي الى قسمين ظاهرين للعيان : الاول كورتي القديمة وهي الى الجهة الغربية القبلية من المدينة والثاني كورتي الحديثة وهي الى الجهة الشرقية الشمالية منها وتمتد الى جهاتها الثلاث الشرقية والشمالية والجنوبية . وكورتي القديمة مبنية على هضبة وعرة المرتقى عند عدوة نهر تافينيانو اليسرى وفيها قلعة قديمة بناها فنشنتلو دستريا في سنة ١٤١٩ وحولها ثكنات اقامها لويس الخامس عشر ملك فرنسا بعد ضم الجزيرة الى مملكته وهي على الهندسة التي كانت معروفة في القرون المتوسطة .

وكانت كورتي في غابر الايام مهد الحركة الثورية في حروب الاستقلال وكانت

في القرن التاسع موقعا حصينا منيع الجانب وقد احتلها على التعاقب فنشنتلو
دستريا في سنة ١٤١٩ لجانوس كيبو فريغوزو في سنة ١٤٤٠ ففرسان القديس
جرجس في سنة ١٤٥٦ فالفرنسيون في سنة ١٥٥٣ فالوطنيون الكورسيكيون
من سنة ١٧٤٦ الى سنة ١٧٦٩

وعقدت مجالس ومؤتمرات خطيرة في كورتي في السنوات ١٧٣٥ و ١٧٤٦
و ١٧٥٣ و ١٧٦٢ وأخيرا في ٢٦ مايو سنة ١٧٩٣ لاعلان حرب الاستقلال
وكانت كورتي حاصنة جزيرة كورسيكا في أيام الجنرال بسكال باولي
(١٧٥٥ — ١٧٦٩) فأنشأ فيها مدرسة جامعة ومطبعة وطنية في سنة ١٧٦٤
ولانزال المدرسة والمطبعة باقيتين الى يومنا هذا .

ونصب تمثال الجنرال بسكال باولي في ميدان باولي في أول الشارع المسمى
باسمه وقد صنعه المثال فيكتور هوغنان من النحاس وهو مركز على قاعدة من
رخام أسود يخالطه شيء من البياض وثمة صحيفة كتب عليها ما يأتي :
« الى الجنرال بسكال باولي من كورسيكا المعترفة بالجليل في سنة ١٨٤٤ . »
وفي ميدان اريغي عند الطرف الآخر من شارع باولي تمثال للجنرال اريغي
دي كازانوفا دوق بادو (١٧٧٨ — ١٨٥٣) صنعه المثال برتولدي من البرنز .
وفي ميدان الكنيسة الكاتدرائية تمثال للجنرال غافوري صنعه المثال الديبير
من البرنز ونصب في سنة ١٩٠١ وغافوري هذا يعد من أشهر الرجال الذين
ظهروا في كورسيكا فبعد انطلاق تيودور دي نوهوف ملك كورسيكا وعدم
رجوعه اليها تبرم الناس من الحروب الداخلية المشتعلة نازها في الجزيرة فسموا
غافوري محامي الوطن وأشركوا معه في الزعامة الاب فنتوريني واليوس ماترا
واستولى على قلعة كورتي في ٧ يونيو سنة ١٧٤٦ بعد ما حاصرها عدة أيام
وتعطل بيت غافوري بقنابل الجنوبيين المطلقة من القلعة ولا تزال آثار التعطيل
بادية الى اليوم على ذلك البيت التاريخي المبني على مقربة من تمثال غافوري
ووضع الحاكم الجنوبي ابناً لغافوري في أثناء الحصار في الموضع المصوبة اليه
نيران الحاصرين وكان معتقلا عنده رهينة ولما سقطت القلعة كان الغلام باقياً
حيًا برزق .

وبعد استيلاء غافوري على قلعة كورتي عقد مجلسا عاما أعلن فيه استقلال

كورسيكا فاستنجد الجنوبيون بملك فرنسا فارسل اليهم ١٩٠٠ رجل بقيادة الجنرال دي كورساي فاحتل الجزيرة من سنة ١٧٤٨ الى سنة ١٧٥٣ : ومن ذلك الحين ادخل ذلك الزعيم الذعر على افئدة الجنوبيين فكان روح سامبيارو تقمصت فيه فأخذ كورتي واضطر الجنوبيين الى التقهقر الى السواحل وجعل الجنوبيون يدبرون الدسائس لاغتيال غافوري فنسجت المسكيدة في بيت روماي وقتل غافوري في كمين نصبوه له في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٥٥ وكان بين القتلة انطون فرنسيس شقيق غافوري وقد القي القبض عليه بعد أيام ومثل به تمثيلاً أما أسرة روماي فتمكنت من الفرار والنجاة ولكن بسكال باولي هدم بيتهن الى اساساته ونصب عموداً في المكان الذي كان قائماً عليه وحفر عليه كتابة محقرة تدل على ما كان من خيانة اصحابه . ولما جاؤوا بحجة غافوري الى زوجته فوستينا قبضت بيدها على ذراع ابنها ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره وادنته من قيص والده المملوخ بالدم ولقنته القسم الآتي : « احلف على رأس والذي القتل وحزن والدتي الايم بالأأصفح ابداً عن القاتلين . » وما يذكر عن هذه المرأة الموصوفة بالشجاعة والجرأة انها كانت محصورة في بيتها في سنة ١٨٥٠ وكان زوجها غائباً وكان الحاضرون من الجنود الجنوبيين فشعرت بان بعض رجالها سئمت نفوسهم من تلك الحال وانهم ينوون الاستسلام فوقفت الى جانب برميل البارود وبيدها ذبالة موقدة وهددتهم بان تنسف البيت ان هم اظهروا ضعفاً وميلاً الى التسليم فلم ير اولئك الرجال بداً من الاستمرار على القتال وكانت تلك الحركة من فوستينا غافوري سبباً لنجاتهم لانها فسحت للجنرال غافوري في الاجل بحيث تمكن من الوصول في الحين الملائم لانقاذ ذويه .

وسكن شارل بونابرت ولائسيا رامولينو بيت غافوري من سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٦٩ حينما كان والد نابوليون وزيرا لباولي وولد يوسف بونابرت في هذا البيت في ٧ يناير سنة ١٧٦٨ وفيه ايضا حبل بنا بوليون .

وقد رأينا أن نذكر شيئاً من العادات المستحسنة والعادات المستهجنة في المدينة فمن محاسن عاداتهم السكينة السائدة بين ظهري القوم فلا تتمزق آذان الناس بالضجة والضوضاء على ما هي عليه الحال في البلاد الشرقية ولا تنتج هذه السكينة عن عدم ضجيج الناس فقط بل يساعدها على ذلك عدم قرعة المركبات

والسيارات وغير ذلك من وسائل النقل وذلك لقلة وجودها في تلك المدينة .
وقضينا في كورتي ثلاثة وستين يوما لم نشاهد خصاما بين أهلها في اثناء تلك
المدة ولكنهم يكتفون بالخصومات الحزبية السلبية أي أنهم يقضون معظم وقتهم
في الاشتغال بالسياسة ولا سيما السياسة المحلية الحزبية وحينما وقفنا على تلك
الحالة وعلمنا أن القوم في تلك المدينة منقسمون الى حزبين ولا هم لهم الا التما كس
والتشا كس ناجينا النفس فائلين : ما اغرب الصدف التي قدفت بنا الى هذه البلدة
فان سكانها منصرفون كل الانصراف الى الاشتغال بالسياسة والتحزب على مثل
ما نحن عليه في ديارنا اللبنانية على أن تلك التحزبات تخرج ضررا كبيرا على المدينة
من حيث تفرق الكلمة وافتقارهم الى الاتفاق على القيام بما فيه المصلحة العامة
كتنظيف المدينة لان الاقدار تظل متراكمة متكلسة في الطرق والشوارع
والمنعطفات وعرضات البيوت ولو لم تكن تلك البلدة جيدة الهواء لوقعها في
الجبال لما كانت الامراض الوبائية تفارقها يوما واحدا ولكن لها من جودة
هوائها وعذوبة مائها ما يدفع عنها غوائل الامراض القتالة والابوثة الويلة فالهواء
فيها نقي والمياه صافية عذبة وهي مجرورة من ينابيع في الجبل المبنية هي عند
سفحه ومحفوظة من كل ما يكدرها على مسافة كيلو مترين وقد جررها اليها
البريطانيون في أواخر القرن الثامن عشر لما احتلوا بالاتفاق مع بسكال باولي
على مامر بنا بمانه واقاموا فيها نحو اربع سنوات . وقد سألت احد شيوخ
المدينة وعقلاها عن أسباب الاهمال الداعية الى تدهورها فأجابني هي التحزبات
التي تقضي على الملبان بالخراب ، فسألته أما عندكم مجلس بلدي ، فأجابني بلى
ولكنه موجود بالاسم فقط وغير موجود في الحقيقة لان اعضاءه لا يعملون
عملا وهم يغمضون عيونهم عن رؤية الاشياء التي يقضي عليهم موقعهم بان
يروها وما ذلك الا لتخوفهم . اسخط بطرس وإغصاب بولس .

ولا هم للرجال في كورتي الا الاشتغال بالسياسة العقيمة اما الاعمال التجارية
والاشغال البيئية والزراعية فقضاؤها من اختصاص النساء وهؤلاء شديدا
المنكب صبورات على التعب لا يضيعن دقيقة ما من الوقت وكثيرات منهن
يحملن احمالا ثقيلة جدا على رؤوسهن وقد سمعت أن منهن من تحمل نحو مئة
كيلو على رأسها اي ما يعادل تسعة وثلاثين رطلا من اوزان بلادنا (لبنان)

اما اسباب المعيشة المهمة في كورتي فهي التجارة وفي تلك المدينة مخازن كبيرة كثيرة فيها جميع أصناف السلم والبضاعة على اختلاف انواعها ولو كانت تلك الاصناف تباع لاهل كورتي وحدهم لكان مافيهما - لما رأيناها - يكفيهم اكثر من عشر سنوات ولكن كورتي معدودة حاضرة لتلك الناحية يؤمها الناس من جميع القرى المجاورة ومن القرى التي في وسط الجزيرة

وحول كورتي اراض واسعة مزروعة بيد انها مهمة لنقص اليد العاملة فيها وافتقار القوم الى مثل النشاط اللبناني الذي يعز وجود نظيره في جميع انحاء المعمورة فلو كانت تلك الاراضي في حيازة اللبنانيين لصيروها ندر لبناً وعسلاً ولاستخرجوا من تربها تبرا ولاصبحوا بالتالي من ارباب اليسار والثروة . وجميع الوسائل الزراعية ميسورة لهم ولا سيما الماء الغزير فهم لا ينتفعون به انتفاعا يذكروا ويحيط بكورتي جبال جرداء تشبه جبال لبنان والسبب في ذلك هو أنها كانت قبلا مغروسة كستناء فاصيبت تلك الاشجار بضربة أودت بها فباتت الارض جرداء ولم يعودوا الى غرسها لقلّة اليد العاملة عندهم .

وعندهم الكرم ولكنهم لا ينتفعون بها الا باستقطار الحور وهم مع وفرة العنب عندهم يجلبون الزبيب من الخارج وصناعة الدبس غير معروفة عندهم وهي حان قطاف الكرم وذلك في النصف الاول من شهر اكتوبر يذهبون زرافات زرافات الى الكروم ويقىمون فيها المراقص والافراح ويتغنون بالاناشيد المطربة ويأخذ فريق منهم في القطاف والفريق الآخر في نقل العناقيد بسلال الى آخر الكرم فيعصرونها بالآلات على شكل اسطوانة تدار باليد فوق العنب فتعصره وينزل العصير الى أوعية موضوعة تحتها ثم ينقلون العصير بضروف وقرب الى المدينة ويضعونه في الاقبية ليختمر.

وعندهم كثير من شجر السكباد والاجاص (الكثيري) والتفاح ولا تنمو هذه الاشجار في كورتي وحدها بل هي مغروسة في اكثر انحاء الجزيرة فيصدرون الى القارة مقادير كبيرة من ثمارها باثمان غالية وهم يقطفونها في اواخر فصل الصيف ويحفظونها عندهم بطرق معروفة ويخرجونها من مخابئها في فصل

الشتاء ويشحنونها . وكنا نجد كثيرا من التفاح الفاخر الكبير الحجم اللذيذ الطعم الذكي الرائحة في اجا كسيو في شهر مايو
وعندهم ايضا كثير من شجر الزيتون يستخرجون الزيت من ثمره ومنه جانب كبير يشبه ثمره ثمر الزيتون في بلادنا بكبره وجودة نوعه اما الجانب الآخر فثمره صغير كثمر الزيتون البري عندنا
ويزرعون في كورتي بقولا كالبقول التي نزرعها في بلادنا وعلى الطريقة نفسها التي نسير عايتها في زراعتها في بلادنا ومنها الطماطم والخيار واللوبيا والباذنجان وهم يعنون بأمر انتخاب البذار من أجود الاجناس
وعادات سكان تلك البلاد مخالفة لعاداتنا من جهة الضيافة واستقبال الضيوف ولا ترى في جميع المنازل ردهات لاستقبال الزائرين فالقهوات والشوارع هي الاماكن التي يجتمع فيها الاصدقاء واصحاب الاعمال للمفاوضة في شؤونهم الخاصة والعامة . ويخرج السكوريون في مساء كل يوم للتنزه في الشارع الكبير الوحيد في تلك المدينة وهو شارع باولي ويشقها من أولها الى آخرها يأخذون رجالا ونساء يسرون فيه ذهابا وإيابا نحو ساعتين ولا يحول إلا المطر دون تنزههم فيه ويستطيع الانسان أن يتعرف بجميع أهل كورتي في ذلك الشارع لانه يندر أن يبقى احد في بيته في مثل ذلك الوقت . ومما يزيد الازدحام هو خروج العائلات من المخازن في ذلك الحين لتروج النفس قبل دخول مساكنهم وفي الاعياد الوطنية الكبيرة وأيام المرافع يقضون هزيعا من الليل في الشارع ويلبس بعضهم كمامات ويترشقون بورق صغير الحجم مستديره يقال له « كنفتي » والسيدة التي ترشقها به لاتستاء منك بل بمكس ذلك، تلتفت اليك وتشكر لك ذلك اللطف الذي خصصتها به .

وعلى مقربة من كورتي مقالع تقطع منها حجارة الرخام وهي كثيرة في تلك الناحية فالشوارع وارصفتها مرصوفة بها وهم يصدرون مقادير كبيرة منها الى الخارج وفي ظاهر كورتي جبانة كبيرة طامة ولسكن كيفما التفت الانسان الى الحقل المحيطة بالمدينة ابصر فيها رموسا محكمة البناء بالرخام الناصع البياض وقد غرس حولها شجر السرو فسكانها عادة جارية عند الاسرالموسرة وهي أن تبني الاسرة ضربها في الارض التي تخصها . وينجم عن ذلك أمران يأنف منهما الانسان الاول

تقويه مناظر الحقول بتلك الرموس التي تجعل صدر الناظر اليها ينتقبض والثاني ابتذال كرامة الاموات بدفنهم في غير المسكان المخصص لمواراتهم في النرى .
وعندهم عادة مستهجنة في الجلوس في السكناس فانهم يدخلون المعبد ويجلس الواحد منهم على كرسي ثم يضع الرجل الواحدة فوق الاخرى كأنه جالس في ملعب أو في ملهى وهذه العادة جارية عند كلا الجنسين وليست من قبيل عدم الاحترام بل هي عادة القوها من دون أن يروا فيها شيئا يستوجب الانتقاد وهذا الامر لا ينفرد به أهل كورتي بل هو جار في اجا كسيو وغيرها وفي باريس وجميع البلدان الاوربية وقد امتدت هذه العادة المستهجنة الى بلاد الشرق مع الاوربيين واقتدى بهم الشرقيون فيها لانهم سريعو الاقتباس لعادات غيرهم .

ويحرصون على المحافظة على العرض في كورتي فهم على مثال البدو من هذا القبيل ولما تحدث فيها ريبة علنية واذا حدث فيها شيء من ذلك فلا يلبث ان ينتشر بين الجميع في وقت قصير فهم من هذه الجهة يشبهون سكان الجبال البعيدة عن المدن الكبيرة في بلادنا ويمكن القول بالاجمال ان المحافظة على العرض أمر عام في الجزيرة وهو أمر محمود ومن أم أسباب « الغندتا » أي أخذ الثأر والانتقام المشهورة عندهم .

والمدينة منارة بالكهرباء المتولدة في نهر تافينيانو وهناك أيضا مصنع للجليد الصناعي . وفي المدينة دار سينما واحدة وليس فيها ملعب لتمثيل الروايات وليس في منازلها القديمة مستراحات فهي من هذا القبيل ماثلة لجميع مدن الجزيرة وقراها وعندهم عادة مستهجنة شاهدها أيضا في اجا كسيو وباريس نفسها وهي أنهم ينفضون الطنافس وغيرها من أثاث البيت من النوافذ والشرفات فيسقط الغبار والاقذار من الاعلى على الأدنى ومن كليهما على الشوارع والطرق على أن هنالك قانونا يمنعهم من نقض تلك الحوائج بمد ساعة معينة من النهار ولكنهم قلما يتقيدون بمنطوق ذلك القانون .

وبعد وصولنا الى كورتي بثلاثة أيام أي في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٠ استقال المسيو بول دشانل رئيس الجمهورية الفرنسية من منصبه لاسباب صحية فانتخب المسيو الكسندر ميلران خلفا له في ٢٣ منه

واحتفل في يوم الخميس في ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٠ احتفالاً باهراً لانقضاء خمسين سنة على تأليف الجمهورية الفرنسية الثالثة فأقيم مهرجان كبير اشترك فيه جميع سكان المدينة واستمروا الى ساعة متأخرة من الليل يتزدهون في شارع باولي وبتراشقون بالسككفتي وقد جعل ايضا اليوم الحادي عشر من نوفمبر عيداً للهدنة أي تذكاراً لاختتام الحرب العالمية (١٩١٤ - ١٩١٨) واصبح ذلك اليوم عيداً رسمياً يحتفلون به في جميع بلدان الحلفاء

ولما اشتد البرد في كورتي اشتداداً يحاكي البرد الذي يشعر به سكان قرى الصرود في لبنان غادرنا كورتي في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونحن حاملون ذكراً حسناً لتلك المدينة التي توفرت لنا فيها أسباب الراحة والسكينة واللطيف من جانب سكانها . فركبنا القطار في يوم اشتد زمهريره وغشي الجمد وجه الارض ، وكانت اشجار الكستناء التي شاهدناها مرتدية حلة من السندس الاخضر وقت ما توجهنا الى كورتي في شهر سبتمبر قد خلعت تلك المطارف وباتت عارية من كل زينة .

ووصلنا الى اجاكسيو عند الظهيرة فوجدنا فرقا ظاهرا بين درجة الحرارة فيها ودرجة الحرارة في كورتي وكانت الشمس ترمس اشعتها المنعشة على تلك الارحاء .

والآن نذكر لمحة تاريخية عما تم معرفته عن أحوال مدينة اجاكسيو وعن حالتها الاقتصادية بوجه عام :



اجاكسيو

اجاكسيو حاضرة مقاطعة كورسيكا وفيها من السكان نحو ٢٣ الف نفس وموقعها على شاطئ البحر الرومي في أقصى الخليج المسمى باسمها وهي ممتدة عند سفح آكام تغطيها الاشجار من جهتها الشمالية وتفصل تلك الآكام بسلسلة جبال تعمم الثلوج قممها . وعلى تلك الجبال جبل اورو البالغ ارتفاعه ٢٣٩١ مترا والنظر الى المدينة من البحر يراها على شكل نعل الفرس المزدوج يلتقي طرفاه الداخلان عند القلعة ويمتد طرفاه الخارجيان بانفراج بحيث أن أحدهما يسير الى ناحية الغرب والآخر الى جهة الشمال فالطرف الغربي يشتمل على شارع لتتقي وشارع غرانفال وتتخللها جادة الاجانب وفيها ابنية نخمة ورياض غناء لا تنقطع منها الازهار على مدار السنة . والطرف الشمالي تمتد فيه جادة الملك جيروم على شاطئ البحر وهذه الجادة واسعة وقد غرست اشجار الدلب على جانبيها كما غرست ايضا على جانبي شارع غرانفال . ووراء هذه الجادة شارع فح وهو يمتد محاذيا لها وهو قديم طويل ضيق قذر كثير التعاريج وفوقه الى الجهة الغربية جادة نابوليون وهي اجمل جادة في المدينة .

وفي وسط اجاكسيو وحول قلعتها المدينة القديمة فيبوتها واطية وشوارعها قصيرة وضيقة ولا تسكن فيها الحركة وازدحام الاقدام وفيها البيوتات القديمة كمنزل بونزو دي بورغو ودار الاسقفية وبيت بونابرت والكاتدرائية وأوي اليها جمهور غفير من العمال والبحارة . أما المدينة الحديثة المحيطة بالمدينة القديمة فتختلف عنها اختلافا ظاهرا في الهندسة والترتيب ولا يخفى أن زرقة ماء البحر وتنوع اشكال الاراضي المحدقة بالمدينة وصفاء جوها ورياض حدران المنازل المرسله عليها اشعة الشمس الساطعة تؤلف صورة فتانة تجلب فؤاد السائح عند اطلاعه على تلك المدينة . أجل ان في العالم مدناً كثيرة تفضل اجاكسيو في سعة مساحتها ووفرة غناها وكثرة سكانها وتعدد معاهدها ومتاحفها وغير ذلك من الاشياء التي تدل على العظمة والفخامة ولكن قلما ترى مدينة تفوقها في الجمال والسكينة والراحة .

ولم يكن خارج اسوار المدينة القديمة في القرن الثامن عشر الا بعض الكواخ

للصيادين في المكان المبني فيه الآن شارع فش . وكانت بوابة المدينة في اسفل برج ضخم يدعى برج الساعة عند مدخل شارع نابوليون ونصب تمثال سيدة الرحمة شفيعة اجا كسيو فوق تلك البوابة في سنة ١٧٦٤ ولكن ذلك التمثال نقل في سنة ١٨٠٣ الى طاقة بصدد بيت كانانيو القديم وهو اليوم في رقم ٧ من ميدان النخل وباشروا في سنة ١٨٠٢ هدم اسوار اجا كسيو بأمر التمنصل الاول ولم ينتهوا من هدم الجانب المشرف على ميدان الالماس الا في سنة ١٨٢٦

وبزعم جوفاني دلا غروسا المؤرخ الكورسيكي في القرن الرابع عشر ان مدينة اجا كسيو بناها اجا كس او اياس عند رجوعه من حرب طروادة الا ان هذا الزعم ليس له نصيب من الصحة لانه لم يغش الجزيرة واحد من الاجاكسين المشهورين . ويروي المؤرخ بياترو سيرنيو الحريص على اكتشاف اصل الكورسيكيين ان منفياء رومانيا يقال له كورسوس اطلق اسمه على الجزيرة وبني اجا كسيو وسماها ادجاسيو ومعناها اسريح . ويؤخذ من كلام جوفاني دلا غروسا الآنف الذكر ان المدينة كانت قائمة في المكان المدعو كاستل فكيو أي القصر القديم وقد نكبت مرات كثيرة من جراء الحروب المتوالية التي اضرمت كورسيكا ناراها في سبيل الدود عن استقلالها . ودكها المسلمون المغاربة دكا في القرن العاشر ولكن الجنويين رموها فيما بعد على اكمة مار يوحنا في الجهة الشمالية من المدينة الحالية وانتقلت بعد ذلك من الجنويين الى امراء تشيناركا ثم الى اسرة ليكا . واحرقها الاشراف المجاورون في القرن الخامس عشر فهجروا الجنويون ورممت جمهورية جنوى الجانب الذي كان قائما في مكان المدينة القديمة حوالي سنة ١٤٩٥ واحاطته بالحصون المنيعة . وانتزع سامبيارو كورسو مدينة اجا كسيو من الجنويين في سنة ١٥٥٣ ودفعها الى الفرنسيين وكان المرشال دي ترم يتولى قيادتهم فبنى ذلك المرشال القلعة الباقية الى يومنا هذا وتركت اجا كسيو لجمهورية جنوى في ١٥ يناير سنة ١٥٧٥ لداءة هوائها والحروب الدموية التي اغتالت سكانها .

ويعود الفضل في معرفة الناس لتاريخ انشاء مدينة اجا كسيو الحديثة الى البحائة الجنرال اوغو اسيريتو فقال ان فرسان القديس جرجس بعد ما ناهضوا التشينارشرين مناهضة شديدة وبعد ما دكوا قصري جوفان باولويكا ورينوتشيو

دلا روكا الحصينين وضعوا اساسات اجا كسيو الحديثة على بعد ميل عن المدينة القديمة من جهتها الجنوبية على رأس يسمى كابودي بولو وشيدوا حصناً منيعاً عند طرفه وبنوا حولها من جهة البر سوراً شيدوا فوقه أبراجاً .

ووصل دومنيكو نيجروفي الشريف الى اجا كسيو في ١٤ ابريل سنة ١٤٩٢ ومعه الشريف غريغوريو دي غريمالدي ودميانو لوكاردو وفوضت اليهم مهمة الشروع في اعمال البناء واختيار المكان الملائم فاختاروا في ١٦ ابريل مكاناً لتشييد قلعة يبعد عن انقاض المدينة القديمة لاعتقادهم أن الموضع الذي كانت تلك المدينة مبنية فيه وفيء الهواء يصعب الدفاع عنه ونظم صك بواقع الحال على متن السفينة التي قدموا فيها ووضع أول حجر لبناء اجا كسيو في حفلة كبيرة في يوم الاثنين الاول بعد عيد الفصح في ٣٠ ابريل سنة ١٤٩٢ في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة العشرين بعد ما استنخار المنجمون الوقت الملائم لذلك المشروع ونظم كرسستوفارو دي غاندينو المهندس الميلافي رسم مدينة اجا كسيو وكان قد وصل مع البعثة في ١٤ ابريل سنة ١٤٩٢ وأقام هناك الى اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر من تلك السنة وخلفه المعلم بياترو دي نوفاريو مهندس البناء وبنوا كنيسة جديدة في المدينة على اسم الصليب المقدس ويزعمون أن مواد البناء جلبت من انقاض المدينة القديمة . ولم يبق من آثارها في أواخر القرن الثاني عشر إلا سبيل الماء المسمى سبيل ماريوحنا وانقاض مبصرة من كاتدرائية ماريوحنا ودهاليز فيها قبور .

وكان بعض الملاك في اجا كسيو - وفي جملتهم المسيو نويل بوايازي - في أوائل القرن التاسع عشر يحفرون خنادق في وادي ماريوحنا فعثروا على نقود رومانية ومدافن قديمة واقبية معقودة بالآجر ونحتها آنية من الفخار ذات لون أحمر قان فيها هياكل عظام للاولاد . ووقت ما كانوا يشغلون في ذلك المكان بتوسيع الطريق العام اكتشفوا انواطاً رومانية وعظاماً بشرية . واكتشف جوسان الصيدلي وهو من أعضاء بعثة مايلبوي في سنة ١٧٩٣ قبور ملوك المغاربة في كروم ماريوحنا القديمة وكانت معقودة وقائمة على اعمدة من الحجر ولكن ذلك الأمر مفتقر الى الاثبات .

ولما انشئت مدينة اجا كسيو الحديثة استقدم فرسان القديس جرجس مئة

أسرة إليها من لنجيانا لاستعمارها ولم يكن عدد سكانها في ذلك العهد يزيد على سبع مئة نفس .

وكانت مدينة اجا كسيو الحديثة مقر المندوب الجنوبي واستولى عليها سمبيدرو في سنة ١٥٥٣ باسم هنري الثاني ملك فرنسا بعد انشائها بستين سنة قبلها انجزت وسائل الدفاع عنها فاحتلها جنود الملك من سنة ١٥٥٣ الى سنة ١٥٥٩ ومن ذلك الحين أخذ كورسيكيو والداخلية يغشونها وكانت قبلا معدودة طارئة جنوبية . وكانت اجا كسيو عاصمة الجزيرة في اثناء الاحتلال الفرنسي وجعل فيها اقامته جوردان دزورسان نائب الملك هنري الثاني وحاكم الجزيرة العام . ووجد الجنرال دي ترم قائد البعثة الفرنسية القلعة التي شيدها الجنوبيون غير كافية لحماية المدينة فبنى في سنة ١٥٥٤ القلعة التي لا تزال باقية فيها على التقريب على مثل ما كانت عليه في ذلك العهد . واضطر الفرنسيون بعد عقد وثيقة كاتوكبريزيس الى ترك كورسيكا لجنوى فاخلاوا اجا كسيو في ٩ سبتمبر سنة ١٥٥٩ على ان جوردان دزورسان وان يكن قد فقد زوجته دونا اميليا سلازي في اجا كسيو في سنة ١٥٥٨ لم يترك تلك المدينة غير مأسوف عليها فما كان يجعله ميالا الى البقاء فيها اعتدال هوائها وجمال مناظر الاراضي المحيطة بها وشوارعها المستقيمة والواسعة وخصب تربتها وحدثاتها الفناء .

وبعد انطلاق الفرنسيين من اجا كسيو ارسلت جنوى إليها في سنة ١٥٦٢ المهندس جا كوبو فراتينو فاضاف الى القلعة برجاً الى جهة البحر وحفر حولها الخندق الكبير الذي يفصلها عن المدينة . وانجز الفرنسيون بناء تلك القلعة في سنة ١٧٧٥ بتشديد برج من الحجارة المنحوتة لجهة المرفأ واكتشفوا في سنة ١٧٧٧ صفيحة في مسكن السيدات بليني كتب عليها مايلي :

« هنري الثاني ملك فرنسا وسيد جزيرة كورسيكا سنة ١٥٥٤ »

ووضعت تلك الصفيحة في سنة ١٧٧٨ على الجانب الغربي من برج سانت بارب في القلعة ولا تزال في مكانها الى يومنا هذا .
وحيث إن مدينة اجا كسيو كانت خاضعة لحكومة جنوى فكان يتولى إدارة الشؤون فيها مجلس مؤلف من ٢٧ عضواً وفي مجلتهم مجلس شيوخ يتألف من ستة أعضاء يعنون بأمر النظر في شؤون المدينة .

وكان القراصان المغاربة بوالون غزواتهم لخليج اجا كسيو في خلال القرن السادس عشر والى ذلك العهد يعزى تشييد الابراج على الشواطىء فبرج السنغينار بني في سنة ١٥٥٠ و برج كايتلو في سنة ١٥٥٣ و برج كاسمتانيا في سنة ١٥٨٠ و برج كابودي مورو في سنة ١٥٨٤ و برج لاباراتا في سنة ١٦٠٨ وكانوا عند ظهور أولئك القراصان يوقدون النار على تلك الابراج تحذيراً لسكان السواحل من شر الغزاة ولا يزال بعض تلك الابراج في حالة حسنة الى هذا اليوم وكان عددها يبلغ ٨٥ برجاً على شواطىء البحر في جميع أنحاء الجزيرة وكانت جميعها على التقريب مستديرة الشكل ويتفاوت ارتفاعها بين ١٢ متراً و ١٧ متراً وقطر البرج عشرة أمتار عند قاعدته وسبعة أمتار عند سطحه ويتألف من طبقتين معقودتين وكانوا يصعدون بهلم نقالة الى الباب المفتوح من جهة البر وكانت في البرج نافذة من جهة البحر . وأخذت اجا كسيو توسع الخطى في جادة الرقي من أواخر القرن السادس عشر ويرتقي معظم المعاهد الدينية والمدارس والملاجىء الخيرية الى ذلك العصر .

وظهر الطاعون في اقليم ليفوريا من أعمال ايطاليا في سنة ١٦٥٦ فدخل الخوف على الاجا كسين من ذلك الوباء الجارف والتأم المجلس في المدينة في ١٦ نوفمبر سنة ١٦٥٦ وأصدر قراراً رسمياً بحضور كاتب العدل بإخاذ سيدة الرحمة محامية المدينة وجدد مجلس الشيوخ ذلك القرار في ١٨ مارس سنة ١٦٦٠ في الكاتدرائية أمام السيد اردينزوي مطران اجا كسيو . وصاروا من ذلك الحين يقيمون في اجا كسيو حفلة عامة في ١٨ مارس في كل سنة لوقوع عيد سيدة الرحمة في مثل ذلك اليوم . وشهدنا تلك الحفلة في ١٨ مارس سنة ١٩٢١ وكان ذلك اليوم عيداً عاماً عند جميع الاجا كسين فاجتمع جمهور غفير منهم في المساء في ميدان النخل أمام تمثال السيدة العذراء المنصوب في صدد بيت كانايو الانف الذكر . وتسمت كورسيكا في ٣ دسمبر سنة ١٧١٥ الى حكومتين بمقتضى قرار أصدره مجلس شيوخ جنوى وعينت اجا كسيو مقراً لحاكم الانحاء التي ما وراء الجبال وخولت السلطة نفسها التي خولتها باستيا وامتدت ولايتها الى اقليم اجا كسيو وفيكو وسارتين .

واحتل الفرنسيون اجا كسيو في سنة ١٧٣٩ مع البعثة التي تولى قيادتها الجرال

دي مايلبوى ومع بعثة دي كورساي في سنة ١٧٤٨ وبعثات كستري وشوفلان (١٧٥٦ — ١٧٥٩) وماربوف في سنة ١٧٦٤ وحاول المحامي ماسيريا ونجمله الاستيلاء على قلعة اجا كسيو في شهر نوفمبر ١٧٦٣ في عهد حكومة باولي ولكنهما لقيتا هاهما أمام تلك القلعة .

ودعخت كورسيكا بالدولة الفرنسية بعد اندحار الكورسيكيين امام الفرنسيين في باتينوفو في ٨ مايو سنة ١٧٦٩ وكان مقر الكونت دي ماربوف القائد العام في باستيا ومقر اركان حرب الجنرال الكونت دي ناربون القائد الثاني في الجزيرة في اجا كسيو .

وقسمت حكومة الديركتوار جزيرة كورسيكا الى مقاطعتين في ١١ اغسطس سنة ١٧٩٧ وجعلت اجا كسيو حاضرة لياموفي احدى تينك المقاطعتين ولكن ضمت تانك المقاطعتان وجعلتا مقاطعة واحدة في ١٩ ابريل سنة ١٨١١ وعينت اجا كسيو حاضرة لها .

وهواء اجا كسيو في غاية الاعتدال فهو مماثل لهواء الاقاليم الجنوبية في فرنسا والبلدان المشرقية معا فقد كان متوسط الحرارة فيها في الشتاء من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٦ ثلاث عشرة درجة سنتغراد وكان في نيس في المدة نفسها ٨ درجات ونصف درجة وفي هيار منتون ٩ درجات وفي بوليو ١١ درجة ولا تحدث فيها تغيرات فجائية شديدة في الطقس ويكون جوها صافيا في غالب الاحيان .

ويحيط بالمدينة نطاق من التلال والجبال يقيها من نفحات الريح الشمالية والهواء في السواحل نقي منعش لا يخالطه الغبار لان تربة ارضها صوانية وهو جاف يلام جميع المصابين بالامراض البدنية والروحية في دور النقاهة وقال الدكتور دوناي مدير المجمع العلمي في منبلياي ان التنزه في اجا كسيو على شاطئ البحر واستنشاق الهواء والاستدفاء بالشمس نافع للرضى . ويصفون هواء اجا كسيو للمصابين بالتدردن الرئوي في جميع ادواره وانواعه وللذين يشكون من الرئمة المزمنة والامراض القلبية والبول السكري والضعف العصبي العام .

وتفضل مدينة اجا كسيو سواها لقضاء فصل الشتاء فيها فالبريطانيون

والنمسيون والروس والبلجيكيون والاسكندنيون يؤمنونها لانتشقة فيها
ويبتدىء فصل الشتاء فيها في شهر اكتوبر وينتهي في أواخر شهر مايو وهي
تلازم الذين ينشدون السكينة والراحة ويتعدون عن اسباب الملاهي والملاذ
التي تؤذيهم وهم يلقون في تلك المدينة جميع ما يحتاجون اليه من هذا القبيل

وحيث أن اكبر شهرة نالتها اجا كسيو تعزى الى كونها مسقط رأس نابوليون
الكبير فقد رأينا أن نذكر شيئاً عن حداثة نابوليون أيام كان فيها وعما كان
له من الاعمال فيها في أبان شببته وقد حفظت له مدينة اجا كسيو ذكراً مجيداً
في تاريخها فلا يكاد الانسان يخطو فيها خطوة واحدة من دون أن يثر على أثر
من آثاره يدل على ما كان عليه ذلك الرجل العظيم من الدهاء من حدائنه .
ويروى عنه أنه كان وهو ناعم الظفر يقضي معظم وقته في شوارع المدينة مع
لذاته وبعد ما اخذه والده الى باريس وعلمه على نفقة حكومة لويس السادس عشر
وادخله في بدء الامر مدرسة اوتان لاتقان اللغة الفرنسية ثم مدرسة بريان
والمدرسة الحربية في باريس على ما جاء في سيرة الكلام في تاريخ قدم نابوليون
امتحاناً عند خروجه من المدرسة الحربية في شهر اغسطس سنة ١٧٨٥ ونال
الرقم ٤٢ بين ٥٨ معين ، الا اننا في أول سبتمبر في فرقة المدفعيين في بلنسية
وشخص الى كورسيكا في شهر فبراير سنة ١٧٨٦ ثم عاد الى باريس وبعد ذلك
وافى فرقة في اوكون في اواخر شهر مايو سنة ١٧٨٨ وتوجه منها بالاجازة
الى كورسيكا في شهر سبتمبر سنة ١٧٨٩

وكان نابوليون الى ذلك العهد مكباً على الدراسة والتنقيب عن تاريخ كورسيكا
فلما وصل الى اجا كسيو وجد الافكار فيها تغلي غلياناً من تأثير الثورة
الفرنسية الكبرى وحينئذ أخذ ينم على ما يكره صدره من اسرار الدهاء والجرأة
فظم الحركات الثورية لمقاومة انصار طريقة الاحكام القديمة واذاع نشرة في
٢٣ فبراير سنة ١٧٩١ انتقد فيها انتقاداً مراراً ما تيو بوتافو كوالنائب الكورسيكي
في الجمعية الوطنية .

وبعد ما قضى اشهره في اوكون (من فبراير سنة ١٧٩١ الى سبتمبر من السنة
نفسها) ورفى الى درجة ملازم أول في فرقة المدفعية الرابعة بلنسية رجع الى
اجا كسيو فانتخب قائداً للحرس الوطني في كورسيكا واخبرني احد شيوخ مدينة

اجا كسيو ان ذلك الانتخاب تم بطريقة تدل على ما كان عليه ذلك الشاب الداهية من جرأة المقدم وتحرير الخبر ان وفداً من حزب البونابرتيين ذهب لمقابلة نابوليون واخبره بما كان متى بوتزو دي بورغو وجان بيرالدي يديرانه لاستمالة الناضحين اليهما . وعلم أن الاكثرية مائلة ولامرء اليهما اذا لم تقف في وجههما قوة تفسد عليهما تديرهما فدفعه دهاؤه في الحال الى ركوب مركب الجرأة والتهديد فتقلد سيفه وذهب في المساء الى منزل جان بيرالدي ولما اجتمع به قطب جبينه وقال له بلمجة جافية : انتهى الي انك تسعى لاستمالة الناضحين اليك فانا انذرك من الآن بانك اذا لم ترعو عن غيك وتتنحى عن الانتخاب تموت موتاً يحسد هذا السيف . قال هذا الكلام و اشار الى حسامه ثم انصرف من دون أن ينتظر ليرى ما يكون من جواب جان بيرالدي على انذاره له وكانت النتيجة أن جان بيرالدي وبوتزو دي بورغو عدلا عن الترشح للانتخاب فاتخبا الاهلون في اجا كسيو نابوليون بونابرت وكثرا بدلا منهما . ولا يخفى ان جان بيرالدي ومتى بوتزو دي بورغو كانا شقيقي ماريو بيرالدي وشارل بوتزو دي بورغو الدائنين عن كورسيكا في الجمعية الاشتراعية وكان بين اسرتيها واسرة بونابرت عداوة قديمة شديدة . وفعل بونابرت ذلك الفعل الدال على الجرأة والشجاعة وهو في الثالثة والعشرين من عمره .

وروى لي ذلك الشيخ حادثة اخرى تالقها من ابيه وهذا تلقاها من جده عن نابوليون فان نابوليون لما كان غلاماً كان جميع أترابه يخافون منه ويحاذرون شره وكان يقضي معظم وقته في التجويل في شوارع اجا كسيو فحدث ذات يوم أن احد رفاقه من الغلمان وهو جد الذي روي لي ذلك الخبر - وكان اكبر من نابوليون في السن - كان يلبس ثوباً جديداً نظيفاً في يوم عيد الفصح فتشاجر هو ونابوليون فصرعه نابوليون على الارض واوسعه لكما وضرباً وتلوث ثيابه بالوحل فاسرع الغلام الى والدته نابوليون ليخبرها عما فعله ابنها به وكان نابوليون يخاف من والدته كثيراً فلم يجرؤ على الاتحاق به الى البيت بل اختبأ وراء جدار يبصر منه الناس ولا يبصرونه وانتظر نتيجة شكوى الغلام . فلما رأت والدته نابوليون ما فعله ابنها بذلك الغلام رقت لحاله وطبعت خاطره وقالت له : ابني نابوليون مجنون فلا تعتب عليه . وبعد ما نظفت ثوبه من الوحل ملأت

جيبه لوزاً وقالت له إياك أن تدع نابوليون ببصرك فإنه ينتزع منك اللوز غصباً منك . وخرج الفلام وهو يطفر فرحاً وبتلفت يميناً وشمالاً خوفاً من نابوليون ولما وقعت عينه عليه من بعيد أطلق ساقيه للريح ونجا منه .

وكان نابوليون مشهوراً بقوة ادراكه لعواقب الامور من أول نظرة تبدر منه وقد باح بأسرار تلك القوة في خلال الاضطرابات التي وقعت في اجا كسيو من ٨ ابريل الى ١٢ منه في سنة ١٧٩٢ لما كان قد وقع بين الاجاكسيين والحرس الوطني فعالج خصومه أن يحطموه تحطياً ولكنه شخص الى باريس وعاد الى الانخراط في سلك الجيش ورفي الى درجة كابيتان في ٣٠ اغسطس سنة ١٧٩٢ وبعد ذلك عاد الى اجا كسيو واشترك في حملة ماداليا بصفة كونه قائداً للمدفعية ولكن كان الخذلان من نصيب تلك الحملة في شهر فبراير سنة ١٧٩٣ .

وحدث في غضون ذلك أن باولي رفع راية العصيان وخرج على الحكومة الفرنسية ففر نابوليون من وجهه وسار بأسرته الى مرسليليا في شهر يونيو سنة ١٧٩٣ وكان بعد ذلك إنه امتاز على غيره في حصار طولون فكان ذلك فاتحة تلك الملحمة الكبرى التي اشتهرت في مشارق الارض ومغاربها وقد أسهبنا في الكلام عن سيرة ذلك العاهل الداهية فليراجع ذلك في محله .

والآن نأتي على بيان وصف أهم الآثار والمعاهد في مدينة اجا كسيو .

بيت بونابرت - زرننا بيت بونابرت مرات كثيرة وزيارته ميسورة لكل انسان في كل يوم ولكن يجب أن يطالب الزائر من حاجب البيت أن يدخله اليه وذلك الحاجب مقيم في منزل خاص على مقربة من البيت وأخبرني أن والده كان مقبلاً قبله على خفارة ذلك البيت وقال لي إن جده ووالدة نابوليون رضعا من لبنان واحد ولذلك ظلت تلك الاسرة مشمولة بأنظار الاسرة البونابرتية الى يومنا هذا . ومن شاء زيارة ذلك البيت التاريخي يدخل شارع نابوليون ثم يميل الى اليمين ويدخل شارعاً ضيقاً يدعى شارع القديس شارل فيأتي هنالك منزلاً قوفاً من ثلاثة أدوار لا يمتاز بشيء عن المنازل المجاورة إلا بصفحة من الرخام فوق الرناج حفرت عليها هذه الكتابة :

« نابوليون الاول ولد في هذا البيت في ١٥ اغسطس سنة ١٧٦٩ »

وحفر شعار الاسرة البونابرتية فوق الصفحة على حجر رمادي اللون كانوا

كانوا قد نزحوا من مكانه عند وضع تلك الصفيحة ولكنهم ارجعوه اليه في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٩ بمناسبة انقضاء مئة سنة على انشاء القنصلية .

وبرتقي عهد بناء بيت بونابرت الى مفتح القرن السابع عشر وكان مؤلفا من دورين في ذلك الحين ولكن لما ولد فيه نابوليون كان مؤلفا من ثلاثة ادوار على ما هو عليه الآن . وصدر مرسوم من الديركتوار في ٢٩ يونيو سنة ١٧٩٨ يقضي بالتعويض على سكان اجا كسيو عما نكبوا به من الخسارة الفادحة في اثناء فتنة باولي والاحتلال البريطاني فدفع الى السيدة لاتيستياريامولينو (والدة نابوليون) تعويض قدره ستة عشرة الف فرنك عن بيتها الذي في شارع بونابرت وهو مؤلف من اربعة ادوار مع الدور الارضي لانهم لم يوافقوا عليه ما فيه من الاثر واحدثوا فيه بعض التخريب . ويرى من هنا أنه لاصحة لما نسب الى رجال باولي بانهم حرقوا بيت بونابرت في سنة ١٧٩٣ او ان يوسف بونابرت زاد عليه دورا رابعا في سنة ١٧٩٧ .

وكان شارل بونابرت قد بنى سطحاً على بيته في سنة ١٧٧٤ واجرى اصلاحاً في الغرفة التي ينام فيها في سنة ١٧٨٠ . وكانت اسرته تشغل دورين من البيت في حدائق نابوليون . أما الطبقة الثالثة فكان فيها انطون ماري بوتزو دي بورغو نسيب البونابرتيين من جهة زوجته ماري جوستين بوتزي ابنة فيرجيني بونابرت واقترن اغناطيوس بياني باثيليا ماريا بوتزو دي بورغو وسكن في بيت حمية ومثلت اسرته بياني وبونابرت امام المحكمة في سنة ١٧٨٢ لان السيدة جوستينا بوتزي صبت على شارل بونابرت اقداراً من وعاء اصابت ثيابه . واشترى يوسف بونابرت الدور الثالث من بيت بونابرت في سنة ١٧٩٥

وكانت السيدة لاتيستياري وابنتها اليزا قد هجرتا كورسيكا في سنة ١٧٩٣ فعادتتا الى اجا كسيو في ربيع سنة ١٧٩٧ وكتب الجنرال بونابرت من ايطاليا الى والدته انه يرغب في أن يرى بيته مرماً بحيث يعود الى ما كان عليه فباشترت السيدة لاتيستياري في الحال اصلاح البيت وكتبت في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٧ الى ضديقتها عقيلة كلاري في مرسيليا ترحب منها أن ترسل اليها لوازم السطح والواح زجاج وثمانية كراسي كبيرة وغير ذلك من الاشياء اللازمة لترميم البيت وتجديد رباطه وانتهوا من اعمال الترميم في شهر ابريل سنة ١٧٩٨

ولما رجع نابوليون من مصر قضى سبعة أيام في بيته باجا كسيو من ٢٩ سبتمبر الى ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٩ وقدم لوالدته هدية مذودا مصنوعا من العاج وخشب الابنوس وهو باق في البيت الى يومنا هذا وبراء الزائر فيه .

وذهب نابوليون اندريا رامولينو ابن عم والدته بيت بونابرت في ٢٢ مارس سنة ١٨٠٤ وتوفي اندريا رامولينو في سنة ١٨٣١ بلاعقب فانتقل ارثه الى ابن أخيه لاوي رامولينو إلا أن والدته نابوليون طلبت الاستيلاء على البيت في سنة ١٨٣٤ بصفة كونها وارثة لحفيدها الدوق دي ريشمادت وكرر يوسف بونابرت طلب الاستيلاء على البيت وأجريت تسوية بين الفريقين في سنة ١٨٤٣ فوضع يوسف بونابرت يده على البيت في شهر يونيو سنة ١٨٤٤ ثم ان ابنته الاميرة زينايد ورثته منه وقدمته لابن عمها الامبراطور نابوليون الثالث وقت مازار كورسيكا في سنة ١٨٦٠ ولم يكن في ذلك العهد شيء من الاثاث في البيت لأن جميع اثاث الاسرة البونابرتية كان في حيازة أسرة لاوي رامولينو فاشترى نابوليون الثالث جميع ذلك الاثاث بخمسة وستين ألف فرنك ونقله الى بيت بونابرت في ١٥ أغسطس سنة ١٨٦٩ بمناسبة انقضاء مئة سنة على ولادة عمه نابوليون الاول .

ورثت الامبراطورة اوجيني ايم نابوليون الثالث بيت بونابرت وانتقلت ملكية البيت بعد وفاتها في ١١ يوليو سنة ١٩٢٠ الى البرانس جيروم بونابرت كبير الاسرة البونابرتية فقدمه للحكومة الفرنسية في سنة ١٩٢٣ وهو الآن ملك للحكومة وقد جعلته متحفا . أما الدور الثالث من ذلك البيت فقد سكنت فيه الاميرة ماريان بونابرت حتى وفاتها في سنة ١٨٩١ .

أما الاثاث الذي في بيت بونابرت فيقال ان يوسف بونابرت جده عند رجوعه من ايطاليا وكان عين فيها مفضاً حريياً ولكن يمكن القول ان الجانب الاكبر من ذلك الاثاث كان لأسرة بونابرت والداخل الى بيت بونابرت يشاهد فيه الغرفة التي كانت والدته نابوليون تنام فيها والسرير الذي كانت تترقد عليه والكرسي الذي نقلوها عليه من الكنيسة الى البيت لما شعرت بابتداء المخاض قبلما ولدت نابوليون . وردة الاستقبال والغرفة التي كان يشتغل فيها والد نابوليون وغرفة نابوليون الخاصة وفي ارض هذه الغرفة كوة ينحدرون بها

الى دهليز هرب منه نابوليون في ذات يوم من وجه رجال باولي وكانوا يتعقبونه طالبين هلاكه

وعند مدخل البيت سجل يكتب فيه الزائر اسمه وتاريخ زيارته ويستطيع الزائر ان يطلب من الحاجب ان يربه التاج الذهبي الذي صنعه فاليري ليقدمه الاجا كسيون بمناسبة انقضاء مئة سنة على انشاء القنصلية

وكان امام بيت بونايرت في القرن الثامن عشر منزل انجال ماري بياتراساتنا والدة لاتيسيا رامولينو فهدم ذلك المنزل في سنة ١٧٩٧ وجعل مكانه ميدان صغير يدعى ميدان لاتيسيا وهو لا يزال باقيا الى اليوم . والى يسار هذا الميدان شجرة صغيرة من الاشجار المعروفة باسم شجر العاشق وعليها كتابة على لوحة صغيرة تدل على انها حيي بها من مدفن نابوليون الثالث في تيزلهرست بانسكلرا

هذه خلاصة ما تهتم القارىء معرفته عن البيت التاريخي الذي ولد فيه رجل داهية من اعظم الرجال الذين ظهروا في العالم .

ميدان الالماس - هو ميدان مربع الشكل مستطيله تبلغ مساحته هكتارين اي عشرين الف متر مربع وقد انشأه في سنة ١٨٠٢ المستشار .يو الذي ارسله القنصل الاول الى كورسيكا لتنظيم شؤونها العامة . ويحدها الميدان شمالا جادة القنصل الاول وشرقا شارع بونايرت وغربا المستشفى العسكري وثكنة فوج جنوبا البحر . وعند طرف الميدان من هذه الجهة قاعدة عالية من المحجب تعلوها تماثيل نابوليون وأخوته الاربعة وجميعهم متزيون بالزي الروماني فهو وحده راكب على جواده . واخوته واقفون على الزوايا الاربعة وتلك التماثيل مصنوعة من النحاس وقد ازاح البرانس نابوليون جيروم الستار عن ذلك الاثر في ١٥ ماي سنة ١٨٦٥ في حفلة شائعة شهدها جمهور غفير لا يقل عن اربعين الفاً تقاطروا الى اجا كسيو من جميع انحاء الجزيرة فالقى البرانس نابوليون جيروم خطاباً رناناً في تلك الحفلة قام له الامبراطور نابوليون الثالث وقعد لان ذلك البرانس اورد باسمه ما كان من اعمال نابوليون الكبير ايام كان قسلا اول وهو يريد ان يبين ما كان في تلك الاعمال والاعمال التي تمت في عهد الامبراطورية من الفروق

من الفروق وعلى ذلك الأثر صفيحة من الدحاس وضعت الى جهته القبلية وحفرت عليها الكتابة الآتية :

« لتذكار نابوليون الاول وإخوته الاربعة يوسف ولوسيان ولويس وجيروم من كورسيكا المعترفة بالجميل في عهد الامبراطور نابوليون الثالث وقد اقيم هذا الأثر بعناية البرنس نابوليون جيروم وبالتهرجات الاختيارية في ١٥ مايو سنة ١٨٦٥ »

اما ميدان الالماس فحاط بمجهاته الثلاث بثلاثة صفوف من شجر الدلب وفي وسطه دكة عالية تعزف فيها موسيقى البلدية بالحانها المطربة ويعتبر هذا الميدان مجتمعاً للأجاسيين وهو مقسوم الى قسمين الجنوبي وفيه تنزه الطبقة العالية والشمالى وهو مختص بطبقة الشعب ، وفي الاعياد الكبيرة وايام المرافق يقيمون في ذلك الميدان الاعاب المختلفة نهاراً وليلاً .

ميدان النخل - هو ميدان لطيف غرست على جوانبه اشجار النخل واشجار الدلب وهو يمتد شرقاً الى رصيف المرفأً وغرباً الى جادة القنصل الاول ويتصل جنوباً بالمساكن المؤلفة منها المدينة القديمة وشمالاً بشوارع الملك جيروم وشوارع فش . وفي وسط ذلك الميدان تمثال من الرخام الابيض للقنصل الاول من صنع النحات مكسيميليان لا بورور يبلغ ارتفاعه مترين و٦٥ سنتيمتراً وهو على قاعدة يحيط بها اربعة أسود من الرخام تنفث الماء من أفواهها وقد أزيح الستار عن هذا التمثال في ٥ مايو سنة ١٨٥٠ وهو هدية من الكردينال فش خال نابوليون الاول .

الكاندرائية - لما بنى الجنرال بولس دي ترم قلعة اجا كسيو في سنة ١٥٥٤ هدمت كاندرائية الصليب المقدس التي كانت في وسطها فصبحت عزيمة الاجاسيين على تشييد كاندرائية جديدة وقبل أن ترتفع الجدران عن سطح الارض متراً وخمسة وعشرين سنتيمتراً اوقفوا الاشغال لافتقارهم الى المال اللازم لانجازها ولما تحمرت المنيمة السيد غيديشيو في مطران اجا كسيو في سنة ١٥٨٢ اجتمع شيوخ المدينة وكانوا يذكرون أن البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي كان جالساً على كرسيه مار بطرس في ذلك العهد كان قد اراد مدينتهم حينما كان اسمه الكردينال بونيكبانيه

هو منطلق الى مدريد سفيرا للبابا بيوس الرابع وكانوا قد اكرموا وفادته اتفقت كلمتهم على أن يرسلوا اليه وفدا يرجو منه سيامة اسقف عليهم لكي يخصص ربيع الاسقفية لاجال بناء الكاتدرائية فيادر قداسته الى اجابة طلب الاجا كسين الموصوفين بالتدين وارسل اليهم نائبا رسوليا يدعى يوسف مسكاردي وفوض اليه اتمام تشييد كاتدرائية اجا كسيو ولما كانت تسمية مسكاردي اسقفا على اجا كسيو متعلقة باكمال بناء تلك الكاتدرائية صغر حجم تلك البناية لكي يجعل في ترقبه الى المقام الاسقفي وكان عمله هذا باعثا على ادخال شيء من الخلل على هندستها ولكنه قضى نحبه قبل قضاء لباتته. واختير بعد ذلك جوليو جوستينيافي اسقفا على اجا كسيو في ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٨٧ وهو اغريقي الاصل من جزيرة خيو وتقلد منصبه الجديد في سنة ١٥٨٨ فاقبل على العمل بهمة لا يدنو منها الملل وقد تيسر له اكمال بناء الكاتدرائية في سنة ١٥٩٣ ، وفوق رتاج الكنيسة صفيحة من الرخام حفرت عليها الكتابة الآتية ترجمتها :

« بنيت هذه الكنيسة من دخل الكروسي الاسقفي وقد ظل ذلك الكروسي فارغا خمس سنوات وذلك بطلب شعب اجا كسيو المتدين وموافقة مجلس شيوخ جنوى والبابا غريغوريوس الثالث عشر ووضع آخر حجر فيها في سنة ١٥٩٣ جوليو جوستينيافي الذي سامه البابا سكستوس الخامس اسقفا وباليته وفق الى وضع الحجر الاول فيها . »

ويروي أحد المؤرخين ان المطران جوليو جوستينيافي اشترى الرخام اللازم للرتاج ثلاث مرات ففقد ذلك الرخام في المرة الاولى في عاصفة هبت على البحر واغرقت المركب المشحون فيه . ووقع الرخام المجلوب في ايدي القرصان في المرة الثانية وعرف المكان الذي اخذوه اليه بعد ثلاث مئة سنة فقد وجدوه في أحد الجوامع في تونس وهذا ما جعل السيد لافييجري يزعم خطأ انه كان في القرن السادس عشر طارئة اجا كسية في تونس وانها كان لها كنيسة فيها . اما في المرة الثالثة فوصل الرخام وبني فيه رتاج الكاتدرائية .

وكاتدرائية اجا كسيو على هندسة مأخوذة عن هندسة كانت مألوفا في عهد النهضة العلمية وهي على شكل صليب يوناني وتعلوها قبة ضخمة . وسقف الكنيسة معقود بالحجارة . وفي الكنيسة ستة معابد أو مذابح فالكبير منها مصنوع من الرخام وقد تبرعت به الاميرة اليزا شقيقة نابوليون الاول وجراندوقة لوك

وبيومبينو في سنة ١٨١١ وهو مجلوب من كنيسة الموتى في لوك وقد كتب على أحد جوانبه إن الكردينال جوليو اسبينولا اسقف لوك كرسه في ٢٨ يناير سنة ١٦٨٠ .

والى يمين مدخل الكنيسة جرن المعمودية وفي هذا الجرن تلتى نابوليون سر العهاد في ٢ يوليو سنة ١٧٧١ وهو مركز على اسطوانة حفر عليها شعار المطران جوستينياني . وعلى عمود الى يسار الداخل الى الكنيسة صفيحة من الرخام الفرنسوي الاحمر نقشت عليها باحرف ذهبية الكلمات المؤثرة التي قال بها نابوليون الاول في جزيرة القديسة هيلانة واليك ترجمتها :

« اذا قضوا بابعاد جثماني عن باريس كما قضوا بابعاد شخصي عنها فارغب في أن يدفنوني الى جانب آبائي في كاتدرائية اجا كسيو بكورسيكا . عن جزيرة القديسة هيلانة في ٢٩ ابريل سنة ١٨٢١ . »

وكان للأسرة البونابرتية مدفون في تلك الكاتدرائية عند مذبح سيدة الوردية وهو المذبح الذي يناوح المحل الموضوع فيه الانجيل على المذبح الكبير وفي كاتدرائية اجا كسيو تحف كنائسية ثمينة وفي جملتها جرن المعمودية وقد تقدم بيانه وهو من الرخام الابيض البديع الصنع وقد جاء به المطران جوستينياني من ايطاليا وكان يعتبر في ذلك العهد تحفة ثمينة . وفيها أيضا شمعدانات من الفضة عليهما نقوش جميلة وشعار جوستينياني . وكأس من الذهب وهي هدية من البابا غريغوريوس السادس عشر . وبدلة للتقديس بنفسجية اللون ويقال انها مأخوذة من رداء فاخر كان أحد ملوك الشرقيين يلبسه وهي هبة من الكردينال فش

تمثال الكردينال فش — نصب تمثال الكردينال فش في فناء مدرسة اجا كسيو وهو من صنع فكتور دوبراي وقد ازبح الستار عنه في ١٥ اغسطس سنة ١٨٥٦ وكانت له الايادي البيضاء على اجا كسيو فانشأ فيها المدارس المسيحية للاحوة ومدرسة راهبات ماريوسف والمدرسة الداخلية ووقف على المدينة جميع املاكه وقسم من الصور والتماثيل والتحف التي في داره ومكتبته واثاث بيته وملابسه الكهنوتية عينها وله الفضل الاكبر في انشاء مكتبة اجا كسيو ومتحفها مغارة نابوليون — عند طرف جادة غرانفال للجهة الغربية ميدان كازوفي

وهو مربع الشكل كبيره تتكنفه اشجار الدلب وعند طرفه الغربي صخران كبيران يدعيان مغارة نابوليون والناظر اليهما عن بعد يرى فيهما شكل القبة التي كان نابوليون الاول يلبسها . وهم يزعمون أن نابوليون لما كان غلاما كان يعتزل في تلك المغارة للتأمل ولكن يتعذر تصديق تلك الحكاية لان نابوليون لما كان له من العمر تسع سنوات دخل مدرسة بريان . والمغارة علاوة على ذلك لم تكن في مكان يجري على ملك أسرة بوناپرت .

وحول اجا كسيو مناظر بديعة ومتنزهات جميلة من جهة البحر ومن جهة الجبل ونكتفي بقصر البونتتا أو قصر بوتزو دي بورغو فهذا القصر يبعد عن اجا كسيو ثلاثة عشر كيلومترا ونصف كيلومتر ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٦٥٠ مترا وهو مبني على بفاع منبسط يشرف على البحر وعلى جميع الاتجاه المحيطة بالمدينة وقد شرعوا في بنائه في سنة ١٨٨٦ وكتب على صفيحة يعلوها شعار أسرة بوتزو دي بورغو ما تأتي ترجمته :

« بنى جيروم دوق بوتزو دي بورغو ونجمله شارل هذا القصر بحجارة مجلوبة من قصر التويلري وكانت النار قد اطلقت في باريس في سنة ١٨٧١ لكي يحفظا للوطن الكورسيكي ذكرنا ثميننا من الوطن الفرنسي وذلك في سنة ١٨٩١ مسيحية »

وهذا القصر متحف فيه كثير من الآثار النفيسة ذات القيمة التاريخية . ولا يخفى انه كان بين أسرة بوناپرت واسرة بوتزو دي بورغو عداوة قديمة العهد ومناظرة على نيل التفوق في الجزيرة إلا أن ما أصابه نابوليون الكبير من المظلمة كسف شمس بوتزو دي بورغو من دون أن يجعله يلين مجسته للاقدار أو يطأطأ رأسه أمام ذلك الداهية الجبار .

وفي اجا كسيو ماعدا الكاتدرائية كنيسة مار روكز وهي مبينة في جادة نابوليون على هندسة حديثة ويمكن القول انه لا تخلو مدينة أو بلدة في كورسيكا من كنيسة على اسم القديس روكز والسبب في ذلك هو ان توالي ظهور الطاعون الخوف في الجزيرة في ظاير الايام جعل القوم يلتجئون الى مار روكز شفيع المطعنين ويقيمون له المعابد تيمنا باسمه واستشفاعا به .

وفي اجا كسيو ازال مرتبة أهمها نزل كنتيننتال بمجادة غرانفال فنزل

بلفيدير على طريق سالاريو فنزل اوربا بجادة غرانفال فنزل الاجانب بجادة
 غرانفال فنزل فرنسا عند ميدان الالماس فنزل سولفيرينو بجادة نابوليون وغير
 ذلك من الانزال المهمة .

وفيها ثلاثة مصارف (بنوك) مصرف فرنسا بشارع الولاية ومصرف
 لانزي بجادة الملك جيروم ومصرف بوتزو كوستا بجادة الملك جيروم أيضا .
 وفيها كثير من القهوات والملاهي المتقنة المرتبة كقهوة اجاكسيو بجادة
 القنصل الاول وقهوة التجارة بجادة غرانفال وقهوة فرنسا بجادة نابوليون
 وقهوة نابوليون بجادة نابوليون وقهوة سولفيرينو بجادة نابوليون وقهوة
 الملك جيروم بجادة غرانفال .

وفيها جرائد يومية واسبوعية كجريدة كورسيكا الفتاة وجريدة الكورسيكي
 الصغير وجريدة الكولومبو وغير ذلك من الجرائد
 وفيها من الاطباء نحو عشرين ومن الصيادلة نحو عشرة
 وفيها نحو خمسة من مصوري الشمس
 وفيها مركز للبريد والتلغراف بشارع الولاية
 وفيها ملعب واحد لتمثيل الروايات وثلاث دور لعرض الصور المتحركة
 (السينما)

وليس فيها ترامواي كهربائي ولما يلقى الانسان فيها سيارة ولكن فيها
 بضع عشرات من المركبات تجرها الخيل وقد اتخذت موقعا لها في أول جادة
 غرانفال شمال ميدان الالماس .

والمدينة غير منارة بالكهرباء بل بالغاز في بعض جهاتها ويولدون الكهرباء
 بواسطة محرك في بعض الانزال الكبيرة .

الانتخابات في كورسيكا — ذكرت في عرض الكلام عن كورسيكا
 بالاجمال أن السياسة هي القطب التي تدور عليه رعى الاعمال في تلك الجزيرة
 وان الانتخابات هي المحرك لتلك الرعى وحيث انه جري انتخاب أعضاء لمجلس
 الشيوخ في اثناء اقامتنا في الجزيرة فقد رأيت أن اذكر شيئا عن ذلك الانتخاب:
 ان لكورسيكا الحق بانتخاب ثلاثة اعضاء لمجلس الشيوخ وخمسة اعضاء
 لمجلس النواب وقد كان اعضاء مجلس الشيوخ في اثناء اقامتنا في الجزيرة

المسيو بول دومر والمسيو تاداي غبريالي والمسيو فرنسوى غاليني . وكان اعضاء مجلس النواب المسيو دي مورو جافيري والمسيو ادولف لاندرى والمسيو انطوان غافيني والمسيو مرقس سولستان كايوتوكولي والمسيو هنري بيارمجلي

وكانت قد انتهت مدة عضوية المسيو دومر والمسيو غبريالي فعين اليوم التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٢١ موعدا للانتخاب وعينت مدينة اجا كسيو مكانا لاجتماع الناهخين كالعادة الجارية . وحدث ولا حرج عن تراحم الاقدام وتناظر الاحزاب وتنافسها وقد فاز من بين المرشحين المسيو دومر العضو السابق ووزير المالية في وزارة المسيو بريان في ذلك العهد وليس المسيو دومر من سكان كورسيكا بل من سكان القارة . وفاز ايضا الدكتور ساري رئيس بلدية باستيا أما المسيو كوفي صاحب معامل الروائح العطرية المشهور في باريس فانه مع ما بذله من المال الوافر لم ينل الا كثرية . ومع كل ما أبداه الاحزاب ورؤساؤها من التظاهرات الشديدة لم يقع ادنى حادث يكدر حيض السكينة بل كان الجميع يحركون عوامل دهائمهم لاستمالة اصحاب الاصوات من دون أن يلجأوا الى القوة الوحشية كما هي الحال في لبنان في معظم الانتخابات على التقريب واحتشدت الجماهير في ميدان الالماس بعد الانتخاب وكان كل فريق على حدة فعالج رؤساء الاحزاب أن يخطبوا في الجمهور ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك لان الاحزاب المعاكسة للخطيب كانت تضج وتصفير وتقطع كلامه ناسبة اليه كل فرية وملقية علي منكبيه جميع أسباب التقهقر في الجزيرة وكان كل ما فعلته الاحزاب التي لم يحرز الا كثرية في الانتخاب أنها وجهت انظارها الى باريس وأخذت تسمى من ذلك الحين لالغاء الانتخاب وتقرير مخالفته للقانون في المرجع الايجابي أي في المجلس عينه المنتخب ذاك الشخصان عضوين فيه ولكن المجلس المشار اليه نظر في الانتخاب وقرر قانونيته لانه لم يجد فيه ما يخالف الانظمة الموضوعة .

الاحتفال بانقضاء مئة سنة على وفاة نابوليون الاول : — وكان أهم شيء شاهده في اثناء اقامتي في جزيرة كورسيكا الاحتفال الكبير الذي اقيم في اجا كسيو بمناسبة انقضاء مئة سنة على وفاة نابوليون الكبير في جزيرة القديسة هيلانة وقبل اليوم المعين للاحتفال ببضعة أيام أخذت مدينة اجا كسيو مسقط

رأس ذلك العاهل العظيم تستعد لأقامة الاحتفالات المنوية اقامتها فزينت الشوارع والحدائق والميادين والمعاهد والملاهي والاندية العامة والمنازل الخاصة بالاعلام الفرنسية واعلام الحلفاء واقواس النصر المعقودة بالازهار والرياحين وكان الانسان يشاهد تماثيل نابوليون وصوره وشارات وآثاره كينما سار في جميع انحاء المدينة وكانوا يرون تحفا ثمينة واشياء كثيرة لنابوليون في واجهات المخازن وكانت باقية عند الناس كتذكارات ثمينة يحرسون عليه ويتباهون به . وعينت للاحتفال ثلاثة أيام متوالية وهي ٤ مايو و ٥ و ٦ منه .

وأرسلت الحكومة الفرنسية من لديها المرشال فرانسه دسبره ليرأس الاحتفالات فوصل الى اجاكسيو قادما من باستيا في يوم السبت في ٣٠ ابريل في الساعة ١٠ : ٥ بعد ظهر ذلك اليوم ولما انتهى الى موقف سكة الحديد أطلق احد عشر مدفعا من مركز البحرية اكراما له وهي التحية التي يحجي بها المرشال المفوضة اليه مهمة رسمية . وكانت هيئة الحكومة تنتظره في ميدان اباتوشي بجوار الموقف المذكور ومعها اعضاء مجلسي الشيوخ والنواب الذين يمثلون الجزيرة في البرلمان الفرنسي وعمدة المدينة ووفود من قبل المجلس العمومي والمجلس البلدي ورجال الدين ووجوه المدينة واعيانها وجمهور غفير لا يقل عدده عن خمسة عشر الف نفس .

وبعد ما حيته الجنود المصطفة التحية العسكرية تقدم رجال الحكومة واستقبلوه رسميا وخطب المسيو جيروم ييري عمدة المدينة خطبا ترحيبيا فاشكر المرشال لهيئة الحكومة ولجميع المستقبليين ما أبدوه له من الحفاوة ثم توجه ومعه ذلك الجمع الغفير الى منزل الملازم مرشال لاني رئيس لجنة الاحتفال الاجاكسية وقد أثر السير مشيا الى ذلك المنزل الذي لا يبعد عن ميدان اباتوشي اقل من كيلومترين

ولما وصل امام التماثيل المنصوبة لنابوليون واخوته في ميدان الاماس وقف وحيا ذلك الرجل العظيم التحية العسكرية ثم واصل السير الى المحل المعد له وقضى غد ذلك اليوم عند مضيفه للاستراحة من وعناء السفر وقدم السيد ريفياري رئيس اساقفة اكس الخاضعة لجزيرة كورسيكا لولايته

الدينية في يوم الاثنين في ٢ مايو الى اجا كسيو لرأس الاحتفالات الدينية فاستقبل استقبالاً حافلاً .

ودخل المرشال فرنشه دسبره مدينة اجا كسيو دخولا رسمياً في يوم الثلاثاء في ٣ منه في الساعة الخامسة بعد الظهر فبالغوا في الاحتفاء به .

وافتتحت الاحتفالات في صباح الاربعاء في ٤ منه فقام السيد سيميوني مطران اجا كسيو قداساً و جنازاً في المعبد الامبراطوري في الساعة التاسعة صباحاً بحضور المرشال فرنشه دسبره ورئيس اساقفة اكس وجمهور كبير من عليّة القوم وكبار الموظفين وبعد ذلك زاروا المعبد الخاص المدفونة فيه والدة نابوليون وخاله الكردينال فش وافراد من الاسرة البونابرتية وهذا المعبد في شارع فش الى جانب المتحف والمكتبة والمدرسة

ثم ذهب المرشال ورئيس الاساقفة والمطران الى دار البلدية لاستقبال هيئة الحكومة واعيان المدينة استقبالاً رسمياً ووضعت ثلاث صفائح من الرخام الابيض بمناسبة هذا الاحتفال في ثلاثة اماكن بالمدينة : الاولى بشارع فش وقد كتب عليها ماترجمته :

« هنا بيت بو . في ٢٣ يناير سنة ١٧٩١ وهي السنة الثانية للخيرة قرأ »
« بونابرت الملازم في فرقة المدفعية باوكسون صورة الكتاب الذي كتبه »
« للمسير ماتيو بوتوفاكو نائب كورسيكا رداً شديداً للهجة على الخطاب »
« الذي خطبه ضد باولي وانصاره في الجمعية الوطنية وكان ذلك في جلسة عقدها »
« النادي الوطني الاجاكسي الملحق بنادي اليعقوبيين الباريسي »
والثانية بازاء الكاتدرائية واليك ترجمة ما كتب عليها :

« كان نابوليون بونابرت الليوتنانت كولونل من الدرجة الثانية في الفرقة »
« الثانية من الحرس الوطني بكورسيكا مهدداً بالقتل امام هذه الكاتدرائية »
« في مساء يوم الاثنين الذي بعد احد الفصح في ٨ ابريل سنة ١٧٩٢ في »
« اثناء الحوادث الدموية التي حدثت بين الاجاكسيين والحرس الوطني الا ان »
« الانسة ماريان ترنانو نسيته خلصته وادخلته بيتها فنجاً بدليل »
« يتصل من المنزل بالمدرسة الاكاديمية وكانت فرقته نازلة فيها »
« ووضعت الثالثة في شارع فش ايضاً وقد عربنا ما كتب عليها بما يأتي : »

« كان رجال باولي والبريطانيون يتعقبون نابوليون بوناپرت في الثالث
 « من شهر مايو فالتجأ الى هذا البيت الذي يخص جان جيروم لاوي عمدة
 « المدينة السابق وقد حشد في منزله فريقاً من الجبلين المسلحين ولما جاء الجنود
 « للقبض على نابوليون بوناپرت تمكن جان جيروم لاوي من ابعاده عن البيت
 « بلا قتال وأنقذ بوناپرت في تلك الليلة عيها وسيره الى كلتي بحراً وسار
 « منها الى سواحل البروفانس واستولى بوناپرت على طولون بعد سبعة أشهر
 « (٢١ ديسمبر) . »

وشاءت الحكومة الايطالية أن نشارك في حفلات اجا كسيو التي نحن في
 حصد الكلام عنها فأرسلت النسافة « لاماذا » وفيها السنيور مالفرونو حاكم
 ساساري والجنرال زيكندي وحاشيتهما ولكن حدث في أثناء قدوم تلك
 النسافة انها حينما كانت على بعد خمسة عشر كيلومترا عن اجا كسيو اشتدت عليها
 الانواء فغطاها الماء وجذب ثلاثة من بحارتها الى البحر فغابوا عن الابصار
 وغاصوا في اللجنة من دون أن يتمكنوا من اتقاذهم .

وافتمتحت سلسلة الاحتمالات في يوم الخميس في ٥ مايو ١٩٢١ بقداس حافل
 اقامه رئيس اساقفة اكس في ميدان النخل على مذبح نصب أمام تمثال نابوليون
 بوناپرت حينما كان قنصلا اول . وقبلها اخذوا في القداس هطل مطر مدرار ولكنه
 لم تطل مدة هطله فارجىء القداس الى الساعة العاشرة وكان الاجل المضروب له
 الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين ولم يكن عدد الجمع الحاضر يقدر بأقل من خمسة
 وعشرين ألفاً . وصعد السيد سيميوني مطران اجا كسيو الى المنبر في خلال
 القداس وأثن نابوليون بوناپرت تأييدنا بليغا استفز حماسة الحاضرين فقاطعوه
 بالتصفيق رغمنا من مهابة المقام واستمرت تلك الحفلة الى الظهر .

واحتشدت الجماهير أمام دار البلدية في ميدان النخل في الساعة ١٥ : ٣ بعد
 الظهر فتألف موكب نخم سار بانتظام الى ميدان كازوفي في ظاهرا المدينة الى الجهة
 الغربية أمام مغارة نابوليون وقد نصبت منصة في وسط ذلك الميدان في المكان المعد
 لنصب تمثال لامبراطور نابوليون الاول فيه . ولما اكتمل الترتيب نهض المرشال
 فرنشه دسبره ووضع بيده الحجر الاول للقاعدة المعدة لنصب التمثال عليها
 ثم تعاقب الخطباء متبارين في ميدان الفصاحة والبلاغة فتكلم السيو مرسل

لارتي رئيس لجنة الاحتفال الاجا كسية فالمسيو جان دي بيرتي عمدة بلدة لافي
فعمدة أجا كسيو فالمسيو لاندري نائب كورسيكا في مجلس الشيوخ الفرنسي
ومن وزراء البحرية السابقين فالسنيور ما لفرنو الايطالي حاكم ساساري فالجنرال
زيكندي الايطالي فالمسيو بياتري المندوب من جمعية الاحتفال بالعيد المئوي
في باريس فالشاعر الكورسيكي لوشياردي . ولما فرغ الخطباء من الكلام تكلم
المرشال بلهجة حماسية مفصحا عن الغرض الذي من أجله شاءت الحكومة
الفرنسية أن تحتفل بذلك العيد لذكر الرجل العظيم المعداد أ كبرقائد في فرنسا
وفي العالم . وانتهت الحفلة المدنية بخطاب المرشال .

ولما ازف الحين المعين لاقامة الحفلة الدينية عادت الجماهير الى ميدان كازوفي بعد
ما كانت قد غادرت فتسلم رئيس اساقفة اكس متبر الخطابة وخطب خطاباً مؤثراً
عن نابوليون بوناپرت ككورسيكي وانتقل من ذلك الى وصفه كفرنسي
وتليت بعد ذلك الصلوات المعتادة تلاوتها في مثل تلك الحفلات وبعد الخطب
ارفض الجمع عند الساعة ٣٠ : ٦ مساء .

واجريت الالعاب النارية على رصيف الميناء في الليل وكانت النسافة كالاوي
الفرنسية والنسافة لاماذا الايطالية ترسلان الانوار الكهربائية وكان اجل
منظر في تلك الالعاب شخص نابوليون المرسوم بالانوار الكهربائية وعلوه
ثمانية امتار

اما الحفلات التي احتفل بها في ٦ مايو فنكتفي بان نعددها من دون ان
نسهب في وصفها لنكتفي القارئ مؤونة التبرم :

١ — ذهاب الموكب في الساعة التاسعة صباحا الى البيت الذي ولد فيه
نابوليون بوناپرت لوضع باقة كبيرة من الازهار فيه

٢ — اقامة حفلة اكرامية للجنود الكورسيكيين الذين خروا صرعى في
الحرب العالمية الاخيرة في سبيل وطنهم

٣ — احتفل بسباق الزوارق الشراعية في الساعة ٣٠ : ١٠ صباحا واجر
الغلمان العابا في ميدان النخل

٤ — احتفل بسباق الدراجات في الساعة الحادية عشرة صباحا

٥ — احتفل بسباق الزوارق بالمجاديف في الساعة الثانية بعد الظهر

٦ — اقيمت ألعاب رياضية بدنية في ميدان الالماس في الساعة ٣٠ : ٣ بعد الظهر

٧ — اقيم سباق للاخيل في جادة غرانفال في الساعة الخامسة بعد الظهر .

٨ — اقيمت ألعاب نارية في الساعة التاسعة ليلا

٩ — اقيم مرقص عام في الساعة ٣٠ : ٩ ليلا

هذا مجمل وصف الحفلات التي اقيمت في مدينة اجا كسيو مستط رأس ذلك الرجل العظيم الذي قال عنه احد الكتبة الفرنسيين : ان الحق سبحانه وتعالى كسر بعد ما خلقه القالب الذي افرغه فيه . وقالت عنه جريدة المورننج بوست الانكليزية ما يأتي في عرض الكلام عن الحفلات التي اقيمت له :

« لقد انقضت مئة سنة على وفاة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة ومن حسن الحظ ان الفرنسيين والبريطانيين الذين كانوا اعداء الداء في ذلك العهد قد اصبحوا الآن اصدقاء حميمين يتسنى لهم أن يتأملوا معا باعجاب مشترك رجلا لا يعد فقط من اكبر رجال فرنسا بل من اكبر رجال العالم . »

وكانت علامات التحمس بادية على جميع الوجوه ولا بدع اذا كان القوم في اجا كسيو يظهرون مثل ما اظهروه من تلك العلامات تذكارا لتلك الداهية الكبير فقد خلد ذكر مدينتهم ورفع شأنهم في جميع انحاء المعمورة ماسح خال ولاح بدر

ولما كان هذا الاحتفال تذكارا لانقضاء مئة سنة على مصرع ذلك العاهل العظيم احب أن ابين الفرق بين هذه الاحتفالات وما كان من عدم اكرام القوم في فرنسا لوفاة لما انتهى اليهم نعيه في سنة ١٨٢١ .

لما انتهى نبأ مصرع نابوليون الكبير الى فرنسا لم يحدث فيها تأثيراً كبيراً ولم يصل ذلك النبأ الفاجع الا بعد وفاته بنحو شهرين وليس في ذلك شيء من الغرابة لان وصول الاخبار من مكان الى آخر في ذلك العهد لم يكن يحدث بمثل السرعة التي يحدث فيها في ايامنا هذه فلم يكونوا قد اخبروا البواخر ولا الاسلاك البرقية او التلفونية ولا اللاسلكي بل كانوا يضطرون الى ركوب السفن وانتظار الرج المؤاتية لهم . ووصل نعي نابوليون في بدء الامر الى انكلترا ثم الى فرنسا ومعلوم أن نابوليون قضى ست سنوات في المنفى وكانوا في اثنائها يعالجون محو اسمه من الازهار في فرنسا ولم يكن انصاره المخلصون له ولا

اصداؤه ولا خدامه يجرؤون على التلغظ باسمه جهاراً مخافة ان ينالهم الاذى من السلطة الغاشمة وكان شبح اسير جزيرة القديسة هيلانة ينتابها في المنام . والحق يقال أن نابوليون كان قد توارى عن ملعب السياسة قبل مصرعه بست سنوات بحيث ان نبأ موته الذي وصل الى باريس في يوم الجمعة ٦ يوليو سنة ١٨٢١ ولم ينتشر الا في صباح غد ذلك اليوم تلقاه الناس كما يتلقون خبراً عادياً . ونشرت صحيفة « الصاعقة » لسان حال الملاعب والفنون وعلم الادب نعيه في عددها الصادر في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢١ بالكلمات الآتية : « ان خبر موته الطبيعى كان كعبه من الاخبار العادية وقد تحدث الناس عنه يومين أو ثلاثة ايام على مثال تحدثهم عن المطر والصحو . واليوم لم يبق من يفكر به . » وقد كتبت الكونتيسة دي بوانياي ما يأتي في مفكراتها : « سمعت باعة الجرائد يصيحون في الشوارع موت نابوليون بوناپرت بصولدين . خطابه للجنرال برتران بصولدين بأش عقيلة برتران بصولدين . ولم يكن لتلك المناداة تأثير في الناس اشد من تأثير المناداة على كلب ضائع . » ثم كتبت تلك الكونتيسة بعد ذلك : « لالنتى ما كان لقله اكتراث القوم لذلك الحادث من التأثير في وفي الاشخاص المفكرين »

وجاء بوتزودي بورغو عدو نابوليون الشخصي المشهور الى تاليران ليرى ما كان من تأثير ذلك الخبر فيه فكان تاليران مدهوشاً ثم انه حاول ان يتكلم برباطة جأش عن نابوليون كأنه يتكلم عن أمر عادي .

وكانت في باريس جريدة بوناپرتية النزعة تدعى « جريدة التجارة » فبعد ما نشرت هذه الجريدة نعي نابوليون بكل تحفظ في ١٤ يوليو غرقت عليه بما يأتي : « لاتنتهي دائماً بالموت حياة الرجال العظام فان حظ نابوليون كمل قبل • مايو سنة ١٨٢١ وافل بدره في سهول واثرو ومع ذلك لم تكن الاجيال المستقبلية قد جاءت اليه بعد ونحن نشك الآن في دنو ساعة العدالة »

ولما رفع الدوق دي ريشليو خبر وفاة نابوليون الى مولاه الملك لويس الثامن عشر في سان كلود لم يتأثر الملك كثيراً من ذلك الخبر ولكن الجنرال راب الذي كان حاجباً لناپوليون ثم صار فيما بعد حاجباً للويس الثامن عشر لم يستطع كتمان حزنه بيد أن الملك لم ينقم عليه من جراء ذلك . أما في انكساراً فقد كان لوفاة سجين هدمن لو تأثير شديد عام فاذيعت

اعلانات في الاسواق في ٧ يوليو تدعو جميع المعجبين بالدهاء والشجاعة العابثة بهما المصائب الى لبس الحداد على نابوليون بونابرت صريح المنية قبل حلول يومه فلبى تلك الدعوة كثيرون من أعيان البريطانيين وفي جملتهم السر روبرت ولسن وبعض الفرنسيين زلاء لندن وجبرت جريدة المورننج كرونيكل مقالة مسببة عن نابوليون وكان ذلك الحادث شغلا شاعلا لافكار القوم في الديار البريطانية . ولما اخبر رئيس مجلس الهند هيئة المجلس عن وفاة نابوليون قال أحد الاعضاء واسمه المستر لونندس : « فانتبادل الهمزة يا حضرة الرئيس » فاستاء جميع الحاضرين من كلامه وقال له احدهم : « تأنف الانسانية والكرامة من الاتهام بموت رجل لم يبق من عهد بعيد يمثل دوراً ما على ملعب السياسة » ولم يكن لذلك الخبر الرسمي الخطير من الصدى في فرنسا بقدر ما كان له في بريطانيا العظمى ومع ذلك لم يكن حينئذ لتواري ذلك الرجل العظيم ما له اليوم من الاهمية في جميع أقطار المعمورة فلم تكن الحكاية الامبراطورية قد ابتدأت بعد بل كان يعوزها تقهقر التاريخ الى الوراء وقال السر جيمس ما كنتش أحد اعيان الانكليز في شهر يوليو سنة ١٨٢١ : « ما كان أشد وقع هذا الحادث لو وقع من تسع سنوات وما أشد ما سيكون له من التأثير ايضا بعد تسع مئة سنة »

وحرصت حكومة لويس الثامن عشر على منع الملاعب من تمثيل دور نابوليون لئلا يفتنم البونابرتيون الفرصة لقلب الحكومة . وتنكر طلعا الممثل المشهور وصديق نابوليون الحميم وجعل هيئة رأسه كرأس نابوليون في تمثيل دور سيلابأساة جوي في الملعب الفرنسي في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٢١ وحينما كان ذلك الحاكم الروماني يجود بنفسه على مهل في الملعب كان النظارة يتمثلون أمامهم احتضار نابوليون الكبير في منقاه .

وأقام الفلاحون في المانيا الصلاة عن نفسه في أما كن كثيرة ولما ابصر غريلبازرر مؤلف الروايات التمثيلية النمساوي وكان شديد القلي لنابوليون ان نير مظالم مترنيخ ائقل من نير بونابرت نظم قصيدة عنوانها « موت الامبراطور » واليك خلاصتها معربة :

« لا استطيع أن أحبك ... فقد كانت مهمتك العنيفة في هذه الحياة الدنيا

ضربة من الله... ولكن يجب أن يصدر الحكم الآن مستقلا عن العواطف
فالحياة تعرف الحب والبغض ويعتبر مجد الاموات من خصائص التاريخ المقدسة
« ان ادنى غاية من بعثتك كانت ان تظهر بمظهر السناء وتسكسو عرينا القبيح
وتبين أنه يمكن أن توجد الخلائق الكاملة الشريفة والعظيمة في عالمنا حيث
يكون كل شيء هباء منثورا وينحل بدونها ويعود الى العدم الذي خرج منه
وتبين ايضا أن الجنس لا يزال حيا اي ذلك الجنس المستد الساعد الذي غلب في
كان وجاهد جهادا حسنا في ترمويل

« فاجلس على الكرسي المعد لك بين الابطال الذين لا يزالون أحياء في
أفواه البشر أي اجلس الى جانب الاسكندر الذي دوخ الاقطار والى جانب
قيصر الذي سعى بعد ما أخطأ في اختياره وراء التسلط على ضفة الروبيكون
الآخرى . »

واطلعت ماري لويز أيم نابوليون وأميرة بارم على مصرع زوجها
الامبراطور في جريدة « بيامونت » وانتهت اليها رسالة رسمية من البارون دي
فنسان سفير النمسا في باريس في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢١ تثبت لها صحة الخبر الذي
قرأته في تلك الجريدة فكتبت الى عقيلة دي كرنفيل ما يأتي :

« أصرح لك بأن هذا الخبر كسف بالي علي أنني وإن لم أكن أشعر نحوه
بأدنى عاطفة حميمة من أي نوع كانت لا يمكنني أن أنسى إنه والد ابني وانه لم
يكن يسيء معاملتي كما يتوهم بعض الناس بل كان يبدي لي كل رعاية وهذا كل
ما استطاع تقاضيه من الزواج السياسي وقد أدخل مصرعه الاغتمام الشديد علي
ومع إن الانسان يجب أن يسر لانه أنهى حياته التاعسة بموت مسيحي فقد
كنت أتمنى له حياة طويلة مقرونة بالهناء بشرط أن يكون بعيدا عني . »

ولبس بلاط بارم الحداد ثلاثة أشهر من ٢٥ يوليو الى ٢٤ أكتوبر واليك
نص المرسوم القاضي بلبس الحداد والمدح بيراعة نيبغ من دون أن يكون
محاطا باطار أسود وقد نشر في جريدة بارم في ٢٤ يوليو : « بناء على وفاة صاحب
السموزوج أميرتنا المعظمة في الخامس من شهر مايو الماضي بجزيرة القديسة هيلانة
تلبس جالاتها والسادة والسيدات المؤلف منهم بلاطها وجميع الاشخاص في القصر
الدوقي ثياب الحداد ثلاثة أشهر من ٢٥ الجاري الى ٢٤ أكتوبر . »

وأمرت ماري لويز بأن تقدم الف قدام عن نفسه في بارم ومثلها في فينت وحضرت ومعها جميع بلاطها صلاة عن نفس نابوليون في المعبد الخاص بقصرها في السالا ولكن لم يكن على النعش شارة مامن شارات الامبراطورية أو أي حرف يرمز به الى التقيد

وكانت ماري لويز وهي جالسة على مقعدها الخاص مشردة الافكار وقد سدت قناتا طويلا على رأسها لينغطي وجهها وجسمها عن الابصار ومحجب حبلها لانها ولدت غلاما من الكونت دي نيرغ بعد تسعة أيام وهو ثاني الاولاد الثلاثة الذين ولدتهم ولادة غير شرعية

وابلغوا خبر مصرعه الى نجله ملك روميا السابق ودوق ريشتاد من دون أن يقدموا له التعزية لتخفيف لوعة ذلك المصاب عنه وكان الدوق في العاشرة من عمره فذرف دموعا سخينا على والده ولم يعن أحد بكفكفة تلك الدموع وكان منزوي الشاعر الايطالي الكبير قد أهدي كورنر قصيدة ضمنها كثيرا من الاغراض للتنديد بنا بوليون فلما انتهى اليه نبأ تخرم ذلك الداهية خضع طرفه وطلب من امرأته أن تعزف على البيانو يومين متواليين بلا انقطاع وأقام في منزله ذينك اليومين من دون أن يبرحه وألف منظومة عنوانها « ٥ مايو » ومن يتدبر تلك المنظومة لا يجدها منسوجة على منوال القديح أو منظومة في سمط المدح لذلك الرجل العظيم بل يرى أنه يعتبره آية من آيات القدرة الالهية متجلمة بجسمي الخبير أو الشر .

وفي أثناء مقامنا في اجا كسيو ترجم الاستاذ بطرس بولتي أحد أصدقائي مرثاة منزوي الى اللغة الفرنسية فأطلعني عليها فراقنتي كثيرا واستأذنته بترجمتها واليك تلك القصيدة

٥ مايو

قضى فعدا جثمانه الميت هامدا	وفارقه الفكر الذي كان سائدا
قضى عجباً كل الوري وقت ما دروا	بمصرع من أمسى له النجم حاسدا
قضى رجل الاقدار لما قضى القضا	عليه واضحى للتصاريف ساجدا
قضى وهو لا يدري مقر رفاته	ولا زمنا يلقاه فيه مطاردا
لقد ابصرته مقلتي فوق عرشه	ولم اتوهم أن أرى العرش مائدا

وخيل لي أن القضاء بكفه
فأطرقت والافكار لعبت بالنهى
وما عثم النسر المحلق ان هوى
وحينئذ هبت بصدرى عواطف
وأسدي تكرىماً لمن يستحقه
لنيل الذي يبغيه قد مد ساعدا
ومن فرط تأثيري غدا الصوت خامدا
فأصبح مصطادا وقد كان صائدا
لانظم في سمط القريض قصائدا
يظل الى ما شاء ربك خالدا

من الالب للاهرام في كل بلدة
ولارين من مدريد قد بات بأسه
وبين طنايس وسلا صواعق
فهل كان ما ابداه مجداً لقد غدا
لخولك يا باري الانام بمثله
رأيناه بند المجد والعز عاقدا
بكل فؤاد عسكر الذعر حاشدا
غدا عضبها اصمار اعداء حاصدا
بمؤتلف الايام ما كان شاهدا
نرى لك فيه كل حين مقاصدا

هنا جذل حفت به اليوم ضجة
سعى نحو قلب ميزته صريمة
يميل الى ادراك غايات سؤدد
فهل يثنى عن نيل امر يريده
وهل فاته شيء بدنياء مذ غدا
واصبح ذا تاج تشع جواهر
وروع الى الالباب نلقاه واخدا
بها سهم احداث رأيناه صاردا
وبركب كي يرقى اليها المناطدا
وكل المني التت اليه المقالدا
علي صهوة تدني من المجد قاعدا
ترصمه فافت بحسن فرائدا

ولكنما الاقدار خاتمه مذغدت
فمن بعد مانال انتصارا على العدى
رأى النني مقضيا عليه به ولم
وذى شيمة الدنيا ارتفاع وسقطة
لسؤدده السامي المقام حواسدا
وامسى صروحا للمفاخر شائدا
يجد ندحة عنه ولم يلق احدا
وذو العتل في دنياه يلتقى شواهدا

فريقان كانا في اقتتال كلاهما
فباننا على جبل انتظار قضاها
وقال انظراني وانزكا الحرب عاجلا
وكل الى استنجاهه كان قاصدا
لجاء الى كل معينا مساعدا
فاغدو لكل منكما اليوم رافدا

— ٤٤٥ —

وبعد قليل قد نأى متوارياً واصبح من حوض المنية واردا
وقد زج مأسورا بأضيق مأزق وخلف ذا عطف وخاف حاقدا

طمت لجج فوق الغريق وثقلت عليه وفي قعر لها بات شاردا
تقاذفه التيار نحو شواطئ تسط مزارا نحوها كان رائدا
وقد كان يأتبها بجند مصر وطرف يرى افق المجرة راصدا

تراحم في نفس له ذكر مجده ولكن غدا ذيا لك الذكرا بائدا
وقد كان ينبغي ان يقتص حياته على الناس عما كان فيه مجاهدا
فأهوت على القرطاس منه يمينه وقد بات من جراء ذلك جامدا

فكم مرة واليوم بالصمت ينقضي ويمضي ولا يلتقى لديه فوائدا
واصبح مكتوف اليدين وصوته غدا بمسد ابراق بعينه راعدا
وساوره ذكر الزمان الذي مضى وبات وعنه لم يجد قط ذائدا
تذكر اسوارا تدك وحولها مضارب شتى لم يجدها جوامدا
وأبصر في ذاك العراء كتائباً عمائل اطوادا ونحكي جلامدا
رأها على الاعداء تشن إغارة وتنصب للقالي علاه مصابدا

كأنني به للغم بات دريئة وبين حناياه أرى اليأس راقدا
وقد أشرعت باباً بأعلى السماء ومدت اليه فاستقل المصاعدا
فعلل بالآمال نفسا الى العلى جرت تبثغي اجرا لها فيه جاهدا
وأبصر في ليل من الصمت حالاً نغار بني الانسان ملقى ورا كدا

فيا أيها الايمان ته وابق خالدا وفق في الورى مجدا طريفاً وتلدا
لجلجلة لم يبحث في الناس سيد كرب العلى من بات للمثل فاقدا

— ٢٥ —

فن كلمات المهجر وقر رفاته ولا تك للفضل المؤئل جاحدا
وان الذي يبني المالك والذي يقوضها مازال في الكون واحدا

وبمناسبة الكلام عن وفاة نابوليون الكبير في جزيرة القديسة هيلانة
نذكر شيئا عن جغرافية تلك الجزيرة وتاريخها مأخوذا عن المجلد الثاني من مجلة
الضياء لمنشئها فقيده اللغة العربية العلامة الكبير الشيخ ابراهيم اليازجي المشهور
جزيرة القديسة هيلانة : — ليس في سكان المعمور من لم يقرع سمعه ذكر
هذه الجزيرة الحفيرة بل الصخرة الموحشة المنفردة في أطراف الاتلنتيك بما اتصل
بها من الحادث الشهير وهو بقي نابوليون الاول اليها في أوائل القرن التاسع
عشر بعد وقوعه في قبضة الدولة الانكليزية على مالا يجيله احد من تاريخه وقد
تجدد ذكرها في هذه الايام بحادث آخر من مثله وهو بقي القائد كرنيجي أحد
ابطال البوير اليها على يد الانكليز أيضا فهي سجنهم الذي يتقون به كرة عدوم
فيحولون دونه بعمد المزار وأمواج البحار ويتركونه عرضة للمذلة والصغار الى
ان يقضي نحبه وحيدا كندا منقطعا عن النسيم والانيس .
ولما كان كثير من القراء لا يعلمون من أمر هذه الجزيرة الا القليل رأينا ان
نذكر شيئا من صفاتها وتاريخها وبيان موقعها من الارض فلخصنا عنها هذا
الفصل المختصر على قدر ما يحتمله المقام .

أما موقع هذه الجزيرة فهي مايلي الشاطئ الغربي من افريقية على ٩° و ٦°
من طول باريس غربا وبين ١٥° و ١٦° من العرض الجنوبي وطولها نحو ١٧
كيلومترا في عرض ١٠ وهي جزيرة صخرية تبلغ حوزنها البحرية في بعض
الاماكن ٦٠٠ متر ارتفاعا واعلى قممها قمة ديانا وهي ترتفع ٨٥٥ مترا عن
مستوى البحر وترى من هناك الجزيرة بأسرها وما حولها من البحر

وفي هذه الجزيرة مدينة واحدة تسمى جستون قائمة على الشاطئ الغربي
منها على قارة من الصخر مثلثة الشكل والى غربي المدينة الجبل المسمى بجبل السلم
لان فيه سلما مؤلفه من ٧٠٠ درجة يرتقى فيها الى المصانع الحربية المشرفة في
قمة هذا الصخر والى شرفها تل يقال له تل روبرت وعليه الطريق المؤدية الى

المزل الذي اعتقل فيه نابوليون مدة وجوده في الجزيرة وقد ابتاع هذا المزل الامبراطور نابوليون الثالث في سنة ١٨٥٨ .

اما تاريخ هذه الجزيرة فكان اكتشافها سنة ١٥٠٢ على يد وبان من البرتغال يقال له جوان دنوفاكث قد أضل سفينة له في تلك الناحية وكان اكتشافه لها في ١٨ اغسطس من تلك السنة وهو يوم عيد القديسة هيلانة فسمها باسمها . ولما كانت سنة ١٥١٣ نفي اليها البورك فأتى الهند الشرقية نفراً من عساكر البرتغال كانوا قد فروا من الجند وفيهم جماعة من العبيد فكانوا أول من استوطن تلك الجزيرة فقاموا بالوادي الذي فيه اليوم مدينة همستون وشرعوا في الحث . وفي سنة ١٦١٠ دخلت الجزيرة في حوزة الهولنديين فلبثت في ايديهم الى سنة ١٦٥٠ ومذ ذاك دخلت في حوزة انكلترا وبعد ذلك توارى اليها اناس من الهولنديين والعبيد وفلاحى الصين وملقا فنشأت هناك سلافة منزعجة من عناصر شتى فيها جمال وبأس أما جلودهم فسمراء الى السواد .

وكانت هذه الجزيرة فيما ساف مرسى للسفن الواردة من جهات الاتلنطيك والبحر الهندي فلما فتح خليج السويس انحلت السفن اليه فأهملت ومذ ذاك أخذ أهلها يهاجرون الى نواحي الرأس فقل عديد مكانها وكانوا سنة ١٨٦١ نحو سبعة آلاف نفس فاصحروا بعد عشرين سنة خمسة آلاف .

وأصل هذه الجزيرة جبل ناري شخص في ذلك الموضع ولا تزال فوهته ظاهرة الى اليوم إلا أن مواضع منها قد تفتت وانهارت وحولها جبال مختلفة الارتفاع وصخور مائلة في الهواء يبلغ ارتفاع بعضها من ٧٠ الى ٩٠ متراً وبعضها قد تشكل بأشكال غريبة ومنها اثنان يشبهان منظر انسانين قائمين مموا أحدهما لوطا والآخر امرأة لوط .

واما هوا الجزيرة ففي غيبة الاعتدال وحر الصيف فيها لا يتجاوز جر انكلترا لسكن يكثر فيها انتشار الضباب الرطب وهو الذي أضر كثيراً بصحة نابوليون وكانت عند اكتشافها مكسوة بفابات عظيمة ولكن هذه الفابات انقضت شيئاً فشيئاً بتسليط المواشي عليها حتى أصبحت اليوم خمسة اسداس الجزيرة ارضاً جرداء .

وقد كان نفي نابوليون اليها سنة ١٨١٥ فلبث فيها الى أن توفي سنة ١٨٢١

وبقيت رمته هناك الى سنة ١٨٤٠ حين نقلت الى باريس ودفنت في مدفنها المشهور تحت قبة الانفاليد حيث هي اليوم مزار الملوك والعظماء والسياح من اقاصي الارض

ومما يحسن ايراده هنا قصيدة ظفرنا بها من نظم حضرة الشاعر المجيد نقولا افندي الحداد وصف فيها أسر كرنجي ونفيه وما كان منه حين استقبل الجزيرة وتذكر اسر نابوليون فيها فتمثل له طيفه مطلا من اعلاها وكل ذلك من اختراع الخيلة والقصيدة طويلة نفيف على ثمانين بيتا فاقصرنا منها على الابيات الآتية قال في مطلعها:

لا تسلم اذ تلظت الهيجاء	حينما غص بالجيش الفضاء
حينما زلزل المجيبج الروابي	حين مادت باهلها الغبراء
وتوالى من البنادق برق	أشعلت من وميضه البطحاء
ودوى في الفضاء قصف رعود	زلزلت من هزيمها الارحاء
وتعالى من الدخان غمام	فاكفهرت خوفا لذاك السماء
وهي منه للقتايل سيل	هو نار فوق الثرى لاماء
فيلق اثر فيلق يترامى	يا لجيش ضاقت به البيداء
انسكابز مثل البجار اندفاقا	وبوير هم صخرة صماء
فرقة بالمرمر الجم ترعى	لم تقدها شجاعة ودعاء
صدت السكره الشجاعة حينما	انما كان للشباب انقضاء
واخيرا غدا البوير عايط—بن بسور	جدراناه الاعداء
حين امسى تهوذاً كل م اقدام	ولم يبق في النجاة رجاء
فانقضت نوبة الجهاد وصارت	باطراح السلاح توقي الدماء

ومنها يصف اشراف كرنجي على الجزيرة وطيف نابوليون :

اقبل الليل غاشيا مثل بحر	فوق بحر لستره إرخاء
بحر هم على الاسبر خلا م فيه	باوهامه فطال الخلاء
فرأى في الفضاء طيف خيال	قد كساه الجلال والخيلاء
طيف جبار امتلا الافق منه	وبيمناه مست الجرباء
وكرملين قيصر تحت رجليه م	واهرام الجيزة القعساء

كلما ماد موطئا قدميه عضدته بكفها الجوزاء
 حوله للملوك تيجان عز ألبستها غبارها الهيجاء
 وسيوف هام العدي ثلثها وكستها لون العميق الدماء
 واكاليل الغار تزهو عليه لم ينلها مع التماذي المعاء
 مشهد هائل لطيف جليل زلزلت منه الصخرة الصماء
 بنجلي كلما دنا الفلك منه وتزبد الجلالة الشماء

* * *

عم مساء إذا الخيال المقدي ليت كل الملوك عنك فداء
 لم تسع اوربا علاك فأني محتوبها جزيرة جرداء
 كم عروش تزعزعت تحت م رجليك فلم لا يغوص هذا العراء
 أنهاب البحار منك انتهارا ووقارا يرتد عنه الماء
 ليت شعري هل حيث أمسيت تاج وسرير وصوله وبهاء
 ومباني التويلري باذخات جلست في صروحها العليا
 وقضاء ودولة وجنود لك منها الاطاعة العمياء

* * *

ايها ذا النزيل أهلا وسهلا لايرعك السكون والادجاء
 لك في الحمي سلوة وعزاء لك فيه تجملة وسناء
 لك معنا مقام مجد سني لك منا مودة واحتفاء
 ليس ذنباً جهادك الحق لكن أصبح الحق ماله نصراء
 سقطت دولة الضمير وولت وتولت مكانها الاهواء
 لم تمد قوة تؤيد حقاً فقضى الحق للصحاب البقاء
 طمع الناس في المني قد تناهى وما آل الاطاع طبعاً عداء
 قطعتي الموسرون والاقوياء ومنى بالمظالم الضعفاء
 لايسؤك الهوان غدرا وظلما لك من راحة الضمير جزاء
 ولاك القيد حلية بك تزهو وبك السجن قد كساء البهاء

— ٤٥٠ —

توسف الاسد في القيود ولكن يطلق الكلب والطبا والشاء
لك في الكتب مدحة وثناء ولذي الغدر سبة وهجاء

قد كفاني بقي لمنفك اجراً فقاي فيما اقت علاء
لي من طيفك الجليل انيس وبنجواك بهجة وعزاء
ان سجناً فيه سجنتم زمانا لي صرح ملاه منك السناء
والنسيم الذي تنفست منه لي حياة بها يطيب البقاء
وضريحاً فيه ثويت نعم فيه اثوي حين الاله يشاء

رأيي في نابوليون بوناپرت

لكل انسان كبير كان أم صغيراً عالماً أم جاهلاً صاحب منزلة رفيعة أم صاحب مقام عادي الحق في ابداء رأيي في الامور التي يبصرها أو يسمعها أو تتصل اليه اخبارها بالاستقراء بشرط ان يتوخى ايراد الحقيقة وأن يسترشد في ذلك بمشكاة النزاهة والتجرد عن الميل مع الهوى .

ولما كنت قد انققت وقتاً طويلاً في دراسة تاريخ نابوليون الكبير وتعمقت فيه وتدبرت عدة مؤلفات كتبها عنه مؤلفون مختلفوا الاجناس والزعات السياسية والآراء الشخصية في أزمنة مختلفة في حياته وعلى اثر وفاته وفيما بعد ذلك حتى في أيامنا هذه وقد قبض لي ان استقي جانباً كبيراً من اخباره من مظانها في خلال ثمانية أشهر قضيتها في مسقط رأسه فلم أربدا من ابداء رأيي في ذلك الرجل العظيم على نور التاريخ وسياقة ايراد حوادثه وبالاستنتاج المنطقي من دراسة حياته .

ان الاحكام الصادرة على نابوليون من مختلف المصادر يختلف برماها باختلاف وجهة نظر الذين اصدروها وقد اشرنا طائفة منها في ما سبق من الكلام فلتراجع مفصلة في مواضعها .

ان تلتسوي ينظر قبل كل شيء الى مصلحة بلاده ويبنّي حكمه على ما جره

عليها نابوليون من النكبات والارزاء فهو يصوره سفاحا مدمراً وضربة من ضربات الخالق ولا ينسب له فضلا ما في الاعمال العظيمة التي عملها بل يمزو ذلك كله الى صدفة او الى مجموع صدف من بدء حياته الى ختامها ويعرّبه من صفات سامية امتاز بها ويوشح الاسكندر الاول قيصر الروس ببرودها ولذلك يعتبر كلامه صادرا عن رجل تحرك الوطنية اوتار عواطفه ولا ينبغي ان نعد رأيه كراي مؤرخ نزيه يورد الحوادث على علاقتها من دون أن يكون الليل مع الهوى شأن فيها فتلسوي ينظر الى نابوليون واعماله بمقلة واحدة ويفض المقلة الاخرى وهو يرى مساوئه - وجل من لا عيب فيه - ويتجاوز عن التنويه بحاسنه .

وتيارس السياسي الفرنسي العظيم والمؤرخ الكبير انتقد شكل حكومة نابوليون زاعما أن ذلك الشكل لا يضمن لها البقاء ولا لفرنسا المعيشة في السلم والهناء واتهمه بأنه كان آلة مصائب بلاده ولكنه لم يسمه الصمت عن القول ايضا انه كان في الوقت نفسه رفيقاً مأثرها الخطيرة وقد انصفه بالاعتراف بمقدرته على قيادة الجنود وادارة الممالك إلا انه ندّد بافراطه وتجاوزة الحد وقال ان معاصريه اخطأوا بتفويضهم اليه حظوظ بلادهم تفويضاً مطلقاً ثم قال : ان اسناد السلطة اليه كان امراً محتوماً بعد ما كان من فواجع تلك الثورة الجارفة وغوائلها الويلة وتطرف الذين قبضوا بأيديهم على ازمة الاحكام في البلاد ولو ظهر شخص غير نابوليون في ذلك العهد وامتاز بشيء مما امتاز به نابوليون من الجرأة وسمعة الحيلة وبعد النظر لعمل ماعمله نابوليون لان الامة الفرنسية كانت قد نصب معين صبرها في الحالة التي صارت اليها وبلغ منها التبرم مبلغاً عظيماً ولاستسلمت هي اليه برمتها ليسكن الاضطراب الذي باتت تتخبط فيه . وقال تيارس ايضا : ان نابوليون انتشى بعد ذلك بخمرة الغرور وأخذ يسوق القياق الجرارة الى ساحات القتال فلم يقل عن مليون عدد الذين خروا صرعى فيها بسببه . فتألبت اوربا جماء على فرنسا وقهرتها وسلبتها ثمرة انتصارات متوالية اصابتها في عشرين سنة . وختم تيارس حكمه على نابوليون بقوله : لا ينبغي ان تسلم ادارة الدولة الى فرد كیفها كان ذلك الفرد وكيفما كانت الاحوال . ولكن لا يحسن بنا ان نذهل عن ان تيارس كان قلبه مشرباً بالمبادئ الجمهورية وكان نافرا من شكل

الحكومة الملكية المطلقة فلم ير في نابوليون الا طاغية يعمل لهدم تلك المبادئ. ومع ذلك لم يحبس تيارس لسانه عن التنويه باعمال نابوليون الخطيرة الدالة على تفوقه بعد ما رأى ان نابوليون لم يكن في حروبه مهاجماً بل مدافعاً وأن الدول كانت تعتمد القضاء عليه والتملص منه بشهرها الحرب عليه منفردة ومتمحدة

واللورد روزبري السياسي البريطاني الداهية كانت من اكبر المعجبين بنابوليون بوناپرت واسرته وكان ذلك الاعجاب مبنياً على التروى والذكاء والفراسة وقد نشأ فيه منذ حداثته فانه بعد ما طالع جميع الاسانيد البريطانية والفرنسية التي استند اليها المؤرخون الذين كتبوا تاريخ نابوليون والامبراطورية الاولى وتفهمها ومحورها كمؤرخ مدقق نظر اليها بعين السياسي المحنك الخبير باظهار دقائق الامور للعيان بإبراده اعتبارات فلسفية اجتماعية يتصيداها القارىء من سرد حوادث تلك المأساة الالهية الذكر وقد حاول اللورد روزبري ان يدفع معرة الغضاضة عن بني قومه ومع اعتقاده بانهم اتوا عملاً منكراً بمعاملة نابوليون بتلك المعاملة التي اشتهر امرها في مشارق الارض ومغاربها لم يشأ أن يدع وصمة الخزية تلصق بهم وتعرضهم للتنديد فرأى أن يخفف شيئاً من وطأتها بقدر الامكان وهانحن نورد كلاماً موجزاً يعبر عن حكمه قال :

« ان مؤتمراً فيينا يستحق اللوم على قضائه المبرم على نابوليون بالابعاد ولكن لم يكن بد من ذلك للتأمين العام وهذا ما جعل الحلفاء يقضون بحصر نابوليون حصراً غير محدود المدة مع انه لم يكن متمرداً ولا أسير حرب ولا جانيا حكمت عليه محكمة قانونية . وكانت ذمة البريطانيين بريئة من تهمة مقتل نابوليون لان تشرىح جثمانه أثبت أنه لم يموت في جزيرة القديسة هيلانة بداء الكبد بل بالسرطان الذي ورثه عن ابيه . »

واستقبل البريطانيون بحماسة شديدة الكتاب الذي وضعه اللورد روزبري عن نابوليون لانه اماط لهم اللثام عن حقائق قاسية بكلام صريح وتلقاه الفرنسيون بارتياح لانه عبر عن عواطفهم الصادقة ومما قاله : ان انفراد الحكومة البريطانية بالقيام بخفارة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة جلبها بمجلباب الصغارة ولا سيما اختيارها اشخاصاً لاخلاق لهم لاجراء أوامرها فاذا كانت

ذكرى القديسة هيلانة تثير الاشجان في قلوب الفرنسيين فان ذلك الاسم يشير
سالاقل عن ذلك في قلوب البريطانيين
فيستنتج من كلام اللورد روزبري انه كان من اصحاب المبادئ الشريفة
والوجدان الحلي لا يوارب ولا يحابي بالوجوه فقد انتقد نابوليون حينما وجد
مسوغا للانتقاد ولم يوفر حكومته حينما رأى انها جنحت عن الطريقة المثلى .

ثم ان دي بوريان رفق نابوليون في حدائته وصباه وشيبيته وكاتب سره
في عهد القنصلية كان اكثر اطلاعا من سواء على عجزه وباده وخافيه
وفي المقالة التي أخذناها عنه بعنوان « نابوليون الحقيقي » ونشرناها في التاريخ
مايبين خطأ الذين ينسبون الى نابوليون امورا كثيرة تخالف الواقع سواء كان
ذلك في المدح له او في القدح به . وعندى ان حكم دي بوريان عليه أسد من
حكم غيره على أنه لا يخلو في بعض الاحيان من التحامل عليه وقد بعثه على ذلك
التشفي منه بعد ما فصله من منصبه وجعله معرضا لضيق ذات اليد

ومنزوني شاعر ايطاليا المطبوع كان يقيم النكير على كثير من اعمال نابوليون
وقد نظم لذلك قصائد طويلة صممها التنديد به واسكنه لما انتهى اليه نعيه خضع
طرفه فأوصد بابه واختلى في منزله يومين كاملين متوالين وطلب من زوجته أن
تعرف على البيانو عزفا متواصلا في خلال تلك المدة . ونسج بردم منظومة جاءت
نحفة في بابها ولم ينسجها على منوال القدح او المدح بل جعل موضوعها اعتبار
نابوليون آية من آيات القدرة الالهية متجلية بمجالي الخير او الشر .

وقد ذكرتني تلك القصيدة بكلمة فاهها نابوليون وهي « ان القبر يظهر
فضل عظماء الرجال » وكأني بجميع الذين حملوا حملات شعواء على نابوليون في
ابان حياته لم يسمعهم بعد موته الا الاعتراف باعماله العظيمة وقد سلكوا طرقا
مختلفة في التعبير عن تلك القضية التي لم يستطيعوا انكارها

ان نابوليون هو ابن نفسه ولم ينشأ في وسط كالوسط الذي ينشأ فيه اولاد
الملوك الذين يتخرجون في مدرسة خاصة يتلقون فيها من نعومة أظفارهم ما يحتاجون

اليه للقيام بالمهمة التي ينتدبون لها في مستقبل ايامهم ولذلك اضطر هو الى درس تلك المهمة وتجربتها بنفسه ليتسنى له الاضطلاع بها . وهذا هو السبب الذي من أجله يرى متدبر تاريخه اختلافا في افكاره ومراميه في ادوار حياته فالثورة التي اتخذها مرقاة لنيل التقدم في معارج العلاء أصبحت — بعد وصوله الى منصة القنصلية — قذى في عينيه فجعل من وكده مكافئاً سرّاً ابتغاء تقليم اظفارها وتعفية آثارها لانه كان متأكداً أن استمرار الغوغاء على العيث فسادا والعبث بالامن العام وركوب اهوائها يصير بالبلاد الى شر مصير . فامسى عدواً للثورة مع انه كان ابنها ولم يبق من هم بعد ذلك لذلك الابن الا خنق أمه .

واكبر خطأ ارتكبه نابوليون هو الابقاء على الملوك بعد انتصاره عليهم مع مقدراته على دك عروشهم وتقويض سلطانهم وتصيير سؤددهم أثراً بعد عين وقد اعترف هو بخطأه من هذا القبيل — بعد قوات الفرصة — وكان يجاملهم طمعاً باستمالهم اليه لتوطيد اركان عرشه وتعميد السبيل لمستقبل مجله

ومن الهفوات الكبيرة التي اقترفها طلاقه لجوزفين فقد كانت — بقطع النظر عن خفتها ولبشها واسرافها وتقول الناس عنها — معبنة له ومرشدة ومشيرة عليه بالخير وقد صحبته في الضراء والسراء وكانت تحبه وتبتغي هناءه وراحته . وكان الفرنسيون يحبونها لفضائها وعطفها عليهم . ومما زاد في الطين بلة اقترانه بعد تطليقها باميرة نمسوية فضلها على شقيقة قيصر الروس بعد ما دارت المفاوضات بين باريس وبطرسبرج على اقترانه بالفرنديقة الروسية . وقد كان لذلك شأن كبير في حمل قيصر الروس على حمل الحقده عليه لاعتباره تفضيل كريمة امبراطور النمسا على شقيقته ماساً بكرامة أسرته .

وكانوا ينتقدون نابوليون على اكثاره من الكلام في الحين الذي يجب عليه فيه أن يكون مقلاً منه ولكنه بعد تقلده لمنصب القنصلية صار حريصاً على كتمان ما يمكنه ضميره . واصبح يحاذر أن يعرب عن حقيقة افكاره فكان يفسح عما يريد هو أن يجعل الناس يتوهمون أن كلامه يترجم عن افكاره

أما افسكاره في ما يتعلق بالدين فلم تكن صريحة من جميع وجوهها فكان يعتقد بوجود الله وينكر الوحي وتعالى به الفرور الى المجاهرة بالتعال حقوق دينية زعم أن منصبه السامي يحوله اياها . ويمكن القول بالاحمال انه كان يستعمل الدين ذريعة لنيل اغراضه وله في ذلك آراء سخيفة تضرب عنها صفحا الآن وقد اوردها في التاريخ .

وفي الفصل الذي نشرناه بعنوان « أحاديث نابوليون » أمور غريبة عن ذلك الرجل تدل على كثير من المتناقضات في أقواله من وجهة الدين والدنيا : وكان الذين يعرفونه حق معرفة من المقربين اليه يستدرجونهم في غالب الاحيان الى التصريح بأمور تعود عليه بالخزي وتدل على ضعف آرائه وسخافتها في بعض الموضوعات .



أما من جهة علاقته بالنساء فقد كان في شبابه خاضعاً لسلطان الهوى وقال هو عن نفسه انه كانت له سبع عشيقات . ولكنه لما جلس على عرش الامبراطورية أعرض عن معاشره النساء لزعمة أنه كان يخشى من تسلطنه عليه وتأثيرهن فيه . ولم يكن على شيء من الكياسة في معاملته للنساء بل كان يغلظ لهن في الكلام في بعض الاحيان أو يخاطبهن بكلام يستن منه . وكان يزعم أن المرأة لم تخلق إلا لولادة الاولاد . وأظن انه لو بعث الآن وشاهد منهن الاعمال الكبيرة التي يزاحمن فيها الرجال مما يدل على أن فيهن استعداداً فطرياً كامناً لا يقل عن استعدادهم له فهو كالنار الكامنة في الحجر يظهرها الاقتداح لغير اعتقاده فيهن ولا نصفهن حقهن .



ولم يكن نابوليون يعتقد بالصدقة ولذلك لم يكن يحب أحداً بحبة صادقة وقد جاهر هو بذلك .



واشتهر نابوليون بالبخل وكان من أهم أسباب الخلاف بينه وبين جوزفين زوجته الاولى إسرافها ويقال إنه ورث تلك الخلة عن والدته على أن بعضهم طالج

أن يخفف عن والدته الملامة من هذا القبيل وقال إن السبب في إمساكها هو أنها كانت في حياة زوجها وعلى أثر وفاته قد ذقت طعم شظف المعيشة وضيق ذات اليد ولذلك كانت تميل إلى الادخار ورأوا بعد سقوط دولة ابنها أنها كانت مصيبة في الادخار لأنها كانت تمد أولادها بالمساعدة مما اقتصدته ولولا ذلك لعادوا إلى ما كانوا عليه قبلاً من الفاقة .



وكان نابوليون شديد العطف على إخوته وأخواته وضعيفاً معهم وقد سعى لاجلاسهم على العروش وإحلالهم في الهيئـة الاجتماعية مكانة عالية ولكنهم قابلوه بنكران الجليل ولم يكتفوا بما جاد به عليهم من الايادي والموارف بل كانوا يطمعون بأكثر من ذلك وكانت حماقتهم تزين لهم التأمر عليه .



وعندي أن من أكبر الاغلاط السياسية التي ارتكبها نابوليون كانت حروبه في اسبانيا وتدخله في شؤونها فانها اضطرت الى تجريد البعث وتجنيد الفياق وإرسالها إلى تلك البلاد وكان ذلك يقضي عليه بأن يترك خصومه الآخرين وشأنهم فكانوا يفتنمون الفرصة ويضمون متفرق شملهم ويعودون إلى موائبته وكان يجب عليه أن يتخذ من حروب لويس الرابع عشر في اسبانيا وتدخله في أحوالها وإجلاس حفيده على عرشها عبرة ومثالا فقد كانت تلك الحروب شؤماً على ملك فرنسا وأفضت إلى ضعفة أركان حكومته .



من المشهور أن مدبري الثورة الفرنسية لم يوقدوا نارها إلا على أثر استئراء الفساد في بلادهم واستبداد أصحاب السلطة فيها فان المظالم التي طفق كيلها أخرجت الشعب الفرنسي فأخرجته وكان قد قام بين ظهرائه طائفة من كبار الكتاب الاجتماعيين وبشوا في الأمة روح الحرية والنزوع إلى الاستقلال وزرعوا بذورهما في الافئدة فافرخت ونمت وانمرت ولما حان قطاف الثمار هبت الأمة وكان تمادي اصحاب السلطة في المسف والارهاق اكبر مساعد لها فانفجر رجل الثورة انفجاراً هائلاً لا يزال ذكره يهز اوتار القلوب رعباً وهلعاً وانتشر الشقاء وعم البلاء وكادت البلاد تدمر تدميراً والتهمت نار الثورة

جميع مضمربها المنتظرين الواحد منهم بعد الآخر وقد طهرت الهيئة الاجتماعية الفرنسية من ادران المخازي وبثرت الاعضاء الفاسدة فيها وذب من بقي من العقلاء الى رشدهم بعد ما نهكت قواهم واصبحوا ميالين الى السكينة والى رؤية الاحوال تعود الى مجاريها . وبعد التجربة على يد الكنفسيون والديركتوار دبرت العناية الالهية ظهور شخص بعيد النظر حديد القواد عالي الهمة اشد اعتدالا من سواه في مبادئه ومنازعه وهو الجبرال نابوليون بونايرت فاعتمت الفرصة من تضعض احوال الديركتوار والشتاق الشاجر بين أعضائه وافضت مساعيه الى التدابير التي تمت في ١٨ برومير وكانت قضاء مبرما على الجمهورية وفانحة للملحمة الكبرى التي جرت وقائعها في عهد الفنصلية والامبراطورية وانتهت في سهول وارلو . واتخذت نار الثورة التي اصبح لسانها المندلع يلثم الاخضر واليابس في آخر الامر . وقد استوسق له الامر في بلاده وضرب على ايدي الاحزاب الطامعة بهدم صرح حكومته والقضاء على سؤدده ولكن لم تصف له الحياة من جهة الدول الاجنبية فان خوفها من تعاظم مجده وتفوق بلاده بعثها على تأليف المحالقات ومواصلة مقاتلته وقد كان لها ما ارادت في آخر الامر فاكرهته على القاء سلاحه والخروج اعزل من ميدان القتال والقت به على صخرة صماء في عرض المحيط الاطلسي ففضى عليها بحبه بعد مذاق اشكالا والوانا من العذاب المادي والادبي .



ويمكننا أن نحصر حكنا على حسنات نابوليون بونايرت بالكلمات القليلة التي فاه بها دي شاتوبريان الكاتب الفرنسي المشهور ولم يكن من محبيه :

« ليس بونايرت عظيما بكلامه وخطبه وكتاباتة ومحبهته للحرية ولم تكن فيه قط ولم يسمع قط لتوطيد اركانها ولكنه عظيم لانشائه حكومة منظمة شديدة البأس ومجموعة قوانين يجرون بموجبها في بلدان كثيرة ومحاكم عدلية ومدارس وادارة قوية ونشيطة ومتنورة لا يزال الفرنسيون سائرين عليها الى يومنا هذا . وهو عظيم لانه بعث إيطاليا من موت الحمول واناها بمشكاة الرقي والعمران وادارة شؤونها ادارة مقرونة بالحكمة والساداد . وهو عظيم لانه جعل النظام في فرنسا ينشأ من العدم ورم المعابد وجعل أنصار ثورة الشعب وأحلاف

التهيج والعلماء المتعجرفين والادباء الفوضويين والجاحدين الفلتارين وخطباء الشوارع والقنلة في السجون والسبل والثرائين الذين يعلنون المناير ويتصدرون المجالس والمنتديات يسلسون قيادهم له ويأتمرون بأوامره . . . وهو عظيم لانه ابن نفسه ولانه عرف — وليس له من هاد سوى دهائه — كيف يجعل ستة وثلاثين مليوناً من البشر يطعمونه في عصر لم تبق فيه العروش مكتنفة بالاوهايم. وهو عظيم لانه قهر جميع الملوك الماكسين له وكسر جميع الجيوش على اختلاف تدريها وبساتنها وجعل الشعوب المتسككة في ظلمات الهمجية تعرف اسمها كما تعرف الشعوب الراتمة في رياض المدنية . وقد فاق جميع الفاعلين الذين تقدموه وملا عشر سنوات اعمالاً عجيبة يتعذر على الانسان فهمها الآن . »

وحسبنا أن نردد ما قاله الشاعر العربي « والفضل ما شهدت به الاعداء » بعد معرفتنا ما كان دي شاتوبريان يضمه من القلى لنابوليون بونابرت والنفور منه .

ولا تتوسع في الكلام في هذا الموضوع بل نترك القارىء يستنتج — بعد مطالعته لكتابتنا هذا — مما يجده فيه من الحوادث العظيمة ان الانسان مهما عظم مقامه وهمت منزلته في الهيئة الاجتماعية لا يخلو من نقص في اعماله واخلاقه ومبادئه وجميع اطوار حياته وفي هذا ما يدل دلالة صريحة على أن الكمال لله وحده . فنابوليون بونابرت من الافراد الذين يندر وجودهم في العالم ويعدون من فلتات الطبيعة ولا يظهرون الا في فترات متباعدة كاسكندر المقدوني وقيصر الروماني وغيرهما من الذين حفظ التاريخ ذكرهم

واذا وضعنا في كفتي الميزان حسنات نابوليون وسيئاته رجحت كفة الحسنات لان السيئات ذهبت في حينها أما الحسنات فباقية الى ما شاء الله ولا بد من قراءة تاريخ نابوليون بونابرت بترك وتأمل ليرى القارىء ان ذلك الرجل كان آية من آياته تعالى في هذا العالم ؟

الباس طنوس الحويلك

مصر في ٢٦ فبراير سنة ١٩٣١

جدول اسماء الاعلام في الجزء الثالث

لما كانت ترجمة بعض اسماء الاعلام من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية تبعث على الابهام والالتباس في بعض الاحيان رأينا ان نضع جدولاً لاسماء الاعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الاول وقد اتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية :

Oscar	اسكار	Abbattucci	اباتوشي
Scandinave	الاسكنديناوية	L'abbaye-au-Bois	الاباي آوبوي
Islande	اسلندا	Epervier	ابرفيه
Athalin	اطالان	L'Etoile	الاتوال
Egmont	اغمون	Ajax	اجاكس
Avesnes	آفن	Adjacio	ادجاسيو
Aviti	افيتي	Adhmar	ادهمار
Oxford	اكسفورد	Arbelles	اربل
Elbenf	البوف	Arthur	أرثور
Albi	البي	Ardizzone	ارديتزوني
Eldon	الدين	Arcis-sur-Aube	ارسس سوراوب
Aldibert	الديبير	Archambault	ارشيمبول
Alvinzi	الفينزي	Arnoult	ارنول
Aleria	اليريا	Arrighi	ارينغي
Alezano	اليزانو	Emmanuel Arène	عمانوئيل آرين
George Eliot	جورج اليوت	Azincourt	ازنكورت
Jacques Ambizora	جاك امبيزورا	Australie	استراليا
Eméry	اميري	Ostroweno	استروفنو
Angelo	انجلو	Stockholm	استوكهلم

Oro	اورو	Ingelurge	انجلورج
Campo del Oro	کبو دل اورو	Anjou	انجو
Osopo	اوزوبو	Undaunted	اندتند
Ossher	اوشر	Angoulême	انغولیم
Etton	ایتون	Inconstant	انکنستان
Esopo	ایزوب	Ancone	انکونا
Eichstadt	ایشستاد	Opéra	اوبرا
De Rousse	ایل روس	Eugénie	اوجینی
Emiltrude	ایلمترود	Oedenbourg	اودنبورغ
		Udine	اودین

ب

Porto Ferrajo	پرتو فراجو	Bathurst	بائرسٹ
Berthollet	برتولای	Padro	بادرو
Bertoldi	برتولدی	Bastia	باستیا
Burton	برتون	De Bassano	دی باصانو
César Berthier	قصر برتیه	Ballanche	بالانش
De Bernis	دی برنی	Palme	پالم
Briars	بریار	Palmerston	پالمرسٹن
Briand	بریان	Bahia	باہیا
Costa Di Bastelika	کوستادی بستلیکا	Pascal Paoli	پسکال پاولی
Plolémée	بطولماوس	Hyacinthe Paoli	ھیاسنت پاول
Becker	بکر	Bayard	بایار
Bellaprat	بلابرا	La Pépinière	البینیار
Le Palatinat	البلاطینا	Pezzo	پتزو
Palampin	پلامپین	Bedlam	بدلام
Mont Blanc	مون بلان	Le Brésil	البرازیل
Blanchard	بلانشار	Berbikaja	برییکا یا

Postanicho	بوستانیکو	La Belle -Poule	البل بول
Bouchet	بوشه	Belvédère	بلفیدیر
Beauvau	بوفو	Blanqui	بلانکی
Anne de Boleyn	ان بولن	Balcombe	بلسکب
Pierre Poletti	پطرس بولتی	Block	بلوک
Capo di Polo	کاپودی بولو	Blois	بلوی
Poli	بولی	Le Billard	البلیار
Noël-Pugliesi	نویل بولیازی	Billiard	بلیارد
Bompars	بومبار	Le Bellérophon	البیلیروفون
Marianne Bonaparte	ماریان بوناپرت	Plymouth	بلیموث
Buonarroti	بوناروتی	Bonbury	بنبری
Buonavita	بونافیتا	Pau	بو
Bonavanture	بوناونتورا	Poissy	بواسی
Bonifatino	بونیفاتزینو	De Boissieu	دی بواسیو
Pietri	پیاتری	Raymond Poincaré	رایمون پوانکاره
Henri Biarengelli	هنری بیارنجلی	Poppleton	پوپلتون
Pierron	پیارون	Mathieu Botla -	ماتیو بوتلافوکو
Piana	پیانا	foco	
Ignace Pianelli	اگناطیوس پیانلی	Pozzo di Borgo	پوتزودی بورگو
Biraldi	بیرالدي	Elysée - Bourbon	الیزه بوربون
Peretti	پیرتی	Portsmouth	پورتسموت
Béranger	بیرنجه	Porticciolo	پورتیسیولو
Biron	بیرون	Portichio	پورتیکیو
Jean Piri	جان پیری	Porlier	پورلیه
Les Byzanthins	البیزنطیون	Le Morning Post	المورنینج پوست
Beysser	بیسه		

—٤٦٢—

Pignerol	بينيارول	Bigolia	بينغوليا
Bignon	بينيون	Pillet	بيليه

ت

Tscharner	تشارنر	Tavignano	تافينيانو
Churchill	تشرتشل	Travot	ترافو
Chesterfield	تشرترفيلد	Tristan	ترستان
Chiselhurst	تشيزلهرست	De Thermes	دي ترم
Thorwaldsen	تور والدسن	Marianne Ter -	ماريان ترناو
Toula	تولا	nano	
Tomino	تومينو	Le Concile de	المجمع التريدينيني
Tiburce	تيبورس	Trente	
Tyrrhéniens	تيرايني	Chatham	تشاتام

ج

Jaucourt	جوكور	Giafferi	جافيري
Julie	جوليا	La Toison d' Or	الجزء الذهبية
Julio Justiniani	جوليو جوستينياني	Juan	جوان
Gérard	جيرار	De Joinville	دي جوانفيل
Gilly	جيلي	Giovanalli	جوفانالي

خ

Chio	خيو	Cartouche	خرطوش
------	-----	-----------	-------

- ٤٦٣ -

د

Doret	دوره	Darfour	دارفور
André Doria	اندره دوريا	Deptfort	دئفورت
Camille Doria	كاميل دوريا	D'Artois	درطوي
Duchâtel	دوشاتل	Jourdan Desour-	جوردان دزورسان
Douvres	دوفر	san	
MoutonDuvernei	موتون دوفر نه	Vincentello	فنشنتلو دسريا
Duphot	دوفو	d'Estria	
Les Dauphinois	الدوقينيون	Paul Deschanel	بول دشانل
Paul Doumer	بول دومر	Delberg	دلبرخ
Donnay	دوناي	Dalmeny	دلني
Diana	ديانا	Dumbarton	دمبرتن
Les Débats	الديبا	Dumouriez	دموريه
Digne	دينبي	Dennewitz	دنونز
Dillon	ديون	Victor Dubrav	فيكتور دوبراي
		La Dorade	الدوراد
		Alphonse d'Orn-	الفونس درناو
		ano	

ر

Rueil	روايل	Ramei	راميل
Rubicon	روبيكون	Rameau	رامو
Rotondo	روتندو	Hanna de Roth-	حنه دي رتشيلد
Roussin	روسان	schili	
Ponti novo di	بنتي نوفو	De Reichstadt	دي ريشتاد
Rostino	دي روستينو	Rambouillet	رامبويه
		Ramleh	الرملة

- ٤٦٤ -

Réal	ريال	Rossi	روسي
Thomas Reade	توماس ريڊ	Arrigo della Rocca	اريفو دلاروڪا
Richard	ريشار	Polo della Rocca	بولو دلاروڪا
Rigozo	رينغوزو	Judici della Rocca	جوديشي دلاروڪا
Aimée Dubuc de	ايمه دي بوك	Roccabina	روڪاينا
Rivery	دي ريفري	Rogliano	روليانو
De Rivière	دي ريفيار	Romanowsky	رومانوفسڪي
Rinozo	رينوزو	Romay	روماي
		Romilly	روميلي

ز

Zikendi	زيڪندي	Zénaïde	زنايڊ
---------	--------	---------	-------

س

Saint Jean de Losne	سان جان دي لون	Sartrouville	سارتروفيل
Saint Germain en Laye	سان جرمان انلاي	Sartène	سارٽين
Saint-Daniele	سان دانيالي	Sarry	ساري
Saint-Denis	سان دني	Sassary	ساساري
Saint Sever	سان سيفر	Sacile	ساشيل
Saint Gothard	سان غوتار	Salario	سالاريو
Saint Florent	سان فلوران	Saint Antoine	سان انطون
Saint Marceau	سان مرسو	Angèle Marie	انجال ماري
Saint Weilh	سان ويله	Pietra Santa	پياترا سانتا
Sahuc	ساهوك	PontSaint-Esprit	بون سانت اسپري
Spa	سبا	Sainte Barbe	سانت بارب
Julio Spinola	جوليو سپينولا	Sainte- Croix d'Antin	سانت گروي دنطان
Strati	ستراتي	Saint Jean d'Ulloa	سان جان دولوي

Smorgoni	همورغوني	Steingel	ستنجل
Cinna	سنا	Marie Stuart	ماري ستوارت
Santini	سنطيني	Stokoe	ستوكو
Sanguinaire	سنگينار	Servioni	سرفيوني
Senhouse	سنهوس	Cernos	سرنوس
Superbe	سورب	Szabad hegy	سزابا دهيجي
Soufflot	سوفلو	Sussex	سسكس
Solenzara	سولنزارا	Socrate	سقراط
Cornélius Sci pion	كورنيليس سيبيون	Scarambi	سكارامبي
Seras	سيراس	Skelton	سكلتن
Severoli	سيفيروله	Walter Scott	ولتر سكوت
Sylla	سيلا	Dona Emilie-Salzi	دونا اميلي سليزي
Cicaldi	سيكاليدي	Sempiaro	سمبيارو
Seymour	سيمور	Le Cimbres	السمبري
Simioni	سيمينيوني	Samanhoud	سمنود

ش

Chartran	شرتران	De Chabot	دي شابو
Cinto	شنتو	De Rohan-Chabot	دي روهان شابو
Chantereine	شنترين	Les Chartreux	الشارتروز
Chandelier	شندليه	Charles XIII	شارل الثالث عشر
De Chauvelin	دي شوفلان	Chaptal	شبتال
Citarka	شيتاركا	Chebreis	شبريس
Cirelli	شيرلي	Cherbourg	شربورغ

— ٤٦٦ —

ص

Sorbello	صوروبلو	Samuel	صموئيل
		Sceaux	صو

ط

Torbay	طورباي	Taravo	طارافو
Turenne	طورين	Thurgovie	طرغوفيا
Touchard	طوشار	Troie	طروادة
James-Town	جيمس تاون	Ténériffe	طريف
		Tobie	طوبيا

ع

Emmanuel	عمانوئيل	Abd-ul-Hamid 1 ^{er}	عبد الحميد الاول
		Ali-Pacha	علي باشا

غ

Grassini	غراسيني	Gap	غاب
Gravone	غرافونا	Gaffori	غافوري
Les Gracques	الغراك	Gavini	غافيني
Granval	غرانفال	Gallieno	غاليانو
Granville	غرانفيل	Francois Gallini	فرانسوي غاليني
Grey	غراي	Gand	غاند
Giovani della Grossa	جواني دلا غروسا	Taday Gabriali	تاداي غبريالي
Grégoire VII	غريغوريوس السابع	Grasse	غراس

Gauricourt	غوريكور	Grégoire Grimaldi	غريغوريوس غريمالدي
Les Goths	الغوثيون	Henri Greville	هنري غريفيل
Goulo	غولو	Grenoble	غرينوبل
Du Guesclin	دي غيسكلان	Grenier	غرينيه
Guillois	غيلوي	Gustave IV	غستاف الرابع
Guillard	غيليار	Gladstone	غلادستون
Guyet	غيه	Gantz	غنتز

ف

Yorto-Vechio	بورتو فكيو	Le Var	الفار
Castel-Vechio	كاستل فكيو	Pharos	فاروس
Fleurus	فلوروس	Vasio	فازيو
Ventouriny	فنتوريني	Walewska	فالفسكا
Ventôse	فنتوز	Walewski	فالفسكي
Les Vandales	الفندال	Valézi	فاليزي
Vénézuëla	فنزويلا	Fanny	فاني
Foy	فوي	Vizzavona	فيزافونا
Latour-Foissac	لاتور فواساك	Jacobo Ferratino	جاكوبو فراتينو
Fourès	فوراس	Ferrand	فران
Forest	فورست	Franz	فرانز
Foresti	فورستي	François 1 ^{er}	فرنسيس الاول
Fostina	فوستينا	Francfort-sur-le Mein	فرنكفورت على الماين
Les Phocéens	الفوسيون	Vernon	فرنون
Vauchamps	فوشان	Frionl	فريول
Volney	فولي	Frigozi	فريغوزي
Vizille	فيزيل	Victoria	فيكتوريا
Vivario	فيفارو	Idéologues	فيكاريون

Le Phylloxera	الفيلوكسيرا	De Villèle	دي فيلال
Vignali	فينيالي	Villemain	فيلمان
Vio	فيو	Wilna	فيلنا
Vio Morio	فيو موريو	Le Véloce	الفيلوس
		Philippe-Auguste	فيليب اوغسطس

ق

César	قيصر	Le Caire	القاهرة
		Le Cosseir	القصير

ك

Mare—Celestin	مرقس سلسطان	Cap Corsino	كاب كورسينو
Caïtculi	كايتوكولي	Capitello	كايتلو
Cayres	كاير	Catania	كاتانيو
Les capucins	الكبوشيون	Notaire	كاتب عدل
Corgheizi	كرغيزي	Cato Cambrizis	كاتو كامبريزيس
Cornelie	كرنيليا	La Cadorique	الكادورية
Robinson Crusoe	روبنصن كروزه	Carenthie	كارنثيا
Kroni	كروني	Carrousel	كاروسل
Le Morning Chronicle	المورننج كرونيكل	Cazoni	كازوني
Chrysostome	كريستوم	Castania	كاستانيا
Jaus campio	جانوس كمبيو	Casterie	كاستري
Cluncarty	كلانكرفي	Les Calabrais	الكالابريون
Quillebouf	كلبوف	Calabre	كالبريا
Clarendon	كلارندن	Kalunga	كالوغا
Clauzel	كلوزل	Calais	كالاي
Calve	كلفي	Cannes	كان

Courser	كورسو	Clemen ceau	كليمنصو
De Coursay	دى كورساي	Le Masque de Fer	الكمامة الحديدية
Corner	كورنر	Companioni	كبانينيونى
Le Courrier	الكوريه	Canterbury	كنتربرى
Pozzo Costa	بوتزو كوستا	Canarie	كنارى
Custine	كوستين	Kenza	كنزا
Coffin	كوفين	Canada	كندا
Cockburn	كوكبرن	Constant	كلستان
Coquereau	كوكرو	Constance	كنستانس
Mathieu Collin	مى كولن	La Concorde	الكنكرد
Colombo	كولومبو	Connétable	كنتابل
Colonna	كولونلا	Continental	كنتيننتال
Conti	كونتي	Déspan-Cobières	دسبان كوبيار
Quiberon	كيبرون	Courbevoie	كوردفوى
Keith	كيث	Courtot	كورتو
Quinette	كينيت	Cortou	كورفو
		Coti	كوتى

ل

Pont de la Roche	بون دي لاروش	La Parate	لاباراتا
Marcel Laretti	مرسل لارتي	Lapalud	لابالود
La Rochefoucauld	لاروشفو كولد	La Bédoyère	لابدويار
Lacédémone	لاسيديمون	Maximilien Labour-sur	مكسيميليان لا بورور
Lafrète	لافريت	Lapi	لا بي
Laffitte	لافيت	Marchal Latti	مرشال لافي
Lavigerie	لافيجري	De la Drôme	دي لادروم
Lallemand	لالمان	Pont de l'Arche	بون دي لارش

Londes	لوندس	La Maza	لامازا
Longwood	لونود	Lamure	لامور
Saint Louis	القديس لويس	Adolphe Landry	ادولف لاندري
Louis le Débon- naire	لويس الحليم	Lanzy	لانزي
Louis—Philippe 1 ^{er}	لويس فيليب الاول	Val de La Haye	فال دي لاهاي
Llami	لياموني	Jérôme Levi	جيروم لاوي
Jean de l'épée	جان دي ليهيه	Léon XII	لاون الثاني عشر
Leipzig	ليزيبغ	Leuchtemberg	لختمبرج
Letort	ليتور	Ledvoka	لدفوكا
Lydia	ليديا	Marie Leczinska	ماري لسكزنسكا
Liverpool	ليفربول	Lentivi	لنتيفي
Levinza	ليفنزا	Landolf	لندالف
Ligourie	ليغوريا	Lauzun	لوزان
Livourne	ليفورن	Luciardi	لوشياردي
Rinuccio di Lega	رينو تشيو دي ليكا	Luc	لوق
Lega	ليكا	Damiano Luxardo	دميانو لوكساردو
Lemercier	ليرمسيير	Louvois	لوفويس
Ligny	لينبي	Lockner	لوكنر
		Lons-le-saulnier	لون ليسولنييه

م

Marlborough	مارلبورو	Alérius Matra	اليريوس ماترا
Masson	ماسون	Madalia	ماداليا
Massinajo	ماسيناو	Madère	ماديرا
Massyrie	ماسيريا	Maret	ماره
Maryoupol	ماريوبول	Mars	مارس

— ٤٧١ —

Malcolm	ملكالم او ملكولم	Mariana	ماريانا
Melloria	ملوريا	Mâcon	ماكون
Montecuculli	مونتيكوكولي	Malverno	مالفرنو
Montaletto	مونتالتو	Malaisie	ماليزيا
Manzoni	منزوني	Malaspina	مالاسبينا
La Bastide-Murat	البستيد مورات	Mantes	مانت
Morato	موارتو	Manuel	مانويل
Morand	موران	Maitland	مايتلاند
Morsiglia	مورساييا	De Mailbois	دي مايلبوي
Moïse	موسى	Mettruski	متروسكي
Molitor	موليطور	Mithridate	متريدات
Mohilew	موهيليف	Mahmoud II	عحمود الثاني
Monge	مونج	Middlemore	ميدلمور
Montchenu	مونشنو	Mortemart	مورتمار
Méjan	ميجان	Marguerite	مرغريت
Méri	ميري	Messe	مس
Millerand	ميلران	Muscardi	مسكاردى
Miot	مير	Mustapha	مصطفي
		Malborghetto	ملبورغيتو

ن

De Nesselrode	دي نسلرود	Napoléon III	نابوليون الثالث
Nanzinetti	ننزينيتي	Citi Navi	سيتي نافي
Noailles	نوايل	Le Northumber-land	النورمبرلاند
Neustadt	نوستاد	Normandie	نرمنديا
Navarre	نوفار	Norvège	نروج

Domenico Nigroni	دومنيكو نيغروني	Pietro di Novarie	بياترودي نوڤاريو
Nino	نينو	Théodore de Noheuf	نيودوردي نوهورف
Niolo	نيولو	Noverraz	نوفراز
Niolino	نيولينو	Niepperg	نيبرغ
Newman	نيومان	Nippo	نيپو
		Nice	نيس



Henriette	هنريت	Harcourt	هاركور
Hotham	هوٿام	Harold	هارولد
Hormayer	هورماير	Ham	هام
Carlton-House	كارلتن هوس	Hamilton	هاملتن
Huchard	هوشار	Hobhouse	هيبوس
La Hogue	الهوغ	HudsonLowe	هدسن لو
Victor Hughe- nins	فيكتور هوغنان	Hernoux	هراو
Holland	هولاند	Hambourg	همبورغ
Hérode	هيرودس	Henry VIII	هنري الثامن
Hume	هيوم	Hrni IV	هنري الرابع



Wilks	ولكس	Warden	واردن
William III	وليم الثالث	Westermann	وستيرمان
Windsor	وندسور	Westminster	وستمستير
Edward Wyn iard	ادورد وينليارد	Wells	ولس
		Robert Wilson	روبرت ولسن

— ٤٧٢ —

ى

Saint-Jean

القديس يوحنا

Jaffa

Joachim

يافا

بواكيم

شرعنا في اعداد تاريخ الامبراطور نابوليون الثالث وسيمع في مجلدين
كبيرين يبلغ عدد صفحاتهما نحو ثمان مئة

فهرست الجزء الثالث

١	كلمة المؤلف
	الفصل الاول - سقوط نابوليون وتنازله عن الملك - استعظام
٢	البوربون - وداع فنتنبلو - الشخصيات الى جزيرة البيا
	الفصل الثاني - الوصول الى برنو فراجو - الاقامة في جزيرة البيا
	العودة الى فرنسا - النزول في كان - الزحف الى باريس
١١	بانتصار - ٢٠ مارس سنة ١٨١٥
٢٧	الفصل الثالث - المئة يوما
	الفصل الرابع - وصول نابوليون الى روشفور - رسالة الى الامير
	وكيل المملكة في بريطانيا العظمى - ركوبه متن الباير وفون
	وشخصه الى بريطانيا - تصرف الوزارة البريطانية نحوه
	معا كسة المواطف الودية التي ابدتها له الشعب البريطاني
	اعترض نابوليون على المسكن الذي عينته له الوزارة
	البريطانية - ركوبه متن الترمبلند وانطلاقه الى جزيرة
٤٥	القديسة هيلانة
	الفصل الخامس - السفر في البحر - الوصول الى جزيرة القديسة
٥٠	هيلانة - المقام في هذه الجزيرة حتى سفر لاس كاس
	الفصل السادس - هدمن لو - مقاومة نابوليون المستعمرة لمزاعم
	الحاكم المنكرة واعماله - اوجاع العاهل وانحطاط صحته
٥٨	اضطرار لاس كاس الى مفارقة نابوليون
٧١	الفصل السابع - ايام نابوليون الاخيرة ووفاته
٨٧	الفصل الثامن - في نقل رفات نابوليون الى فرنسا
١٠٣	الفصل التاسع - مناجاة نابوليون

ذيل الجزء الثالث

صفحة	
١١١	برنادوت واسرته
١١٧	نابوليون الاول وحرب روسيا
١٢٨	نابوليون الثاني أو ملك رومنة
١٤٢	فرنسا ونابوليون
١٤٤	مضرع مورات
١٤٩	اوجين بوهرنه
١٧٦	هرتس بوهرنه
١٨٤	الكردينال فش
١٩٠	نابوليون الحقيقي
٢٠٤	رأي اللورد روزبري في نابوليون بوناپرت
٢١٠	النفي
٢١٧	نابوليون والديمقراطية
٢٢٦	احاديث نابوليون
٢٥١	من مفكرات الدكتور انطومرخي
٢٧٥	وصية الامبراطور نابوليون الاول
٢٨٢	ولدان طبيعيين لنابوليون الاول
٢٨٥	كلمات مأثورة لنابوليون الاول
٣٠٨	خاتمة الكتاب
٣٠٩	جزيرة كورسيكا
٣٤٩	كورني
٣٥٧	اجاكسيو
٣٩٠	رأي في نابوليون بوناپرت
٣٩٩	جدول اسماء الاعلام في الجزء الثالث
٤١٦	فهرست الصور

فهرست الصور

الجزء الاول

نجاه صفحة

جلالة الملك فؤاد الاول	
محمو الامير فاروق	
اميرة بونا برت	١
لاتيسيا رامولينو	١٧
نابوليون في مدرسة بريان	٢٠
نابوليون ملازم في المدفعية	٢٨
نابوليون قائد جيش ايطاليا	٣٦
النصر يكلل نابوليون	٤٤
نابوليون على جسر (كوبري) اركول	٥٢
نابوليون عند سفره الى مصر	٦٠
نابوليون قائد جيوش الجمهورية	٦٨
نابوليون في المالميزون	٧٦
نابوليون قنصل أول	٨٤
لوسيان بونا برت امير كانينو	٩٢
يوسف بونا برت ملك اسبانيا	٩٢
جبروم بونا برت ملك وسنغاليا	١٠٠
لويس بونا برت ملك هولندا	١٠٠
يواكيم مورات ملك نابولي	١٠٨
المرشال ناي امير الموسكوف	١١٦
المرشال برنادوت	١٢٤
المرشال اوجرو دوق كستليون	١٣٢
المرشال ماسينا امير اسلنغ	١٤٠

تجاه صفحة

الجنرال مورو	١٤٨
الامبرال برويكس	١٥٦
تاليران امير بنينان	١٦٤
وليہ بت	١٧٢

الجزء الثاني

نابوليون الاول امبراطور	
الامبراطورة جوزفين	
نابوليون في ملابسه الامبراطورية	٢٠
حفلة تنميج نابوليون وجوزفين	٢٨
جواو دوق ابرلتس	٣٦
المرشال غوفيون سان سير	٤٤
الموسال فكتور دوق بلون	٥٢
المرشال لان دوق منتبلو	٦٠
المرشال دافو اميراهل	٦٨
المرشال ليفيفر دوق دنزيك	٧٦
نابوليون يوزع الرايات	٨٤
مرجة نابوليون	٩٢
معركة استرلتز	١٠٠
نابوليون وامبراطور النمسا	١٠٨
معركة ايانا	١١٦
نابوليون يزور ضريح فريدريك الثاني الكبير	١٢٤
معركة فريدلند	١٣٢
اجتماع الملوك الثلاثة	١٤٠
نابوليون يستقبل الملكة لويز البروسيمانية	١٤٨
الحرس الامبراطوري	١٥٦

تجاء صفحة

١٦٤	ديمقراطية نابوليون
١٧٢	نابوليون يزور مستشفى الاتقاليد
١٨٠	مقتلى لان
١٨٨	حركة وغرام
١٩٦	الاستيلاء على فيينا
٢٠٤	نابوليون يبحر في راتسن
٢١٢	مشهد الطلاق
٢٢٠	شارل الرابع وفردناند السابع في بايون
٢٢٨	تسليم مدريد
٢٣٦	مقابلة نابوليون لماري لويز في سواسون
٢٤٤	حفلة زواج نابوليون وماري لويز
٢٥٢	زواج نابوليون وماري لويز
٢٦٠	الامبراطورة ماري لويز
٢٦٨	الامبراطور والبابا في غنتنبلو
٢٧٦	حفلة عماد ملك رومانية
٢٨٤	ماري لويز وملك رومانية
٢٩٢	حلف المارشالية
٣٠٠	معركة روسيا
٣٠٨	معركة الموسكوفا
٣٢٤	دخول الفرنسيين الى موسكو
٣٣٢	نابوليون يغادر موسكو المحروقة
٣٤٠	معركة لتزن
٣٤٨	موت بونياتوسكى بعد معركة ليزينغ
٣٥٦	نابوليون وملك رومانية
٣٦٤	نابوليون في شتوبير
٣٧٢	تسار نابوليون عن العرش

تجاه صفحة

وداع فنتنبلو	٣٨٠
مؤعر فينا	٣٨٨
نابوليون في جزيرة البا	٣٩٦
قبعة نابوليون ورايته في جزيرة البا	٤٠٤
رجوع نابوليون من جزيرة البا	٤١٢
وداع الملك لويس الثامن عشر	٤٢٠
تمثال نابوليون في ميدان فندوم	٤٢٨

الجزء الثالث

تجاه صفحة

صورة مؤلف الكتاب	٠
نابوليون الثاني ملك روميا	٢٠
نابوليون في حديقة سان كلود ومعه اولاد مورات	٢٨
معركة سنة ١٨١٤	٣٦
هيكل المجد	٤٤
قبل معركة واترلو	٥٢
نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة	٦٠
معركة واترلو	٦٨
ولنتن في واترلو	٧٦
نابوليون في واترلو	٨٤
الحرس يعوتون ولا يستسلمون	٩٢
ارثور ولسلي دوق ولنتن	١٠٠
بلوخر	١٠٨
كبرن في واترلو	١١٦

نجاه صفحة

- ١٢٤ نابوليون يستسلم الى بريطانيا العظمى
١٣٢ ركوب نابوليون السفينة بلوغون
١٤٠ نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة
١٤٨ احد مناظر جزيرة القديسة هيلانة وجيمستون
١٥٦ الحثيم البريطاني بمنع نابوليون عن المرور في جزيرة القديسة هيلانة
١٦٤ نابوليون على مدكراته على لاس كاس الحدث
١٧٢ نابوليون على سرير الموت
١٨٠ سرير نابوليون النقال
١٨٨ قبر نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة
١٩٦ اوجين بوهرنه
٢٠٤ السفينة «البل بول» التي جلبت رفات نابوليون الى فرنسا
٢١٢ شارل بوناپرت والد نابوليون
٢٢٠ ضريح نابوليون في الامفاليد بباريس
٢٢٦ بيت بوناپرت في اجاكسيو بجزيرة كورسيكا

